سلسلة كتب
السيد الشريف الشيخ عبد القادر الجيلاني

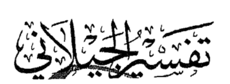
تفسير الجيلاني

السيد الشريف الشيخ محي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني
الحسني الحسيني
« قدس سره »

بحث وتحقيق
السيد الشريف الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني
الحسيني التيلاني الجمزرقي

الجزء الثاني

مركز الجيلاني للبحوث العلمية
اسطنبول


تفسير الجيلاني

المركز الرئيسي استنبول
مركز الجيلاني للبحوث العلمية والطبع والنشر
ت: ٠٠٩٠٢١٢٥١١٧٣٤٠
جوال: ٠٠٩٠٥٣٣٤٨٦٦٦١٠
E-mail: algeylani@msn.com

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م

يطلب من:

سوريا
هاتف: ٨٨٣٥١٥٥
جوال: ٠٩٩٩٨٩٩٧٤٦
دمشق ـ سوريا
enfo@windowslive.com

الإمارات العربية المتحدة
دار الفقيه
أبو ظبي ـ الأمارات
هاتف: ٢٦٦٧٨٩٢٠ ٩٧١+
فاكس: ٢٦٦٧٨٩٢١ ٩٧١+
E mail: alfaqih@emirates.net.ae

لبنان
شركة التمام
بيروت ـ لبنان
هاتف: ٧٠٧٠٣٩ ٩٦١+

مصر
دار الركن والمقام
مصر ـ القاهرة
هاتف: ٠٨١٤٤١٧٠ ٢٠١+
E mail: alrokn-walmaqam.com

سلسلة كتب

السيّد الشريف الشيخ

محيي الدين أبي محمّد عبد القادر الجيلاني الحسني الحُسيني

« قدّس سرّه »



تفسير الجيلاني

لمولانا ذي النور الرباني والهيكل الصمداني فذلكة طروس الدفتر النوراني

إمام العارفين .. تاج الدين .. القطب الكامل

السيّد عبد القادر الجيلاني (قدّس سرّه)

بحث وتحقيق

السَّيّد الشَّريف الدّكتور مُحمّد فاضل جيلاني الحسني

التيلاني الجمزرقي

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأنعام

لا يخفى على المستضيئين المستنيرين من أشعة نور الوجود اللائح من مشكاة العدم التي هي طلسمات التعينات والأظلال والهويات الظاهرة في عالم الكون والفساد، أن سر ظهور كمالات الوجود من العدم إنما هو لجلاء الوجود وصفائه، إلى حيث لم يدرك لو لم يكن في مقابلته مرآة مجلوة يتراءى فيها ما انعكس منه، ولم يكن له مقابل غير العدم، لذلك ما انعكس كمالاته إلا منه، والمحجوب المقيد بسجن الطبيعة ما يرى الوجود والموجود إلا هذه العكوس المنعكسة في سراب العدم من الأمواج الحادثة في بحر الوجود من التجليات الحبيبة، ولم يتفطن إلى مبدئها، ولهذا عدلَ عن طريق الحق، وضلَّ عن سواء السبيل، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

والمكاشِف المشاهد بنور الله، المستغرِق بمطالعة جماله، لا يرى في الوجود إلا هو، وكلما ظهر في العالم الصوري من الآثار فمن تجلياته المنتشئة من أوصافه الذاتية، وتطورات أسمائه الكمالية الجمالية والجلالية، وسر التكاليف الموردة في الكتب الإلهية والآثار النبوية إنما هو للتحقق والتقرب إلى ما عليه الوجود الحقي، من الاعتدال والاستواء الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ....

لذلك ألهم سبحانه خُلَّص عباده الذين تحققوا بوحدة الوجود، وانكشفوا بنوره المستقل، أن يواظبوا على حمده وثنائه دائماً مستمراً؛ ليتمكنوا بمقام الشكر الذي هو أعلى مقام العارف بالله، إذ الشكر إنما يحصل بقدر رفع حجب التعينات رأساً، وذلك لا يكون إلا بالفناء فيه، ومتى فني فيه فقد تحقق بمقام الشكر، وينطلق لسان حاله ومقاله بشكر نعمه، ولهذا أخبر سبحانه تعليماً لعباده قائلاً متيمناً:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المستغني بذاته عن جميع الأكوان ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عليها بإفاضة نور الوجود من محض الجود والامتنان ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بإقدارها على مواظبة الحمد والثناء له أداءً لحق الإنعام والإحسان.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء المشعر بالإطاعة والانقياد المنبئ عن التعظيم والتبجيل الذاتي الصادر عن ألسنة جميع من يدخل في حيطة الوجود، المعترف بتوحيده سبحانه وتفريده استقلالاً ثابتاً ﴿لِلَّهِ﴾ المستقل بالألوهية، المتوحد في الربوبية، المستحق في العبودية، وكيف لا يستحق سبحانه مع أنه القادر ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ وقدّر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي أظهر علويات الأسماء والصفات وسفليات الطبيعة العدمية القابلة لانعكاس أشعة العلويات ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي أنشأ حجب التعينات ﴿وَٱلنُّورَ﴾ أي ظل الوجود المنبسط عليها ﴿ثُمَّ﴾ بعدما ظهر إشراق نور الوجود ولمع أضاء شمس الذات ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ أي ستروا بهويتهم الباطلة هويته

يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٖ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ وَأَجَلٞ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾

الحقيقية السارية في الآفاق أزلاً وأبداً ﴿يَعۡدِلُونَ ﴿١﴾﴾ يميلون وينحرفون عن طريق الحق جهلاً وعناداً.

وكيف تعدلون عن طريق الحق وتسترون هويته مع هوياتكم الباطلة أيها التائهون في تيه الضلال؟! إنه:

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي قدَّر وجودكم ﴿مِّن طِينٖ﴾ جماد قريب من العدم ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ﴾ وقدَّر ﴿أَجَلٗاۖ﴾ لحياتكم في النشأة الأولى ﴿وَأَجَلٞ مُّسَمًّى﴾ مقدَّر ﴿عِندَهُۥۖ﴾ لفنائكم فيه في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ﴾ بعدما علمتم وتحققتم منشأكم ونشأتكم الأولى ﴿تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾﴾ تشكّون في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ كيف تمترون وتشكون فيها مع أنه ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ القادر المتوحد المتفرد المتجلي ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ بالاستقلال والانفراد ﴿يَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ﴿٣﴾﴾ من خير وشر ونفع وضر في نشأتكم الأولى.

﴿وَ﴾ من أمارات كفرهم وسترهم أنهم ﴿مَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ﴾ عظيمة دالة على توحيد الحق بلسان رسولٍ من الرسل العظام ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ المتوحد بالربوبية ﴿إِلَّا كَانُواْ﴾ من غاية كفرهم وجهلهم ﴿عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤﴾﴾.

ومن غاية إعراضهم وإلحادهم عن طريق الرشاد.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾ ....

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ المطابق للواقع الذي هو القرآن الجامع ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بلسان مَن هو أعلى مرتبة ومكانة عند الله وأكمل ديناً وأقوم طريقاً فكذبوه واستهزؤوا به ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ وسيظهر لهم في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾ حين نزول العذاب عليهم في الدنيا بضرب الذلة والمسكنة والجزية والصغار، وفي الآخرة العذابُ والنكال المخلد.

﴿أَ﴾ يشكّون في نزول العذاب ويترددون و﴿لَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ من أهل القرون الماضية كعاد وثمود وغيرهما مع أنا ﴿مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي قدَّرناهم فيها قادرين على أمورٍ عظامٍ وآثامٍ جِسام ﴿مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ ولم نجعل في وسعكم من السعة وطول الملك والترفه والاستيلاء ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ المطر ﴿عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ مغزاراً كثيرة ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ﴾ دائماً متجدداً، وبالجملة أمهلناهم زماناً طويلاً متنعمين مترفهين ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾ بالمرة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي صدرت عنهم من تكذيب الأنبياء وما جاؤوا به وإفسادهم في الأرض بأنواع الفسادات ﴿وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾.

ولا تبال يا أكرم الرسل بتكذيباتهم واقتراحاتهم، ولا ترجُ منهم الإيمان

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

بك وبكتابك لأنهم من غاية انهماكهم في الضلال

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكَ كِتَٰبًا﴾ مكتوباً ﴿فِى قِرْطَاسٍ﴾ ورق ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ حين نزوله ﴿لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من خبث باطنهم وجهلهم الجبلي ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ عظيم ظاهر، لأن الورق لا تنزل من جانب السماء إلا بسحر. ﴿وَقَالُوا۟﴾ من غاية شقاقهم ونفاقهم معك: إن كان نبياً ﴿لَوْلَآ﴾ هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ ويصدّقه بنبوته فنصدّقه، قل لهم في جوابهم نيابة عنا: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا﴾ على مقتضى سنتنا في الأمم الماضية ﴿لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لتحقق أمر إهلاكهم البتة ﴿ثُمَّ﴾ بعد نزول الملك بل تعذبون كالأمم السالفة ﴿لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ ولا يمهلون ساعة ولينكرون ويعذبون البتة.

﴿وَ﴾ بعد ذلك أيضاً ﴿لَوْ جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الرسول المنزل إليهم ﴿مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي على صورته إذ لا يمكن لبشر أن يرى الملَك على صورته لمهابته، لذلك ما جاء جبريل على رسول الله ﷺ إلا على صورة دحية الكلبي، وأيضاً لم يمكنهم الاستفادة منه لعدم الجنسية ﴿وَ﴾ إن أنزلناه على صورة البشر ﴿لَلَبَسْنَا﴾ أي لخلطنا ﴿عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ ما يخلطون على أنفسهم من البشر لا يليق بالرسالة فلم يصدقوه أيضاً.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ ....

﴿وَ﴾ لا تغمم ولا تضطرب يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك واصبر على أذاهم فإنه ﴿لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فصبروا على ما كُذّبوا واستهزئوا ﴿فَحَاقَ﴾ وأحاط من الجوانب ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ فأُهلكوا واستؤصلوا بما استُهزئوا وإن أنكروا قصة هلاكهم...

فـ ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي مستقر الفراعنة والأكاسرة والقياصرة والخواقين معتبرين ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ الذين كذبوا الرسل عتواً وعناداً إلى حيث لم يبق من رسومهم وآثارهم وأظلالهم أصلاً مع أنهم كانوا أولي قوة وذوي بأس شديد.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل تبكيتاً وإلزاماً ﴿لِّمَن مَّا﴾ ظهر ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تصرفاً وتملكاً إيجاداً وإظهاراً وإعداماً وإفناءً ﴿قُل﴾ أيضاً أنت يا أكمل الرسل بعدما بُهتوا وتحيروا في الجواب: ﴿لِّلَّهِ﴾ المتوحدِ المتفرد بالتجلي والظهور والتصرف مطلقاً إذ ﴿كَتَبَ﴾ أوجب وألزم ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي ذاته حين كان ولم يكن معه شيء ﴿ٱلرَّحْمَةَ﴾ العامة أي التجلي باسم الرحمن على عروش ذرائر الأكوان المنعكسة من أوصافه الذاتية، والله ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾

﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ ....﴾

أيها العكوس والأظلال بمقتضى اسم الرحيم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي هي الطامة الكبرى المرتفعة فيها نقوش الغير والسوى مطلقاً ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ﴾ أي في جمعه ورفعه عند أولي البصائر المتأملين في سر الظهور والإظهار، وأما ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ باقتصار النظر في هذه الأظلال والتماثيل الزائفة الزائلة التي لا قرار لها ولا مدار للذاتها وشهواتها ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ بالرجوع إلى ما في التوحيد ومقر التجريد والتفريد، أولئك هم الظالمون في تيه الحرمان، الباقون في ظلمة الإمكان.

﴿۞ وَ﴾ كيف ينكرون جمعه وتوحيده مع أنه ﴿لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿مَا سَكَنَ﴾ وبطن ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي مرتبة الباطن والغيب ﴿وَ﴾ ما ظهر وانكشف في ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ أي مرتبة الظاهر والشهادة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل ما سمع ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾ لكل ما علم وأدرك لا يخفى عليه شيء مما ظهر وبطن.

﴿قُلْ﴾ لمن أنكر توحيد الله وأثبت الشريك له ومع ذلك يرَّغبك يا أكمل الرسل إلى شركه إلزاماً وتبكيتاً: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له أصلاً ﴿أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ مولياً وكيلاً لأكون مشركاً مع كونه سبحانه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ أي يرزق للمحتاجين ﴿وَلَا يُطْعَمُ ۗ﴾ لتنزهه عن الأكل والشرب، خصّ بهذه

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ ....

الصنعة لأنه من أقوى أسباب الإمكان وأجل أمارات الحدوث وأظهرها والباقي متفرع عليه ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لكافة البرايا: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ﴾ من عند ربي ﴿أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أطاع وانقاد وأظهر التوحيد الذاتي وأدعو الناس إليه ﴿وَ﴾ أيضاً نُهيت أنا على وجه المبالغة والتأكيد من عنده سبحانه بقوله: ﴿لَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ المثبتين الوجود لغير الحق من الأظلال وبعدما أمرت مما أمرت.

﴿قُلْ﴾ لمن تبعك لعلهم ينتبهون: ﴿إِنِّيٓ﴾ بعدما تحققت بمقام الكشف والشهود ﴿أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ أي إن خرجت عن مقتضى توحيده ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ هو يوم العرض الأكبر الذي تجزى فيه كل نفس بما تسعى.

﴿مَّن يُصْرَفْ﴾ العذاب ﴿عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ الحق وحققه بمقام شهوده وكشفه ﴿وَذَٰلِكَ﴾ التحقق والانكشاف هو ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ لأهل العناية والوصول.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل وتقررت في مقر التوحيد ﴿إِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ بليّة وعناء ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا شيء غيره

وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ ....

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ عطية وغنى ﴿فَهُوَ﴾ أيضاً منه لأنه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الخير والشر والنفع والضر ﴿قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ تحيط قدرته بجميع المقدورات.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون قديراً على كل ما أراد إذ ﴿هُوَ الْقَاهِرُ﴾ العزيز الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ يتصرف فيهم كيف يشاء ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ المتقن في تدبيراتهم ﴿الْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ بحوائجهم يعطيهم ما ينبغي لهم ويمنعهم عما يضرهم بالإرادة والاختيار.

وإن جادلوك واستشهدوا منك شهيداً على نبوتك ورسالتك ﴿قُلْ﴾ لهم إلزاماً وتبكيتاً: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ﴾ وأتم ﴿شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ لأن المتعين المتعزز بالعظمة والكبرياء هو ﴿شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَ﴾ شهادته على أنه ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْءَانُ﴾ الجامع للكتب السالفة من عنده ﴿لِأُنذِرَكُم﴾ وأُبشِّركم ﴿بِهِۦ﴾ أيها الموجودون في حين نزوله ﴿وَ﴾ كذا ﴿مَنۢ بَلَغَ﴾ له خبرُ وحْيِه وحكمه من الأسود والأحمر إذ أُرسلتَ إلى كافة البرية بشيراً ونذيراً على مقتضى التوحيد الذاتي ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿لَتَشْهَدُونَ﴾ بعد وضوح البرهان ﴿أَنَّ مَعَ اللَّهِ﴾ المتوحد بذاته، المستقل بالألوهية ﴿ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾ مشاركة له في ملكه ووجوده ﴿قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ ما تشهدون ظلماً وزوراً

قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ....

بل ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ متفرد بالألوهية، متوحد بالربوبية، ليس لغيره وجود حتى يشارك معه، بل لا موجود إلا هو، ولا إله سواه ﴿وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ إليه من الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة. ثم قال سبحانه:

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي [سيدنا] محمد ﷺ بحليته وأوصافه المذكورة في كتبهم ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ بلا شائبة شكٍ ووهمٍ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ من أهل الشرك والتحريف ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ به وبنبوته ورسالته عناداً ومكابرة.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ عند الله وأوجب للبطش والانتقام ﴿مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وحرف كتابه عناداً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ المنزلة على رسوله المبينة لطريق توحيده مكابرة بلا سند ودليل ومع ذلك يطلبون ويتوقعون الفوز والفلاح مِن عِندِه سبحانه ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ الخارجون عن مقتضى العقل والنقل، التاركون متابعة من أيده الحق وأرسله إلى الخلق لإشاعة توحيده وتبليغ أحكامه اللائقة بوحدة ذاته وإزاحة الشرك وإزالته بالمرَّة.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ ونجمعهم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ استهزاءً وتفضيحاً لهم على رؤوس الملأ:

أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ ....

﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أنهم آلهة مستحقة للعبودية والإيمان، وتعتقدون أنهم يشفعون لكم وينقذونكم من العذاب ؟ ادعوهم لينقذوكم!

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما سمعوا ما سمعوا ﴿لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ وحيلتهم للخلاص ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ معتذرين مقسمين: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا﴾ أنت يا مولانا ﴿مَا كُنَّا﴾ في أنفسنا ﴿مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ لك غيرك عابدين لسواك.

﴿ٱنظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ﴾ في مقعد الصدق ومحل اليقين ﴿وَ﴾ انظر كيف ﴿ضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ من الشركاء الذين يعتقدونهم شفعاء عند الله يخلصونهم من عذاب الله.

﴿وَ﴾ كان ﴿مِنْهُم﴾ أي من هؤلاء المشركين المعتذرين ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ﴾حين تتلو القرآن ولم يفهموه أنكروه واستهزؤوا به ﴿وَ﴾ كيف يفهمونه إذ ﴿جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أغطية وأغشية كراهة ﴿أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ يمنع عن استماعه ﴿وَ﴾ من غاية إنكارهم وعنادهم ﴿إِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ دالةٍ على توحيد الحق وتمجيده ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ﴾ عناداً ومكابرة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ﴾ من إفراط عتوهم ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ في آيات الله بما لا يليق بها حيث ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ ستراً للحق وترويجاً للباطل: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ ما هذا الكلام الذي أتى به

إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ ....

[سيدنا] محمد ﷺ ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يسطِّرونها لتضليل ضعفاء العوام.

﴿وَهُمْ﴾ بهذا الطعن والقدح ﴿يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أي يقصدون إضلال المؤمنين المسلمين عن متابعة الرسول والإيمان به ﴿وَ﴾ هم في أنفسهم ﴿يَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ﴾ أي يبعدون عنه عتواً وعناداً ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ﴾ أي ما يهلكون بهذا التضليل والخداع ﴿إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ أنَّ ضررَ إضلالِهم وخداعِهم لا يتجاوز عنهم؛ لأنهم هم ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُوا۟﴾ أي حين أشرفوا ﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ وتحققوا الوقوع والإيقاع فيها عنوة وعنفاً لرأيت أمراً فظيعاً فجيعاً ﴿فَقَالُوا۟﴾ حينئذٍ من غاية تفزعهم وتفجعهم متمنين: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ على أعقابنا التي كُنَّا فيها ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ التي جئنا فيها فكذبناها ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ المصدِّقين بمن جاءنا بها.

﴿بَلْ بَدَا﴾ وظهر ﴿لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ﴾ حقية الرسل والكتب عناداً واستكباراً فتمنوا حين اليأس والبأس ضجراً لا عزماً صحيحاً حيث لو ردوا لآمنوا البتة بل ﴿وَ﴾ الله ﴿لَوْ رُدُّوا۟﴾ أي لو فُرِضَ رَدُّهم إلى الدنيا بعد وقوعهم

لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ ....

على أهوال الآخرة ﴿لَعَادُواْ﴾ من خباثة طينتهم ﴿لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أيضاً مكابرة وعناداً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِنَّهُمْ﴾ في هذا التمني أيضاً ﴿لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ البتة لكون جبلتهم وأصل فطرتهم على الكذب لا يزول عنهم أصلاً.

﴿وَ﴾ كيف لا تكونون مجبولين على الكذب والعناد إذ هم ﴿قَالُوٓاْ﴾ من خبث باطنهم حين دعاهم الرسل عليهم السلام إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ﴿إِنْ هِيَ﴾ أي ما الحياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي التي كُنَّا عليها فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ كما زعم هؤلاء السفهاء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي ﴿إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ أي حين وقفوا وصُفوا عند ربهم ليحاسَبوا بما عملوا لرأيتهم حيارى سكارى مضطرين مضطربين ﴿قَالَ﴾ لهم سبحانه من وراء سرادقات العز والإجلال: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ﴾ أيها الحمقى الكاذبون المُكذِّبون ﴿قَالُواْ﴾ بعدما كوشفوا وعوينوا معتذرين متفجعين مصدقين مقسمين: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ آمنا وصدقنا ﴿قَالَ﴾ سبحانه: الآن لن ينفعكم الإيمان ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ وتكذبون به في النشأة الأولى التي هي دار الفتنة والاختبار.

ثم قال سبحانه تقريعاً وتوبيخاً لهم:

﴿قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ مع نزول الآيات الدالة عليه

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا وَهُمۡ يَحۡمِلُونَ أَوۡزَارَهُمۡ عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ

وإرشاد الرسل والأنبياء والأولياء لهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ المعدة للعرض ﴿بَغۡتَةٗ﴾ فجأة ﴿قَالُواْ﴾ بعدما انكشفوا به وتيقنوا له متحسرين خائبين خاسرين ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ كلمة تحسر وتأسف ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ أي في النشأة الأولى من التكذيب وعدم الإيمان ﴿وَهُمۡ﴾ في تلك الحالة ﴿يَحۡمِلُونَ﴾ وبال ﴿أَوۡزَارَهُمۡ﴾ وآثامهم ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِمۡۚ﴾ خائبين خاسرين محرومين عن مطالعة وجه الله الكريم ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ في الدنيا ويُحرمون بها في العقبى عن لقاء المولى.

﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ﴾ التي يحصرون[1] الحياة عليها ويُحرمون من الحياة الحقيقية لأجلها ﴿إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ يلعب بهم ويلهيهم ويشغلهم عن الحياة الأبدية[2] والبقاء السرمدي ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ وجناتها الحقيقية ولذاتها المعنوية ﴿خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ عن محارم الله ومنهياته في الحياة الصورية[3] ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وتميزون أيها العقلاء بين الحياتين، ولا تعلمون أي اللذتين خير لكم.

ثم قال سبحانه:

﴿قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ﴾ الشأن ﴿لَيَحۡزُنُكَ﴾ ويؤذيك القول ﴿ٱلَّذِي يَقُولُونَ﴾ في حقك أولئك المعاندون المكابرون من أنك ساحر كاذب مجنون شاعر وغيرها،

(١) في المخطوط (يحضرون).

(٢) في المخطوط (عن الحياة الأبدي).

(٣) في المخطوط (في الحياة الصوري).

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ ....﴾

ولا تبال بهم وبقولهم ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ في الحقيقة ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن حدود الله، المنصرفين عن مقتضى أحكامه ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزلة عليك من عنده لإهداء التائهين من عباده ﴿يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ينكرون ويعاندون جحوداً وإصراراً، وبالجملة فاصبر على أذاهم يا أكمل الرسل إلى أن يحل عليهم الغضب من الله المنتقم المقتدر.

﴿وَ﴾ الله يا أكمل الرسل ﴿لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مثل ما كُذبت ﴿فَصَبَرُوا۟﴾ وتحملوا ﴿عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ الذي وعدناهم فنصرناهم وانتقمنا من عدوهم فكانوا هم الغالبين ﴿وَ﴾ بالجملة لا تيأس من نصر الله وتأييده بإمهال الله إياهم إذ ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ التي سبقت منه سبحانه لنصر أنبيائه ورسله ﴿وَ﴾ كيف تيأس وتقنط ﴿لَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ ما يكفيك عن التردد فيه.

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ﴾ وشق ﴿عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ عن الإيمان والانقياد لك ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ﴾ من غاية حرصك لإيمانهم وانقيادهم ﴿أَن تَبْتَغِىَ﴾ وتطلب ﴿نَفَقًا﴾ منفذاً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا﴾ مرقاة ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ فافعل ﴿فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ﴾ دالة على إلجائهم إلى[1] الإيمان، وإلا فاصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده وما لك

---

(١) في المخطوط (على).

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ ....

إلا التبليغ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ بأن الأمور كلها بيد الله واختياره، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تحرص على إيمانهم وهدايتهم، ولا تجهد فيما لا يسع فيه جهدك وسعيك لأنك لاتهدي من أحببت، هذا تأديب من الله لرسوله وأمثال هذا في القرآن كثيرة.

وكيف تطلب إيمانهم وتتوقع هدايتهم أيها الرسول الداعي مع أن الداعي:

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ الدعوة عن رضى، ويلقون السمع وقلوبهم حاضرة بفهمها وهم في أنفسهم طالبون الحياة الحقيقية ﴿وَ﴾ هؤلاء ليسوا من الطالبين بل هم ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حقيقة وإن كانوا أحياء صورة ﴿يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ في يوم الحشر ويحييهم بالحياة الحقيقية حتى يطلعوا على ما فاتهم في الحياة الصورية، ولا تنفعهم تلك الحياة والاطلاع إلا الحسرة والندامة على ما فات عنهم في دار العمل والاختبار ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أحياهم وأطلعهم، ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يُساقون لجزاء ما عملوا في الدنيا من تكذيب الآيات والرسل والاستهزاء معهم والذب[1] عنهم.

﴿وَ﴾ من غاية بغضهم وعنادهم وبغضهم معك يا أكمل الرسل ﴿قَالُوا۟﴾ أي بعضهم لبعض: إن كان محمد ﷺ نبياً ﴿لَوْلَا﴾ هلّا ﴿نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾

---

(١) أي ودفعهم.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾

أي آية اقترحناها منه وآية تلجئنا إلى الإيمان به أو آية تستأصلنا بالمرة مع أن دعواه أن ربه يقوى ويقدر على جميعها ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿قَادِرٌ﴾ بالقدرة التامة الكاملة ﴿عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ من آية اقترحتموها متى تعلقت إرادته ومشيئته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٧﴾ أن الله فعال لما يريد وأن الله لو أنزلها نزَّل عقبها عليهم البلاء كما نزَّل على الأمم الماضية.

﴿وَ﴾ كيف لا يقدر سبحانه على جميع المرادات والمقدورات مع أنه ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تتحرك ﴿فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ﴾ في الجو ﴿بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ محفوظة أحوالها وأرزاقها وآجالها عندنا بحيث لا نهمل شيئاً من حوائجها، بل نكتب ونثبت في لوحنا المحفوظ وكتابنا المبين على التفصيل بحيث ﴿مَّا فَرَّطْنَا﴾ وأفرطنا ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ من حوائجهم وأحوالهم ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما حفظوا ورزقوا كل منهم ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ۝٣٨﴾ يرجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على قدرتنا الكاملة ﴿صُمٌّ﴾ عن استماع كلمة الحق من ألسنة الرسل ﴿وَبُكْمٌ﴾ عن التنطق بها مع أنهم تيقنوا بها بل هم مغمورون ﴿فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ أي الحجب الناشئة من هوياتهم الباطلة

مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

وهياكلهم الفاسدة العاطلة ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ﴾ إضلاله بمقتضى اسمه المذل المضل ﴿يُضْلِلْهُ﴾ حتماً بلا هداية وإرشاد أصلاً ﴿وَمَن يَشَأْ﴾ هدايته ﴿يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ موصل إلى توحيده، إذ كل من عنده ميسر موفق لما خلق له.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح: ﴿أَرَءَيْتَكُمْ﴾ أي أخبروني صريحاً ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ﴾ في يوم الجزاء ﴿أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ التي تحشرون فيها إلى الله تعالى هائمين حائرين ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ المنقذ من العذاب والمنجي من الحيرة والهيمان ﴿تَدْعُونَ﴾ أم تدعونه تضرعاً وتلجؤون نحوه استعاذة؟ بيّنوا إليَّ أمركم في حالة اضطراركم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾ في الأقوال والأخبار.

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾ إذ لا ملجأ ولا ملاذ حينئذ إلا هو ﴿فَيَكْشِفُ﴾ عنكم ﴿مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾ من الضرر والبلاء ﴿إِن شَآءَ﴾ أي إن تعلقت مشيئته وإرادته ﴿وَتَنسَوْنَ﴾ حينئذ ﴿مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ له من الأظلال الباطلة والتماثيل العاطلة، وقل لهم أيضاً: إذا سمعتم مآل أمركم وعاقبة حالكم وشأنكم فتضرعوا إلى الله في جميع أحوالكم، والتجئوا نحوه، ومع ذلك لم يقبلوا منك قولك ونصحك البتة لخبث باطنهم.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ....

﴿وَ﴾ اعلم أنا ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ رسلاً من مقام جودنا ولطفنا ﴿إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ وأيدناهم بآيات ظاهرة ومعجزات باهرة فكذبوهم ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ رجاء أن يتضرعوا إلينا ويلتجئوا نحونا فلم يتضرعوا ولم يلتجئوا.

﴿فَلَوْلَآ﴾ هلَّا ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ وما هي من عدم تأثرهم في البأساء والضراء بل يتأثرون منها ويزعجون ﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ﴾ أي حبّب وحسّن ﴿لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ من عدم المبالاة بآيات الله وتكذيب رسله والإعراض عن دينه.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ من البأساء والضراء ولم يتعظوا بها ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ﴾ ابتلاء وفتنة ﴿أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ نافع وخيّر وأمهلناهم عليها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟﴾ أُعجبوا ﴿بِمَآ أُوتُوٓا۟﴾ مترفهين متنعمين بَطرين مغرورين بالنعم ناسين المنعم بالمرة ﴿أَخَذْنَٰهُم﴾ بأنواع البلاء ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ متحسرون آيسون خائبون محرومون.

﴿فَقُطِعَ﴾ واستؤصل ﴿دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بحيث لم يُبقِ منْ خلفِهم

وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ....

من استخلفهم واستدبرهم ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ على هلاكهم واستئصالهم إلى حيث لم يُبقِ من شؤمهم على وجه الأرض.

﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل أيضاً للنصح لعلهم ينتهون: ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ أخبروني ﴿ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ ﴾ فأصمكم ﴿ وَأَبْصَٰرَكُمْ ﴾ فأعماكم ﴿ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ بغطاء الغفلة فلا تحسوا ولا تعلموا ولا تفهموا أصلاً ﴿ مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ الواحد الأحد القادر المقتدر ﴿ يَأْتِيكُم ﴾ ويرجعكم ﴿ بِهِ ﴾ أي بالمأخوذ ﴿ ٱنظُرْ ﴾ أيها الرائي ﴿ كَيْفَ نُصَرِّفُ ﴾ نكرر لهم ﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ ليتنبهوا تارة عقلاً وتارة تذكيراً وَعِظة وتارة عِبرة واعتباراً ﴿ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي ثم انظر كيف يعرضون عن جميعها من قساوة قلوبهم وخبث طينتهم.

﴿ قُلْ ﴾ لهم أيضاً: ﴿ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً ﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وأمارة ﴿ أَوْ جَهْرَةً ﴾ مع سبق المقدمات والأمارات ﴿ هَلْ يُهْلَكُ ﴾ أي من سنته سبحانه ما يهلك بأمثال هذا العذاب الفجائي أو الجهري ﴿ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ الخارجون عن مقتضى أوامر الله ونواهيه الجارية على ألسنة الرسل المؤيدين من عنده.

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ....

﴿وَ﴾ كيف لا نهلك الظالمين ولا نعذبهم إذ ﴿مَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ﴾ لمن آمن بنا وامتثل بأوامرنا واجتنب عن نواهينا ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ لمن لم يؤمن ولم يمتثل ولم يجتنب ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ منهم بعدما سمع الدعوة من ألسنة الرسل ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالإيمان والتوبة ما أفسد من قبل ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين وصولهم إلينا ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من سوء المنقلب والمآب.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا ولم يعملوا بمقتضاها ﴿يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي يحيطهم من جميع جوانبهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى أوامرنا ونواهينا.

﴿قُل﴾ لهم يا أكمل الرسل كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة تليينا لقلوبهم ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ أي جميع مراداته ومقدوراته ﴿وَلَآ﴾ أدعي أني ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي جميعه إذ هما مما استأثر الله به لا يحوم حوله أحد من خلقه ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿إِنِّى مَلَكٌ﴾ إذ أنا بشر من جنسكم بل أقول لكم ﴿إِنْ أَتَّبِعُ﴾ أي ما أتبع ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ من عنده لأبلغكم به وأخبركم عنه والهداية والضلال بيد الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وإن أنكروا لياقة البشر لوحي الله وإلهامه ﴿قُلْ﴾ لهم على سبيل الالتزام: ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾

ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ ....

عندكم البشر ﴿ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ عن مطالعة عجائب مصنوعات الحق وغرائب مخترعاته ﴿ وَٱلۡبَصِيرُۚ ﴾ المشاهِد المطالع لها ﴿أَ﴾ تشكُّون فيما بينهما من التفاوت ﴿فَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ وتتأملون حتى ينكشف ويتميز عندكم الحق الصريح من الباطل الزائل الزائغ.

﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ﴾ أي أنذر بما يوحى إليك يا أكمل الرسل ﴿ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ ﴾ مع كونهم معتقدين أن ﴿ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ ﴾ يولي أمرهم غيره ﴿وَلَا شَفِيعٞ﴾ يشفع لهم عنده حتى ينقذهم من عذابه ﴿ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ لكي يتقوا ويحسنوا العمل لرضاه.

﴿وَ﴾ بعدما أرسلناك يا أكمل الرسل لترويج الحق وتقوية أهله ﴿لَا تَطۡرُدِ﴾ لا تبعد من عندك ﴿ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ﴾ أي في جميع أوقات النهار ﴿ وَٱلۡعَشِيِّ﴾ أي في جميع أوقات الليل وبالجملة يستغرقون جميع أوقاتهم بالتوجه نحوه سبحانه إنما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بتوجههم غير أن يطالعوا ﴿وَجۡهَهُۥۖ﴾ الكريم بسبب ميلك إلى إيمان أهل الأهواء ومصاحبتهم ومجالستهم، مع أنهم ليسوا من أهل الفلاح ولا قابلين له بل ﴿مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم﴾ وإيمانهم ﴿مِّن شَيۡءٖ﴾ يعود إليه نفعه ﴿وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ﴾ وإيمانك ﴿عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ بل كل منك ومنهم مجزي بما عمل ومسؤول عما فعل ﴿فَتَطۡرُدَهُمۡ﴾

﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ ....

أي هؤلاء المؤمنين المريدين وجه الله[1] في جميع أوقاتهم وحالاتهم لأجل أولئك المنهمكين في الضلال ﴿فَتَكُونَ﴾ بواسطة طردهم وتبعيدهم ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٢﴾ الخارجين عن مقتضى العقل والشرع والمروءة.

روي أن قريشاً قالوا: لو طردت يا محمد هؤلاء السفلة أرادوا عماراً وصهيباً وسلمان وغيرهم جلسنا إليك وحادثنا معك فقال عليه السلام: «مَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِيْنَ».

قالوا: فأقمهم من مجلسنا إن جلسنا معك.

قال له عمر رضي الله عنه: لو فعلت حتى ننظر ماذا يصيرون.

فقَبِل ﷺ.

قالوا: فاكتب بذلك كتاباً فدعا بالصحيفة وبعليّ ليكتب، فنزلت[2]:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٍ﴾ أي مثلما فتنا بعض الناس ببعض في الأمور المتعلقة بمعاش الدنيا من المال والجاه والرياسة فتنّاهم في أمور دينهم أيضاً ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ من غاية استبعادهم واستحقارهم: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضعفاء الفقراء ﴿مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ﴾ قال سبحانه توبيخاً وتقريعاً لهم بل: هم أولئك الفقراء[3] الصابرون على بلاء الله، الشاكرون لنعمائه ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾ العالم بضمائر عباده ﴿بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾ الصابرين منهم ومنكم

---

(١) في المخطوط (المهدين وجه الله).

(٢) القصة مذكورة في الفتح السماوي ٢/ ٦٠٦.

(٣) في المخطوط (تلك الفقراء).

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ ....

أيها الشرفاء الكافرون لنعمه.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ويمتثلون بها بالغداة والعشي وهم يريدون وجهنا ﴿فَقُلْ﴾ لهم قبل تسليمهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المقبولون عند الله الراضون المرضيون وبشرهم بأنه ﴿كَتَبَ﴾ أي قضى وحبب ﴿رَبُّكُمْ﴾ لأجلكم ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ الشفقة والرحمة إلى حيث ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ به يسيء نفسه عند الله صادراً عنه ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ لا عن قصد وإصرار ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما علم وخامة عاقبته ﴿تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ واستغفر ربه ﴿وَأَصْلَحَ﴾ بالتوبة ما أفسد بالجهالة ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ يستر تلك المعصية عنكم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ يقبل توبتكم بسبب إخلاصكم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونوضّحُ ﴿ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ ليظهر طريق التوحيد ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ ويتميز ﴿سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ المنحرفين عن منهج الرشاد ومسلك السداد عن طريق أهل الحق.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمشركين الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿إِنِّى نُهِيتُ﴾ زجرت وصرفت بالدلائل القاطعة الدالة على توحيد الحق وبالكشوف

أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ....

والمشاهدات الواردة من عنده سبحانه، الصارفة عن الميل والتوجه إلى الغير والسوى مطلقاً ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتُسمُّون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ آلهة باطلة بأهويتكم الفاسدة ﴿قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ﴾ التي اخترعتموها من تلقاء أنفسكم وإن اتبعت بمتابعتكم تلك التماثيل العاطلة ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ ﴿وَ﴾ بعدما ضللت ﴿مَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أصلاً أي في شيء من الهداية كمثلكم.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ واضحة ﴿مِّن﴾ معرفة ﴿رَّبِّى﴾ وتوحيده ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ وبتوحيده وأشركتم له غيره واستوجبتم العقوبة العظيمة بشرككم ومع ذلك استهزأتم باستعجال العذاب ﴿مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ من العذاب والنكال ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا له باستعجال العذاب ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يقضي فيه ويدمغ الباطل ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ الحاكمين في الوقائع.

﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى﴾ وتحت قدرتي ومُكنتي ﴿مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ من نزول العذاب والعقاب ﴿لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي لأهلككم بالمرة وارتفع النزاع ﴿بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ولكن ليس لي هذه القدرة والمُكْنَة ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر

أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ

عباده ﴿أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ المستوجبين للعذاب والنكال بأخذهم بظلمهم تعلقت إرادته.

﴿۞ وَعِندَهُۥ﴾ وتحت قدرته وإرادته ﴿مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ ومقاليد السرائر والخفيات ﴿لَا يَعۡلَمُهَآ﴾ وأوقات ظهورها من الغيب إلى الشهادة ﴿إِلَّا هُوَۚ﴾ إذ هو المحيط بجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن علمه شيء، ثم لما كانت الأفهام قاصرة عن إدراك الغيب تنزل عن تلك المرتبة إلى ما هو أقرب إلى الأفهام فقال ﴿وَيَعۡلَمُ﴾ بعلمه الحضوري جميع ﴿مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾ من الكائنات والفاسدات وتنزّل منها أيضاً فقال: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ من أغصان الشجر ﴿إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ كيف ينزل ومن أين ينزل وإلى أين ﴿وَلَا حَبَّةٖ﴾ ساقطة ﴿فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي كموناتها وبروزاتها إلى أن تصل إلى مرتبتها الأصلية التي كانت عليها قبل سقوطها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ﴾ من الكوائن والفواسد ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٥٩﴾﴾ هو علمه الحضوري المتحد بعينه وذاته الظاهرة في نفسه المظهرة لنفسه، إذ لا هو إلا هو، ولا شيء سواه.

﴿وَ﴾ كيف يخرج عن حيطة علمه شيء من الكائنات والفاسدات إذ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم﴾ أي يغيب استعداداتكم ﴿بِٱلَّيۡلِ﴾ أي في مقر البطون

وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾

والغيب ﴿وَ﴾ في تلك المرتبة ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا جَرَحْتُم﴾ أي شيء كسبتم واكتسبتم باستعداداتكم ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ أي في فضاء الظهور والشهادة من المعارف والحقائق المقتضية للظهور والإظهار لو ظهرتم فيه ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ﴾ ويظهركم ﴿فِيهِ﴾ أي في فضاء الظهور والشهادة ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ عنده لاكتسابكم ما في استعدادكم ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقطاع الأجل المسمى ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿ثُمَّ﴾ بعدما رجعتم إليه ﴿يُنَبِّئُكُم﴾ يخبركم ويحاسبكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ وتكسبون في نشأة ظهوركم وشهادتكم من الأعمال الصالحة للقبول والفاسدة الموجبة للرد.

﴿وَ﴾ عليكم أيها الأظلال الهالكة أن لا تغفلوا عن مقتضيات توحيد الله ولا تخرجوا عن امتثال أحكامه الجارية على ألسنة رسله إذ ﴿هُوَ ٱلْقَاهِرُ﴾ القادر الغالب ﴿فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ الرقيب المحافظ لهم يحفظهم عما لا يعنيهم ﴿وَ﴾ من حفظه أنه ﴿يُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ من الملائكة يكتبون ويحصرون ما صدر عنكم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي الوقت الذي قدره الله لانقضاء الأجل المسمى ﴿تَوَفَّتْهُ﴾ أي وفّى عليه حسابه ﴿رُسُلُنَا﴾ أي الموكلون عليكم ﴿وَهُمْ﴾ أي الرسل ﴿لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ ولا يفرطون

ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ

أصلاً فيما صدر عنكم.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما وفى الرسل حسابكم ﴿رُدُّوٓاْ﴾ للجزاء ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الذي هو ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ العدل القائم بالقسط، العالم بجميع أحوال عباده ليجازي كلاً على مقتضى علمه وخبرته ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ والأمر والجزاء ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ لعباده، إذ لا يغيب عن حفظه شيء من أعمالهم.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي شدائدها وأهوالها حين ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا﴾ متضرعين معلنين ﴿وَخُفْيَةً﴾ مناجين مسرين قائلين: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ الله بلطفه ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الأهوال والمخاوف ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ لنعمه الصارفين لها إلى مقتضى ما أمره الحق ورضي عنه ﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ همٍّ وغمٍّ ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أنجاكم الله ﴿أَنتُمْ﴾ أيها المنهمكون في بحر الضلال ﴿تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ به ما لا وجود له من التماثيل وتكفرون نعمة العقل المفاض من عنده لتتنبهوا إلى توحيده.

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ﴾ المقتدر ﴿عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ نازلاً ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ مثل الرعد والبرق والصواعق الكائنة في الجو ﴿أَوْ﴾ حادثاً ﴿مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ مثل

أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ ....

الزلزلة والغرق وغير ذلك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ﴾ ويخلط عليكم أهواءكم ويجعلكم ﴿شِيَعًا﴾ فرقاً متخالفة متقابلة ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء ﴿انظُرْ﴾ أيها الرائي ﴿كَيْفَ نُصَرِّفُ﴾ نجدد ونكرر لهم ﴿الْآيَاتِ﴾ أي دلائل توحيدنا وشواهده ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ رجاء أن يتفطَّنوا إلى سرِّ توحيدنا وسريان هويتنا في مظاهرنا ومع ذلك لم يتنبهوا.

﴿وَ﴾ من عدم تفطنهم وتنبههم ﴿كَذَّبَ بِهِ﴾ أي بما جاء من عندنا إليك من الكتاب الجامع للكتب السالفة ﴿قَوْمُكَ﴾ يعني قريشاً ونسبوه لنا ما لا يليق بجنابنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ المطابق للواقع نزوله منا إليك ﴿قُل﴾ لهم في مقابلة تكذيبهم: ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ موكل لحفظكم ليحفظكم عما يضركم بل ما عليّ إلا البلاغ، والحفظ والوقاية بيد الله. واعلموا أن:

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ﴾ خبرٍ وآيات نازلة من الله ﴿مُّسْتَقَرٌّ﴾ مقر ومورد ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾ حين تقرُرِهِ ونزولهِ في مورده في الدنيا والآخرة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ بالطعن والتكذيب ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تصاحبهم واخرج من بينهم ﴿حَتَّىٰ﴾ لا تكون سبباً لاستهزائهم و﴿يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي غير القدح والطعن في القرآن

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ ....

﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ الخروج بعد وقوفك بأباطيلهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ والتذكر البتة ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ الطاعنين على الله بما لا يليق بجنابه.

﴿وَ﴾ إن اتفق مجالسة المؤمنين معهم أحياناً ﴿مَا﴾ يلزم ويعود ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن محارم الله ﴿مِنْ حِسَابِهِم﴾ الذين يحاسبون عليها ومعاقبون لأجلها ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ أي بشيء من الخطر والتزلزل ﴿وَلَٰكِن﴾ إن اتفق جمعهم لزمهم ﴿ذِكْرَىٰ﴾ والموعظة الحسنة الناشئة عن محض الحكمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ينتهون عما هم عليه من الاستهزاء والتكذيب تأثراً واستحياء.

﴿وَ﴾ إن لم يتأثروا ولم يستحوا ﴿ذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذين يدعون الهداية بسببه ﴿لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي ملعبة وملهىً ليس منه تأثر أصلاً بل يجرونه على طرف اللسان ويلقون على طرف التمام وكيف يتأثرون منه ولا يلعبون معه ﴿وَ﴾ إذ ﴿غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بحيث عَموا وصَموا عن الأمور الأخروية بالمرَّة ﴿وَ﴾ إن أردت أن تذكر بالقرآن ﴿ذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾ على من هو على خطر من الله مخافةَ ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ أي بتسلمه وتوقعه النفس

بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ....

العاصية إلى الهلاك الأبدي والبوار السرمدي ﴿ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ من العقائد الزائفة والمعاصي العائقة عن إقامة حدود الله إذ ﴿ لَيْسَ لَهَا ﴾ أي للنفس ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيٌّ﴾ يولي أمرها وينقذها من العذاب ﴿وَلَا شَفِيعٌ ﴾ يشفع لها عند الله لينجو من عذابه ﴿وَإِن تَعْدِلْ﴾ وتفد[1] ﴿كُلَّ عَدْلٍ ﴾ كل ما يفدى به من أمتعة الدنيا ﴿لَّا يُؤْخَذْ ﴾ ولا يقبل ﴿ مِنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المطرودون عن رَوْح الله هم ﴿ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ ﴾ سلموا نفوسهم إلى الهلاك ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ من شؤم نفوسهم من المعاصي تهيأ ﴿ لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ يحرق بطونهم عن مسرة المؤمنين ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ مؤلم عن مكانتهم عند الله ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي بسبب كفرهم وخروجهم عن حدود الله وإن ادعى المشركون حقية دينهم ويدعون المسلمين إليه.

﴿ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تعليماً لمن اتبعك: ﴿أَنَدْعُواْ﴾ ونعبد ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الخالق الرزاق الفاعل المختار ﴿مَا لَا﴾ يقدر على جلب ما ﴿ يَنفَعُنَا وَلَا﴾ على دفع ما ﴿يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ﴾ بعبادته ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ التي كنا عليه من الشرك والعصيان ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ بنور التوحيد والعرفان؟ ﴿كَا﴾ الشخص ﴿لَّذِي ٱسْتَهْوَتْهُ ﴾ أي ذهبت به ﴿ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ والأغوال وطرحه

(١) في المخطوط (ونقعد).

فِي ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ ....

﴿ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي المهاوي والمهامه ﴿حَيْرَانَ﴾ قلقاً حائراً تائهاً وكان ﴿ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ﴾ ورفقة ﴿ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ﴾ أي الطريق الواضح المستقيم صائحاً عليه قائلاً: ﴿ٱئْتِنَا﴾ حتى تهتدي إلى الطريق، ونحن فيها، لم يسمع كلامهم ولم يقبل قولهم واقتفى أثر الغول المغوي حتى يضل ويهلك ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده الذاتي ﴿هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي مقصور على الإسلام الموصل إليه ﴿وَأُمِرْنَا﴾ أيضاً من عنده بمقتضى توحيده الذاتي ﴿ لِنُسْلِمَ﴾ ونفوض جميع أمورنا ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ إذ هو مستقل بتربية مظاهره، لأنه لا يجري في ملكه إلا ما يشاء.

﴿وَ﴾ أُمرنا أيضاً ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأديموا الميل والتقرب نحوه ﴿ وَٱتَّقُوهُ ﴾ من سخطه وغضبه بارتكاب منهياته ﴿وَ﴾ اعلموا أنه ﴿هُوَ﴾ الموجد المظهر ﴿ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من العكوس والأظلال ﴿ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ ترجعون.

كيف لا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ أي أوجدهما وأظهرهما ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ على مقتضى الحكمة المتقنة التي ما ترى فيها من فطور وفتور ﴿وَ﴾ ذلك ﴿يَوْمَ﴾ حين ﴿يَقُولُ﴾ بعد تعلق إرادته ومشيئته

كُن فَيَكُونُۚ قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ۞ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ

بتكوينهما ﴿كُن فَيَكُونُۚ﴾ على الفور بلا تراخ ومهلة تنفيذاً لسرعة قضائه ﴿قَوۡلُهُ﴾ لإعدامها أيضاً في الساعة ﴿ٱلۡحَقُّۚ﴾ المطابق للواقع بلا تخلف ﴿وَ﴾ كيف يتصور التخلف في قوله إذ ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾ أي المظاهر كلها وله التصرف فيها بالاستقلال إيجاداً وإعداماً ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ لإعدام ما في الوجود وإفنائها إظهاراً لقدرته إذ هو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ وما يجري فيها ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ وما يترتب عليها ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ في إبداء مظاهره من الغيب ﴿ٱلۡخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ بما ترتب عليها في الشهادة بعد إعادتها.

﴿۞ وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك من المؤمنين وقت ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ حين تيقَّظ عن منام الغفلة وتنبَّه عن سِنَةِ النسيان ﴿لِأَبِيهِ﴾ المسمَّى ﴿ءَازَرَ﴾ العابد للأصنام ﴿أَتَتَّخِذُ أَصۡنَامًا﴾ تنحتها ﴿ءَالِهَةً﴾ مستحقة للعبادة قادرة للإيجاد والإعدام ﴿إِنِّيٓ﴾ بعدما تنبَّهت وتفطَّنت بعدم قابليتها للألوهية بل الإله لا بد أن يكون متصفاً بجميع أوصاف الكمال بلا تغيير وزوال وانتقال ﴿أَرَىٰكَ﴾ يا أبت ﴿وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾﴾ بعبادة هذه التماثيل الباطلة واعتقادها معبودات حقة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما نوقظه من منام الغفلة في أمر الأصنام

نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي

﴿نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي عجائبهما وغرائبهما المودعة فيهما ليتأمل فيها ويتفكر في تدبيراتها وتصريفاتها حتى ينكشف بمبدعها ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ في أمرها لا من المنتظرين المترددين المتخذين بعضها آلهة كعبدة الكواكب والمجسمة وغيرهما ﴿فَلَمَّا جَنَّ﴾ أظلم ﴿عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ﴾ استنار بنوره وانكشف عنه الظلمة بسببه وظنَّ أن انكشافه ذاتي مطلق دائم ﴿قَالَ﴾ على مقتضى ظنِّه به: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾ إذ هو نور يتجلى في الظلمة فيستحق الربوبية والعبودية ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ غاب وانمحق ﴿قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فكيف أعبده وأخص العبادة له، إذ الأفول والتغيير من أمارات الحدوث، والحادث لا يستحق العبودية ولا يليق بالألوهية.

﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا﴾ مبتدئاً في الطلوع منيراً، له إشراقٌ وإضاءة وانكشاف خُيِّله إذ هو وحصره فيه ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ انمحق وانكسر ﴿قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي﴾ ولم يكشف عليَّ أمره ﴿لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ باعتقاد إلهية هذا البازغ الآفل ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ﴾ قاهرة لجميع الكواكب مضيئة بنفسها مشرقة بجميع ما ظهر عليها بحيث لا يُنمحى انكشافُها بسائر الكواكب أصلاً ﴿قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ إذ هو أتم انكشافاً

هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ....

وأكمل إضاءة وإنارة ﴿هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ﴾ من الجميع فهي المستحق بالألوهية والربوبية ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ﴾ وتغيرت، انكشف إلى نور لا أفولَ له ولا تغيير، بل هو نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي﴾ بعدما كُوشفتُ بنورِ الحقِّ وعُوينت بوجهه الكريم، تحققت بتوحيده وتمكنت بمقر تجريده وتفريده ﴿بَرِيٓءٞ مِّمَّا﴾ جميع ﴿تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾ به من التماثيل الباطلة والأظلال الهالكة الآفلة.

﴿إِنِّي﴾بعدما اجتهدت في طريق التوحيد وبذلت جهدي في مسالكه ﴿وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾ أيْ وجه قلبي الذي هو يلي الحق نحوه بتوفيق منه وجذب من جانبه وتوجهت ﴿لِلَّذِي فَطَرَ﴾ قدره وأظهره بلا مادة ومدة ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي العالم العلوي والسفلي ﴿حَنِيفٗاۖ﴾ مائلاً عن جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَ﴾ بعدما تحققت بما تحققت ﴿مَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ بإثبات الوجود لغير الحق بل الوجود منحصر به وما سواه أظلال أوصافه وعكوس تجلياته، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ﴾ أي خاصموا في توحيد الله وقالوا: أنترك ما يعبد آباؤنا بتسويلات نفسك يا إبراهيم؟ ﴿قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي﴾ وتخاصموني ﴿فِي﴾ حق

ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ....

﴿ٱللَّهِ﴾ وتجادلونني في توحيده وتخوفونني بهذه التماثيل الزائفة؟! ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ هَدَىٰنِۚ﴾ بلطفه إلى مقر توحيده ﴿وَ﴾ بعد ما كوشفت بتوحيد الله واستقلاله بالتصرف في مظاهره ﴿لَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ إذ لا نفعَ منه ولا ضرَّ ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ﴾ مكروهاً يلحقني من جهتها لأنه من جملة مظاهره إذ ﴿وَسِعَ﴾ وأحاط ﴿رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ وتتفكرون لتميِّزوا بين المظهر والظاهر، والعاجز والقادر.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ﴾ من ﴿مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾ مع أنه لا ضرر يتوقع منه ﴿وَلَا تَخَافُونَ﴾ أنتم من غضب الله مع ﴿أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ المتوحد بالألوهية المنزَّه في ذاته عن الشريك والنظير ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ﴾ الله ﴿بِهِۦ﴾ بشركته ﴿عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ﴾ حجة وبرهاناً ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي الموحدون أو المشركون ﴿أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ﴾؟ بيِّنوا ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي من ذوي العلوم والعقول.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله ﴿وَ﴾ بعدما آمنوا ﴿لَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أي لم يخلطوا ولم يستروا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بخروجٍ عن مقتضى الإيمان والتوحيد

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤﴾ ....

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ في مأمن التوحيد ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ مقصورون على الهداية لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿وَتِلۡكَ﴾ القصة التي سمعتَ ﴿حُجَّتُنَآ﴾ ودليل توحيدنا ﴿ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ امتناناً له وإرشاداً ليغلب بها ﴿عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ ومن سنتنا أنا ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ من عبادنا في العلم والحكمة والإيقان والمعرفة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ أيها المظهر الجامع ﴿حَكِيمٌ﴾ في رفع درجات بعض عباده ﴿عَلِيمٞ ٨٣﴾ باستعداداتهم وقابلياتهم

﴿وَ﴾ من رفعنا إياه ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ﴾ من محضِ فضلنا وجُودِنا ﴿إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ﴾ أي هدينا كلاً منهما إلى توحيدنا ﴿وَ﴾ كذلك ﴿نُوحًا﴾ هو جد إبراهيم ﴿هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ﴾ فيكون إبراهيم وارثاً لهداية نوح وموراثاً لهداية إسحاق ويعقوب وهو من أعظم النعم والهداية ﴿وَ﴾ كذا ﴿مِن ذُرِّيَّتِهِۦ﴾ أي من ذرية إبراهيم ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل جزاء هؤلاء ﴿نَجۡزِي﴾ جميع ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٤﴾ مع الله المتشوقين بلقائه.

وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ .....

﴿وَ﴾ هدينا أيضاً ﴿زَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ﴾ وَ﴿كُلٌّ﴾ منهم ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ لعناية الله وهدايته.

﴿وَ﴾ أيضاً هدينا من ذرية إبراهيم ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿فَضَّلْنَا﴾ بالنبوة والحكمة ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي على الناس الموجودين في زمانهم.

﴿وَ﴾ كذلك ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ﴾ ممن لم يبلغْ مرتبةَ النبوة والحكمة فضَّلنا عليهم بأنواع النِّعم ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ﴾ وانتخبناهم من بين الناس ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ موصل إلى توحيدنا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي سبب تقرب هؤلاء الكرام ﴿هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي هدايته وعنايته تفضلاً عليهم وامتناناً ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ إرادة واختياراً ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟﴾ بالله، هؤلاء المهديون بأن أثبتوا الوجود لغيره ﴿لَحَبِطَ﴾ واضمحل وضاع ﴿عَنْهُم﴾ ثواب ﴿مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ من الخيرات والمبرات وكانوا في حبوط الأعمال كسائر المشركين، نعتصم بك من إنزال قهرك يا ذا القوة المتين.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ....

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الأمناء ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الجامع المبين لهم طريق تهذيب الظاهر والباطن ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ الفارق بين الحق والباطل في الوقائع على مقتضى الحكمة الإلهية ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ والرسالة المقتضية لإهداء التائهين في بيداء الغفلة والضلال إلى طريق التوحيد ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المضلون عن طريق الحق يعني قريشاً ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا﴾ وبمراعاتها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ من أهل العناية والتوفيق.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المذكورون من الأنبياء هم ﴿ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ إياهم إلى توحيده تفضلاً عليهم ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ إذ مقصد أهل التوحيد واحد وإن كانت الطريق مختلفة متفاوتة ﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل لمَن بُعثتَ إليهم[1] كلاماً صادراً عن محض الحكمة إشفاقاً لهم: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ ولا أطمع منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على تبيين طريق التوحيد وتبليغ أمر الحق ونواهيه ﴿أَجْرًا﴾ جُعلاً ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما الغرض من التبيين والتبليغ ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ وموعظة ﴿لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ كي ينتبهوا على مبدئهم ومعادهم وما جُبلوا أو خلقوا لأجله.

﴿وَ﴾ القوم الذين[2] أنكروا بعثك وكذّبوا موعظتك ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾

---

(١) في المخطوط (يا أكمل الرسل بعثت إليهم).

(٢) في المخطوط (الذي).

﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ ....

أي ما عرفوا ظهوره في الآفاق واستقلاله بالتصرف فيها ﴿إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ﴾ لهم تبكيتاً وإلزاماً: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة ﴿ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ من عند ربه وكان ﴿نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ﴾ يستنيرون ويستكشفون منه ويهتدون به إلى توحيد الله مع أنكم ﴿تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ﴾ وكانت ألواحاً ﴿تُبْدُونَهَا﴾ أي تُظهِرون منها ما يصلح لكم ويعين على مدعاكم ﴿وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ﴾ مما لا يصلحكم عناداً ومكابرة ﴿وَ﴾ كيف تنكرون إنزاله إذ ﴿عُلِّمْتُم﴾ منه ﴿مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ﴾ من الأمور المتعلقة بالظاهر وبالباطن ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل في الجواب بعدما بُهتوا: ﴿ٱللَّهُ ۖ﴾ إذ هو المتعين للجواب ولا شيء غيره ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ أباطيلهم وأراجيفهم ﴿يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ يترددون فلا عليك بعد التبليغ والتبكيت.

ثم قال سبحانه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ جامعٌ لما في الكتب السالفة على أبلغ وجه وآكده مع زيادات شريفة ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ إليك يا أكمل الرسل ﴿مُبَارَكٌ﴾ كثير الخير والبركة لك ولمن تبعك ﴿مُّصَدِّقُ﴾ للكتاب ﴿ٱلَّذِى﴾ أحكامه ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي التوراة والإنجيل وجميع الكتب النازلة من عند الله وإنما أنزلناه ﴿وَلِتُنذِرَ﴾ به ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أي أهل مكة ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾ أي جميع أقطار

وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ....

الأرض إذ دُحيت الأرضُ من تحتها على ما قيل لذلك صار قبلة لجميع أهل الأرض، وفرض حجها وطوافها ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ من أهل الكتاب ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ﴿وَ﴾ سبب إيمانهم أنه ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ أي يراقبون ويداومون على الميل والتوجه نحو الحق بجميع شؤونه وتجلياته ومن جملتها بل من أجلّها: إنزال القرآن البالغ على درجات اليقين في تبيين أحوال النشأة الأولى والأخرى، إذ هو منتخب منهما على وجه يعجز عنه أرباب اللُّسن من البشر ومن له أدنى مسكنة من ذوي العقول لا بد أن يؤمن به وبإعجازه إلا من أضله الله وختم على قلبه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن قال بعثني الله نبياً كمسيلمة والأسود العنسي ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ كعبد الله بن أبي سرح ﴿وَمَن قَالَ﴾ من كفار قريش: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ولو نشاء لقلنا مثل هذا ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المفترون على الله المكذبون لكتبه ورسله ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ وسكراته وأهواله ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ قائمون عليهم ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ كالمتقاضي قائلين لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أيها المفترون الكاذبون بأيديكم حتى تخلّصوا عن أيدينا واعلموا

ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ

أنَّ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ المشتمل على الهوان والمذلة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ عتواً وعناداً.

﴿وَ﴾ الآن ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ عارين منفردين عما استكبرتم به من المال والجاه والرئاسة ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ عارية عن جميعها ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ ابتليناكم به في النشأة الأولى ليكون سبب خُيلائِكم وبطرِكُم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ﴾ معبوداتكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ﴾ أي في إيجادكم وإظهاركم ﴿شُرَكَٰٓؤُا۟﴾، من الآن ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ﴾ وانفصل ﴿بَيْنَكُمْ﴾ وبينهم ﴿وَضَلَّ﴾ أي غاب وتخفى ﴿عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أنها شفعاؤُكم ينقذُكم من عذاب الله.

قل يا أكمل الرسل للمنكرين البعث والحشر المستبعدين الممتنعين إحياء الأموات من العظام الرفات

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر على كل ما أراد وشاء ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي الحبة والنطفة ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي الحبة والنطفة ﴿مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي الحيوان والنبات ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ المحيي المميت الحي القيوم

فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ....

المستحق للألوهية وللعبودية والربوبية ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ تصرفون عنه إلى غيره من الأظلال الباطلة أيها الحمقى.

وكيف تصرفون عنه.

وهو ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي شاقُّ ظلام الليل ينبلج الصبح لتكتسبوا فيه أقواتكم ومعاشكم ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ﴾ سَكَناً لتستريحوا فيه من تعب الكد وهما من أقوى أسباب حياتكم ﴿وَ﴾ أيضاً جعل لكم ولمعاشكم ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ ذا أدوار وأطوار مختلفة وأوضاع متفاوتة شتاء وصيفاً ربيعاً وخريفاً تتميماً لأرزاقكم وأقواتكم ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ﴾ تدبير وتدوير ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القادر الغالب على جميع صور التدابير والتداوير ﴿ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ بنفع التدوير المخصوص والوضع المتعارف لمعاش عباده.

﴿وَ﴾ كيف تصرفون عنه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ لتدبير مصالحكم ﴿ٱلنُّجُومَ﴾ الزاهرات مرتكزة في السموات ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ وتوصلوا إلى مطالبكم بسببها حين كنتم تائهين ضالين ﴿فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ أي مفاوزه ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ أي لججه وبالجملة ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في التصرفات والتدبيرات الواردة في عالم الكون والفساد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ يستدلون وينتفعون بها ويتنبهون إلى وحدةِ مُوجدِها ومُصرِّفِها.

وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ

﴿وَ﴾ أيضاً كيف يُصرفون عنه سبحانه مع أنه ﴿هُوَ﴾ القادر ﴿ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم ﴾ وأظهركم بالتجلي الحبي ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هي طبيعة العدم ﴿ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ﴾ أي فكلكم أطوارٌ مختلفةٌ، وشؤونٌ متفاوتةٌ، لبعضٍ قرارٌ واستقرارٌ، ولبعضٍ استيداعٌ واستتارٌ، تتبدلون وتتحولون من حالٍ إلى حالٍ على مقتضى تطوراتها وتجلياتها ﴿قَدۡ فَصَّلۡنَا ﴾ وأوضحنا ﴿ ٱلۡأٓيَٰتِ ﴾ الدالة على أن لا وجود لغيرنا من الأظلال، والإقرار ولا مراد لها أصلاً ﴿ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ يتأملون ويتدبرون لينكشفوا بكيفية سريان الهوية الإلهية في المظاهر الكونية والكيانية.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ﴾ جانب ﴿ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ﴾ أي بالماء ـ التفت لئلا يُتوهم إسنادُ الإخراج إلى الماء ـ ﴿نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ نبت كل صنف من أصناف النباتات ﴿ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ﴾ أي من النبات ﴿خَضِرٗا﴾ وهو الساق ﴿نُّخۡرِجُ مِنۡهُ﴾ من الخضر ﴿حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا ﴾ وهو السنبلة ﴿وَ﴾ أخرجنا ﴿ مِنَ ٱلنَّخۡلِ﴾ طلعها ﴿مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ ﴾ عنقودٌ ﴿دَانِيَةٞ﴾ ملتفةٌ بعضها ببعض ﴿وَ﴾ أيضاً أخرجنا ﴿جَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَ﴾ كذا أخرجنا ﴿الزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ ﴾ من أشجارهما ﴿مُشۡتَبِهٗا﴾ بعضها ببعض ﴿وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ﴾ أي أنواع مختلفة

﴿انظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ ....

﴿انظُرُوٓاْ﴾ أيها الناظرون ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ أيِّ ثمرٍ كلٌّ من المذكورات ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ حين أُخرِج أولاً صغيراً بلا لذة وانتفاع ﴿وَ﴾ انظر إلى ﴿وَيَنۡعِهِۦٓ﴾ نضجه وبدوِّ صلاحه ونفعه وكبره قليلاً قليلاً ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ دلائل واضحات على وجود الفاعل المختار الحكيم، المتقنِ في فعله بلا مشاركة أحد وممانعة ضد وند، العليمِ الخبير بتطوراتها وتبدلاتها من حال إلى حال متدرجاً من كمال إلى أكمل، المربي لها في كل مرتبة بما يناسبها ويلائمها على الاعتدال إلى أن يعود إلى ما بدأ.

﴿وَ﴾ مع عجائب صنيعه وغرائب قدرته ﴿جَعَلُواْ﴾ من غاية جهلهم ونهاية غفلتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المنزه عن الشريك مطلقاً ﴿شُرَكَآءَ﴾ خصوصاً ﴿ٱلۡجِنَّ﴾ أي الشياطين فيعبدونهم كعبادة الله ويمتثلون أوامرهم كأوامر الله ﴿وَ﴾ الحال أنهم عالمون بأن الله تعالى قد ﴿خَلَقَهُمۡ﴾ ومعبوداتهم ﴿وَ﴾ من جملة شركهم أنهم ﴿خَرَقُواْ لَهُۥ﴾ أي أثبتوا له افتراء ومراء ﴿بَنِينَ﴾ كما قالت اليهود: عزير ابن الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله ﴿وَبَنَٰتِۢ﴾ كما قالت العرب: الملائكة بنات الله، كل ذلك صادرٌ منهم ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ﴾ ومعرفة بذاته المنزه عن الأهل والولد ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ هؤلاء الظالمون المفرطون إذ هو:

بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ....

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة وأزواج وأرواج، بل بالتجلي عليها ومدَّ الظل إليها ﴿أَنَّىٰ﴾ أي من أين ﴿يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ وليس غيره أحد ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ والولد إنما يتصور بين المتجانسين ﴿وَخَلَقَ﴾ أوجد وأظهر ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ بأظلال أوصافه الذاتية وعكوس شؤونه وتجليات الحبية ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما ظهر من تجليات صفاته ﴿عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ لا يخفى عليه شيء.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الذات الأحدية الموصوفة بالصفات الأزلية الأبدية السرمدية المتجلي بالتجليات اللطفية والقهرية ﴿رَبُّكُمْ﴾ ومربيكم أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ ولا موجود ﴿إِلَّا هُوَ﴾ وهو ﴿خَٰلِقُ﴾ ومظهرُ ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظهر من العكوس والأظلال ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ فهو المستحق للعبادة والرجوع، وفوضوا أموركم كلها إليه وكيف لا يفوضونها إليه ﴿وَهُوَ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الكوائن والفواسد الحادثة في مظاهره ﴿وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾ يوليها ويصرفها كيف يشاء حسب قدرته وإرادته.

وإن كان ﴿لَّا تُدْرِكُهُ﴾ من غاية ظهوره وجلائه ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ القاصرة

وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ ....

عن إبصار نوره ﴿وَ﴾ كيف تدركه الأبصار ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿يُدْرِكُ﴾ ويبصر ﴿ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ ومبصر الأبصار لا يبصره الأبصار ﴿وَ﴾ كيف يبصر ﴿هُوَ ٱللَّطِيفُ﴾ الرقيق المنزه عن المجازاة والمقابلة والانطباع والمحاكاة ﴿ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ هو كيف يخبر عنه.

وبالجملة: ما يرى الله إلا الله، وما يخبر عنه إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿قَدْ جَآءَكُم﴾ وحصل عندكم أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿بَصَآئِرُ﴾ شواهد وكواشف ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم وأظهركم عليها ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ شهد وانكشف بها ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي عاد نفعه إليها ﴿وَمَنْ عَمِىَ﴾ واحتجب ﴿فَعَلَيْهَا﴾ أي وبالها عائدٌ عليها ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ رقيب مصرف بل منبه مبلغ، والحفظ بيد الله، والتصرف بقدرته، يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

ثم قال سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك المذكور ﴿نُصَرِّفُ﴾ ونكرر ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على توحيدنا رجاء أن يتنبهوا فلم يتنبهوا ﴿وَ﴾ غاية أمرهم أنهم ﴿لِيَقُولُوا۟﴾ لك يا أكمل الرسل ﴿دَرَسْتَ﴾ تعلمتَ هذه الأساطير الكاذبة القديمة من

وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا ....

أهل الكتاب ﴿وَ﴾ مع كونه ما نصرفها ونكررها إلا ﴿لِنُبَيِّنَهُۥ﴾ ونوضحه إلى التوحيد الذاتي المدلول عليه بتصريف الآيات والدلائل ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ يستدلون بالدلائل القاطعة والبراهين الساطعة على وحدة الصانع الحكيم، وإن انصرفوا عنكم ولم يقبلوا منك ما جئت به من الآيات، اتركهم وحالهم.

﴿ٱتَّبِعْ﴾ أنت ﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن﴾ توحيد ﴿رَّبِّكَ ۖ﴾ بأن ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ أي لا موجود ﴿إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ واتركهم وشركهم بعدما تحققت وتمكنت في مقر التوحيد.

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده عدم إشراكهم ﴿مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ﴾ مصرفاً بل مبلغاً منبهاً ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ أيضاً ﴿عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ تشفع لهم وتقوم بأمرهم.

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟﴾ أي لا تذكروا بالمساوئ والمقابح أيها المؤمنون الموحدون أصنام ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ ويعبدون أي المشركون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إذ هم من جملة المجالي والمظاهر لله مع أنكم إن تسبوهم وآلهتهم ﴿فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ﴾ من غاية جهلهم وحميتهم فتكونوا سبباً لسبّ الله ﴿عَدْوًۢا﴾ تجاوزاً عن الحق إلى

بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا ....

الباطل ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ بمآله ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل تزييننا لكم دينكم وإلهكم وعملكم ﴿زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ ﴾ من الأمم ﴿عَمَلَهُمْ ﴾ وإلههم سواءً كان حقاً أو باطلاً، إذ كل حزبٍ بما لديهم فرحون ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي يجازيهم على مقتضى ما عملوا من خير وشر وإيمان وكفر.

﴿وَ﴾ من غاية نفاقهم واستهزائهم معك يا أكمل الرسل وتهكمهم بما جئت به من الآيات ﴿ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ﴾ أي مغلظين فيها مؤكدين لها تهكماً ﴿ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ ﴾ من مقترحاتهم ﴿ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ البتة وبك أيضاً ﴿قُلْ ﴾ لهم كلاماً خالياً عن وصمة الكذب: ﴿إِنَّمَا الْآيَاتُ ﴾ ونزولها وإنزالها ﴿عِندَ اللَّهِ ﴾ وبقبضة قدرته وليس في وسعي وطاقتي شيء منها ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ ﴾ ويظهر لكم أيها المؤمنون الطالبون لإيمان هؤلاء الكفرة وأنتم تتفرسون من مظاهر حالهم لو تأملتم في شأنهم ﴿ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ ﴾ جميع مقترحاتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ بها البتة، إذ طبع الله على قلوبهم بالكفر والنفاق.

﴿وَ﴾ كيف يؤمنون بها إذ ﴿ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ﴾ عن الميل إلى الحق مطلقاً ﴿وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ عن إحساس شواهده وعلاماته ﴿ كَمَا ﴾ قلبناها حيث

لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ....

﴿لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي بما جاء به من الحق ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إذ لا تفاوت بين حقِّية الآيات سواء كانت مقترحة أم لا ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ نمهلهم وندعهم ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ أي ضلالهم المجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ يتحيرون ويترددون إلى أن نأخذهم وننتقم منهم.

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ كما اقترحوا ﴿وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم وأوصاهم بالإيمان ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا﴾ كفلاً يرشدونهم إلى الإيمان ﴿مَّا كَانُوا۟﴾ ليؤمنوا، إذ ختم الله على قلوبهم بالكفر في سابق علمه ﴿لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إيمانهم أيضاً في قضائه السابق ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر الناس ﴿يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ عن قضاء الله ومشيئته فيتمنون إيمانهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي ومثل ما جعلنا لك يا أكمل الرسل عدوّاً ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ﴾ من الأنبياء ﴿عَدُوًّا﴾ يعاديهم ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ بالمظاهرة والمعاونة إذ ﴿يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي أباطيله وأراجيفه ﴿غُرُورًا﴾ ليقدموا ضعفاء الأنام على مخاصمة الأنبياء ومعاداتهم ويظهروا

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ ....

عليه بتغرير بعضهم ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ إيمانهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي هذا الغرور والقول المزخرف المموه وبالجملة ﴿فَذَرْهُمْ﴾ وكفرهم ﴿وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ ويزخرفون بسبب غرورهم وزخرفتهم.

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ﴾ ولتميل ﴿إِلَيْهِ﴾ وتتوجه نحوه ﴿أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ﴾ لأنفسهم ما يزخرفون به لكون جبلتهم عليه ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟﴾ ويكتسبوا بسببه ﴿مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ مكتسبون من العقائد الزائفة والآثام.

قل لهم إن أرادوا أن يتصالحوا ويتحاكموا معك بعدما ظهر لك تنسيبهم وتغريرهم إنكاراً عليهم:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ المستقل بالحكومة والتصرف ﴿أَبْتَغِى﴾ أطلب ﴿حَكَمًا﴾ عادلاً يفصل بيني وبينكم أيها المعاندون المكابرون ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ مبيناً موضحاً مغنياً عن التحاكم والترافع ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي علمه أن أنصفوا، ولم يعاندوا ولم يكابروا ﴿يَعْلَمُونَ﴾ يقيناً بشهادة كتبهم ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي القرآن ﴿مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بلا ميل إلى الباطل أصلاً ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ يا أكمل الرسل

مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ....

﴿مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ في أنهم عالمون بحقية القرآن وموافقته لكتبهم، إلا أنهم يكابرون في تحريف كتبهم ويعاندون بادعاء تكذيب القرآن ظلماً وعدواناً.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي انتهت وتناهت وبلغت الغاية القصوى بيان كلمة التوحيد برسالتك يا أكمل الرسل إذ ظهرت في تبيينها وكشفها بما لا يظهر به أحد من الأنبياء، إذ الأنبياء إنما يُظهِرون توحيد الصفات والأفعال دون توحيد الذات، وأنت تظهر به حيث ورد في شأنك: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ﴾، وقلتَ: «مَنْ رَآنِيْ فَقَدَ رَأَى الحَقَّ»[1]، وقلتَ أيضاً: «رَأَيْتُ رَبِّيْ فِيْ لَيْلَةِ المِعْرَاجِ»[2]، وغير ذلك من الآثار والأخبار الدالة على التوحيد الذاتي، لذلك أتممتَ مكارم الأقوال والأخلاق ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ ومتى تمت وبلغت ﴿لَّا مُبَدِّلَ﴾ ولا محول ﴿لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ إذ ختم وتم أمر الرسالة والنبوة وسد باب الوحي ﴿وَ﴾ بعد ذلك ظهر أنه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقواله ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ بشؤونه وتجلياته إلى ما شاء الله.

(١) حديث متفق عليه، صحيح البخاري [٦/ ٢٥٦٨رقم / ٦٥٩٥/ باب:رؤيا الليل] وصحيح مسلم [٤/ ١٧٧٦ رقم / ٢٢٦٧/ باب:لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام] وغيرهم وعند البخاري رواية أخرى أيضا بلفظ: عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ سمع النبي يقول من رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ فإن الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنُنِي [٦/ ٢٥٦٨رقم/ ٦٥٩٦ / باب: رؤيا الليل].

(٢) أخرجه الدارمي في سننه [٢/ ١٧٠ رقم / ٢١٤٩ / باب:في رؤية الرب تعالى في النوم] والطبراني في المعجم الكبير [٢٥/ ١٤٣ رقم/ ٣٤٦/] وأحمد في المسند [١/ ٢٨٥ رقم/ ٢٥٨٠/] وغيرهم وقد اختلف العلماء قديماً حول حقيقة هذه الرؤية هل كانت في المنام أم اليقظة وقد أطال الحديث حولها الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري [٨/ ٦٠٦ رقم/ ٤٥٧٤/ باب: ورة النجم] والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد [١/ ٧٨ باب: في الرؤية] فليرجع إليه.

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ

﴿وَ﴾ متى تحققت يا أكمل الرسل بمقام الشهود والمشاهدة ﴿إِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ المتوحد بالذات والصفات والأسماء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتبعون ويقتفون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الفاسد والوهم الكاسد، والظنُّ لا يغني عن الحق الصريح شيئاً ﴿وَإِنْ هُمْ﴾ أي ما هم في ظنونهم الكاذبة وأوهامهم الباطلة في الاعتقادات والأحكام ﴿إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ يخلطون ويلبسون على نفسهم حسداً وعناداً.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ من أصحاب التقليد ﴿وَهُوَ﴾ أيضاً ﴿أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾﴾ من أرباب الشهود والمكاشفة لا يفيد تغريرهم وإضلالهم.

وإذا علمتم أيها المؤمنون أن الهداية والإضلال بيد الله لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا بتحريم المباح وتحليل الحرام ﴿فَكُلُوا۟﴾ أي من الأزواج الثمانية وما يشبهها ﴿مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ عند ذبحه مستبيحين محللين على أنفسكم ﴿إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ وبأحكامه مصدقين ممتثلين.

﴿وَمَا لَكُمْ﴾ وأي شيء عرض لكم ويمنعكم ﴿أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُم﴾ ربكم ﴿مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ ...﴾ الآية. فعليكم أن لا تأكلوا

إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ

المحرمات ﴿إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ﴾ حينئذٍ يباح لكم منها مقدار سدّ جوعة ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ من الناس ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾ في أنفسهم ويضلون غيرهم من الضعفاء بتحليل المحرمات وتحريم المحللات بلا سند شرعي ﴿بِأَهْوَآئِهِم﴾ الباطلة ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾ بما عند الله فلا تتبعوا ولا تقتفوا أثرهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ المتجاوزين عن حدوده بمتابعة أهوائهم الفاسدة فيجازيهم على مقتضى علمه.

﴿وَذَرُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ أي الإقدام عليه والاتصاف به ﴿وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي أخطاره وإجراءه على القلب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ﴾ ويميلون إليه متلذذين ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي بمقدار ما يتلذذون.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ حين ذَبْحِه ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي أكلكم منه ﴿لَفِسْقٌ ۗ﴾ خروج عن حكم الله بمتابعة أهل الأهواء الضالين عن طريق الحق بوسوسة الشياطين، ولا تغفلوا من وسوستهم ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ﴾ يلقون ويوسوسون ﴿إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ من أهل الأهواء ﴿لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ﴾ أيها المؤمنون حتى يضلوكم عن طريق الحق سيما في المآكل والمشارب

وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ....

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ لأنه من أطاع غير الله فقد أشرك به.

﴿أَوَمَن كَانَ﴾ منكم ﴿مَيْتًا﴾ بالجهل والكفر ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بالمعرفة والإيمان ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ هادياً منيراً كان ﴿كَمَن مَّثَلُهُ﴾ وصفُه وشأنه ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ المتراكمة المتزاحمة وهي ظلمة الجهل والكفر والعصيان واعتقاده أنه ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ لعدم تناهيها فأنقذه الله من ظلمة الضلالة بنور الهداية وهداه إلى صراط مستقيم هو الإسلام ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل تزيين الإيمان للمؤمن ﴿زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ من الكفر والعصيان.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي كما جعل في مكة أكابر وصناديد يجرمون فيها جرائم عظيمة ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ أي قدرنا فيها ﴿أَكَابِرَ﴾ كانوا ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ ومترفيها ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾ بأنواع المكر والحيل ليضلوا ضعفاء العوام ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾ هؤلاء الماكرون ﴿إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ لأن وبال مكرهم يعود عليهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ لقساوة قلوبهم وشدة عمههم.

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ....

﴿وَ﴾ من غاية جهلهم ونهاية قسوتهم ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ﴾ هادية لهم إلى سبيل الرشاد ﴿قَالُوا۟﴾ من غاية بغضهم وعنادهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ بها ﴿حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ﴾ من يدَّعي أنهم ﴿رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ إذ نحن وهم سواء في البشرية وأولى منهم في الرئاسة والنسب، فكيف يُؤتى لهم ولم يؤت إلينا، قل لهم يا أكمل الرسل: الوحي والإيتاء بيد الله يؤتي من يشاء ويمنع ممن يشاء إذ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ لا يعتبر عنده الرئاسة والنسب بل تفضلاً على من تفضل من عباده بلا التفات إلى نسبه وحسبه بقدر قابليته واستعداده، المقدر له من عنده في سابق علمه، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون ويقولون إذ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ مغرورين على رئاستهم وجهلهم ونسبهم ﴿صَغَارٌ﴾ مذلة وهوان ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حين إحضارهم للحساب والجزاء ﴿وَ﴾ بعد ما كشف حالهم وحسابهم لهم ﴿عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

وإذا كان الأمر بيد الله من عنده ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾ إلى توحيده ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ﴾ أي يفسحه ويوسعه ﴿لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي التفويض والاستسلام إلى حيث رضي بجميع ما قضي له، ومتى رضي بالقضاء يسع الحق فيه

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ ....﴾

فيستولي عليه فيغنيه عن هويته ويبقيه ببقائه السرمدي ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ﴾ عن فسحة توحيده ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ﴾ الذي من شأنه أن يسع الحق فيه ﴿ضَيِّقًا﴾ ضنكاً ﴿حَرَجًا﴾ في غاية الضيق باستيلاء لوازم الإمكان عليه، إلى حيث تضيق الأرض عليه فيتمنى الصعود إلى عالم الأسباب ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ أي يطلب الصعود إلى السماء، ومن غاية احتياجه واضطراره، وهذا مثلٌ يضرب به لمن ضاق عليه طرق معاشه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كحال من اضطر إلى الصعود نحو السماء ﴿يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي خذلان الإمكان والحرمان في النشأة الأخرى ﴿عَلَى﴾ القوم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ بتوحيد الله وسعة لطفه وجوده.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي ما أنزلنا إليك يا أكمل الرسل من القرآن المبين لطريق المعرفة والإيقان ﴿صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ﴾ لا عوج فيها أصلاً موصلاً إلى توحيده ﴿قَدْ فَصَّلْنَا﴾ وأوضحنا فيما أنزلناه إليك ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ يتعظون بها ويتذكرون مبدأهم الذي ينشؤون منه ويظهرون عنه وهو الوحدة الذاتية.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي مقام التفويض والاستسلام ﴿عِندَ رَبِّهِمْ ۖ﴾ بعدما

وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ ....

تحققوا بتوحيده ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿وَلِيُّهُم﴾ ومولى أمورهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي بجميع ما كانوا يعملون من الأعمال إذ هو سمعهم وبصرهم ويدهم ورجلهم وجميع جوارحهم التي صدرت عنها أعمالهم على ما نطق الحديث القدسي صلوات الله وسلامه على قائله(١).

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي جميع ما يتأتى منه الإطاعة ويتوجه إليه التكليف من الثقلين قابلين عليهم منادين لهم ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ﴾ أي الشياطين ﴿قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم﴾ أي استتبعتم بأن أضللتم وأغويتم كثيراً ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ﴾ بإيقاعهم إلى المعاصي والمهالك والخروج عن مقتضى أوامرنا ونواهينا وإغرائهم إلى مستلذات نفوسهم ومقتضيات شهواتهم ﴿وَ﴾ بعدما سمع الإنس هذا النداء ﴿قَالَ أَوْلِيَآؤُهُم﴾ أي أولياء الجن ومتابعهم ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ متذللين متحسرين: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم فكفرناك بمتابعة هؤلاء الغواة فإن ظهر الحق واضمحل الباطل نحن نقر بما جرى بيننا وبينهم ﴿ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ منهم بإغوائهم وإغرائهم إلى خلاف ما أمرتنا عليه بألسنة رسلك وبعضهم استمتع ببعضنا بالموالاة والمتابعة ﴿وَبَلَغْنَآ﴾ الآن ﴿أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ﴾ على ألسنة رسلك فالآن جئناك خائبين خاسرين

---

(١) جزء من حديث طويل وصحيح .رواه البخاري في صحيحه [٥/ ٢٣٨٤رقم/ ٦١٣٧ / باب: من جاهد نفسه في طاعة الله] وابن حبان في صحيحه [٢/ ٥٨رقم / ٣٤٧ /] والطبراني في المعجم الأوسط [٩/ ١٣٩رقم/ ٩٣٥٢ /] والكبير [٨/ ٢٠٦رقم/ ٧٨٣٣ /] وغيرهم وللحديث طرق وشواهد كثيرة.

قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ....

﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال: الآن انقرض دار الابتلاء ومضى زمان الاهتداء ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾ جميعاً أي تابعيكم ومتبوعيكم مؤبداً ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أبداً ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ وقتاً ينقذهم منها لئلا يتعودوا بعذابها ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ﴾ متقن في أفعاله ﴿عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ بمقدار جزاء العصاة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل قول أولياء الأنس والجن ﴿نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ من الأنس ﴿بَعْضًۢا﴾ منه ليفتضحوا ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ من المظاهر بتغرير بعضهم بعضاً.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ المفتضحين على رؤوس الأشهاد ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ غلّب الأنس على الجن إذ ليس يبعث من الجن نبي بل من الإنس إلى الثقلين ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي﴾ ويدعونكم إلى توحيد ذاتي وأوصافي وأفعالي ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ﴾ يوم القيامة والجزاء ﴿قَالُواْ﴾ مضطرين معترفين: ﴿شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ يا ربنا بالجرم والعصيان بعدما ظهر الأمر وانكشف الحجاب، وصرنا مستحقين بالعذاب والنكال ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بحيث لم يبالوا بما جاءهم من

وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ ....

عند ربهم لإهدائهم بل يكذبونه ويستهزئون به[1] ﴿وَ﴾ أدى عاقبة أمرهم في عتوهم وعنادهم إلى أن ﴿شَهِدُواْ﴾ واعترفوا ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ مستحقين بأنواع العقوبة والعذاب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو ليتنبهوا وينتبهوا أي العصاة على ما هم عليه والسر في الإرسال ﴿أَن﴾ أي لأن ﴿لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ أي بسبب ظلم صَدَر عنه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ عن طريق الحق بلا تنبيه منبِّه وإرشاد مرشد نبيه، وعلِّم من تَبِعك من المؤمنين.

﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل وذكرهم أن ﴿لِكُلٍّ﴾ من أهل التكليف ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ عند الله حاصلة لهم ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ عن الصالحات ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ لمقتضى التكاليف التي كلفهم بها.

﴿وَ﴾ الحال إن نفعه عائد إليهم إذ ﴿رَبُّكَ﴾ هو ﴿ٱلْغَنِىُّ﴾ بذاته عنهم وعن أعمالهم بالمرة صالحاً أو فاسداً بل هو ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ على من عمل بمقتضى التكليف امتناناً عليه وتفضلاً بلا احتياج له سبحانه إليهم وإلى عملهم بل ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها الناس الناسون حقوق ألوهيته

(١) في المخطوط (يكذبوه ويستهزؤوا به).

وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ....

وتوحيده والتكاليف الواقعة في طريقه ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ ممن يعمل على مقتضى تكاليفه ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ قرناً بعد قرن، بطناً بعد بطن مع أنه يترحم عليكم ويبقيكم تفضلاً وامتناناً.

قل لهم يا أكمل الرسل تنبيهاً عليهم: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ﴾ أيها المكلفون من الحشر والنشر والجزاء ﴿لَآتٍ﴾ كامن ثابت لا محالة واعملوا على مقتضى ما كلف به ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ أي عاجزين عن الإتيان بالأمور حتى لا تؤاخذوا بترك التكاليف ولا تعذبوا به إذ لا تكلف نفس إلا وسعها.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على طريق الترحم والتحنن إرخاء العنان مبالغة في التعريض: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ﴾ من المعاصي ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ مقدار مكنتكم وطاقتكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أيضاً من الصالحات المأمورة علي بمقتضى مُكْنَتي وطاقتي ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حين انكشف الحجب وارتفع الغشاء ﴿مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ أي العاقبة الحسنى التي تترتب على هذه الدار أي أينا نفوز بها، إنا أو أنتم ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ ....

الخارجون عن حدوده بمقتضى أهويتهم الفاسدة.

﴿وَ﴾ من جملة أهويتهم الباطلة أنهم ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ﴾ برأ وخلق ﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا﴾ المعين المفروز ﴿لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾ أي آلهتنا وشفعائنا ﴿فَمَا كَانَ﴾ من أموالهم يفرز ﴿لِشُرَكَآئِهِمْ﴾ إن كان جيداً طيباً ﴿فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ولا يتجاوز عن شركائهم ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ﴾ إن كان جيداً ﴿فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾ بأن استبدلوها بالرديء الذي كان لشركائهم ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ هؤلاء الجاهلون ؛ لأن فعلهم واختيارهم هذا إنما هو تفضيل المفضول المترذل على الأصل الأفضل.

روي أنهم كانوا يعينون في حرثهم ونتاجهم لله، ويصرفونه إلى الضيفان والمساكين، وشيئاً منها لآلهتهم وينفقونها إلى سدنة آلهتهم وخدامهم، ويذبحون عندها ثم إن رأوا ما عيّنوا لله أزكى؛ بدلوه بما لآلهتهم من الرديء، وإن رأوا ما لآلهتهم أزكى تركوه لها حباً لآلهتهم، وهذا مما اخترعوه من تلقاء أنفسهم وإن افتروا إلى كتبهم ترويجاً وتغريراً.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل قسمتهم في القربات والصدقات ﴿زَيَّنَ﴾ حبب

لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا

وحسن ﴿لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي آلهتهم الذين يعبدونهم من دون الله من الشياطين وما ذلك التزيين والتحسين إلا ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ ليهلكوهم ويضلوهم بالإغواء عن طريق الحق ﴿وَلِيَلْبِسُواْ﴾ ويخلطوا ﴿عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ الذي وجب عليهم الانقياد والإطاعة ليصلوا إلى طريق التوحيد ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده هدايتهم ﴿مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ما قبلوا ما زينوهم ولبسوا عليهم ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي جانَب عنهم وعن افترائهم إلى أن نأخذهم وننتقم عنهم.

﴿وَ﴾ من جملة ما اخترعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوها إلى الله وإلى كتابه ترويجاً أنهم ﴿قَالُواْ هَـٰذِهِۦٓ﴾ المعيَّنة المفروضة ﴿أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ حرام ﴿لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ إطعامه يعنون سدنة الأوثان وخدمتهم من الرجال دون النساء، فإنها يحل عليهم ويحرم على غيرهم وما هي إلا ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ الفاسد بلا حجة نقلية وعقلية ﴿وَ﴾ أيضاً قالوا: هذه ﴿أَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ وأراد البحائر والسوائب والحوامي، ﴿وَ﴾ قالوا أيضاً: هذه ﴿أَنْعَـٰمٌ﴾ مُعدَّةٌ للتجارة والحمل والظعن ﴿لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي لا يركبونها للحج، كل ذلك من مخترعاتهم التي يخترعونها من أهويتهم

ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ ....

الفاسدة وآرائهم الباطلة ويفترون ﴿ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾ سبحانه بلا سند لهم نازل من عنده ﴿سَيَجۡزِيهِم﴾ الله ويعذبهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ أي بسبب افترائهم عليه.

﴿وَ﴾ من جملة مفترياتهم ومخترعاتهم أنهم ﴿قَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ أي البحائر والسوائب إن كانت حياً فهي ﴿خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا﴾ مخصوصة مستحلة لهم ﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ﴾ لا نصيب لهن فيه ﴿وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ﴾ أي وإن يخرج ميتة ﴿فَهُمۡ﴾ أي الذكور والإناث ﴿فِيهِ شُرَكَآءُۚ﴾ بلا تفاوت وخصوصية ﴿سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ﴾ أي سيجزيهم الله على وصفهم وتفصيلهم هذا افتراء عليه ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ﴾ في جزاء المفترين ﴿عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾﴾ بمقدار جزائهم.

﴿قَدۡ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة مؤبدة الأعراب ﴿ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا﴾ مخافة سبي وإملاق ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ منهم بما يؤول أمرهم عليه ولا شك أن الرازق لعباده هو الله لا هم ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿حَرَّمُواْ﴾ على نفوسهم ﴿مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأباح علهيم من البحائر والسوائب وغيرها ونسبوا تحريمها ﴿ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ هوىً وميلاً إلى الباطل وبالجملة ﴿قَدۡ ضَلُّواْ﴾

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ....

بهذه الجرائم عن طريق الحق ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إلى توحيده وما يرجى منهم الهداية والفلاح أصلاً.

﴿ ۞ وَ﴾ كيف تضلون عن طريق الحق أيها الجاهلون المسرفون مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي أَنشَأَ﴾ لكم لمعاشكم في النشأة الأولى ﴿جَنَّاتٍ﴾ من الكروم ﴿مَّعْرُوشَاتٍ﴾ مرتفعات من الأرض ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ ملقيات على وجه الأرض ﴿وَ﴾ أنشأ لكم أيضاً ﴿النَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ﴾ أي أكمل كل واحد منهما رطباً ويابساً ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا﴾ بعضها ببعض ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ بل مختلف في الشكل والطعم ﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِ﴾ أي ثمر كل واحد من المذكورات حيث شئتم ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ﴾ أي أخرجوا حق الله منه على الوجه المفروض ﴿يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ إدراكه وبدوّ صلاحه ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في الأكل إلى حيث تُقسى قلوبكم ويكل إدراككم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ أي لا يرضى عنهم وعن فعلهم إذ الأكل إنما هو لقوام البدن وتقوية الروح على فعله، وإسرافه يفضي إلى التعطيل والتكليل المخل للحكمة الإلهية.

وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ....

﴿وَ﴾ إنشاء لكم أيضاً ﴿مِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً﴾ تحملون أثقالكم يوم ظعنكم ﴿وَفَرْشًا﴾ تفرشون من أصوافها وأشعارها وأوبارها المنسوجة تحتكم يوم إقامتكم ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ وأباحه عليكم منها ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟﴾ أثر ﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ ولا تسمعوا وساوسه في تحليل المحرمات وتحريم المباحات يعني لا تتبعوا أهويتكم التي هي من جنود الشياطين ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ ظاهر العداوة فاجتنبوا من إغوائها.

واعلموا أيها المؤمنون أن الله سبحانه أباح لكم من الأنعام ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ الكبش والنعجة وما يتولد منهما ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ التيس والعنز أيضاً كذلك ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن يدعي التحريم في تقدير الجنس إلزاماً وتبكيتاً: ﴿ءَآلذَّكَرَيْنِ﴾ الكبش والتيس ﴿حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ النعجة والعنز ﴿أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي حرم ما في بطن الانثيين من هذين الجنسين ذكراً كان أو أنثى ﴿نَبِّـُٔونِى﴾ أخبروني أيها المدعون تحريم شيء منها ﴿بِعِلْمٍ﴾ أي بمقدمة معلومة عندكم من نقل ونص دال على أن الله حرم شيئاً من ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ في دعوى التحريم.

وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا

﴿وَ﴾ أيضاً أباح لكم ربكم أيها المؤمنون ﴿مِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ يعني لم يحرم أيضاً شيئاً منهما ولا ما في بطنهما ذكراً كان أو أنثى ﴿أَمْ﴾ تدعون أيها المدعون أنكم ﴿كُنتُمْ شُهَدَآءَ﴾ حضراء ﴿إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي حين وصاكم الله ﴿بِهَٰذَا﴾ التحريم لأنه ما أخبر به نبي وما جاء به كتاب، فبقي أن تدَّعوا الحضور عنده سبحانه وأنتم أيها المفترون من المردودين المطرودين عن ساحة عز حضوره سبحانه، وما من الأمر تسويلات نفوسكم وتلبيسات شياطين أوهامكم وخيالاتكم تفترونه على الله ظلماً وزوراً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ﴾ عن طريق الحق ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ نص ونقل وارد نازل من عند الله بل من تلقاء نفسه تلبيساً وتخليطاً لضعفاء العوام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع بمخايل المفسدين ﴿لَا يَهْدِى﴾ إلى طريق صراط توحيده ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ المفترين عليه بأمثال هذه المفتريات الزائغة.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل على مقتضى ما أوحينا إليك: ﴿لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ أي في القرآن الجامع لأحكام الكتب السابقة المستحضر لها ﴿مُحَرَّمًا﴾

عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ

طعاماً حرمه الله ﴿عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ بل أجد كل ما يطعم حلالاً إذ الأصل في الأشياء الحل ﴿إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾ مات حتف أنفه بلا زكاة ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ سائلاً جارياً مفروزاً عن اللحم ﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾ نجس في نفسه لا يقبل الزكاة أصلاً ﴿أَوْ﴾ ما يذبح من المحللات ﴿فِسْقًا﴾ خروجاً عن مقتضى الشرع بأن ﴿أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ حين ذبحه من أسماء الأصنام وغيرها وما سوى هذه المستثنيات المذكورة فهو مباح ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ﴾ أيضاً إلى تناول تلك المستثنيات حال كونه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ خارج على أهل الإسلام ظلماً ﴿وَلَا عَادٍ﴾ مجاوز عن سد الجوعة ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ﴾ لمن تناولها ضرورة ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ لا يؤاخذه عليها بل إن لم يتناول في محل الاضطرار وهلك كان عاصياً البتة لأنه تخريب لبيت الله وإبطال لصنعه بعدما رخص.

﴿وَ﴾ إن سألوك[1] يا أكمل الرسل عن محرمات الأمم الماضية قل لهم نيابة عنا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ وحافر يمكن أن يخرج معها ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ﴾ من الشحوم ﴿ظُهُورُهُمَآ﴾ وهي الثروب وشحوم الكلى ﴿أَوِ﴾ حملتها

(١) في المخطوط (وإن سألوا عنك).

ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ ....

﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ أي الأمعاء ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ﴾ من الشحوم ﴿بِعَظْمٍ ۚ﴾ كالألية ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تحريم هذه الأشياء وإن كان الأصل في الأشياء الحل والإباحة مطلقة بسبب أنّا ﴿جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ﴾ بها وظلمهم وخروجهم عن حدودنا بلا ورود نص منا ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ في جميع ما أوحينا إليك من الأقوال والأخبار والمواعيد والوعيدات.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وعاندوك فيما تلونا عليك ﴿فَقُل﴾ لهم إمحاضاً للنصح على مقتضى مرتبة النبوة: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ يمهلكم على ما أنتم عليه ويوسع عليكم على مقتضى رحمته وجماله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ﴾ وبطشه على مقتضى غيرته وحميته وجلاله ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ الذين أجرموا على الله بالخروج عن مقتضى أحكامه النازلة على ألسنة رسله.

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ على سبيل التكذيب والإنكار فيما جئت به: و﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ما أنت ترويه عنه وتدعيه بالنسبة إلينا ﴿مَآ أَشْرَكْنَا﴾ مع أنه القادر على جميع ما أراد ﴿وَلَآ﴾ أشرك ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ أيضاً ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ﴾ مما أجزت تحريمه عنه بالنسبة إلينا بل ما هي إلا مفتريات

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَاۖ ....

تخترعه من عندك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل تكذيبهم لك بأمثال هذه الهذيانات الباطلة ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنبياءهم ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ﴾ الذي أنزلنا عليهم واستأصلناهم بتكذيبهم وإن أردت إلزامهم وتبكيتهم ﴿قُلۡ﴾ لهم مستفهماً: ﴿هَلۡ﴾ حصل ﴿عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ﴾ نقل صريح وحجة واضحة موردة من عند الله ﴿فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ﴾ وتظهروه حتى نتبعه، ونقبله فإن لم يخرجوا فقل لهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أي ما تتبعون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ تكذبون على الله افتراء ومراء، فأعرض عنهم ودع مجادلتهم ومخاطبتهم.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل بعد ما أُلزموا وأُفحموا: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ﴾ البينة الواضحة ﴿ٱلۡبَٰلِغَةُۖ﴾ حد الكمال ﴿فَلَوۡ شَآءَ﴾ هدايتكم ﴿لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي لأوضح حجته عليكم ووفقكم إلى قبوله، ولكن لم تتعلق مشيئته على هدايتكم لذلك أصررتم واستكبرتم، وإذا لم ينتبهوا بعد إلقاء حجة الله عليهم بل أصروا على تقليد أحبارهم.

﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾ أي أحضروا أحباركم ﴿ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ﴾ في كتابه ﴿هَٰذَاۖ﴾ أي ما ادعيتم تحريمها

فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ....

﴿فَإِن شَهِدُواْ﴾ بعدما حضروا افتراء على كتاب الله ﴿فَلَا تَشْهَدْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَعَهُمْ﴾ ولا تقبل شهادتهم ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ونسبوا إليها ما هي خالية عنها ﴿وَ﴾ اعلم يا أكمل الرسل أن ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ ولا بالمجازاة والمكافأة مطلقاً ولا يبالون من أفعال هذه المفتريات الباطلة ﴿وَهُم﴾ من غاية جهلهم ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع الكرم ﴿يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ يشركون ويجعلون له عديلاً تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿۞ قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة: ﴿تَعَالَوْاْ﴾ أيها التائهون في بيداء الضلال ﴿أَتْلُ﴾ وأعدّ لكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ في نشأتكم الدنيا، أولاها وعظماها: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ من مصنوعاته إذ هو أحد صمد فرد وتر ليس لغيره وجود حتى يشاركه ويماثله ﴿وَ﴾ أن تفعلوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ﴾ اللذين هما سببان قريبان لظهوركم إلا ﴿إِحْسَٰنًا﴾ لإحسانهما إليكم في حفظكم وحضانتكم ﴿وَ﴾ أن ﴿لَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم﴾ ظلماً ناشئاً ﴿مِّنْ﴾ خوفِ ﴿إِمْلَٰقٍ﴾ فقرٍ وقلةٍ إذ ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وأن

وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ

﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ القبيح ﴿مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾ كالقَود وقتل المرتد ورجم الزاني المحصن وغيرها من المحارم التي رخص الشرع بارتكابها إذا ارتكابها من جملة المحللات والمأمورات ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ المذكور مفصلاً مما ﴿وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ رجاء أن تسترشدوا لتهتدوا إلى توحيده.

﴿وَ﴾ من جملة المحرمات التي حرمها الحق عليكم أن ﴿لَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ﴾ ولا تتصرفوا ﴿إِلَّا بِـ﴾ التصرفات ﴿ـٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ لليتيم وأحفظ لغبطته من تنمية ماله وحفظه ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُۥۚ﴾ أي يسمع من التصرفات الشرعية شرعاً وحينئذٍ يسلم إليه بعد تجربته واختباره ﴿وَ﴾ من جملتها أيضاً أن لا تنقصوا وتخسروا في الكيل والوزن بل ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ أي بالعدل ولا تنقصوا منهما وإن كان إيفاؤهما في غاية الصعوبة والعسر، فعليكم أن تبذلوا وسعكم وطاقتكم في تعديلها وإيفائهما مهما أمكن لكم، وما ليس في وسعكم ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ معفو عنكم ﴿وَ﴾ من جملتها أن لا تميلوا في الأحكام ﴿إِذَا قُلۡتُمۡ﴾ وحكمتم حال كونكم حاكمين بين الخصمين ﴿فَٱعۡدِلُواْ﴾ في الحكومة ﴿وَلَوۡ كَانَ﴾

ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ....

المحكوم عليه أو له ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ من حميمكم وذوي قرابتكم، وعليكم أيها الحكام أن لا تتجاوزا في الأحكام عما حكم الله به بل ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الحكيم العليم ﴿أَوْفُوا۟﴾ وبمقتضى حُكمه وحِكمه وفّوا ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور مما ﴿وَصَّىٰكُم﴾ الله ﴿بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ رجاء أن تتذكروا وتتعظوا به أيها المتوجهون إلى توحيده.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المائلون نحو توحيدي ﴿أَنَّ هَٰذَا﴾ أي المذكور في هذه السورة من الأوامر والنواهي والمحرمات والمحللات والأحكام والإشارات والآداب والمعاملات ﴿صِرَٰطِى﴾ الموصل إلى توحيدي ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ سوياً بلا ميل واعوجاج ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ حتى تفوزوا إليه ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ المتفرقة والطرق المختلفة ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ﴾ وتضلكم ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي سبيل توحيده الذاتي ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي اتباع طريق التوحيد مما ﴿وَصَّىٰكُم﴾ الله ﴿بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ رجاء أن تحذروا بسببه عن سبيل الأهوية الفاسدة والآراء الباطلة المضلة عن طريق الحق وتوحيده.

﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنّا ﴿ءَاتَيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ تماماً أي التوراة المبيّن لطريق الحق ﴿تَمَامًا عَلَى﴾ الوجه ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ بيانه

وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ ....

وتوضيحه ﴿وَ﴾ بينا فيه أيضاً ﴿تَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الكوائن والفواسد المتعلقة بعالم الفواسد المتعلقة بعالم الملك والشهادة ﴿وَهُدٗى﴾ من المعارف والحقائق المتعلقة بعالم الملكوت والغيب ﴿وَرَحۡمَةٗ﴾ من المكاشفات والمشاهدات المسقطة للإضافات مطلقاً المغنية لنفوس الغير والسوى رأساً ﴿لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ رجاء أن يتحققوا بمرتبة اليقين العلمي ثم العيني ثم الحقي.

﴿وَهَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ تتميماً لمقاصد الكتب السالفة وترويجاً لحكمه وأحكامه ﴿مُبَارَكٞ﴾ كثير الخير والنفع لمن آمن به وصدقه ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أيها المتوجهون نحو التوجه الذاتي وامتثلوا جميع أوامره واجتنبوا عن جميع نواهيه ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ عن تكذيبه والقدح فيه وفيمن أنزل إليه ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ تكشفون وتفوزون به إلى فضاء التوحيد.

وإنما أنزلنا القرآن بعد التوراة والإنجيل وإن كان أكثر أحكام الكتب الإلهية مشتركة، كراهةَ:

﴿أَن تَقُولُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا﴾ أي اليهود والنصارى وعلى لسانهم ولغتهم فلا تقبلون الأحكام الإلهية معللين قائلين: ﴿وَإِن﴾ أي ﴿كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ﴾ قراءتهم وتعلمهم لعدم

لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ....

علمنا بوضع لغتهم ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿أَوْ﴾ أن ﴿تَقُولُواْ﴾ متحسرين متمنين: ﴿لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ﴾ كما أنزل عليهم ﴿لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ لحدة أذهاننا وصفاء صدورنا ومتى علم واطلع سبحانه من استعداداتكم هذا ﴿فَقَدْ جَآءَكُم﴾ من عنده لإهدائكم وإيصالكم إلى مقر توحيده ﴿بَيِّنَةٌ﴾ واضحة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي رباكم بإضافة استعدادات التوحيد وقابلياته، دالة عليه، مبنية له، كاشفة إياه بالنسبة إلى المحجوبين من ذوي العلوم اليقينية ﴿وَهُدًى﴾ يرشدهم إلى مرتبة اليقين العيني ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ لكم تستر هويتكم عن عيون بصائركم ويغنيكم في هوية الحق، وبالجملة لو امتثلتم بمقتضاه لصار علمكم عيناً وعينكم حقاً ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ بعدما سمع أوصافها وفرائدها من الله ﴿وَصَدَفَ﴾ صدّ وأعرض ﴿عَنْهَا﴾ عناداً واستكباراً والله ﴿سَنَجْزِى﴾ باسمنا المنتقم ﴿ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا﴾ إباءً وتكذيباً ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي عذاباً يسوءهم ويشتد عليهم ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ أي بشؤم ما كانوا ﴿يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ عنها ويستنكفون عن قبولها عتواً وعناداً بلا حجة قطعية بل ظنية أيضاً.

﴿هَلْ﴾ أي ما ينتظرون ويسوفون أمر الإيمان ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾

﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ ....

أي ملائكة العذاب كما أتوا الأمم الماضية فتلجئهم إليه ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أي يطلبون إتيان ربك عناداً كما طلب اليهود حين قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [٤-النساء١٥٣] ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ﴾ الدالة على انقضاء النشأة الأولى المسمى بأشراط الساعة وبالجملة ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ لكونها ملجئة إليه حين اضطرارها ولا عبرة للإيمان حين البأس والإلجاء، إذ الإيمان تعبدي برهاني اختياري ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ أي نفساً لم تكن آمنت قبل ظهور الملجئ ﴿أَوْ﴾ لم تكن ﴿كَسَبَتْ﴾ وإن آمنت ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ مقبولاً عند الله ﴿قُلِ﴾ للمنتظرين استهزاءً: ﴿ٱنتَظِرُوٓا۟﴾ إلى ما تخيلتم وتوهمتم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ أيضاً إلى حلول الوقت المعلوم ونزول العذاب فيه عليكم بكفركم وشرككم.

ثم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي يوصلهم إلى التوحيد الإلهي بلا منازعة ومخالفة ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي صاروا فرقاً مختلفة متحزبة متعصبة كما قال ﷺ: «افْتَرَقَتْ الْيَهُودُ إِلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ كُلُّهَا فِيْ الْهَاوِيَةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ النَّاجِيَةُ، وَافْتَرَقَتْ النَّصَارَى إِلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةٍ كُلُّهَا فِيْ الْهَاوِيَةِ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ النَّاجِيَةُ، وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ

لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ ....

فِرْقَةٍ كُلُّهَا فِيْ الْهَاوِيَةِ إِلَّا وَاحِدَةً»[1]. ﴿لَّسْتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من شأنهم وإصلاحهم ﴿فِي شَيْءٍ﴾ بل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ حين عرضوا وحشروا نحوه ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾ ويخبرهم ﴿بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ في النشأة الأولى التي هي دار الابتلاء، وبالجملة:

﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ فيها ﴿فَلَهُ﴾ على مقتضى الفضل الإلهي ﴿عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ امتناناً عليه وجزاء له ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ فيها ﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ على مقتضى العدل الإلهي ﴿وَهُمْ﴾ في جزاء السيئة ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ بالزيادة إذ لا ظلم في ذلك اليوم.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المبعوث إلى كافة البرايا: ﴿إِنَّنِي﴾ مع كوني بشراً مثلكم ﴿هَدَانِي رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى توحيده الذاتي وآتاني من فضله ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ قويماً مستقيماً ﴿مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة لذلك ﴿وَمَا

(١) رواه الحاكم في المستدرك [١/ ٢١٧ رقم / ٤٤١/] وقال: صحيح على شروط مسلم، وابن حبان في صحيحه [١٤/ ١٤٠ رقم / ٦٢٤٧/]، وأبو داوود في سننه [٤/ ١٩٧ رقم / ٤٥٩٦/ باب: النار تعدي] وغيره، وللحديث طرق وألفاظ متعددة.

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ....

كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ في وقت من الأوقات.

﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل المظهر للتوحيد الذاتي مفوضاً جميع أمورك وما جرى عليك وظهر منك إلى ربك: ﴿إِنَّ صَلَاتِى ﴾ أي ميلي بجميع أعضائي وجوارحي ﴿وَ﴾ سائر ﴿نُسُكِي﴾ وعباداتي التي هي سبب تقربي وتوسلي نحو الحق ﴿وَ﴾ بالجملة لوازم ﴿مَحْيَايَ وَمَمَاتِى ﴾ خالصاً ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتصرف في ملكه وملكوته بما يشاء بالاستقلال والاختيار لكونه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ ينازعه ولا ضد له يكافئه ويماثله، لا وجود لغيره أصلاً ﴿وَبِذَٰلِكَ ﴾ التفويض والإخلاص ﴿أُمِرْتُ ﴾ من عنده لتوحيده ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ الموحدين المظهرين الطاهرين بالتوحيد الذاتي.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل مستوبخاً مستقرعاً لمن عاندك في طريق التوحيد وجادلك بإثبات الشركاء له وتوقع موافقتك لشركه: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ المتوحد في ذاته، المتفرد في ألوهيته ﴿أَبْغِى﴾ أتخذ وأطلب ﴿رَبًّا﴾ مربياً مولياً ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُوَ﴾ بذاته وأسمائه وأوصافه ﴿رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾ وخالقه وموجده من كتم العدم ﴿وَ﴾ إذا قلت لهم من كلمة الحق ما قلت دعهم وشركهم إذ ﴿لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من الجرائم والآثام ﴿إِلَّا﴾ تحمل ﴿عَلَيْهَا﴾ آصارها

وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وأثقالها ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ تقترف وتحمل نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ عاصية كافرة ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ بل كل منها رهينة بما كسبت، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ رجوع الظل إلى ذي الظل ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي يميز لكم الحق من الباطل والهداية من الضلال والعناية من الوبال والنكال.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون توحيد الحق وتربيته إياكم مع أنه سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ أي خلفاء قابلين لمظهرية جميع أوصافه ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في الاتصاف بأوصافه والتخلق بأخلاقه ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿فِي مَا آتَاكُمْ﴾ من استعداداتكم وقابلياتكم هل تصرفها إلى ما خلقتم لأجله أم لا ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ على صنيع استعداده الفطري فيما لا يعنيه ﴿وَإِنَّهُ﴾ أيضاً ﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تنبه واستغفر ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ لمن تاب واستهدى.

خاتمة سورة الأنعام

عليك أيها المتوجه نحو الحق القاصد سلوك طريق توحيده، أَنجحَ اللهُ أملَكَ وأوصلَكَ إلى مبتغاك: أن تنخلع وتتجرد عن مقتضيات القوى النفسانية من لذاتها وشهواتها الحسية والوهمية والخيالية، وتتوجه بما فيك من مبادىء القوى الروحانية إلى مبدئها، مقتفياً في توجهك أثر ما وصل إليك من آثار النبي ﷺ المختار، الذي استخلفه الحق وأظهره على مقتضى جميع أوصافه وأسمائه، واجتباه من بين جميع رسله وأنبيائه.

وأرسله مظهراً للتوحيد الذاتي وأنزل عليه كتاباً جامعاً محتوياً على جميع فوائد الكتب السالفة مع زيادات خلت عنها الجميع، مبيناً لطريق التوحيد على الوجه الأتم الأكمل إلى حيث لم يبق بعد بعثته احتياج إلى مبين آخر، لذلك قال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة: ٣].

وقال ﷺ: «بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»[١].

وبعد بعثته ﷺ ونزول الكتاب لم يبق للمسترشد المستهدي نحو التوحيد الذاتي إلا الاتصاف والامتثال بما جاء به خاتم الرسالة، لذلك لم يكن الاجتهاد بعد بعثته إلا في جزئيات الأحكام دون المعتقدات الكلية، إذ خُتم

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١٠/ ١٩١ باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٠٤ رقم / ١٦٠٩/ باب: ما جاء في حسن الخلق]، وقال: (حسن الأخلاق) بدل (مكارم الخلاق) وأحمد في المسند [٢/ ٣٨١ رقم / ٨٩٣٩/] وقال: (صالح الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق)، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [٤/ ٨٥] وقال: (محاسن الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق) وغيرهم بألفاظ مختلفة..

أمر الرسالة والتشريع به ﷺ.

ولا بد لك أن تربط قلبك بمرتبته[1] ﷺ وتجعلها قبلة مقصدك وتقتفي أثر ما ورد عليه، وجاء به ﷺ بحيث لا يهمل منها شيء.

ولا بد أن يكون في متابعته ﷺ على وثوق تام واطمئنان كامل، عارٍ عن جميع ما يشوشك من ظلمات الشكوك والأوهام، خال عن جميع الرعونات العارضة من وساوس شياطين الأهواء الفاسدة مثل العجب والرياء والسمعة وغيرها.

وبالجملة: عليك أن تتوجه نحو التوحيد عن طريق الفناء والموت الإرادي بحيث لا يصدر عنك شيء من أمارات الحياة الصورية ومقتضيات القوى البشرية، حتى يتيسر لك التحقق بمقام الخلة، والتخلق بأخلاق الله، مع توفيق من قبل الحق وجذب من جانبه، إذ كلٌ ميسر لما خلق له.

ومتى صفَّيتَ سرك وسريرتك عن جميع ما يشغلك عن الله ويضلك عن سبيله، تحققت بمقام التوحيد، وفنيت عن مقتضيات أمارات التخمين والتقليد، وصرت على يقين من ربك وكشف وشهود لا تظمأ منه أصلاً ولا تروى أبداً، وحينئذٍ حق لك أن تقول حقاً: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له.

ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشداً.

---

(١) في المخطوط (أن ترتبط قلبك بمرتبته)..

سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأعْراف

لا يخفى على المستبصر الخبير والمسترشد البصير أن إنزال الكتب وإرسال الرسل إنما هو لتبيين طريق التوحيد وإهداء أصحاب الضلال والتقليد من المتوغلين في تيه الغفلة والنسيان نحو فضاء الوحدة الذاتية، ولا يتيسر لهم ذلك إلا بترك مألوفاتهم، وقطعُ تعلقاتهم التي كانوا عليها بمقتضى بشريتهم وبإرشادهم وإهدائهم على التدريج بوضع التكاليف الشاقة المشتملة على الإنذارات الشديدة والتخويفات الغليظة المزكية لموانع الموصل إليه، حتى تستعد نفوسهم وتتهيأ سرهم وسريرتهم إلى أن تنكشف لهم سر سريان الوحدة الذاتية المشعشعة المتجلية دائماً حسب أوصافه وأسمائه الذاتية على ذرائر المظاهر كلها.

لذلك أنزل سبحانه على حبيبه الذي أظهره جامعاً لجميع مراتب أوصافه وأسمائه الكتابَ الجامع لجميع مراتب الوجود غيبها وشهادتها، أولاها وأخراها، رطبها ويابسها، وأورد فيه أنواع الوعيد والإنذار والتخويف البليغ؛ لينزجر به أهل الغفلة والهوى، وأنواع الوعد والتبشير؛ ليرغب نحوه أهل المحبة والولاء؛ ليتمتعوا على ما جبلوا عليه من الفطرية الأصلية التي فطر عليها بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ ....

وبالجملة: ليتأدبوا بآدابه حتى يتخلقوا بأخلاقه سبحانه، فقال منادياً لحبيبه ﷺ متيمناً متبركاً:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المنزه في ذاته عن النقص والاستكمال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعباده بالتكميل لأن يصلوا إلى درجات القرب والكمال ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال القرآن الهادي إلى سرادقات العز والجلال.

﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق لتكميل الخلائق المكرم المؤيد لإهدائهم إلى توحيد الذات والصفات والأفعال، الصادق الصفيّ في نفسه عن كدورات أهل الزيغ والضلال: هذه الآثار والآيات اللطيفة اللائحة اللائقة لأن يسترشد منها ويستكشف عنها أرباب الذوق والكمال، المنزهة عن شوائب الشكوك وظلمات الأوهام الصافية عن تخليطات العقول وتخمينات الأحلام الصالحة لأن يستبصر بها ويستشهد منها إلى توحيد العليم العلام المقدس السلام.

﴿كِتَٰبٌ﴾ جامعٌ لجميع فوائد الكتب المنزلة وأحكامها وإشاراتها، ناطق بجميع الأحوال الواقعة في النشأة الأولى والأخرى ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ يا هادي المضلين تقوية لك وترويجاً لما أمرت به ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ﴾ ضيق وتعب حاصل ﴿مِّنۡهُ﴾ أي من نشره وتبليغه مخافة الأعداء بل إنما أنزل إليك ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ أي بإنذاراته وتخويفاته من ضل عن طريق الحق وأعرض عنه جهلاً وعناداً ﴿وَ﴾ تذكر بمواعيده وتبشيراته مَن وُفّق بتذكر الموطن الأصلي والمنزل الحقيقي إذ هو ﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ الموقنين بوحدة الحق

ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ....

المتوجهين نحوه بالعزيمة الصحيحة.

﴿ٱتَّبِعُواْ﴾ أيها المؤمنون المتوجهون نحو التوحيد ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ على لسان نبيكم ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ﴾ بعد بعثته ودعوته ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ سبحانه ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ توالونهم وترجعون إليهم في أموركم من الجن والإنس، إذ هو خاتم النبوة فعليكم أن تتبعوه، وإن كان منكم ﴿قَلِيلًا مَّا﴾ شرذمة قليلة ﴿تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وتتعظون بتذكيره وعظته لميلكم إلى أهوية نفوسكم من الجاه والمال والرئاسة المستلزمة للتفوق على القِران والأقران.

﴿وَ﴾ عليكم أن لا تغتروا بها بل تذكروا ﴿كَم﴾ كثير ﴿مِّن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ ذوي بطر ورفاهية ﴿أَهْلَكْنَٰهَا﴾ بإنزال قهرنا إليها حتى استحقوا الهلاك بسبب كفرهم وظلمهم ﴿فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ قهرنا ﴿بَيَٰتًا﴾ حال كونهم راقدين رقود البطر والغفلة ﴿أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾﴾ مستريحون وقت الضحوة الكبرى تنعماً وحضوراً.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ أي دعاؤهم وتضرعهم ﴿إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ﴾ أي حين ظهر عليهم قهرِّياً ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ متضرعين مقرين معترفين: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ وبعدما اعترفوا بظلمهم ملجئين لا نُبالي باعترافهم وإقرارهم.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ لنستكشفن ونظهرن في النشأة الأخرى أحوالهم التي كانوا

ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا

عليها في النشأة الأولى أولاً من ﴿ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ الرسل ما فعلوا بهم حين دعوهم إلى إطاعتنا وانقيادنا ﴿وَ﴾ بعد ما ظهر منهم ما ظهر ﴿لَنَسْـَٔلَنَّ﴾ ثانياً عن أحوالهم من ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾ المبلغين لهم أوامرنا ونواهينا عن قبولهم وتكذيبهم وتصديقهم وبعدما ظهر أيضاً منهم ما ظهر.

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ جميع أحوالهم وأعمالهم التي صدرت عنهم على التفصيل ﴿بِعِلْمٍ﴾ لا يعزب عنه شيء من صنائعهم ﴿وَ﴾ كيف يخرج عن حيطة علمنا بشيء من أعمالهم إذ ﴿مَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ عنهم بل حاضرين معهم شاهدين بجميع أحوالهم.

﴿وَٱلْوَزْنُ﴾ الموضوع لانتقاد أعمال العباد ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي وقت كشف السرائر وانكشاف الحجب ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أي الثابت المحقق؛ لئلا يبقى للعصاة مجادلة مع الله ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بكثرة الطاعات ووفور الخيرات والمبرات ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ السعداء المبرورون ﴿هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ الفائزون بالمثوبة العظمى والمرتبة العليا.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بقلة الطاعة وكثرة المعاصي ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم﴾ وما ربحوا لها في دار الابتلاء ﴿بِمَا كَانُواْ﴾ أي بسبب ما كانوا ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا

يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ

﴿يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ يكذبونها ظلماً وعدواناً.

﴿وَ﴾ من غاية جودنا ولطفنا إياكم يا بني آدم إنا ﴿لَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي﴾ مستقر ﴿ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَۗ﴾ من الملائمات كي يعيشوا بها مترفهين متنعمين شاكرين لنعمنا، صارفين إلى ما خلقناها لأجله، ومع ذلك الفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿قَلِيلٗا مَّا﴾ أي في غاية القلة منكم ﴿تَشۡكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ نعمنا بل تكفرونها وتصرفونها أكثركم إلى مقتضى أهويتكم الفاسدة.

﴿وَ﴾ من عموم جودنا أيضاً أنّا ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ أي قدرنا تعيناتكم وأظهرنا هوياتكم من كتم العدم ﴿ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ﴾ أي زيناكم بصورنا وخلقناكم بأخلاقنا ﴿ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ المهيمين المستغرقين بمطالعة جمالنا: ﴿ٱسۡجُدُواْ﴾ تذللوا تواضعوا ﴿لِأٓدَمَ﴾ المصور على صورتنا تعظيماً لنا وتكريماً له، إذ هو مرآة مجلوة تحاكي جميع أوصافنا وأسمائنا، وترشدكم إلى وحدة ذاتنا، وبعد ما شهدوا آثار جميع أوصافنا وأسمائنا منه ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ جميعاً متذللين ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ الذي هو رأس جواسيس النفوس الخبيثة ﴿لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ مع كونه من زمرتهم حين أُمروا، ثم لما امتنع إبليس عن السجود.

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهاراً لما تحقق في علمه وكمن في غيبه من خبث طينة إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ﴾ يا إبليس ﴿أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ لخليفتي ﴿إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ مع رفقائك

قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾..

﴿قَالَ﴾ إبليس في الجواب بمقتضى هويته الباطلة وأهويته الفاسدة: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ وأفضل ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ منير ﴿وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾ مظلم كدر، ولا يحُسن تذلل الفاضل للمفضول.

لما امتنع عن مقتضى الأمر الوجوبي ولم يتفطن بسره الذي هو التوحيد الذاتي، إذ الأمر سجود المظهر الجامع والظل الكامل، أمر بالتوجه نحو الذات الأحدية والمعبود الحقيقي المتجلي عليه، طرده سبحانه عن ساحة عز حضوره حيث:

﴿قَالَ﴾ مبعداً: ﴿فَٱهۡبِطۡ﴾ أيها المطرود الملعون ﴿مِنۡهَا﴾ أي من ساحة عز التوحيد المقتضية للتذلل والتخشع ورفض الالتفات إلى الغير والسوى مطلقاً ﴿فَمَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ بادعاء التفضل والتفوق المقتضي للإضافات الناشئة من أنانيتك الباطلة ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾ منها مطروداً مخذولاً ﴿إِنَّكَ﴾ حيث كنت وأين كنت ﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ الذليلين المحرومين، بل أنت سبب صغار سائر الأذلاء.

ثم لما آيس إبليس عن القبول وحرم عن ساحة عز الحضور بسبب إبائه عن سجوده آدم.

﴿قَالَ﴾ منتقماً من آدم متضرعاً إلى ربه: ﴿أَنظِرۡنِيٓ﴾ أي أمهلني يا ربي فيما بينهم لأُضلّهم وأُغويهم ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾

قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا ....

﴿قَالَ﴾ سبحانه إظهاراً للسر الذي أسلفناه في سورة البقرة: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ فيما بينهم ليتميز المحق منهم من المبطل والمهدي من الغوي.

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي فبسبب ما بعدتني وأطردتني لأجلهم ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾ وألزمنَّ البتة ﴿لَهُمْ﴾ لإغوائهم وإضلالهم ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ أي على دينك وطريقك الموصل لهم إلى توحيدك، أغويهم وأوسوسهم بأنواع الوسوسة بعضهم بالفسق والظلم، وبعضهم بالرياء والسمعة، وبعضهم بالمخائل الفاسدة من اللذات الوهمية والخيالية، وبالجملة أوسوسهم وأخرجهم بأنواع الحيل عن جادة توحيدك.

﴿ثُمَّ﴾ بعد ما أرد وسوستي في نفوسهم ﴿لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ﴾ جميع جهاتهم ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي يضلهم بالمعاصي الحاصلة من قدامهم ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي بالمعاصي الحاصلة منه ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿عَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَ﴾ بالجملة استسخرهم وأحيط عليهم بإغوائي ووسوستي إلى حيث ﴿لَا تَجِدُ﴾ يا معز كل ذليل، ومدل كل دليل ﴿أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ بعد رجوعهم إليك شاكرين، صارفين ما آتيتهم من النعم إلى ما أمرتهم به.

ثم لما طرده الحق وأبعده وأنظره ابتلاء لعباده.

﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿ٱخْرُجْ﴾ أيها المردود المطرود ﴿مِنْهَا﴾ أي من عرصة

مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾

أهل التوحيد ﴿مَذْءُومًا﴾ حاملاً للمذمة ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطروداً مستوجباً للعنة وافعل بهم ما شئت، والله ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ بعدما أظهرتُهم على صورتي، وكرمتُهم بكرامتي على جميع خليقتي، ونفختُ فيهم من روحي، وتجليتُ عليهم بجميع أسمائي وأوصافي، وأرسلتُ إليهم أنبيائي ورسلي، وأنزلتُ عليهم كتبي لتبيين طريق توحيدي، لأطردنهم البتة عن عز حضوري، وأخرجنهم عن جنة سروري، واعلموا يا بني آدم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾ إن اتبعتم عدوي وعدوكم، فعليكم أن تجتنبوا عن غوائله.

﴿وَ﴾ بعدما طَردَ سبحانه إبليس حين امتنع عن السجود قال لآدم اختباراً وابتلاء وتوصية لحفظ مرتبته: ﴿يَا آدَمُ﴾ المكرم المسجود ﴿اسْكُنْ أَنتَ﴾ بمتابعة عقلك الموهوب لك من العقل الكلي ﴿وَزَوْجُكَ﴾ بمتابعة نفسها الفائضة عليها من النفس الكلية ﴿الْجَنَّةَ﴾ التي هي مقر أهل التوحيد، ومنزل أهل الولاء والتجريد من أرباب الوصول الفائزين بشرف القبول ﴿فَكُلَا﴾ منها واحظظا من لذاتها الروحانية من حقائقها ومعارفها وشهوداتها وكشوفاتها رغداً ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ التي هي من أغذية نفوسكم وأهوية هوياتكم ﴿فَتَكُونَا﴾ بتقربها وتناولها ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أمرنا وحكمنا المستحقين لطردنا ومقتنا.

فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ أي أوقعهما في الدغدغة بأمر الشجرة، وإن كان وسوسة أيضاً عن مقتضيات الحكمة المتقنة الإلهية، بعدما وصاهما الحق سبحانه ونهاهما عنه، وليس غرضه إلا نزع لباس الصيانة والتقوى عنهما ﴿لِيُبْدِيَ ﴾ أي يظهر ﴿لَهُمَا مَا وُۥرِيَ ﴾ أي غُطِّي وسُتِر ﴿عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾ التي هي من مقتضيات بشريتهما وهويتهما الباطلة ﴿وَ﴾ بعدما أشربهما الوسوسة ﴿ قَالَ ﴾ على وجه الشفقة والنصيحة وإرادة الخير: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ المباركة المزكية عنكم لوث بشريتكم ﴿إِلَّآ ﴾ كراهة ﴿ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ بتناولهما ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ فيها.

﴿وَ﴾ بعدما نصحهما وأشفقهما وسمعا منه ما سمعا ﴿قَاسَمَهُمَا﴾ أي بادر إلى القسم تأكيداً وترويجاً لقوله إياهما قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ المشفقين المريدين خيركما.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي أسقطهما عن معالي العز إلى مهاوي الذل ﴿بِغُرُورٍ ۚ ﴾ غرهما به على وجه الانتقام ﴿فَلَمَّا ﴾ سمعا قوله وقبلا غروره ﴿ ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ ﴾ مطمعين على ما أغراهما إليه من الشرف والخلود وبعدما ذاقا منها ﴿بَدَتْ ﴾ ظهرت ﴿لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ عوراتهما، إذ نزع عنهما لباس التقوى وثياب العصمة

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ....

﴿وَ﴾ بعدما نزع لباسهما ظهر سوءاتهما ﴿طَفِقَا﴾ أخذا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ يلصقان ويلزقان ﴿عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿الْجَنَّةِ﴾ قيل هي التينة وقيل الكرمة ﴿وَ﴾ بعدما ما بدا منهما ما بدا ﴿نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ موبخاً مقرعاً: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا﴾ أيها المعتديان[1] المسرفان ﴿عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٢٢)﴾ ظاهر العداوة، فلمَ تسمعا قوله، و تتبعا أمره؟ فلما سمعا من ربهما ما سمعا.

﴿قَالَا﴾ متضرعين متذللين معترفين على زلتهما: ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا على الكرامة لمقتضى فضلك وجودك ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بمتابعة عدونا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا﴾ ولم تتجاوز عنا ﴿وَ﴾ لم ﴿تَرْحَمْنَا﴾ بفضلك ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)﴾ خسراناً عظيماً.

ثم لما صدر منهما ما صدر بوسوسة عدوهما أمر سبحانه بإخراجهما عن دار السرور إلى دار الابتلاء والغرور حيث ﴿ قَالَ اهْبِطُوا﴾ انزلوا وانحطوا أيها المتجاوزون عن حدودنا أصلاً وفرعاً، تابعاً ومتبوعاً عن مقر العز ومرتبة الإطلاق والتجريد الخالي عن جميع الإضافات والتقييد إلى محل الكون والفساد ومنزل البغي والعناد إذ ﴿بَعْضُكُمْ﴾ في دار الدنيا التي هي نشأة الاختبار والابتلاء ﴿لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أبداً لا يرتفع الخصومة عنكم أصلاً

(١) في المخطوط (المعدان...) .

وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ....

﴿وَلَكُمْ﴾ أيها المتخاصمون ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي مرتع الطبيعة ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ موضع قرار ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ تمتع من لذاتها وشهواتها ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ أي إلى انقضاء آجالكم وانقطاع مآلكم.

ثم لما تحيروا واضطربوا في أمرهما وفساد حالهما ﴿قَالَ﴾ سبحانه منبهاً عليهما: ﴿فِيهَا﴾ أي في أرض الطبيعة ﴿تَحْيَوْنَ﴾ بالحياة الطبيعية ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿فِيهَا تَمُوتُونَ﴾ بالموت الطبيعي ﴿وَمِنْهَا﴾ أيضاً ﴿تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ لجزاء ما كسبتم من الخير والشر، والتقرب والخير، والتبعد في حياتكم الطبيعية التي هي دار الابتلاء ومزرعة الأجر والجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

ثم قال سبحانه منادياً لكم في مقام الامتنان وتعديد النعم والإحسان لتواظبوا شكر نعمه، وتداوموا على انقياده وإطاعته بعدما صدر عنكم الكفرُ والخروجُ عن مقتضى أمره ونهيه:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ المجبولين على فطرة الخلافة والنيابة ﴿قَدْ أَنزَلْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿عَلَيْكُمْ لِبَاسًا﴾ عقلاً مدبراً ﴿يُوَٰرِي﴾ ويستر بتدبيره ﴿سَوْءَٰتِكُمْ﴾ مقتضيات بشريتكم وبهيميتكم ﴿وَ﴾ أيضاً وهبنا لكم من غاية لطفنا ﴿رِيشًا﴾ معارف وحقائق تُزيِّنكم ونميزكم بها عن جميع المخلوقات، ونستخلفكم بسببها من بين سائر البريات ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ عن محارم الله والاجتناب عن منهياته خير لكم وحقيق لفطرتكم، فعليكم أن تلبسوها وتتحفظوا بها عما لا

ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ....

يليق بمرتبتكم وفطرتكم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي التقوى ﴿خَيْرٌ﴾ لكم إن أردتم أن تصلوا إلى مرتبة التوحيد التي جبلتم لأجلها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكور ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على استقلاله في ألوهيته وربوبيته، إنما أنزلها عليهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ رجاء أن يتذكروا نعمه فيعرفوا المنعم وينكشفوا بتوحيده.

ثم ناداهم وأوصاهم ثانياً بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ مقتضى خلافتكم ونيابتكم أن ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي لا يوقعنكم في الغي والضلال بغتةً ووسوسةً ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ بالفتنة والغرور ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ هي دار السرور وأهبطهما بوسوسته إلى الأرض التي هي محل الفساد ومنشأ الشرور حين ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ أي تسبب للنزع حين تغريرهما وإغرائهما إلى تناول المنهي ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ انتقاماً منهما[1]، فعليكم أيها الأبناء أن تجتنبوا عن غوائله وتتعوذوا إلى الله عن جميع مخايله وتتخذوه وقاية ووكيلاً حتى تتخلصوا عن وسوسة شياطين الأهواء المضلة، وعليكم ألا تغفلوا عنه إذ ﴿إِنَّهُۥ﴾ دائماً ﴿يَرَىٰكُمْ﴾ ويراقبكم ﴿هُوَ﴾ أي الشيطان نفسه ﴿وَقَبِيلُهُۥ﴾ جنوده الأمارة بالسوء رؤيةً صادرة عن محض العداوة ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ إذ هم مرتكزون في نفوسكم التي بين جنبيكم، يضلكم ويغويكم على صورة الهداية والإرشاد، فعليكم أن

---

(١) في المخطوط (عنكما).

إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ ....

تخالفوا أهواء نفوسكم وتجانبوا مناها ومشتهياتها، ومع ذلك تضرعوا نحونا وتعوذوا بنا ﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ مقتضى حكمتنا المتقنة ﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ مسلطين ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بتوحيدنا واستقلال استيلائنا.

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟﴾ أي هؤلاء الكافرون[1] بوسوسة الشياطين ﴿فَٰحِشَةً﴾ فعلة ذميمة قبيحة متناهية في القبح ﴿قَالُوا۟﴾ في الجواب: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ وهم يقولون ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ﴾ فيما أنزل علينا على لسان نبينا ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ﴾ أيها المفترون ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ لياقته بجنابه.

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى﴾ بمقضتى فضله وعدله على من أمر منه خُلّص عباده ﴿بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ أي العدل السوي في جميع مأموراته بلا ميل إلى جانبي الإفراط والتفريط ﴿وَ﴾ عليكم أيها المؤمنون أن ﴿أَقِيمُوا۟﴾ واستقيموا ﴿وُجُوهَكُمْ﴾ التي بها ميلكم وتوجهكم نحو الحق بلا ميلٍ إلى ما سواه ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تتذللون فيه وتتوجهون نحوه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱدْعُوهُ﴾ وتوجهوا نحوه حال كونكم مستقيمين فيه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ﴾ أي الطاعة والانقياد بلا شوب الغير والسوى مطلقاً، واعلموا أيها الأظلال ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ الله أي

(١) في المخطوط (أي هؤلاء الكافرين).

تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

أنشأكم وأظهركم من كتم العدم بمد ظلّه ورشّ نوره عليكم ﴿تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾﴾ إليه بقبض الظل وطيه في نشأتكم الأولى.

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَىٰ﴾ بتوفيق الله إلى مبدئه ومعاده ﴿وَفَرِيقًا﴾ ضل وغوى لذلك ﴿حَقَّ﴾ وثبت ﴿عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ في مكمن القضاء، وكيف لا يحيقهم[1] ويحيط بهم الضلالة ﴿إِنَّهُمُ﴾ من غاية غفلتهم ﴿ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ آلهة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ بسبب هذا الاتخاذ ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ إلى طريق النجاة بل ضالون تائهون.

﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ المجبولين على زي التقوى ولباس السلامة ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ﴾ التي زينكم الله بها من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ومقام تميلون فيه نحو الحق وجوهكم التي يلي الحق ﴿وَ﴾ لا تهملوا أمر مراكبكم التي هي نفوسكم وهوياتكم لئلا تبطلوا صنع الله ولا تخربوا بيته بل ﴿كُلُواْ﴾ مقدار سد الجوعة ﴿وَٱشْرَبُواْ﴾ قدر دفع العطشة ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ فيهما إلى حيث يؤدي إلى تقوية القوى البهيمية ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ ولا يرضى عن فعلهم لإخلالهم بإسراف الأكل والشرب على الميل الذي جبلوا لأجله، إذ الشبع يميت القلب وينقص الغريزة الإنسانية، ويزيد القوى البهيمية.

---

(١) في المخطوط (يحقهم).

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ........................

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمحجوبين من أهل الظاهر المحرومين عن الرزق المعنوي، المحرومين عن التوجه نحو التوحيد في هذه النشأة: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ﴾ وأظهر ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ الخلص من ذرائر الكائنات بتجليات الأسماء والصفات ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ المعنوي والمستلذات الروحانية ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هِىَ﴾ حاصلة ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالتوحيد الإلهي ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والنشأة الأولى حال كونهم مشوبة بالقوى البشرية والكدورات البهيمية ﴿خَالِصَةً﴾ لهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ بلا شوب كدورة حين انخلعوا من جلباب الهويات الباطلة والتعيينات العاطلة ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على توحدينا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ يذعنون بالإيمان ويتوجهون نحو الكشف والعيان.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل المولي لتدبير مصالح العباد: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ القبائح الصادرة من أولي الأحلام السخيفة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ من الظلم وشهادة الزور ورمي المحصن والغيبة والنميمة وغيرها من القبائح التي ظهرت من الألسنة والأيدي ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ من القبائح التي صدرت من الفروج ﴿وَ﴾ بالجملة كل ما يوجب ﴿ٱلْإِثْمَ﴾ المستلزم للانتقام والعقاب ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾ أي الحروب على الولاة وجمهور المسلمين ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ بلا رخصة شرعية

مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ....

﴿وَ﴾ أعظم المحرمات جرماً وأشدها انتقاماً ﴿أَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾ المتوحد بذاته ﴿مَا﴾ أي شيئاً من مصنوعاته مع أنه ﴿لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ حجة وبرهاناً ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ افتراءً ومراءً ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ثبوتَهُ له، لا عقلاً ولا نقلاً.

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم العاصية الضالة ﴿أَجَلٌ﴾ مقدر من عند الله لمقتهم وهلاكهم ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدَّر المبرم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي لا يسع لهم فيه طلب التأخير على مقتضى أهويتهم ولا طلب التقديم تخليصاً لنفوسهم من الأذى، بل أمره حتمٌ نازلٌ في وقته وحينه بلا تخلل تقدم وتأخر، لكمال قدرته ومتانة حكمته.

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾ المستكملين القابلين للإرشاد والتكميل المستعدين لفيضان كمال التوحيد ﴿إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي أن يأتينكم ويرسلن إليكم ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ من جنسكم وبني نوعكم، إذ هم أدخل لنصحكم وإرشادكم وأنسب لجذب قلوبكم وأشفق عليكم من الأجانب حال كونهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ المنزلة من عندي، الدالة على وحدة ذاتي فعليكم أن تصدقوهم وتؤمنوا لهم وبما جاؤوا به من عندي من الأوامر والنواهي ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ منكم عن محارم الله بواسطة رسله وآياته ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي أخلص أعماله لله بلا ترقب على الجزاء[1]

---

(١) في المخطوط (بلا ترقب على الخبراء).

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا ....

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ لا في النشأة الأولى ولا في الأخرى ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾ عن سوء المنقلب والمثوى.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ المنزلة على رسلنا ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ﴾ وعمن أنزلت عليه عتواً وعناداً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المكذبون المستكبرون ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ﴾ المعدة لجزاء المخذولين من أهل الضلال ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ لا نجاة لهم منها أصلاً.

نعوذ بك من سخطك يا ذا القوة المتين.

وبعد ما أرسل الرسل وأنزل الكتب.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي نسب إليه ما لم يصدر عنه افتراء وكذباً ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ﴾ الصادرة عنه عناداً ومكابرة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المفترون[1] المكذبون ﴿يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ﴾ أي مما كتب في اللوح وثبت فيه من العذاب والنكال لذوي الجرائم العظام.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي ملائكتنا الموكلون ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ لتوفية حساب العصاة ﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الملائكة لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ من الآلهة الباطلة وتعتقدونهم شفعاء ﴿قَالُوا۟﴾

(١) في المخطوط (المعيرون).

وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ....

متضرعين مضطرين: ﴿ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ أي غابوا عنا بعدما أضلونا عن طريق الحق ﴿وَشَهِدُوا۟﴾ واعترفوا ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟﴾ في مدة حياتهم ﴿كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ضالين.

﴿قَالَ﴾ سبحانه من وراء سرادقات العز والجلال على مقتضى عدله: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾ أيها الضالون المكذبون ﴿فِىٓ﴾ زمرة ﴿أُمَمٍ﴾ عاصية كافرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مضت ﴿مِن قَبْلِكُم﴾ على الكفر والضلال أمثالكم ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ المعدة لجزاء العصاة الغواة الكفرة، وبعد صدور الأمر الوجوبي منه سبحانه صاروا بحيث ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ﴾ في نار الخذلان ﴿لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ التي أضلتها ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟﴾ وتلاحقوا ﴿فِيهَا جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ أي مستأخرهم ﴿لِأُولَىٰهُمْ﴾ أي لأجل مستقدميهم وفي حقهم متضرعين إلى ربهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الضالون المضلون ﴿أَضَلُّونَا﴾ عن طريقك بوضع سنن الضلال بيننا فاقتدينا بهم فضللنا ﴿فَـَٔاتِهِمْ﴾ الآن وأنزل عليهم ﴿عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي مثل عذابنا لأنهم ضالون مضلون ﴿قَالَ﴾ سبحانه على مقتضى عدله: ﴿لِكُلٍّ﴾ منكم أيها الأتباع ومن متبوعيكم ﴿ضِعْفٌ﴾ من النار، أما المتبوعون فلضلالهم وإضلالهم، وأما التابعون فلضلالهم وتقليدهم بهؤلاء

وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

المضلين لا بالأنبياء ﴿وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ استحقاقكم واستحقاقهم.

﴿وَ﴾ بعد ما سمعتْ الأولى من الأخرى ما سمعتْ ﴿قَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ﴾: إنا وأنتم مساوون في الضلال ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ تستحقون به تخفيف العذاب ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ كما نذوق بما نكسب.

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا ﴿وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا﴾ ولم يؤمنوا لها عتواً وعناداً ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي الفيوضات والفتوحات من سماء الأسماء والصفات حتى ينكشفوا بوحدة الذات ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي مقر التوحيد ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ﴾ أي دخولهم في مقر التوحيد في الاستحالة كولوج الجمل في سم الخياط بل أشد استحالة، هذا مثل يُضرب في الممتنعات والمستحيلات ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ المخرجين عن ساحة عز التوحيد بجرائم أهوية هوياتهم الباطلة.

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ﴾ الإمكان ﴿مِهَادٌ﴾ فراشٌ يحترقون عليه بنيران الأمنية والأهوية الفاسدة ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ﴾ أغطيةٌ من سعير الجاه والمال ودعوى

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ ....﴾

الفضل والكمال ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ المتجاوزين عن حدود الله بمقتضيات نفوسهم المنغمسة في اللذات الحسية والوهمية والخيالية.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوحيد الله ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة نحوه على مقتضى استعداداتهم وقابلياتهم ومقدار وسعهم وطاقتهم إذ ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الباذلون جهدهم في سلوك طريق الفناء ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ﴾ المعدة لأرباب الولاء، المتمكنون في مقام الرضا بما جرى عليهم من القضاء ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ ما شاء الله، إذ لا حول ولا قوة فيها إلا بالله.

﴿وَ﴾ بعدما ما دخلوا جنة التوحيد ﴿نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ مشعر بالاثنينية والأنانية إذ ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُۖ﴾ أي جداول المعارف والحقائق المترشحة من بحر الوحدة ﴿وَ﴾ بعدما كوشفوا بفناء تعيناتهم وفازوا بالبقاء السرمدي الإلهي ﴿قَالُواْ﴾ بلسان استعداداتهم بإلقاء الله إياهم ليتحققوا بمقام الشكر: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والثناء المنبعث من محض التسليم والرضا ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي أوصلنا بمقام الرضا وشرف البقاء واللقاء ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ﴾ بأنفسنا

لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ....

لو بقينا في مجلس هوياتنا ومضيق تعيناتنا ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ بلطفه وسعة جوده ورحمته، وحين تمكنوا في مقام الكشف والشهود أقسموا بالله ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ لإرشادنا ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ المطابق للواقع في جميع ما جاؤوا به ﴿وَ﴾ بعدما تحققوا بمقام الشكر واعترفوا بما اعترفوا ﴿نُودُوٓاْ﴾ من وراء سرادقات العز والجلاء: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي التوحيد الذاتي ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ أعطيتم بها ومكنتم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ بمقتضى أوامر الله ونواهيه وإرشاد رسله وتذكير كتبه.

﴿وَ﴾ بعدما تمكن أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ﴿نَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ ليفتضحوا على رؤوس الأشهاد: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ من المواعيد والتبشيرات على ألسنة الرسل وكتبه ﴿حَقًّا﴾ يقيناً بعدما تيقناه علما وعيناً فيما مضى ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم﴾ أيها المحبوسون في سجن الإمكان ونار الحرمان ﴿مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من الوعيدات والإنذارات الشديدة الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿حَقًّا﴾ مطابقاً للواقع ﴿قَالُواْ﴾ متحسرين بحالهم مضطرين عماهم عليهم: ﴿نَعَمْ﴾ قد أصبنا ما كذبنا وحققنا ما أبطلنا وبعدما جرى بينهم ما جرى من المقاولة ﴿فَأَذَّنَ﴾ صوت ﴿مُؤَذِّنٌۢ﴾ هاتف وراء سرادقات الجلال ﴿بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ أي طرده ومقته نازل ثابت ﴿عَلَى

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ ....

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ينصرفون وينحرفون ﴿عَن﴾ استقامة ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الموصل إلى توحيده ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون منها زيفاً وضلالاً ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ مكذبون منكرون.

﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي بين الموحدين المتمكنين في نعيم الجنان، المشرفين بشرف لقاء الرحمن والمشركين المحبوسين في سِجّين الإمكان، المحترقين بنيران الخذلان والحرمان ﴿حِجَابٌ﴾ لا يدرك كنهه إلا العليم العلام ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ أي البرزخ ﴿رِجَالٌ﴾ من الأبرار ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا﴾ من الفريقين ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي بوجوههم التي يلي الحق والباطل وهم متقررون في البرزخ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴿وَنَادَوْا۟﴾ أهل البرزخ ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هنيئاً لكم ما تتنعمون فيها وتتمتعون بها حال كونهم ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ دخولها من فضل الله وسعة رحمته وجوده.

﴿۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي أبصروا بذلك البرزخ[1] ﴿تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟﴾ متضرعين متخشعين: ﴿رَبَّنَا﴾ وإن صدر عنا من التقصير ما صدر ﴿لَا تَجْعَلْنَا﴾

(١) في المخطوط (تلك البرزخ).

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ

بلطفك ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الخارجين عن حدودك مطلقاً عناداً وإصراراً.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ﴾ على وجه التوبيخ والتقريع ﴿رِجَالًا﴾ من صناديدهم كانوا ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بوجوههم الباطلة من المال والجاه والرياسة والتفوق وغيرها ﴿قَالُواْ﴾ لهم متهكمين: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي ما أسقط جمعكم المال وجمعيتكم بسبب الجاه شيئاً من عذاب الله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي ما يفيد لكم استكباركم على خلق الله وعن آياته اليوم. انظروا أيها الحمقى

﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ المترفهون المتنعمون في مقر العز والتمكن هم ﴿ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ﴾ في النشأة الأولى أنهم ﴿لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ في النشأة الأخرى كيف قيل لهم من قبل الحق تفضلاً وامتناناً عليهم: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي هي دار الأمن والأمان ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ بعدما دخلتم فيها ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أصلاً من فوت شيء وتعويقه.

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ متمنين منهم متحسرين: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ﴾ صبوا ﴿عَلَيْنَا﴾ رشحةً ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ الذي هو سبب حياتكم الحقيقي وبقائكم السرمدي ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ من الرزق المعنوي

حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى ....

﴿قَالُوٓا۟﴾ في جوابهم بإلهام الله إياهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطَّلع لاستعدادات عباده ﴿حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ﴾ الذي هو سبب الحياة الحقيقية في حياتهم الصورية ونشأتهم الدنيوية ﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ يلهون ويلعبون به ويكذبون من أرسل إليهم وأنزل عليهم الكتب لتبيينه[1] ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿غَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بمزخرفاتها من اللذات الجسمانية والشهوات النفسانية، وصاروا بسبب تغريراتها ناسين العهود والمواثيق التي جرت بيننا وبينهم في بدء فطرتهم ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أي حين كشف السرائر وارتفعت الحجب ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ ولم نلتفت نحوهم ﴿كَمَا نَسُوا۟﴾ في النشأة الأولى ﴿لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ في النشأة الأخرى مع ورود الإنذارات والتخويفات الجارية على ألسنة الرسل والكتب ﴿وَمَا﴾ أي وكما ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على أمثال هذه الإنعامات ﴿يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ ينكرون ويصرون، كذلك يخلدون في النار وينسون.

﴿وَ﴾ كيف لا يخلدون في النار ﴿لَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ مبين لجميع أحوال النشأتين ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ أي أوضحنا معانيه وبينا ما فيه من العقائد والأحكام مفصلاً ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ حضوري منا متعلق بتفصيله بحيث لا يشذ عن علمنا شيء

---

(١) في المخطوط (أمن أرسل معه وأنزل لتبيينه).

وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

أصلاً، وإنما فصلناه وأوضحناه وجئنا به ليكون ﴿هُدًى﴾ هادياً ومرشداً لهم إلى توحيدنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ مخلصة لهم عن سجن الطبيعة ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ به وبحقيقته.

وبعدما آمنوا به وبما فيه من أحوال النشأة الأولى والأخرى.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي ما ينتظرون هؤلاء المؤمنون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي ما يؤول إليه ويترتب عليه بعدما حصل لهم الإذعان بالوقوع ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ﴾ ونبذوه وراء ظهورهم ﴿مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ ملتبساً ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع فكذبناهم مكابرة وعناداً ﴿فَهَل لَّنَا﴾ اليوم ﴿مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ ليخلصونا من نكال ما أجرمنا ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ بشفاعتهم على أعقابنا ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في أيام الغفلة وهم ﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالكفر والشرك وعبادة الغير ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ضَلَّ﴾ غاب وخفي ﴿عَنْهُم﴾ لدى الحاجة ﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ لشركائهم من الشفاعة والمظاهرة.

وكيف لا تتنبهون وتنكشفون أيها المجبولون على فطرة التوحيد ومن الذات المستجلي في الآفاق بالاستقلال.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأظهر وأوجد ﴿السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ ....

بينهما من كتم العدم بامتداد أظلال أوصافه وأسمائه عليها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أوقات ودفعات ليشير إلى إحاطته بالجهات كلها ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي على عروش المظاهر والمكونات الكائنة والأقطار، منزهاً عن الجهات والاستواء والاستقرار والتمكن مطلقاً، ورتب أمور المكونات على حركات الأفلاك بحيث ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغطي بالليل وجه النهار مع أن النهار ﴿يَطۡلُبُهُۥ﴾ أي يعقبه ﴿حَثِيثٗا﴾ سريعاً ﴿وَ﴾ جعل ﴿ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ يتحركن حيث أمرها الحق سبحانه ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس المستهلكة أن ﴿لَهُ﴾ سبحانه وفي قبضة قدرته ﴿ٱلۡخَلۡقُ﴾ والإيجاد والإظهار ﴿وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ أي التدبير والتصرف بالاستقلال، وبالجملة ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي تعاظم في ألوهيته عن أن يدركه العقول والأفهام، وتعالى في ربوبيته عن المظاهرة والمشاركة والأمثال والأشباه.

﴿ٱدۡعُواْ﴾ أيها المجبولون على فطرة التوحيد ﴿رَبَّكُمۡ﴾ المتفرد بتربيتكم وإظهاركم ﴿تَضَرُّعٗا﴾ متضرعين ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾ كاتمين خائفين خاشعين عن ظهر القلب لا مقلقلين على طرف اللسان عادين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ المجاوزين المجاهرين الملحّين في الدعاء، إذ

وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ ....

علمه بحالهم يغني عن سؤالهم.

﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ التي هي محل الكون والفساد ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿وَادْعُوهُ﴾ سبحانه إن أردتم الالتجاء إليه والمناجاة معه ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي خائفين من رده بمقتضى قهره وانتقامه راجين قبوله من فضله وإحسانه ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ المجيب للمضطرين عناية ولطفاً ﴿قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه ويقومون بين يديه خائفاً مستحيياً[1] من سطوة سلطته وقهره وجلاله طامعاً راجياً من طَوله ونواله.

﴿وَ﴾ كيف لا يكون رحمته قريبة من المؤمنين المحسنين ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ﴾ أي يثيرها ﴿بُشْرًا﴾ مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ قدام روحه ورحمته ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ﴾ حملت وأثقلت وجمعت من البخارات المتراكمة ﴿سَحَابًا﴾ غليظاً ﴿ثِقَالًا﴾ بالأجزاء المائية ﴿سُقْنَاهُ﴾ من غاية لطفنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ يابس لأجل إحيائه ونضارته ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي بالبلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ المحيي ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ﴾ أي بالماء ﴿مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي أنواعها وأجناسها المختلفة بالألوان والطعوم ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إخراجنا بالماء الصوري

(١) هكذا في مواضيع كثيرة ينتقل من الجمع إلى المفرد ومن المذكر إلى المؤنث وبالعكس

﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾

أنواع الثمرات من البلد الميت، نخرج بالماء المعنوي الذي هو العلم اللدني من أراضي القابليات واستعدادات الموتى المحجوبين بالحجاب الظلماني والجهل الجبّلي الهيولاني، بإرسال رياح أنفاس الأنبياء والأولياء المستنشقة من النفس الرحماني مبشرات بالكشوف والمشاهدات، حتى إذا اجتمعت صارت سحاباً شرعياً ثقيلاً بمياه الحكمة والتقوى، سقناه من غاية جودنا إلى بلاد النفوس الميتة اليابسة، فأجرينا فيها أنهار المعارف والحقائق المنتشئة من قلوب الأنبياء والأولياء، فأخرجنا به ثمرات اليقين العلمي والعيني والحقي ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ في النشأة الأخرى ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٥٧﴾ فتعرفون قدرتنا على جميع مقدوراتنا ومراداتنا.

﴿وَ﴾ بعد سوقنا مياه جودنا إلى أموات ﴿ٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي هو نجيب المنبت، لطيف الطينة، قابل التربية ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ أي بتوفيقه سبحانه وتربيته جيداً نافعاً كثيراً على مقتضى استعداداه الفطري ﴿وَ﴾ البلد ﴿ٱلَّذِى خَبُثَ﴾ طينته وقل قابليته كالحرة والسبخة ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته بعد إجراء المياه اللطيفة عليه ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ قليلا غير نافع بل ضارٍ كالنفوس المنهمكة في الغفلة والضلال إلى حيث لا يؤثر فيها مياه الحكم والمعارف الجارية على ألسنة الرسل لخباثة طينتها وقلة قابليتها ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ﴾ نردد ونكرر ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على استقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾ نعمتنا

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾

ويتفكرون في آلائنا، ويعتبرون بها إلى أن يستغرقوا في مطالعة جمالنا.

ثم أشار سبحانه إلى تفاوت الاستعدادات واختلاف القابليات بتفصيل الأمم الهالكة بموت العناد والجهل لخبث طينتهم فقال مقسماً:

وَاللهِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ رسولنا ﴿نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعدما انصرفوا وانحرفوا عن طريق الحق بالميل إلى الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿فَقَالَ﴾ لهم نوح إمحاضاً للنصح على وجه الشفقة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟﴾ أيها المنهمكون في الغفلة ﴿ٱللَّهَ﴾ المتوحد في الألوهية، المتفرد في الربوبية، المستحق للعبودية، واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ معبودٍ بحق ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ ينقذكم من عذابه وإن لم تعبدوه وتوحدوه ﴿إِنِّىٓ﴾ بعد ما أوحي إلي من عنده إهداءكم وتنبيهكم إلى توحيده ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ هو يوم الطوفان في النشأة الأولى ويوم القيامة في النشأة الأخرى.

وبعدما سمعوا مقالته ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ﴾: يا نوح ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ ظاهر لائح، تأمرنا بترك عبادة الآلهة المحققة وتدعونا إلى إلهٍ واحد موهومٍ أبدعته من عند نفسك.

﴿قَالَ﴾ أيضاً على مقتضى شفقة النبوة لعلهم يتنبهوا: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ كما تخيلتم من جهلكم ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ هادٍ لكم مرسلٌ ﴿مِّن رَّبِّ

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ ....

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ الذي أوجدكم ورباكم بأنواع التربية حتى تعترفوا بربوبيته وتقروا بتوحيده.

وإنما جئت لكم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ بآياته سبحانه حتى تفوزوا من عنده بالمثوبة العظمى والمرتبة العليا بإهدائي وإرشادي ﴿وَ﴾ لا تضعفوني ولا تنسبوني إلى الجهل والسفه إني ﴿أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ بتوفيقه وحيه وجذبٍ من جانبه ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ منه، أكذبتموني وأنكرتموني.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ من ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ موعظة وتذكير لإرشادكم ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ﴾ لسان ﴿رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ به عن الكفر والمعاصي ووخامة عاقبتهما ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ عن محارم الله بسبب إنذاره وتخويفه ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بإثبات مأموراته وترك منهياته عناية وتفضلاً

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما ضعفوه ونسبوه إلى الضلال فانتقمنا منهم وأخذناهم بالطوفان ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَ﴾ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ حال كونهم متمكنين ﴿فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾ المنزلة على رسولنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ غير مستبصرين بآيات الله الدالة على توحيده لعمي قلوبهم وفسادهم وعمههم في الغفلة والضلال.

أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ....

﴿ ۞ وَ﴾ أرسلنا أيضاً ﴿إِلَىٰ﴾ قوم ﴿عَادٍ﴾ حين خرجوا عن ربقة الإيمان وعرى التقوى ﴿أَخَاهُمْ هُودًاۗ﴾ أضافه إليهم بالأخوة لكمال الشفقة ووفور الأعطاف ﴿قَالَ﴾ منادياً لهم مضيفاً لهم إلى نفسه ليقبلوا قوله ويمتثلوا بما جاء به من ربه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ المُظهر الموجد لكم من كتم العدم ورباكم بأنواع اللطف والكرم واعتقدوا يقيناً أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ موجد مربٍّ ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ فعليكم أن تعبدوه إيماناً به وعملاً بما جاء عنده لأنبيائه حتى يتحققوا بمقر التوحيد، أتنكرون وحدة الحق؟ وتعبدون غيره من الآلهة الباطلة ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ عن بطشه وأخذه.

فلما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ ـ إذ بعض الأشراف آمن به كمرثد بن سعد: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ عظيمة في دعوى الإرشاد والتكميل ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ﴾ في ادعاء الرسالة والنبوة ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ لا تسفهوني إذ ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ﴾ أُرسل إليكم لإهدائكم ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾، جئتكم:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ فعليكم أن تتعظوا بنصحي وتتصفوا بما نصحت لكم بإلهام الله ووحيه لتكونوا من زمرة المؤمنين الموقنين.

أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ ....

﴿أَ﴾ أنكرتم وكذبتم أمري وإهدائي ﴿وَعَجِبْتُمْ﴾ من انهماككم في الغي والضلال من ﴿أَن جَآءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ﴿ذِكْرٌ﴾ عظة وتذكير ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ عما يضلكم ويغويكم تفضلاً وامتناناً عليكم؟ ﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال هذا ولا تنكروها بل ﴿اذْكُرُوا﴾ نعمه عليكم ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴿وَزَادَكُمْ﴾ بسببها ﴿فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ تفوقاً واستعلاء ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟﴾ أيها المترفهون بنعم الله ﴿ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ الفائضة عليكم واشكروا لها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ تفوزون من عنده بشرف الرضا والتسليم.

ثم لما بالغ في نصحهم وإرشادهم وبذل جهده في أداء الرسالة والتبليغ ﴿قَالُوٓا۟﴾ في جوابه من غاية قسوتهم ونهاية حميتهم مستفهماً مقرِّعاً: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها الكذاب السفيه ﴿لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ الذي ادعيت أنت أنه ﴿وَحْدَهُۥ﴾ لا شريك له ولا إله سواه ﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ من الآلهة، فاذهب أنت وإلهك إذ لا نؤمن بك وبه أصلاً وإن شئت ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب والنكال ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ في دعواك.

ثم لما آيس هو من هدايتهم وصلاحهم.

قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) ....

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ﴾ وجب وحق ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ عذاب شديد تضطربون به ﴿وَغَضَبٌ﴾ نازلٌ من عنده بحيث يستأصلكم بالمرة ﴿أَتُجَادِلُونَنِي﴾ أيها المغضوبون بغضب الله ﴿فِي أَسْمَاءٍ﴾ أشياءٍ ﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ من تلقاء أنفسكم آلهة تعبدونها كعبادة الله مع أنه ﴿مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ حجةٍ وبرهانٍ تستدلون بها على عبادة هؤلاء التماثيل العاطلة والمفتريات الباطلة وبعدما ظهر الحق فلم تقبلوا أيها المسرفون ﴿فَانتَظِرُوا﴾ نزول العذاب ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١)﴾.

رُوِيَ أنهم كانوا يعبدون الأصنام فلما بُعث إليهم هود كذبوه وأصروا على ما هم عليه عتواً وعناداً التماثيل العاطلة، فأمسك الله القطر عنهم ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان من عادتهم إذا نزل عليهم البلاء توجهوا نحو البيت الحرام، وتقربوا عندها وطلبوا من الله الفرج، فجهزوا إليه: قيل ابن عنز، ومرثد ابن سعد في سبعين من أعيانهم وكان إذ ذاك بمكة العمالقة أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وسيدهم معاوية بن بكر، فلما قدموا عليه وهو بظاهر مكة أنزلهم وأكرمهم، فلبثوا عنده شهراً ثم قصدوا البيت ليدعوا.

قال مرثد: والله لا يسقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم، وتبتم إلى

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ﴾ ....

الله، لأُسقيتم، فقالوا لمعاوية: احبس منا مرثداً لا يقدمن معنا مكة[1]، فإنه قد اتبع دين هود، وترك ديننا، فحبسه ثم دخلوا مكة.

فقال قيل: اللهم اسق ما كنت تسقيهم، فأنشأ الله سحابات ثلاث: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم نادى منادٍ من جانب السماء: اختر يا قيل لنفسك ولقومك منها ! فقال: اخترت السوداء لأنها أكثرهن ماء، فخرجت على عادٍ من وادي المغيث، فاستبشروا بها واستعجلوا لنزولها، وقالوا: هذا عارض ممطرنا ! بل ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم، فجاءتهم ريح عقيم فأهلكتهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي هوداً ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ آمنوا ﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ لإيمانهم وانقيادهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ﴾ بأن استأصلناهم ﴿وَ﴾ هم ﴿مَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ بنبينا وكتابنا ولا من شأنهم التصديق.

﴿وَ﴾ أرسلنا أيضاً ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ ۖ﴾ معجزة ظاهرة الدلالة على صدقي في دعواي نازلة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ أظهرها ﴿لَكُمْ ءَايَةً ۖ﴾ دالةً على صدقي في قولي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ﴾ حيث

---

(١) في المخطوط (ليقدمن معنا مكة).

وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ ....

شاءت ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ وإن آذيتموها بسوء ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾﴾ مؤلم مفظع مستأصل، فعليكم أن تحفظوها حتى لا ينزل عليكم العذاب.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ أيها المتنعمون نعم الله عليكم سيما ﴿إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مكنكم ووطنكم وكثركم في الأرض التي هم فيها حال ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا﴾ لَبناً وآجراً وتبنون ﴿قُصُورٗا﴾ عاليات تسكنون فيها مترفهين ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ تشقون بالمعاول ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ المتحجرة ﴿بُيُوتٗاۖ﴾ لحفظ أمتعتكم ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ المترادفة المتوالية عليكم وقوموا بشكرها ليزيد عليكم سبحانه ويديم لكم ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ أي لا تظهروا ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ بغرور الأموال والأولاد والأمتعة.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ عن الإيمان والاتّباع له ﴿مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ إياهم واستذلهم ﴿لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء ﴿أَتَعۡلَمُونَ﴾ يقيناً أيها الحمقى المصدقون له المؤمنون ﴿أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ الذي ادعى وحدته

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ٧٥ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٧٦ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ ....

واستقلاله في الألوهية والربوبية ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي المؤمنون المخلصون من صفاء عقائدهم ونجاة طينتهم على سبيل التأكيد والمبالغة: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ﴾ أي بجميع ما أرسل ﴿بِهِۦ﴾ من عند ربه ﴿مُؤۡمِنُونَ ٧٥﴾ مصدقون موقنون.

﴿قَالَ﴾ الملأ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ عناداً ومكابرة: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ بمتابعة صالح ﴿كَٰفِرُونَ ٧٦﴾ منكرون مكذبون، ثم لما كفروا وكذبوا مصرين:[1]

﴿فَعَقَرُواْ﴾ أي نحروا ﴿ٱلنَّاقَةَ﴾ التي هي آية الله عليهم ووديعة الله عندهم، قد أوصاهم سبحانه أن لا تمسوها بسوء وهم قد هلكوها عناداً ﴿وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ استكباراً ﴿وَقَالُواْ﴾ لنبيه بطراً واستهزاء ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ الكذاب المدعي ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ﴾ صدّقت أنك ﴿مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٧٧﴾ فلما فعلوا ما فعلوا وقالوا ما قالوا استحقوا ما وعدوا وأوعدوا.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الصيحة الهائلة ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ أي صار كل منهم جاثماً جامداً إلى حيث لا يتحرك منهم أحد.

روي أنهم كانوا في منازل عاد يعيشون فيها متنعمين مترفهين إلى أن كثرهم الله وعمرهم أعماراً طوالاً واقتضى طول أملهم أن نحتوا من الجبال

---

(١) في المخطوط (أي).

....

بيوتاً يخزنون فيها أمتعتهم ويبنون قصوراً عاليات في السهول، إذ كانوا في خصب وسعة فقروا على ما هم عليه وأفسدوا في الأرض بأنواع الفسادات، وبالغوا في عبادة الأصنام فبعث الله إليهم صالحاً وهو من أشرافهم فدعاهم إلى الإيمان والتوحيد فسألوا منه آيةً فقال: أية آية تريدون ؟

قالوا: أخرج معنا إلى عيدنا فادع إلهك وندعو إلهنا فمن استجيب اتُّبع، فخرج معهم فدعوا أصنامهم فلم يجابوا، ثم أشار سيدهم جندع بن عمرو إلى صخرة منفردة يقال لها: الكاثبة وقال لصالح: أخرج من هذه الصخرة ناقة جوفاء وبراء فإن خرجت صدّقناك وآمنا بك.

فأخذ صالح عليه السلام عنهم المواثيق إن أخرجت لتؤمنوا له، فعهدوا، فصلى ودعا ربه فتمخضت الصخرة تمخض النتوج[1] بولدها، فانصدعت عنه ناقة عشراء جوفاء وبراء كما وصفوا، وهم ينظرون ثم أنتجت ولداً مثلها في الكبر، فآمن له جندع في جماعةٍ ومنع الباقين دوار بن عمرو، والخباب صاحب أوثانهم، ورباب بن صمغر كاهنهم، فمكثت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وترد الماء غباً فما ترفع رأسها من البئر حتى تشرب كل ما فيها، ثم تتفجج فيحلبون ما شاؤوا حتى تمتلئ أوانيهم ويدخرون، وكانت تصيف في ظهر الوادي، فتهرب منها مواشيهم وتشتو في بطنه فتهرب أنعامهم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم فهموا بقتلها، وزينت لهم قتلها أم غنم وصدقتها بنت المختار، فعقروها واقتسموا لحمها.

(١) الناقة التي تلد.

فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ....

فرقى ولدها جبلاً اسمه قارة، فرغا ثلاثاً فقال صالح عليه السلام: أدركوا الفصيل عسى أن يرفع عنكم العذاب فلم يقدروا عليه، وانفتحت الصخرة بعد رغائه فدخلها.

فقال صالح عليه السلام: تصبح وجوهكم غداً مصفرةً، وبعد غدٍ محمرةً، واليوم الثالث مسودةً، ثم يصبحكم العذاب، فلما رأوا العلامات، هموا أن يقتلوه، فأنجاه الله تعالى إلى أرض فلسطين ولما كانت ضحوة اليوم الرابع، وتكفنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ وأعرض صالح عليه السلام ﴿عَنْهُمْ﴾ بعد ما ظهر عليهم أمارات عذاب الله وعلامات الانتقام ﴿وَقَالَ﴾ متحسراً متأسفاً حين تجانب عنهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ المبالغين في الإعراض عن الحق ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ وبذلت جهدي في إهدائكم ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ إشفاقاً عليكم حتى لا يلحقكم العذاب الموعود ﴿وَلَٰكِن﴾ أنتم قوم مستكبرون في أنفسكم مصرون معاندون ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ فلحقكم ما أخاف عليكم بالإعراض عما أُمرتم به.

﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ المبالغين في ارتكاب الفعلة القبيحة والديدنة الشنيعة على وجه التوبيخ والتقريع: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وترتكبون ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ المتناهية في القباحة والفضاحة مع أنها ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ بل أنتم اخترعتموها من خباثة نفوسكم ورداءة طباعكم.

إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها المتجاوزون عن حدود الله ومقتضى حكمته ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ أي حال كونكم متلذذين مشتهين لإتيانهم ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ مع أن الحكمة تقتضي إتيانهن وما هو من جهلكم بقبحها وخباثتها ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ في الفساد والخروج عن مقتضى الحكمة الإلهية بمتابعة أهويتكم الباطلة.

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ حين سمعوا منه ما سمعوا ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ مستكبرين مستنكرين منهمكين: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ أي لوطاً ومن آمن له ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ يدّعون التطهر عن الخبائث ويجتنبون عن الفواحش فلا يناسبهم الإقامة فينا.

ثم لما لم يمتنعوا بقوله بل زادوا الإصرار والعداوة، أخذناهم بظلمهم وإسرافهم.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ أي من آمن له مما أصابهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ لأنها تسر الكفر لذلك ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ الهالكين بقهر الله.

﴿وَ﴾ بعدما أخذناهم ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ أي مطراً وحجارة من سجيل فاستأصلناهم به ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ المصرين على الجرائم العظائم مع إرسال الرسل

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ....

الهادين لهم إلى طريق النجاة، الزاجرين عما هم عليه من القبائح على أبلغ وجه وآكده.

﴿وَ﴾ أيضاً أرسلنا ﴿إِلَىٰ﴾ قوم ﴿مَدْيَنَ﴾ وهم قرية شعيب عليه السلام ﴿أَخَاهُمْ﴾ وابن عمهم ﴿شُعَيْبًا ۗ﴾ عليه السلام حين أفرطوا في التطفيف والتخسير ﴿قَالَ﴾ لهم منادياً على وجه الشفقة والنصيحة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المتوحد المستقل في الألوهية واعلموا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يعبد بالحق ﴿غَيْرُهُۥ ۖ﴾ وأنه ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ﴾ عظيمة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ الذي رباكم بأنواع اللطف والكرم دالةً على القسط والعدالة في المعاملات الصورية ليفوزوا بها إلى الاعتدال المعنوي والقسط الإلهي ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ﴾ أي وفّوا حقه ﴿وَ﴾ أقيموا ﴿ٱلْمِيزَانَ وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوا من حقوقهم شيئاً ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تُفْسِدُوا۟﴾ مطلقاً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ التي وضعت للعدالة والصلاح سيما ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ أي بعد إصلاحنا أمرها بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي العدل والصلاح وامتثال الأوامر ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ موقنين بعدل الله وصراطه المستقيم.

وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ ....

وعليكم أن تتوجهوا نحو طريق الحق بالعزيمة الصحيحة.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ أي لا تترصدوا ﴿بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ طريق ومذهب من الطرق الباطلة حال كونكم ﴿تُوعِدُونَ﴾ وتخوفون الناس عن سلوك طريق الحق ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ضعفاء ﴿مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ بإلقاء الشبه والرخص في قلوبهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تطلبون أن تنسبوا عوجاً وانحرافاً إلى سبيل الحق والطريق المستقيم لينصرف الناس عنه، وعليكم أن لا تميلوا عن مخالفة أمر الله ونهيه ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟﴾ نعمه عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عدداً وعُدداً ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ قوّاكم وأظهركم واشكروا نعمه عليكم ليدوم ويزيد ولا تكفروها ﴿وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المكفرين لنعم الحق من الأمم الهالكة واعتبروا من حالهم ومآلهم.

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ من العدالة الصورية والمعنوية ﴿وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ عناداً واستكباراً ﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ﴾ بمقتضى عدله ﴿بَيْنَنَا﴾ أي بين الفريقين

وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ

بالنصر على من آمن والقهر على من كفر واستكبر ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ يحكم بمقتضى حكمته المتقنة المتفرعة على العدالة الحقيقية.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا.

﴿۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ على وجه المبالغة والتأكيد وعدم المبالاة: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ البتة ﴿يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾ وصدقوا قولك ﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾ كرهاً وإجلاءً ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ أنت ومن معك ﴿فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ التي كنتم عليها من قبل ﴿قَالَ﴾ عليه السلام مستبعداً مستنكراً: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا﴾ في الأيام السالفة أيضاً ﴿كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ منكرين ملتكم التي أنتم عليها، فتعيدوننا إليها، وكيف نعود

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا﴾ البتة ﴿عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا﴾ وصرنا ﴿فِى مِلَّتِكُم﴾ سيما ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ﴾ المنجي لعباده عن ظلمة الكفر ﴿مِنْهَا ۚ﴾ وألهمنا بطلان ما أنتم عليه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَكُونُ﴾ يجوز ويصح ﴿لَنَآ أَن نَّعُودَ﴾ ونرجع ﴿فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ عودنا ومصيرنا إليه إذ هو ﴿رَبُّنَا ۚ﴾ يربينا بلطفه بما هو خير لنا وإن كان فيها خيراً يعيدنا إليها إذ ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾

عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَاۚ ....

تحققاً وحضوراً لذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾ في جميع ما جرى علينا واتخذناه وكيلاً لجميع أمورنا ﴿رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿ٱفْتَحْ﴾ واقضِ على ما جرى عليه حكمك وقضاؤك ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المطابق للواقع والموافق لما ثبت في لوح القضاء ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ الحاكمين بين ذوي الخصومات.

ومن حسن محاورة شعيب عليه السلام مع أمته ومجاملته معه لقب بالخطيب بين الأنبياء.

﴿وَ﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ لمتابعيهم ترهيباً وتهديداً على وجه المبالغة والتأكيد: والله ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ عليه السلام وآمنتم له وسمعتم قوله في ترك البخس والتطفيف ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ في بضاعتكم ومعاملتكم.

ثم لما بالغوا في الضلال والإضلال استحقوا الانتقام والنكال.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ والزلزلة الشديدة فخر عليهم سقوف بيوتهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ التي يستقرون فيها ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ جامدين ميتين وبالجملة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا﴾ أي استؤصلوا وانقرضوا إلى حيث

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

صاروا كأن لم يسكنوا ولم يكونوا في تلك الديار أصلاً بل الحق إن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ المقصورين على الخسران في النشأة الأولى والأخرى.

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ شعيب عليه السلام بعدما شاهد حالتهم واستحقاقهم للعذاب ﴿وَقَالَ﴾ متأسفاً متحزناً على مقتضى شفقته مضيفاً لهم إلى نفسه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ المنهمكين في الغفلة المبالغين في الإصرار والاستكبار ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ حتى لا يلحق بكم ما لحق ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ﴾ بإذنه سبحانه وبالغت في نصحي فلم تقبلوا مني نصحي ولم تصدقوا قولي، ثم كذب هواجس نفسه وأنكر عليها خوفاً من غضب الله فقال: ﴿فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ﴾ أتحزن ﴿عَلَىٰ قَوۡمٖ﴾ كانوا ﴿كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ لنعم الحق مكذبين لأوامره مستحقين لما نزل عليها بسوء معاملتهم مع الله، بعد ورود ما ورد من الوعد والوعيد؟

ثم لما ذكر سبحانه من أحوال الأمم الماضية الهالكة وقبح صنيعهم مع الله وتكذيبهم كتبه ورسله سجل عليهم بأن ما لحقهم إنما هو من سوء صنيعهم وشؤم نفوسهم فقال:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ﴾ من القرى الهالكة ﴿مِّن نَّبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿إِلَّآ أَخَذۡنَآ﴾ أولاً ﴿أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ إزالة لقساوتهم وتليينا

لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ....

لقلوبهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ رجاء أن يتضرعوا إلينا ويتوجهوا نحونا.

﴿ثُمَّ﴾ بعدما ضيقنا عليهم كشفنا عنهم بأن ﴿بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ المضرة المؤلمة ﴿ٱلْحَسَنَةَ﴾ النافعة المسرة ﴿حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ إلى أن كثروا وتكاثروا عدداً وعُدداً ﴿وَّقَالُوا۟﴾ بعدما صاروا مترفهين في سعة ورخاء مكان شكر وإظهار المنة منا ﴿قَدْ مَسَّ﴾ ولحق ﴿ءَابَآءَنَا﴾ كما لحقنا ﴿ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ ومن عادة الزمان وديدنة الدهر تعاقب السراء بالضراء والجدب بالرخاء، ومتى ظهر منهم كفران النعم وعدم الرجوع إلينا بالشكر ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ فجأة بلا سبق مقدمة وتقديم أمارة ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ من غاية عمههم وسكرتهم ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ نزول العذاب والنكال.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الهالكة العاصية ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله وبأنبيائه المبعوثين إليهم ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ عن محارم الله بمقتضى أوامره التي جاءت الأنبياء به ﴿لَفَتَحْنَا﴾ ووسعنا ﴿عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ نازلةٍ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ﴿وَ﴾ نابتةٍ من ﴿ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿كَذَّبُوا۟﴾ بالله وبأنبيائه وكتبه ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ بعدما أظهروا التكذيب والإنكار ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بأيديهم لأنفسهم، وبالجملة ما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم ....

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ من انتقامنا وبطشنا إياهم ولم يخافوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا﴾ عذابنا وعقابنا ﴿بَيَٰتًا﴾ في أثناء الليل ويحيط بهم ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ في مضاجعهم.

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ ولم يترقبوا ﴿أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى﴾ في كمال إضاءة اليوم ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ بأمور دنياهم على مقتضى مخايلهم ومناهم.

وبالجملة ﴿أَفَأَمِنُوا۟﴾ أولئك المنهمكون في الغفلة ﴿مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ المراقب بجميع أحوالهم ولم يخافوا ولم يحزنوا من أخذه وانتقامه ولم يتفطنوا أن مَن أَمِن عن مكره وأخذه فقد خسر خسراناً مبيناً ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ المنتقم المقتدر ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ المقصورون على الخسران الأبدي والشقاق السرمدي في أصل فطرتهم وقابلياتهم.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ أي ألم يذكروا ولم يبين الغيور أحوال الأمم الهالكة وأخذنا إياهم بما صدر عنهم من تكذيب الأنبياء وما جاؤوا به من عندنا من الأوامر والنواهي ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾ خلفاء ﴿مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ الهالكين بالجرائم المذكورة ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿أَصَبْنَٰهُم﴾ أي الخلفاء أيضاً

بِذُنُوبِهِمْۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ ....

﴿بِذُنُوبِهِمْۚ﴾ التي صدرت عنهم مثل أسلافهم بل بأضعافهم وآلافهم ﴿وَ﴾ من علامات أخذنا وانتقامنا عنهم أنا ﴿نَطْبَعُ﴾ ونختم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ كيلا يفهموا ليعتبروا ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ بسبب ذلك حتى يتعظوا به.

وبالجملة ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ الهالكة التي ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل في كتابنا هذا ﴿مِنْ﴾ بعض ﴿أَنۢبَآئِهَاۚ﴾ قصصها وأخبارها وجرائمها مع الله ورسله ﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة والمعجزات القاطعة الساطعة وهم من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُۚ﴾ أي قبل إرسال الرسل عليهم بل أصروا على ما هم عليه ولم يؤمنوا أصلاً ولم يقبلوا من الرسل جميع ما جاؤوا به ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾ ويختم سبحانه بمقتضى قهره ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ﴾ جميع ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ فلا تعجبك يا أكمل الرسل حال أهل مكة وإصرارهم ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق من مكايدهم، إذ هي من الديدنة القديمة والخصلة الذميمة المستمرة بين الكفرة.

﴿وَ﴾ من جملة أخلاقهم الذميمة وخصلتهم القبيحة أيضاً نقض العهد والمواثيق لذلك ﴿مَا وَجَدْنَا﴾ وصادفنا ﴿لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍۖ﴾ أيضاً على

وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ

لسان رسلنا موفين[1] له ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي بل ما وجدنا أكثرهم بعدما عهدناهم إلا فاسقين ناقضين لعهودنا ومواثيقنا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي بعد انقراض الغواة الطغاة الهالكين بأنواع العذاب والنكال نبينا ﴿مُّوسَىٰ﴾ المخصوص بتشريف تكليمنا ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الدالة على توحيدنا مع تأييدنا إياه بالمعجزات الباهرة ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والاستكبار إلى حيث يدعي الألوهية والربوبية لنفسه ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ المعاونين له المصدقين لدعواه الكاذب وبعدما ادعى النبوة وأظهر الآيات ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي أنكروا بالآيات وكذبوا من جاء بها ﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ في أرض الله، الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إذ ﴿قَالَ﴾ حين أراد دعوتهم: ﴿مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ﴾ المستكبر المتجاوز عن حدود الله، المفسد بين عباده بأنواع الفسادات، المفرط المسرف بدعوى الربوبية ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ اختارني الله واصطفاني لرسالته.

وبعد اختياره سبحانه واجتبائه إياي من بين بريته.

أنا ﴿حَقِيقٌ﴾ جدير لائق ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ﴾ وأسند ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ من

---

(١) في المخطوط (موقنين له).

إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ....

الأقوال والأحكام المواعظ ﴿إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ﴾ الذي علمني ربي وبعثني لأجله وتبليغه لعباده، واعلموا أيها البغاة الطغاة أني ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ واضحة دالة على صدقي في دعواي صادرة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الذي أظهركم وأوجدكم من كتم العدم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿فَأَرْسِلْ﴾ أيها الفرعون الطاغي ﴿مَعِيَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ المقهورين تحت استيلائك المظلومين بيدك ليرجعوا معي إلى الأرض المقدسة التي هي وطن آبائهم وفكك رقابهم، وخلّ سبيلهم بعدما أمر الحق به، وإلا قد نزل عليك وعلى قومك ما أوعدك الحق به من أنواع العذاب في العاجل والآجل.

﴿قَالَ﴾ فرعون في جوابه مستكبراً مكذباً بل منهمكاً على سبيل الترفع والخيلاء: لا أفك رقابهم ولا أخلي سبيلهم بل ﴿إِن كُنتَ﴾ أيها المدعي الكاذب ﴿جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ من عند ربك الذي ادعيت رسالته ﴿فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ في الدعوى ثم لما سمع موسى قوله وشاهد عتوه واستكباره.

﴿فَأَلْقَىٰ﴾ بإلهام الله إياه ﴿عَصَاهُ﴾ من يده على الأرض بين أيديهم ﴿فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ﴾ بلا معالجة واستعمال أسبابٍ كما يفعل السحرة ﴿مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ عظيم ظاهر بأضعاف مقدار العصا.

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ ....

روي أنه لما ألقاها صارت ثعباناً أشقر[1] فاغراً فاه بين لحييه ثمانون ذراعاً، وضع لحاه الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه، وأحدث، وانهزم الناس مزدحمين، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، فصاح فرعون: أنشدك بالذي أرسلك خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه فعاد عصاً.

﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿نَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أي أدخل يده في جيبه وكان لون بشرة موسى شديدة الأدمة ثم نزع ﴿فَإِذَا هِىَ بَيۡضَآءُ﴾ مشرقة مشعشعة محيرة ﴿لِلنَّٰظِرِينَ ١٠٨﴾ مفرقة لأبصارهم من غاية إنارتها وضوئها إلى حيث غلب ضوءها ضوء الشمس، ثم لما شاهدوا من معجزاته وآياته ما شاهدوا.

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ الأشراف ﴿مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ﴾ متعجين من أمره مشاورين مع فرعون حائرين مضطربين خائفين من استيلائه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ١٠٩﴾ متناه في هذا العلم إلى أقصى غايته لذلك ادعى الرسالة وعجز الغير عن إتيان مثله.

وبالجملة ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ١١٠﴾ أيها المتأملون المتفكرون في ضبط المملكة وحفظ البلاد في دفع هذا العدو، وبعد ما تشاوروا وتأملوا كثيراً في أمر دفعه، استقر رأيهم واتفق أمرهم إلى أن:

﴿قَالُوٓاْ﴾ مخاطبين لفرعون: ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي أخر وَسَوِّفْ قتلهما

---

(١) في المخطوط (أشعر).

وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ ....

لئلا يظهر عجزك عنهما ولا يختل أمر ربوبيتك ﴿وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ﴾ التي اشتهرت السحر والسحرة فيها شُرطاء ﴿حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ جامعين من فيها من السحرة وبعد جمعهم.

﴿يَأْتُوكَ﴾ ويحضروا عندك ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ ماهر حاذق في هذا العلم ليتمكنوا على مغالبتهما، فأرسلهم فحشروا وانتخبوا من السحرة من انتخبوا.

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ المنتخبة ﴿فِرْعَوْنَ﴾ متظاهرين بطرين جازمين على غلبتهما لذلك سألوا أولاً الجعل حيث ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ وهم وإن كانوا جازمين في نفوسهم الغلبة أتوا بأن المفيدة للشك للمبالغة في طلب الأجر.

﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ إن لكم أجراً كثيراً ﴿وَ﴾ مع الأجر الكثير ﴿إِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ عندي، الحاضرين في مجلسي، المصاحبين معي دائماً، قاله تحريضاً وترغيباً.

وبعد ما تقرر عندهم وفي نفوسهم الغلبة، وسمعوا منه ما سمعوا من الإنعام والتقرب.

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نادوه استحقاراً له واستهزاء معه ومسفهاً كيف أقْدَمَ مع

إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ ....

ضعفه في مقابلتهم: ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ ﴾ أولاً ما جئت به ﴿ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ أوامره، فلك الخيار إذ الأمر عندنا سواء.

﴿ قَالَ ﴾ موسى بإلهام الله إياه بل: ﴿ أَلْقُوا۟ ﴾ ما جئتم بإلقائه أيها الساحرون المبطلون ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ ﴾ أي أرادوا الإلقاء ﴿ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ ﴾ حتى لا يتخيلوا أنها أمور غير مطابقة للواقع، بل اعتقدوا مطابقتها ﴿ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ ﴾ أي بني إسرائيل المنتظرين لغلبة موسى ليخلصوا من يد العدو إرهاباً شديداً، لأنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً صارت الكل حيات متراكمة متراكبة بعضها فوق بعض ﴿ وَ ﴾ بالجملة ﴿ جَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ متناه في فنه أقصى غاية.

﴿ ۞ وَ ﴾ بعدما جاؤوا بسحرهم العظيم ﴿ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ﴾ فألقاها فصارت ثعباناً عظيماً ﴿ فَإِذَا هِىَ ﴾ أخذت ﴿ تَلْقَفُ ﴾ تبتلع وتلتقم ﴿ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ أي ما يُزوِّرونه ويلبّسونه سحراً وشعبذة.

وبالجملة ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ ﴾ وتحقق الإعجاز ﴿ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ من السحر والشعبذة في مقابلته.

﴿ فَغُلِبُوا۟ ﴾ أي فرعون وملؤه ﴿ هُنَالِكَ ﴾ في المجمع ﴿ وَٱنقَلَبُوا۟ ﴾ أي رجعوا

صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ....

منه ﴿صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ ذليلين محزونين بعدما خرجوا متكبرين مستغلبين.

﴿وَ﴾ بعدما شاهد السحرة من أمر موسى ما شاهدوا، وانكشفوا بحقيته وصدقه بجذب رقيق من جانب الحق، وإلهام تام منه سبحانه، ﴿أُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ متذللين واضعين جباههم على تراب المذلة، وحين سجدوا.

﴿قَالُوٓاْ﴾ عن ظهر قلوبهم وكمال قبولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ أيقنا وتحققنا ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي الذي ادعى الرسالة منه ودعوا الناس إلى الإيمان به والإطاعة له والتوجه نحوه.

ثم لما رأى فرعون سجود السحرة وسمع إيمانهم.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ مغاضباً بهم مستفهماً على سبيل الإنكار والتهديد: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي برب موسى وهارون ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قبل أن تشاوروا معي وتعترفوا عندي بغلبتهما عليكم، وقبل أن تستأذنوا مني بالإيمان فظهر من صنيعكم هذا ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي أمر موسى وهارون وادعاؤهما النبوة والرسالة ﴿لَمَكْرٌ﴾ حيلة وخديعة ﴿مَّكَرْتُمُوهُ﴾ أنتم وموسى ﴿فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي مصر ﴿لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ يعني القبط، وتستولوا أنتم وبنوا إسرائيل على ملك مصر بهذه الخديعة ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ عاقبة أمركم وخداعكم.

لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ ﴾ اليوم أولاً على رؤوس الأشهاد ﴿ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ﴾ متبادلتين ﴿ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ زماناً كما يصلب البغاة الذين خرجوا على أولي الأمر والإطاعة.

وبعدما سمع السحرة تهديده.

﴿ قَالُوٓاْ ﴾ حين كوشفوا بمآل الأمر وشوهدوا بحقيقة الحال مستطيبين مستنشطين فرحين: ﴿ إِنَّآ ﴾ بعد خلاصنا عن ربقة ناسوتنا وسلسلة إمكاننا ﴿ إِلَىٰ رَبِّنَا ﴾ حسب حصة لاهوتنا وحظ وجوبنا ﴿ مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ صائرون، راجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ أيها الطاغي المتجبر المتكبر وتنكر علينا ﴿ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا ﴾ أيقنا وأذعنا ﴿ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا ﴾ الذي أظهرَنا من كتم العدم وربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿ لَمَّا ﴾ أي حين ﴿ جَآءَتْنَا ﴾ تلك الآيات وانكشفنا بحقيتها بتوفيق منه وجذب من جانبه، ولو كوشفت أيضاً بما انكشفنا، ارتفع غطاء التعامي وغشاوة الغفلة عن بصرك وبصيرتك، فتشهد بما شهدنا إلا أن الحق سبحانه ختم على قلبك وبصرك وسمعك بالغشاوة الغليظة والحجب الكثيفة، لذلك استكبرت واستنكرت، وبالجملة من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثم انصرفوا نحو الحق واشتغلوا بالمناجاة معه سبحانه، فقالوا: متضرعين: ﴿ رَبَّنَآ ﴾ يا من ربانا بلطفك وكرمك إلى أن جعلتنا من زمرة شهدائك

أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ....

الذين بذلوا مهجهم في سبيلك طائعين راغبين ﴿أَفْرِغْ﴾ أفض واصبب ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ من عندك متوالياً متتابعاً، حين اشتغل هذا الطاغي على قضاء ما هددنا به بحيث لا يغيب عنا شوقك، ولا يغلب على قلوبنا ألم ناسوتنا أصلاً ﴿وَ﴾ حين انقطعت أنفاسنا وخرجت أرواحنا[1] ﴿تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ مستقرين على الرضا والتسليم ثابتين على جادة التوحيد والعرفان بلا تزلزلٍ وتمايلٍ، ثبت أقدامنا على دينك وتوحيدك يا خير الناصرين.

﴿وَ﴾ بعد ما فعل فرعون بالسحرة أنار الله براهينهم ما هددهم به ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ سيما بعدما انتشر في أقطار الأرض غلبتهما عليك ويغيروا طباع الناس عنك، ويوقعوا الفتن بين رعايا بلادك ﴿وَ﴾ بالجملة أدى أمرهم وإيقاعهم إلى أن ﴿يَذَرَكَ﴾ أي كل واحد منهم عبادتك ﴿وَ﴾ عبادة ﴿ءَالِهَتَكَ﴾ التي وضعتها لعبادة عبادك من الأصنام والتماثيل لتتخذوها معبودات وتتوجهوا نحوها ﴿قَالَ﴾ فرعون: لا ندعهم بعد اليوم على ما كانوا عليه من قبل ولا نستأصلهم أيضاً لئلا ينسب الظلم والعجز إلينا بل نستضعفهم على التدريج ﴿سَنُقَتِّلُ﴾ بعد اليوم ﴿أَبْنَآءَهُمْ﴾ أي ذكور أولادهم لئلا يتكثروا ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي إناث أولادهم حتى نتزوجهن وينزجروا بلحوق العار، وإذا مضى زمان

(١) في المخطوط (حين انقطع انفاسنا وخرج أرواحنا).

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ....

على هذا انقرضوا واستؤصلوا، وكيف لا نفعل بهم ما نقول ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ قادرون غالبون.

وبالجملة لما فعلنا بهم من قبل فيما مضى، هكذا أيضاً الآن حتى لا يُتوهم أن موسى هو المولود الذي زعم الكهنة والمنجمون أن ذهاب ملكنا على يده.

ثم لما سمع بنو إسرائيل تهديد فرعون تفزعوا منه وتضجروا، وبثوا الشكوى إلى الله متضرعين.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ تسلية لهم وإزالة لضجرتهم: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ لدفع مضارهم ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على أذاهم ولا تقنطوا من نصر الله وعونه واعلموا ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ إيجاداً وتملكاً وتصرفاً ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿الْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ الذين يتقون عن محارم الله ويصبرون على ما جاءهم من القضاء.

﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني بنو إسرائيل: ﴿أُوذِينَا﴾ من أجلك يا موسى ﴿مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ أيضاً كذلك ﴿قَالَ﴾ موسى: لا تيأسوا من نصر الله وإنجاز وعده بل ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ أي قربَ أمر ربكم وإنجاز وعده بإهلاك عدوكم

وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ ....

﴿وَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي هم فيها ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ هل تشكرون نعمه أم تكفرونها أو تعملون من الصالحات أم تفسدون فيها مثلهم.

ثم أشار سبحانه إلى إهلاك عدوهم وإنجاز وعده على سبيل التدريج حيث قال:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ ﴾ أي بعدما تعلق إرادتنا بأخذهم وإهلاكهم أخذناهم أولاً بالقحط وقلة الأقوات والغلات ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ التي يتفكهون بها ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي يتذكرون أيام الرخاء ويتضرعون نحونا لإعادتها ويصدّقون نبينا الذي أرسلنا إليهم لدعوتهم إلى توحيدنا.

وهم من شدة قسوتهم وعمههم لا يتعظون بأمثال هذا بل ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ﴾ الخصب والرخاء وكل ما يسرهم ويفرح نفوسهم ﴿قَالُوا۟﴾ متغالين: ﴿لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ﴾ أي لأجلنا وسعادة طالعنا ونحن مستحقون بها ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أحياناً ﴿سَيِّئَةٌ﴾ مشقة وعناء ومما يشوشهم ويملهم ﴿يَطَّيَّرُوا۟﴾ أي يتطيروا ويتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُۥٓ ۗ﴾ وقالوا.إنما عرض علينا هذا البلاء

أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ ....

بشؤم هؤلاء ﴿أَلَآ﴾ أي تنبهوا أيها المتنبهون المتوجهون نحو الحق في السراء والضراء ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ﴾ أي ما يتطيرون به ويتشاءمون بسببه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي قبضة قدرته ومشيئته إذ له التصرف بالاستقلال في ملكه والقبض والبسط من عنده وبيده، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ فيرون الأسباب والوسائل في البين ويسندون الحوادث الكائنة إليها عناداً ومكابرة.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم وكمال قسوتهم وبغضهم ﴿قَالُواْ﴾ مستهزئين منهمكين ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ﴾ أي: أي شيء تحضرنا به ليغلب علينا من سحرك الذي سميته آية نازلة ﴿لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا﴾ فأتِ سريعاً إن استطعت ﴿فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي متى استبطأت وتأخرت.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ﴾ إمداداً لموسى وانتقاماً لهم ﴿ٱلطُّوفَانَ﴾ أي الماء الذي طاف حولهم ودخل بيوتهم ووصل إلى تراقيهم، ولم يدخل بيوت بني إسرائيل مع أنها متصلة ببيوتهم ولم يتضرروا أي بنوا إسرائيل من الماء أصلاً، ثم لما تضرروا واضطربوا وكادوا أن يغرقوا، تضرعوا إلى موسى وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا فنؤمن بك فدعا فكشف عنهم ونبت من الزرع والكلأ ما لم يعهدوا، فنكثوا عهدهم، ونسبوا دعاءه إلى السحر ﴿وَ﴾ بعد أرسلنا عليهم ﴿ٱلۡجَرَادَ﴾ فأكلت زروعهم وثمارهم وأخذت تأكل السقوف والأبواب

وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ....

والثياب فتضرعوا إلى موسى، فدعا وانكشف وخرج إلى الصحراء مشيراً بعصاه نحو الجراد يمنة ويسرة، فتفرقت إلى النواحي والأقطار فنكثوا ﴿وَ﴾ أرسلنا بعدها ﴿الْقُمَّلَ﴾ دوداً أصفر من الجراد، قيل إنها حدثت من الجراد، فأخذت أيضاً تأكل ما بقي من الجراد وتقع في الأطعمة وتدخل بين أثوابهم فتمص دماءهم ففزعوا إليه فكشف عنهم، فقالوا علمنا الآن إنك ساحر عليم ﴿وَ﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الضَّفَادِعَ﴾ بحيث لا يخلو مكان منها وتبث إلى قدورهم وأوانيهم وأفواههم حين تكلموا ففزعوا نحوه معاهدين فخلصوا بدعائه ثم نقضوا ﴿وَ﴾ بعد ذلك أرسلنا ﴿الدَّمَ﴾ حيث صار المياه كلها عليهم دماءً حتى كان القبطي والإسرائيلي يجتمعان على إناء فيصير ما يلي القبطي دماً وما يلي السبطي ماء ويمص القبطي ماء من فم السبطي فيصير دماً وإنما أرسلت عليهم هذه البليات لتكون ﴿ءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل وعلامات دالة على كمال قدرتنا ﴿مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ مبينات واضحات مميزات بين الهداية والضلالة والحق والباطل والرشد والغي ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ عنها مع وضوحها وسطوعها وأعرضوا عن مدلولاتها وأصروا على ما هم عليها ﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ مستحقين بالعذاب والعقاب فلم ينفعهم الآيات والنذر لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿وَ﴾ كانوا ﴿لَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي حين وقع ونزل عليهم البلاء

قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ....

والمصيبة ﴿قَالُواْ﴾ متضرعين متفزعين: ﴿يَـٰمُوسَى﴾ الداعي للخلق إلى الحق ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع الكرامات ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ من إجابة دعواتك وقبول حاجاتك والله ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ﴾ بدعائك ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ مصدقين رسالتك ونبوتك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ بلا ممانعة ولا مماطلة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ بدعائه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ﴾ عينوه لأيمانهم وإرسالهم حتى يتأملوا ويتفكروا فيها ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ أي بعدما وصل وقت الوفاء والإيفاء بالعهود والمواثيق، بادروا إلى النقض والنكث.

ثم لما بالغوا في أمر النقض والنكث وخالفوا أمرنا وكذبوا نبينا.

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي أردنا انتقامهم وأخذهم ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ أي البحر العميق لانهماكهم في بحر الغفلة والطغيان ﴿بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ الدالة الموصلة إلى توحيدنا الذاتي ﴿وَكَانُواْ﴾ بسبب استغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ محجوبين لا يهتدون بإهداء الرسل والأنبياء.

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ....

﴿وَ﴾ بعدما أغرقناهم في يم العدم واستأصلناهم عن فضاء الوجود ﴿أَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ بالقهر والغلبة بقتل الأبناء واستحياء النساء ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ﴾ المعهود أي مصر ومشارقها الشام ونواحيها ﴿وَمَغَٰرِبَهَا﴾ الصعيد ونواحيها ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي كثرنا فيهم الخير والبركة وسعة الأرزاق وطيب العيش من جميع الجهات ﴿وَ﴾ بعدما أورثناهم ما أورثناهم ﴿تَمَّتْ﴾ أي كملت وحقت ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ يا موسى بإنجاز الوعد والنصر والظفر وإيراث الديار والأموال وغير ذلك ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بسبب ما صبروا على أذياتهم المتجاوزة عن الحد ﴿وَدَمَّرْنَا﴾ أي هدمنا وخربنا ﴿مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من الأبنية الرفيعة والقصور المشيدة ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ عليها متفوقين بطرين كمسرفي زماننا هذا، أحسن الله أحوالهم.

ثم أشار إلى قبح صنيع بني إسرائيل وخبث طينتهم وجهلهم المركون في جبلتهم وسخافة طبعهم وركاكة فطنتهم تسلية لرسول الله ﷺ وتذكيراً للمؤمنين ليحترزوا عن أمثال ما أتوا به فقال:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي عبرناهم سالمين غانمين ﴿ٱلْبَحْرَ﴾ الذي

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ ....

أهلك عدوهم ﴿فَأَتَوْا﴾ أي مروا في طريقهم ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ من بقية العمالقة ﴿يَعْكُفُونَ﴾ يعبدون ويقيمون ﴿عَلَىٰ أَصْنَامٍ﴾ تماثيل كانت معبودات ﴿لَهُمْ﴾ من دون الله ﴿قَالُوا﴾ من قسوة قلوبهم وضعف يقينهم بالله المنزه عن الأشباه والأمثال ﴿يَا مُوسَى﴾ المبعوث المرسل إلينا من الله الواحد الأحد ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا﴾ مثالاً واحداً مشابهاً لله نعبده ونتقرب نحوه ﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ يعبدونها ويتقربون نحوها، ونحن كيف نعبد ونتقرب إلى إلهٍ موهوم لا نراه ولا نشاهده وكيف نتضرع إليه ونتوجه نحوه ونستحي منه ونخاف عنه.

ثم لما تفرس منهم موسى ما تفرس من الحجاب الكثيف والغشاوة الغليظة ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ تستمرون على جهلكم الجبلي لم يؤثر فيكم الآيات الكبرى[1] والبراهين العظمى ولم تتفطنوا بالتوحيد الذاتي مع وضوحه في ذاته سيما بعد الإيضاح بالآيات الظاهرة والمعجزات الباهرة.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ العاكفين الضالين ﴿مُتَبَّرٌ﴾ مهلك معدوم ﴿مَّا هُمْ فِيهِ﴾ من عبادة التماثيل الباطلة العاطلة الهالكة في أنفسها لا وجود لها أصلاً ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾ لها ولأجلها من الإطاعة والانقياد، إذ هو إشراكٌ بالله الواجب الوجود، المستقل بالألوهية ما لا وجود له أصلاً ثم:

﴿قَالَ﴾ موسى متأسفاً مقرعاً: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي

(١) في المخطوط (الكبرى) دون ذكر (الآيات).

أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ....

ليس كمثله شيء أصلاً ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ وأطلب لكم أيها الحمقى العمي الضالون في تيه الغفلة ﴿إِلَٰهًا﴾ من مصنوعاته يعبد له بالحق ويتقرب إليه ﴿وَ﴾ الحال إنه ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ إذ لا مظهر له أكمل منكم، فكيف تعبدون المفضول المرذول، وما عرض عليكم أيها الجاهلون لم تعرفوا مرتبتكم الجامعة الكاملة، وعليكم أن تعدوا نعم الله التي أنعمها عليكم لعلكم تنبهون على توحيد المنعم.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يعلمونكم به وذلك إنهم ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ حتى لا تستكثروا وتستظهروا بهم ﴿وَ﴾ أقبح منه أنهم ﴿يَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ ليلحق العار عليكم بتزويجهن بلا نكاح ﴿وَ﴾ لكم ﴿فِي ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور من العذاب ﴿بَلَاءٌ﴾ اختبار وابتلاء ﴿مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ فأنجيناكم منه لتقيموا بذكرنا وتواظبوا بشكر نعمنا وتتفطنوا بتوحيدنا واستيلائنا ومع ذلك لم تتنبهوا.

﴿۞ وَ﴾ اذكروا إذ ﴿وَاعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ قبل إهلاكنا فرعون بأن أَخْلَص لنا ﴿ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ من ذي القعدة بأن صام فيها وصلى بعد هلاك عدوه ننزل عليه من عندنا كتاباً نبين له فيه[1] التدابير المتعلقة لأمور معاش بني إسرائيل ومعادهم، ثم لما أهلكنا العدو فذهب موسى إلى ميقاتنا إنجازاً لوعدنا

(١) في المخطوط (فيها).

وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ....

﴿وَ﴾ قبل ما تم المدة المذكورة أنكر خلوف فمه فتسوك، قالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك لذلك ﴿أَتْمَمْنَاهَا﴾ أي مدة ميقاتها بأن أمر موسى كفارة لما فوت بالسواك ﴿بِعَشْرٍ﴾ أي بعشرة أيام من ذي الحجة ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وبعدما أتمها فأنزلنا إنجازاً لوعدنا التوراة المبين لهم الأحكام الدنيوية والأخروية وذلك من أعظم النعم ﴿وَ﴾ اذكر أيضاً إذ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى﴾ عني ﴿فِى قَوْمِى﴾ واذكر لهم مما يتعلق بأمور معاشهم ومعادهم نيابة عني ﴿وَأَصْلِحْ﴾ بينهم واحفظ عن زيغ أهل الضلال ﴿وَلَا تَتَّبِعْ﴾ أنت ومن معك ﴿سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ الذين يفسدون عقائد ضعفاء الأنام بالتمويهات الباطلة، ومع ذلك اتبعتم السامري من خبث طينتكم ﴿وَ﴾ اذكروا ﴿لَمَّا﴾ أي حين ﴿جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ المبعوث إليكم لإصلاح حالكم ليناجي معنا ﴿وَ﴾ من غاية اللطف والجود ﴿كَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي كلم معه مرتبته التي حصل له وانكشف بها من الله إذ لكل أحد بل لكل ذرة من ذرائر المظاهر مرتبة خاصة وظن مخصوص بالنسبة إلى الله لذلك قال سبحانه: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِيْ بِيْ»[1].

وأعلى المراتب وأسناها مرتبة النبوة والرسالة على تفاوت طبقاتها، ثم

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه [٦/ ٢٦٩٤ رقم/ ٦٩٧٠ / باب:قوله تعالى «كل شيء هالك إلا وجهه» ومسلم في صحيحه [٤/ ٢١٠٢ رقم/ ٢٦٧٥/ باب: التوبة] وغيرهم بطرق وألفاظ متعددة.

قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ ....

الأمثل فالأمثل، كما انبسط موسى وانكشف من ربه بما انكشف، حيث سمع كلامه من جميع الجوانب بلا واسطةٍ ووسيلة من مَلَك وغيرها بلا تلفظ وتقطيع حروف، اضطرب وَوَلَه ومن غاية ولهه وسكره تسارعه إلى انكشاف أجلى منه ﴿قَالَ﴾ بعد سماع كلامه سبحانه: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ﴾ يا ربي فإنك تنزهت عن المقابلة والمحاذاة والمماثلة والمحاكاة كما أسمعتني كلامك المنزه عن الحروف والأصوات وتقطيع الكلمات ﴿أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ ببصري كما سمعتُ كلامك بسمعي ﴿قَالَ﴾ سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ يا موسى ما دمت في جلباب تعينك وغشاوة هويتك ﴿وَلَٰكِنِ﴾ إن أردت أن تعرف استعدادك لرؤيتي ﴿ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ حين تجليتُ عليه[1] بهويتي المسقطة لهوياتها مطلقاً ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ﴾ وثبت عندك ﴿مَكَانَهُۥ﴾ بعدما أتجلى عليه بذاتي إن بقي على هويته التي هويته هو فيها قبل التجلي ﴿فَسَوْفَ تَرَىٰنِيۚ﴾ أي فيمكنك أن تراني لهويتك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ مدكوكاً مفتتاً متلاشياً كأن لم يكن أصلاً حيث اضمحلت جميع تعيناته الباطلة ﴿وَ﴾ بعد ما رأى الكليم ما رأى ﴿خَرَّ﴾ أي سقط ﴿مُوسَىٰ﴾ بعدما نظر نحوه فلم يره ﴿صَعِقًاۚ﴾ حائراً هائماً قلقاً مغشياً كأنه انفصل عن لوازم هويته ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسى عن ولهه وسكره وانكشف من ربه بما انكشف أنه لا يرى الله إلا الله ﴿قَالَ﴾ مستحيياً

(١) في المخطوط (عليها)،وهكذا دأب هذا المخطوط في استعمال الضمائر والتذكير والتأنيث وحرف الجر.....

سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ....

منيباً خائفاً مستنزهاً: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أن يحيط بك أحد من مصنوعاتك ﴿تُبْتُ﴾ ورجعت ﴿إِلَيْكَ﴾ يا ربي بما اجترأت من سؤل ما ليس في وسعي وطاقتي ﴿وَ﴾ بعدما عرفتك الآن عرفاناً أكمل وانكشفت منك يا ربي ما لم أنكشف له من قبل ﴿أَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ الموقنين بعظمتك وجلالك إذ لا اعتداد لإيماني من قبل.

ثم لما استحى موسى من الله وندم عن سؤله بلا استئذان منه سبحانه تغمم وتحزن من اجترائه بما ليس في وسعه أزال الله سبحانه ما عرض عليه من الندم والخجل حيث ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه منادياً: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ المستخلف من عندي ﴿ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ ﴾ اخترتك ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى ﴾ أي بتحميل أحكامي وأوامري وتذكيري حتى توصلها إلى عبادي نيابة عني ﴿وَ﴾ خصصتك من بين الرسل ﴿بِكَلَامِي﴾ أي سماعه بلا كيف ولا حرف وبلا واسطة ملك وسفير ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ تفضلاً عليك بقدر وسعك واستعدادك ولا تبادر إلى سؤل ما لا طاقة لك ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ لنعمه واصرفها على الوجه الذي أمرناك به من المصارف ووفقناك عليه، ولا تكن من الكافرين لنعمنا المنصرفين عن أوامرنا وأحكامنا، لتفوز منا بالرضا الذي هو أحسن أحوال أرباب الكشف والشهود.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ....

﴿ وَكَتَبْنَا ﴾ من جملة اصطفائنا وإنعامنا إياه إنا كتبنا ﴿لَهُۥ﴾ أي أثبتنا لأجل تربيته وإرشاده ﴿فِى ٱلْأَلْوَاحِ﴾ أي ألواح التوراة ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يتعلق بتهذيب الظاهر والباطن ﴿مَّوْعِظَةً﴾ تذكرة وتبياناً يتعظ بها هو ومن تبعه ﴿وَتَفْصِيلًا﴾ توضيحاً وتبييناً متعلقاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي لكل حكم من الأحكام المتعلقة بأمور معاشهم ﴿فَخُذْهَا﴾ أي فقلنا له: خذها أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وجزم خالص ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ أيضاً ﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ يعني بعزائمها دون رخصها حتى تستعد نفوسهم لأن يفيض عليها من المعارف والحقائق والمكاشفات والمشاهدات التي هي عبارة عن الجنة المأوى والمرتبة العليا عند العارف، ولا تميلوا عنها وعن أحكامها حتى لا يلحقوا بزمرة الفساق المنحطين عن مرتبة الإنسانية ﴿سَأُو۟رِيكُمْ﴾ في النشأة الأخرى أيها المائلون عن مقتضى الأحكام الإلهية التي هي صراط الله الأقوم ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ التي هي جهنم الحرمان وجحيم الخذلان.

ثم قال سبحانه:

﴿ سَأَصْرِفُ ﴾ أي أميل وأغفل ﴿عَنْ ءَايَٰتِىَ﴾ الظاهرة في الآفاق والأنفس الدالة على توحيدي واستقلالي في التصرفات الكائنة في الآفاق القومَ ﴿ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ ويمشون خُيَلاً ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويظلمون عليها ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾

وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٤٦) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤٧) ....

لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿وَ﴾ هم من نهاية جهلهم المركوز في جبلتهم ﴿إِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ﴾ دالة على الصدق والصواب ﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ عتواً وعناداً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾ الصدق والصواب ﴿لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لعدم موافقة طباعهم ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾ والضلال ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ لميل نفوسهم نحوه بالطبع كل ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الصرف والانحراف والأهواء الباطلة والآراء الفاسدة ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ من غاية انهماكهم في الضلال ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا المنزلة على رسلنا ﴿وَكَانُواْ﴾ من غاية جهلهم ﴿عَنْهَا﴾ وعن الامتثال بها والعمل بمقتضاها والتدبير في معناها ﴿غَٰفِلِينَ (١٤٦)﴾ غفلة لا تيقظ لهم منها أصلاً، نبهنا بلطفك عن نومة الغافلين.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الظاهرة عن أوصافنا الذاتية في النشأة الأولى ﴿وَلِقَآءِ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ أي كذبوا برجوع الكل إلينا في النشأة الأخرى أولئك الأشقياء المردودون هم الذين ﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ وضاعت وخسروا فيها في الأولى والأخرى ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ بإحباط الأعمال ﴿إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٤٧)﴾ أي جزاء ما يقترفون ويكتسبون لأنفسهم من

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ....﴾

تكذيب الآيات والرسل المنبهين لها المبينين لمقتضاها.

﴿وَ﴾ من جملة الأسباب الموجبة لإحباط أعمالهم اتخاذهم العجل إلهاً وذلك أنه ﴿اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي من بعد ذهابه إلى الميقات عند ربه ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ التي ورثوها من القبط بتعليم السامري إياهم ﴿عِجْلًا﴾ صورة عجل وبعدما أذابوا الحلي وصاغوها ألقى السامري عليها ما قبض من تراب حافر فرس جبريل فصارت ﴿جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ صوت كصوت البقر، فقال السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فاتخذوها إلهاً، مع أنهم صاغوها بأيديهم من حليهم، أيأخذون العجل المصنوع إلهاً أولئك الهالكون في تيه الغفلة والنسيان ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي لم يعلموا ولم يتفطنوا ﴿أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي المصوغ المصنوع لا يكلمهم بكلامٍ دال على إصلاح حالهم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ﴾ ويرشدهم ﴿سَبِيلًا﴾ أي الخير والصواب حتى يستحق للعبودية بل ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبوداً ظلماً وزوراً ﴿وَكَانُوا﴾ في أنفسهم ﴿ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ خارجين مجاوزين عن مقتضى العقل والنقل.

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي ظهر ندمهم عن فعلهم واشتد فيهم تجهيل نفوسهم وتخطئة عقولهم، ولاح عندهم قبح صنيعهم هذا ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿رَأَوْا﴾ وعلموا ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بهذه الغفلة القبيحة عن مقتضى العقل

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ....﴾

والنقل ﴿قَالُوا۟﴾ متضرعين مسترجعين خائفين خجلين: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بسعة رحمته وجوده ﴿وَ﴾ لم ﴿يَغْفِرْ لَنَا﴾ ما جئتنا به ولم يتجاوز عنا ما فرطنا فيه ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ خسراناً عظيماً في الدنيا والآخرة.

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ بعدما وقع فيهم ما وقع وسمع ما سمع صار ﴿غَضْبَـٰنَ﴾ أي استولى عليه غضبه حمية وغيرة ﴿أَسِفًا﴾ متأسفاً متحزناً لضلال قومه ﴿قَالَ﴾ مغاضباً: ﴿بِئْسَمَا﴾ أي بئس شيئاً ﴿خَلَفْتُمُونِى﴾ أي أبدعتم خلفي ﴿مِنۢ بَعْدِىٓ﴾ أي من بعد ذهابي إلى ربي لأزيد صلاحكم وإصلاحكم أيها المسرفون المفرطون فازددتم الضلال واستوجبتم النكال ﴿أَعَجِلْتُمْ﴾ أيها الحمقى ﴿أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي عذابه وعقابه ﴿وَأَلْقَى﴾ من غضبه ﴿ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي كانت بيده من التوراة فانكسر منها واضمحل ما يتعلق بتفصيل الأحكام وبقي المواعظ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون أي من شعر رأسه من غاية غضبه وغيظه ﴿يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أي إلى نفسه زجراً له وتشدداً عليه كيف لا يحفظهم، ولا ينكر عليهم حتى لا يضلوا ولا يكفروا باتخاذ العجل لها ﴿قَالَ﴾ هارون معتذراً متحزناً: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ أضافه إلى الأم استعطافاً ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ حين

وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ....

أظهرت الإنكار عليهم وأردت أن أصرفهم عما هم عليه وصاروا بأجمعهم أعدائي بل ﴿وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي﴾ لشدة غيظهم عليّ وعداوتهم معي، وأنت أيضاً تغضب عليّ وتجر رأسي، وهم يفرحون ويضحكون ببغضك علي وزجرك إياي ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ ولا تُفرح يا أخي ﴿بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي﴾ شريكاً ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ الخارجين عن مقتضى العقل والنقل.

ثم لما سمع موسى من هارون ما سمع ندم عن فعله وعن سوء الأدب مع أخيه لأنه أكبر منه سناً واسترجع إلى الله حيث ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ عما صنعت مع أخي مع أنه بريء مما نسبت إليه ﴿وَ﴾ اغفر أيضاً ﴿لِأَخِي﴾ فلم يتقاعد ويتقاصر في إنكار هؤلاء المضلين المتخذين لك شريكاً من أدنى مخلوقاتك ﴿وَأَدْخِلْنَا﴾ بفضلك وجودك ﴿فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ﴾ المصوغ إلهاً بمجرد الخوار الذي صدر منه ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ وينزل عليهم في النشأة الأخرى ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يطردهم ويبعدهم عن ساحة عزّ حضوره ﴿وَذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ﴾ في النشأة الأولى والأخرى ﴿نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ المشركين لنا

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا

غيرنا من مخلوقاتنا افتراء ومراء.

ثم قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ قصداً وخطأً ﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ ورجعوا نحونا نادمين ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد توبتهم ﴿وَ﴾ الحال أنه قد كان توبتهم مقرونة بالإيمان بأن ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي من بعد ما جاؤوا بالتوبة عن ظهر القلب ﴿لَغَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من الذنوب ﴿رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾ يقبل توبتهم بعدما وفقتهم بها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾ أي سكن وذهب ﴿عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ الذي استولى عليه إلى حيث ألقى ألواح التوراة وأخذ شعر أخيه يجره ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ المنكسرة المتلاشية وإن انكسر ما فيها تفصيل كل شيء ﴿وَ﴾ قد بقي منها ما ﴿فِي نُسْخَتِهَا﴾ أي ما نسخ ورقم عنها سالمة عن الانكسار ﴿هُدًى﴾ أي أوامر ونواهي توصلهم إلى توحيد الحق إن امتثلوا به وقبلوا ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ تنجيهم عن الضلال إن اتصفوا بها كل ذلك حاصل ﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي يخافون من الله طلباً لرضاه لا لغرض آخر من الرياء والسمعة بل من طلب الجنة وخوف العذاب أيضاً.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل لمن تبعك قصة الكليم حين ﴿اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ أي اختار وانتخب موسى بإذن منا من قومه ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا﴾

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ ....

فانتخب من كل سبطٍ من الأسباط الاثني عشر ستةَ نفر فزاد على المبلغ اثنين، فأمر موسى بتقاعدهما فتخاصموا وتشاجروا في تعيينهما، إلى أن قال موسى: إن أجر من قعد مثل أجر من صعد بل أكثر، فقعد كالب ويوشع، وذهب موسى معهم فلما دخلوا شعب الجبل وأرادوا الصعود غشيته غمامٌ كثيف مظلم، فدخلوا الغمام، وخروا سجداً فسمعوا يتكلم سبحانه مع موسى يأمره وينهاه، وهو يناجي مع ربه، فلما تم الكلام وانكشف الغمام قالوا بعدما سمعوا كلامه سبحانه مستكشفين عن ذاته[1]: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ظاهرةً منكشفةً ذاته لأبصارنا كما انكشف كلامه لأسماعنا، فأخذتهم الرجفة بسبب سؤالهم هذا ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ الصاعقة النازلة من قهر الله وغضبه لطلبهم ما ليس في وسعهم واستعدادهم ﴿قَالَ﴾ موسى مشتكياً إلى الله: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم﴾ أي لو تعلقت مشيئتك لإهلاكهم لِمَ لمْ تهلكهم ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ أي من قبل إسماعهم كلامك ﴿وَإِيَّٰيَۖ﴾ أيضاً أي لِمَ لمْ تهلكني حتى لا تنسب إلي إهلاكهم عند عوام بني إسرائيل وتشأمهم بي من غاية اضطرابه ﴿أَتُهۡلِكُنَا﴾ بالصاعقة الشديدة يا رب ﴿بِمَا فَعَلَ﴾ أي بسبب سؤال سائل ﴿ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾ صدر عنهم هفوة بلا علم لهم بعظمتك وجلالك وحق قدرك وعزك بل ﴿إِنۡ هِيَ﴾ أي هل هي ﴿إِلَّا فِتۡنَتُكَ﴾ اختبارك ابتلاؤك إياهم بأن أسمعت لهم كلامك فأوقعتهم بهذه الفتنة إذ أنت ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي بفتنتك ﴿مَن تَشَآءُ﴾ من عبادك بأن اجترؤوا بعد

---

(١) في المخطوط (مستكشفين غدا عن ذاته).

وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ....

انكشافك عليهم نوع انكشافٍ إلى انكشافٍ أعلى منه وأجلى، فضلوا وكفروا بلا علمٍ لهم إلى مقتضى استعداداتهم ﴿وَتَهْدِي﴾ بها ﴿مَن تَشَاءُ﴾ بأن سكتوا عن السؤال مطلقاً، وفوضوا أمورهم كلها إليك، ولا يسألون[1] عنك ما لم يستأذنوا منك والكل بيدك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ومولّي أمورنا ومولى نعمنا ﴿فَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما جرى علينا من المعاصي والآثام ﴿وَارْحَمْنَا﴾ برحمتك الواسعة تفضلاً علينا وامتناناً، واعف عنا بفضلك وجودك ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ الساترين ذنوب العصاة المسرفين.

﴿۞ وَاكْتُبْ لَنَا﴾ يا ربنا ﴿فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ لا توقعنا في فتنتك ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أيضاً حسنة توصلنا إلى رزق توحيدك ﴿إِنَّا﴾ بعد ما تحققنا بعلو شأنك وسمو برهانك ﴿هُدْنَا﴾ أي تبنا ورجعنا ﴿إِلَيْكَ﴾ من أن نسأل منك ما ليس لنا علم به سيما بعدما يتعلق بذاتك ﴿قَالَ﴾ سبحانه متفرداً برداء العظمة والكبرياء: ﴿عَذَابِي﴾ ونكالي ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ من عصاة عبادي ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من المطيعين والعاصين وغيرهم ﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ وأثبتها حتماً ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ عن المحارم مطلقاً طلباً لمرضاتي ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ تطهيراً لنفوسهم عن الشح المطاع الموجب

---

(١) في المخطوط (ولا يسألوا عنك).

وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ ....

للقسوة والغفلة ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا﴾ أي بجميعها ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ يوقنون ويمتثلون بمقتضاها وهم:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ﴾ المرسل بالتوحيد الذاتي ﴿النَّبِيَّ﴾ المتمم لمكارم الأخلاق ﴿الْأُمِّيَّ﴾ المتحقق المخصوص بالعلم اللدني الملقاة له من ربه بلا واسطة كسب وتعليم من معلم وهو ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ﴾ أي جميع أهل الكتب ﴿مَكْتُوبًا﴾ في كتبهم بعثته ودينه واسمه وحليته وجميع أوصافه ثابتاً ﴿عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ بأنه إذا بُعث ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ التي يحرمونها على نفوسهم ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ التي يحللونها ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي ثقلهم الذي يترهبون ويتزهدون فيه فوق طاقتهم كقطع الأعضاء والجوارح التي يخطئون بها، وقطع موضع النجاسة من الثياب وغير ذلك ﴿وَ﴾ يضع أيضاً ﴿الْأَغْلَالَ﴾ أي التكاليف الشاقة ﴿الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ حين ظهوره ودعوته ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي وَقَّرُوه حق توقيره وتعظيمه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ تقوية لدينه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ﴾

ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ

أي القرآن ﴿ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ﴾ من عند الله تأييداً له وتصديقاً ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ السعداء المقبولون عند الله الموفقون من عنده باتباعه ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ المقصورون من عنده على الفلاح والفوز بالنجاح.

﴿ قُلۡ ﴾ يا أكمل الرسل الهادي للكل، المرسل إلى كافة البرايا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ المجبولون على الغفلة، الناسون عهد الله وميثاقه، المحتاجون إلى المرشد الهادي يهديكم إلى طريق الرشاد: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أرسلني ﴿ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ لأهديكم إلى توحيده الذاتي، واعلموا أيها المجبولون على فطرة التوحيد سبحانه هو العليم القدير ﴿ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ وما فيها إيجاداً وتصرفاً بالاستقلال والاختيار ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ ﴾ وما عليها كذلك وبالجملة ﴿لَآ إِلَٰهَ ﴾ أي لا متصرف في الشهود ولا مالك في الوجود ﴿إِلَّا هُوَ ﴾ المتصرف المستقل بالألوهية والوجود ﴿يُحۡيِۦ ﴾ ويظهر بلطفه من يشاء من مظاهره ﴿وَيُمِيتُۖ ﴾ بقهره من يشاء ومتى عرفتم أن الملك كله لله والتصرف بيده ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ ﴾ المتوحد المتفرد بالألوهية ﴿وَرَسُولِهِ ﴾ المنزل من عنده ليبين طريق توحيده ﴿ٱلنَّبِيِّ ﴾ المخبر لأحوال النشأة الأولى والأخرى ﴿ ٱلۡأُمِّيِّ ﴾ المكاشف ﴿ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ أي يوقن ويذعن بتوحيد الله ويصدق بجميع كلماته المفصلة المنزلة من عنده سبحانه من

وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ ....

لدن نفسه القدسية بلا مدرّس ومرشد ومعلم منبه ﴿وَ﴾ إذا كان شأنه هذا ﴿ٱتَّبِعُوهُ﴾ أيها الطالبون لطريق الحق، القاصدون نحو توحيده ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ بمتابعته ﷺ ما تقصدون إليه من التوحيد الذاتي.

ثم قال سبحانه تنبيهاً على المؤمنين:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ جماعة مقتصدة ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلى توحيد الحق ملتبسين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الصدق المطابق للواقع لنجابة فطرتهم واستقامة عقيدتهم ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي بسبب الحق يقتصدون لا يفرطون ولا يفرّطون في الأحكام أصلاً.

ثم قال سبحانه:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ أي جزأناهم وصيرناهم ﴿ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ﴾ أضراباً على عدد أبناء يعقوب ﴿أَسْبَاطًا﴾ لهم كل حزبٍ سبطٌ لواحد منهم لذلك صاروا ﴿أُمَمًا ۚ﴾ مختلفة وإن كان الكل مسمى ببني إسرائيل ﴿وَ﴾ من جملة نعمنا إياهم أنا ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ من مقام جودنا ﴿إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أي حين صاروا تائهين حائرين عطاشاً هائمين ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ يا موسى ﴿بِّعَصَاكَ﴾ التي استعنت بها في الأمور ﴿ٱلْحَجَرَ ۖ﴾ الذي بين يديك فضرب ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي خرجت وجرت على الفور بلا تراخ ومهلة

مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ

﴿مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ جارية بضربة واحدة على عدد الأسباط والفرق بحيث ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ من كل سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ المخصوص لهم لئلا يقع الخصومة والنزاع بينهم ﴿وَ﴾ من جملة نعمنا إياهم أنا ﴿ظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾ أي أمرناه بأن يظلل عليهم في التيه لئلا يتضرروا من شدة الحر فيستريحوا ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ﴾ الترنجبين لشربهم تبريداً لمزاجهم ﴿وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾ السماني لغذائهم وقلنا لهم ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ﴾ لتقويم مزاجكم ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أولئك الخارجون عن أوامرنا ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ أي يظلمون أنفسهم بما اقترفوا من المعاصي والآثام ويلقونها بذلك في عذاب الدنيا والآخرة، ومع قبح صنيعهم معنا راعيناهم وأنعمنا عليهم.

﴿وَ﴾ من جملة ظلمهم على نفوسهم أنهم ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمُ﴾ وأوصي إليهم إصلاحاً لحالهم ﴿ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي بيت المقدس ﴿وَكُلُوا۟ مِنْهَا﴾ أي من مأكولاتها المتسعة ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ بلا موافقة ومنع ﴿وَقُولُوا۟﴾ متضرعين إلينا متوجهين نحونا ﴿حِطَّةٌ﴾ أي سؤلنا منك يا مولانا: حُطَّ ما صدر عنا من الآثام وجرى علينا من المعاصي ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ﴾ سجداً أي

سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ ....

باب بيت المقدس ﴿سُجَّدًا﴾ متذللين واضعين جباهكم على تراب المذلة والهوان تأدياً وتعظيماً ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْۚ﴾ أي جميعها إن امتثلتم ما أمرناكم بها بل ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ منكم بالرضوان الأكبر منا.

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ أنفسهم بالخروج عما أمرناهم ﴿قَوْلًا﴾ صادقاً صواباً قلنا لهم لإصلاح حالهم ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ على لسان رسلنا بل حرفوها لفظاً ومعنى كما مر بيانه في سورة البقرة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بسبب تبديلهم وتحريفهم ﴿رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً نازلاً من جانب السماء ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ أي بشؤم خروجهم عن مقتضى أوامرنا وأحكامنا.

﴿وَ﴾ أيضاً من جملة ظلمهم على نفوسهم حيلهم وخداعهم في نقض العهد إن شئت أن تعرف ﴿سَأَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ أي سل خداعهم وحيلهم عن أهل القرية ﴿ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ قريبة منه قيل: إيلة، وقيل: طبرية الشام، وقيل: مدين وقت ﴿إِذْ يَعْدُونَ﴾ يتجاوزون عن حدودنا وعهودنا ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي العهد الذي عهدوا معنا أن لا يصطادوا بل

إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ....

أخلصوا لعبادتنا والتوبة نحونا فابتليناهم بمحافظة العهد ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ المعهود المحرم ﴿شُرَّعًا﴾ متابعة متوالية ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ ولا يعهدون فيه ﴿لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل سبتهم فاحتالوا بتعليم شياطينهم حياضاً وأخاديد، فأرسلوا الماء عليها في يوم السبت واجتمعت الحيتان فيها واصطادوها يوم الأحد والاثنين وبسبب خداعهم معنا واختلاقهم الحيلة لنقض عهدنا ﴿نَبْلُوهُم﴾ ببلاء المسخ ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ بسبب فسقهم وخروجهم عن مقتضى العهد.

﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ أي جماعة من صلحائهم حين قال الصلحاء للمحتالين المناقضين على وجه العظة والتذكير: لم تحتالون وتخادعون مع الله كأنكم لم تخافوا من بطشه وانتقامه ﴿لِمَ تَعِظُونَ﴾ أيها المذكرون المصلحون ﴿قَوْمًا﴾ منهمكين في الغفلة والضلال ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي أراد الله إهلاكهم وتعذيبهم بأشد العذاب بشؤم حيلهم وخداعهم هذا ﴿قَالُوا﴾ أي المذكرون المصلحون: تذكيرنا ونصحنا إياهم ﴿مَعْذِرَةً﴾ منا ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ الذي أمرنا بنهي المنكر على وجه المبالغة ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ أي ونرجو من كرم الله أن ينتهوا بتذكيرنا عما هم عليه من الغفلة.

فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ..............

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾ وأعرضوا عن ﴿مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ أي من العظة والتذكير ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ متعظين بما ذكروا به ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالإعراض عنه ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ شديد فظيع ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ بسبب فسقهم وإعراضهم.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي فالحاصل أنهم لما تكبروا عن امتثال أوامرنا واجتناب نواهينا ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ على لسان نبيهم داود: ﴿كُونُوا۟﴾ أيها المتكبرون المنهمكون في الغي والضلال ﴿قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ صاغرين مهانين لاستكباركم عن أوامر الله وتكليفاته، مع أنكم مجبولون على تحمل التكاليف التي هي من أمارات الإنسان، فلما امتنعوا أنفسهم عنها مُسخوا عن لوازم الإنسانية بالمرة، ولحقوا بأخس الحيوانات وأرذل الأعاجم.

﴿وَ﴾ اتل على من تبعك منهم واذكر لهم يا أكمل الرسل ويتنبهوا وقت ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي عزم وكتب على نفسه كأنه أقسم ﴿لَيَبْعَثَنَّ﴾ وليسلطن ﴿عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مستمراً دائماً ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يعلمهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ لذلك ما ترى يهودياً في أقطار الأرض إلا عليه مذلة وهوان ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ على من أراد عقابه ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أيضاً

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ

﴿لَغَفُورٌ﴾ لمن تاب وأخلص ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ يقبل توبته ويمحو معصيته.

﴿وَ﴾ من غاية إذلالنا إياهم ﴿قَطَّعْنَاهُمْ﴾ أي فرقناهم ﴿فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ فرقاً فرقاً ﴿مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ﴾ المؤمنون بالله وبملائكته وكتبه ورسله ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي الطالحون الخارجون عن مقتضى الإيمان، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بَلَوْنَاهُم﴾ أي اختبرناهم وجربناهم ﴿بِالْحَسَنَاتِ﴾ أي بالعطاء والإنعام ﴿وَالسَّيِّئَاتِ﴾ بالأخذ والانتقام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ رجاء أن ينتبهوا بنا، فيرجعوا إلينا.

وبعد ما بلوناهم بما بلوناهم.

﴿فَخَلَفَ﴾ واستخلف ﴿مِن بَعْدِهِمْ﴾ أي بعد انقراضهم خلق ﴿خَلْفٌ﴾ خلفاء منهم يدّعون أنهم ﴿وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ أي علم التوراة منهم مع أنهم ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ﴾ أي الدنيا مولعين بجمعها ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ لن يأخذنا الله أبداً بأخذها وجمعها ﴿وَ﴾ من غاية حرصهم ﴿إِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ﴾ بل أضعافه والآلافة ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ بلا مبالاة اتكاء على مغفرة الله مع أنهم لم يستغفروا إليه ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ﴾ الله المنزل في ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي ادعوا علمه[1] ووراثة بل يؤخذ عليهم الميثاق في كتابهم ﴿أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ﴾

---

(١) في المخطوط (علمها).

إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم ....

ولا ينسبوا إليه ﴿إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ الصادق الثابت الذي ورد عليه الأمر من عنده ﴿وَ﴾ كيف لم يعلموا أخذ الله ميثاقه مع أنهم ﴿دَرَسُواْ﴾ من معلمهم ﴿مَا فِيهِ﴾ من الأحكام والمواعظ والأوامر والنواهي ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ من حطام الدنيا ويجتنبون عن آثامها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ خيريتها، أولئك المنغمسون في قاذروات الدنيا ولذاتها وشهواتها، مع أنها لا مدار لها ولا قرار للذاتها ومشتهياتها.

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ﴾ أي يتمسكون منهم ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ أي بما أمرناهم في التوراة ونهينا فيه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي داوموا وواظبوا على الميل إلينا على ما بيناهم فيها فعلينا أجرهم ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ ولا نهمل ﴿أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ الذين يصلحون ظواهرهم بالشرائع والأحكام المنزلة من عندنا وبواطنهم بالإخلاص والتوحيد المسقط للإضافات مطلقاً.

﴿۞ وَ﴾ اذكر وقت ﴿إِذْ نَتَقْنَا﴾ أي قلعنا ﴿ٱلْجَبَلَ﴾ من مكانه ورفعنا ﴿فَوْقَهُمْ﴾ يظل عليهم ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ يسقف فوق رؤوسهم ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ من قبح صنيعهم ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ إلى أن قلنا لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ من مأمورات

بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ....

التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ عزيمة صادقة وعزم خالص في أوامره وأحكامه ﴿وَٱذْكُرُواْ﴾ أي اتعظوا وتذكروا ﴿مَا فِيهِ﴾ من الموعظة والتذكيرات ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ تنتهون عن قبائح أعمالكم ورذائل أخلاقكم.

﴿وَ﴾ نقض العهود والمواثيق والإعراض عن التكاليف والمشاق ليس مما يختص هؤلاء المعرضين بل من الديدنة القديمة لبني آدم وقت ﴿إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ حين أخرجهم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ من ظهور آبائهم وأصلابهم على التوالد المتعارف ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي أولادهم بطناً بعد بطن ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ أي أحضرهم وأطلعهم ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أرواحهم الفائضة لهم، المنفوخة فيهم من روحنا ثم قلنا لهم بعدما شهدوا منشأهم وعلموا أصلهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي أوجدكم وأظهركم من كتم العدم بنفخ روحي فيكم ﴿قَالُواْ﴾ بألسنة استعداداتهم: ﴿بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ بعدما أشهدتنا أنت ربنا، لا رب لنا سواك ولا مظهر لنا غيرك، فأخذ سبحانه منهم الميثاق حينئذٍ وإنما أخذ منهم الميثاق على هذا كراهة ﴿أَن تَقُولُواْ﴾ على سبيل المجادلة والمراء حين أخذهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بجرائمهم الصادرة عنهم المقتضية لنقض العهد: ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ أي عن ربوبيتك واستقلالك فيها ﴿غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ غير عالمين بها ولا منبهين عليها.

أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ....

﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ﴾ لو لم يأخذ سبحانه العهد من جميعهم ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً﴾ ضعافاً ﴿مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ فنقلدهم ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ وتأخذنا يا ربنا ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ أي بفعل آبائنا الذين أشركوا بك مع أنا لم نكن حينئذٍ من أصحاب الرأي وأخذك بجرائمهم ظلم علينا، لذلك أخذ سبحانه الميثاق من جميع بني آدم، حتى لا يبقى لهم حجة عليه سبحانه.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ نبين ونوضح على وجه الخصوص والعموم ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ الدالة على توحيدنا على اليهود ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ رجاء أن يتنبهوا فيرجعوا نحونا، ومع ذلك لم يرجعوا ولم يتنبهوا أصلاً.

﴿وَ﴾ بعدما بالغوا في الإعراض والإنكار ﴿ٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي على اليهود يا أكمل الرسل ﴿نَبَأَ﴾ قصة الشخص ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ﴾ علم ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ العظام وأسمائنا الكرام حتى قدر وتمكن بسببها على أي شيء أراد، فأعرض عنا بمتابعة الهوى كهؤلاء الغواة ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي تجرّد وعري من شرايف الآيات انسلاخ الحية من جلدها ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي تابعاً ﴿فَكَانَ﴾ بمتابعته ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ المنهمكين في الضلال، بحيث لا يرجى هدايته أصلاً كهؤلاء اليهود.

وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ....

﴿ وَلَوْ شِئْنَا﴾ أي تعلقَ مشيئتنا لإهدائه إلى أقصى غايات التوحيد وأعلى مراتبه ﴿لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي بتلك الآيات ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ لم يتعلق لذلك ﴿أَخْلَدَ﴾ أي انخفض ومال ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ الأنزل الأرذل ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ لينزل عليها ومع ذلك يتمسك بها وأراد أن يتشبث بمقتضاها ﴿فَمَثَلُهُۥ﴾ في هذا التمسك والتشبث ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ حملاً موجباً لإلهاثه واندلاع لسانه ﴿يَلْهَثْ﴾ يخرج لسانه بسببه ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ﴾ خفيفاً ولم تحمل عليه ما يوجب إلهاثه ﴿يَلْهَث﴾ أيضاً لرسوخ الديدنة القبيحة في ذاته ﴿ذَّٰلِكَ﴾ الكلب بعينه ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ﴾ يا أكمل الرسل لليهود ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ المذكورة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ ويتأملون فيما هم عليه من الإعراض والإنكار فيتنبهوا على قبح صنيعهم وسوء فعالهم مع الله.

قيل ذلك هو بلعام بن باعورا، وقصته مشهورة؛ وقيل أمية بن الصلت كان قد قرأ الكتب المنزلة ووجد فيها وصف النبي صلى الله عليه وسلم، ورجا أن يكون هو، فلما بعث رسول الله ﷺ، حسد وكفر وكان من الغاوين.

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ﴾ أي بئس المثل مثل القوم ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وأعرضوا عنها منكرين عليها ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي وما يظلمون

مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ ....

بالإعراض والإنكار إلا أنفسهم، إذ عاد عليهم وَباله ونكاله، ولكن لا يشعرون لفساد قلوبهم وخبث طينتهم.

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بأن يوفقه على إسماع كلمة الحق ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ﴾ إلى توحيده ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ بأن يضله عن سبيله بإنكار آياته وتكذيب رسله ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ البعداء والضالون ﴿هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ المقصورون على الخسران، لا يرجى ربحهم وهدايتهم أصلاً.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أوجدنا وأظهرنا ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ونيران الإمكان والحرمان ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ مع أن ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ هي مناط التكاليف ومحال الإيمان والإيقان وهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم مرتبة اليقين العلمي واللدني ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضاً ﴿أَعْيُنٌ﴾ هي سبب مشاهدة الآثار والاستدلال منها على الأوصاف الموجدة لها المرتبة على الذات الإلهي وهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ليحصل لهم مرتبة اليقين العيني ﴿وَلَهُمْ﴾ أيضاً ﴿ءَاذَانٌ﴾ وهي آلاتٌ لسماع كلمة الحق ووسائل إلى اكتساب الفضائل المنبهة على ما في نفوسهم من الأسرار المكنونة الإلهية وهم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ﴾ ليحصل لهم الترقي إلى مرتبة اليقين العيني إلى اليقين الحقي وبالجملة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الحمقاء الجهلاء المتصفون بأوصاف العقلاء العرفاء

كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ....

﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم الشعور والتنبه ﴿بَلْ هُمْ﴾ بسبب تضييع استعداداتهم ﴿أَضَلُّ﴾ من الأنعام بمراتب وبالجملة ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ المقصورون على الغفلة المؤبدة المتناهون فيها أقصى الغاية.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها الفضلاء العرفاء الموحدون أن ﴿لِلَّهِ﴾ المتوحد المتفرد في ذاته ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ التي تترتب عليها الصفات العليا، المترتبة عليها الآثار الحادثة في عالم الكون والفساد والشهادة والغيب والنشأة الأولى والأخرى ﴿فَادْعُوهُ﴾ سبحانه أيها الموحدون ﴿بِهَا﴾ وأسندوا الحوادث الكائنة إليها أولاً وبالذات ﴿وَذَرُوا﴾ أي دعوا واتركوا أقوال ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلون ويشركون ﴿فِي أَسْمَائِهِ﴾ بنسبة الحوادث إلى الأسباب أولاً وبالذات واهجروا مذاهبهم واعتزلوا عنهم وعن مجالستهم واعلموا أن كل أحد ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ على مقتضى ﴿مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

ثم قال سبحانه كلاماً كلياً جملياً شاملاً على جميع الملل والأديان فقال: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أظهرناهم على صورتنا ﴿أُمَّةٌ﴾ مستخلفة عناهم ﴿يَهْدُونَ﴾ الناس إلينا ملتبسين ﴿بِالْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَبِهِ﴾ أي بالحق لا بغيره إذ لا غير ﴿يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ يقسطون وينصفون في الأحكام.

وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ....

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا المنزلة على رسلنا ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم﴾ سنستضلهم ونستزلهم قليلاً قليلا إلى أن نهلكهم بالمرة، وندخلهم في جهنم البعد وسعير الإمكان ﴿مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ ولا يفهمون كيف وقعوا فيها.

﴿وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ﴾ أي أمهلهم في بطرهم وغفلتهم إلى حيث ازدادوا على نفوسهم من العتو والفساد الموجب لشدة العذاب مكراً عليهم وكيداً ﴿إِنَّ كَيۡدِي﴾ أي مكري وخداعي مع العصاة الغواة الضالين عن منهج الرشاد ﴿مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ محكم حيث لم يحسوا به أصلاً إلى أن أخذوا بأسوأ العذاب وأشد النكال.

ثم أشار سبحانه إلى توبيخ المسرفين المسفهين لرسول الله ﷺ عناداً ومكابرة فقال: أما تستحيون من الله أولئك المسرفون المفرطون في نسبته الجنون إلى من فاق على جميع العقلاء بالرشد والهداية ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ﴾ ويتدبروا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾ خفة عقل موجب للخبط، وما لم يفهموا من كلامه إلى أن صدر عنهم هفوة لا عن قصد ويسمونه مجنوناً لذلك ﴿إِنۡ هُوَ﴾ أي بل ما هو ﷺ عند التحقيق ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ينذرهم بإذن الله ووحيه ويخوفهم بما يخوفهم الله به ﴿مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ عظيم الشأن ظاهر في أمر الإنذار.

أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ....

روي أنه ﷺ صعد الصفا يوماً فدعاهم فخذاً فخذاً، يحذرهم عن بأس الله وبطشه، فقال قائلهم: إن صاحبكم لمجنون، فنزلت.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع لهؤلاء المسرفين الذين ينسبون ما هو خارج عن مدركات عقولهم إلى الجنون: أينسبون جميع ما يخالف عقولهم إلى الجنون ويدعون استقلال العقل في العلوم المتعلقة في الأشياء كلها.

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ ويتدبروا كيف تقصر وتدهش عقولهم ﴿فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ﴾ وكيفية نظمها وقصدها وترتيبها وتطبيقها، وما فيها من كواكبها وبروجها وحركاتها وأدوارها، وانقلاباتها صيفاً وشتاء وربيعاً وخريفاً ﴿وَالْأَرْضِ﴾ وما عليها من تلالها ووهادها، وأنهارها وبحارها، ورياضها وأزهارها، وغرائبها وبدائعها المكنونة المتكونة فيها بل ﴿وَ﴾ في جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ وأظهره من كتم العدم إظهاراً إبداعياً ﴿مِن شَيْءٍ﴾ أي مما يطلق عليه اسم الشيء، تدهش وتتحير في ظهور فحول العقلاء إلى حيث لم يفهموا كيفية ظهور ذرة صغيرة من ذرائر العالم، فكيف لميتها ؛ لذلك قال ﷺ في دعائه: «اللَّهُمَّ أَرِنَا الأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ»[1]، وقال أيضاً ﷺ : «ربِّ زِدْنِيْ تَحَيُّراً»[2]، هذا في الآفاق الخارجة عنهم ﴿وَ﴾ أما في أنفسهم فلم ينظروا ﴿أَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ المقدر المسمى لهم، وهم لا يفهمونه

(١) الفخر الرازي في التفسير الكبير [١/١٠٩ سورة الفاتحة] .

(٢) ذكره أحمد بن محمد المقري صاحب نفح الطيب من قول أحد العارفين أنظر نفح الطيب.

فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ....

وإن اجتمع جميع العقلاء في تعيين أجل شخصٍ واحدٍ، ومع قصور نظرهم وسخافة عقلهم ينسبون الجنون إلى المكاشفين المناظرين بنور الله، المطالعين المشاهدين دائماً صفاء وجهه الكريم، وهم الذين انخلعوا عن لوازم البشرية مطلقاً، وشقوا جلباب الناسوت رأساً، وخرقوا الحجب المسدولة بالكلية، وصاروا ما صاروا، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، وبعدما سقط العقل عن درجة الاعتبار واضمحل مدركاته عن الاعتماد فلا تعويل إلا على الوحي والإلهام الملقى من عند العليم العلام ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾ من الأحاديث المهمة والموحى به ﴿بَعْدَهُۥ﴾ أي بعد نزول القرآن ﴿يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ أي المؤمنون المصدقون بالوحي والإلهام. وبالجملة

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ الهادي إلى سبيل الرشاد ﴿فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ يرشده، فعليك أن لا تجتهد يا أكمل الرسل في إهدائهم ولا تصغي أيضاً إلى أباطيلهم، إذ أمرهم مفوضٌ إلى الله ﴿وَ﴾ كيف تجتهد وتسعى في إيمانهم إذ هم قوم ﴿يَذَرُهُمْ﴾ ويتركهم الله باسمه المضل المذل ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ يترددون ويتحيرون إلى أن يأخذهم بما يأخذهم، دعهم وأباطيلهم، فيها يترددون، وفي سكراتهم يعمهون.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ التي تخوفهم منها ومن شدة أهوالها وأفزاعها ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي في أي آن من الآنات وزمان من الأزمنة

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ....

قيامها ووقوعها حتى نؤمن لها قبل قيامها ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ أي علم قيامها ﴿عِندَ رَبِّى﴾ مما استأثر بها سبحانه لا يطلع عليها أحد بحيث ﴿لَا يُجَلِّيهَا﴾ أي لا يظهرها ولا يكشف أمرها ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ الذي عين ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ هو من الغيوب الخمسة التي خصصها سبحانه لنفسه في قوله: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان-٣١:٣٤] الآية. وإنما أخفاها وأبهم وقتها ولم يطلع أحداً عليها ؛ لأن الحكمة تقتضي ذلك، لأن سبحانه لو أظهر أمرها على عباده ﴿ثَقُلَتْ﴾ عظمت وشقت أمرها واشتدت هولها ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على أهلها وساكنيها من الملائكة ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ عن من أسكنها وعاش عليها من الثقلين ولذلك ﴿لَا تَأْتِيكُمْ﴾ الساعة عند إتيانها ﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾ فجأة وعلى غفلة بحيث لا يسع ترك ما كنتم فيه من الأمور، كما أخبر النبي ﷺ: «إِنَّ السَّاعَةَ تَهِيْجُ بِالنَّاسِ، والرَّجَلُ يُصْلِحُ حَوْضَهُ، والرَّجَلُ يَسْقِيْ مَاشِيَتَهُ، والرَّجلُ يُقَوِّمُ سِلْعَتَهُ فِيْ سُوْقِهِ، والرَّجَلُ يَخْفِضُ مِيْزَانَهُ وَيَرْفَعُهُ»[1]، وإنما ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ عن الساعة وقيامها لظنهم فيك لنجابة طينتك ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ خبير لوقتها، عليم بشأنها، مذكر لها دائماً، مفتش عن أحوالها وأهوالها مستمراً ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ وقت ظهورها ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي خزانة قدره ولوح قضائه

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره [٤/ ٣١٣] وابن أبي حاتم في تفسيره [١٠/ ٣١٩٧ رقم/ ١٨٠٩٢/] عن قتادة.

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ....

وعالم سمائه وغيب ذاته ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ أنه سبحانه مختصٌ بها لا يطلع أحداً عليها.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل لمن ظن بك إنك حفي عليم بسرائر الأمور ومخفياتها، خبير بحقائق الموجودات وماهياتها اعترافاً بالعبودية وسلباً للاختيار عن نفسك: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا﴾ أي جلب نفع ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ أي دفع ضر ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ إيصاله إلي من النفع والضر، ولا أعلم الغيب إلا ما أوحى الله إلي ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ يعني لو تعلق علمي بعواقب أموري ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَ﴾ صرت إلى حيث ﴿مَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ أصلاً ﴿إِنْ أَنَا۠﴾ أي بل ما أنا ﴿إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر بإذن ربي وعلى مقتضى وحيه إياي ﴿وَبَشِيرٌ﴾ أيضاً أبشر على مقتضى الوحي ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ بوحي الله وإلهامه.

وكيف لا يكون الغيب مما استأثر الله به إذ:

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم﴾ أي أوجدكم وأظهركم ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هو أبونا آدم وكان جسداً لا علم له، ثم علمه من الأسماء ما تعلق إرادته به سبحانه بتعليمه إياه ولم يعلم حقائقها ولميتها، إذ هي من المغيبات التي لم يطلع أحداً

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ۚ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا ....

عليها ﴿وَ﴾ بعدما أظهرها ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾ أي خلق من جنسها ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ويؤنس معها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أوقعها بإلهام الله إياه ﴿حَمَلَتْ﴾ وحبلت ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ أي أدركت حملاً خفيفاً في بطنها ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي مضت عليها مدة، فأدركت ثقلها وأخبرت زوجها بثقلها فأُلهم بأنه ولد ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَت﴾ إلى حيث اشتدت عليها حملها وظهرت عندها أمارة حياة ما في بطنها ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا﴾ ولداً سالماً ﴿صَالِحًا﴾ لمؤانستنا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾ لنعمه دائماً.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ بعد صالح، وطالحاً بعد طالح، بطناً بعد بطن ﴿جَعَلَا﴾ موضع الشكر ﴿لَهُ شُرَكَاءَ﴾ بإغواء الشيطان إياهما ﴿فِيمَا آتَاهُمَا﴾ من الأولاد فسمياهم بعبد الحارث، وعبد العزى، وعبد المناة، بتعليم الشيطان إياهما ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ﴾ المنزه بذاته عن الشريك مطلقاً سيما ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ هما وغيرهما من المشركين.

ثم لما لم يكن شركهما عن قصد واختيار، بل وسوسة الشيطان وإغوائه وبّخ سبحانه عليهم لينزجروا وقال:

﴿ أَيُشْرِكُونَ﴾ جمعه باعتبار أولاده معنا ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ ويظهر ﴿شَيْئًا﴾

وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ....

حقيراً قليلاً بل ﴿وَهُمْ﴾ أي الأصنام والشركاء في أنفسهم ﴿يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ مخلوقون كسائر المخلوقات.

﴿وَ﴾ كيف يشركون الأصنام معنا في الألوهية والربوبية مع أنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ﴾ أي لعبدتهم ﴿نَصْرًا﴾ يدفع عنهم الأذى لكونهم جمادات ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ أي بل لا يقدرون أن ينصروا أنفسهم بدفع ما يؤذيهم؛ لكونهم جمادات، ويكسرهم، فكيف لغيرهم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون الموحدون المشركين المصرين على الشرك ﴿إِلَى الْهُدَىٰ﴾ أي الإسلام الموصل لهم إلى توحيد الحق ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ﴾ لخبث طينتهم بل ﴿سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون المريدون إهداء هؤلاء الغواة ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ﴾ أي دعوتكم إياهم إلى الإسلام ﴿أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ ساكتون عن الدعوة، بل عن الالتفات إليهم مطلقاً لشدة قساوتهم وغلظة غشاوتهم.

ثم قال سبحانه تبكيتاً للمشركين: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾ وتعبدون أيها الضالون المشركون ﴿ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ المتفرد بالألوهية المتوحد بالربوبية ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ أي هم مخلوقون أمثالكم، بل أسوء حالاً منكم لكونهم جمادات لا شعور لها، كيف سميتوها معبودات تعبدونها لعبادة الله وإن اعتقدتم

فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ....

إلهيتهم وتأثيرهم ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ بإنزال العذاب على مخالفيكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ البتة لكونكم عباداً لهم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ في أنهم آلهة، فكيف تعتقدون أيها الحمقى إلهية هؤلاء الجمادات التي تنحتونها بأيديكم من الأحجار والأخشاب، والإله منزه عنها، متعال عن أمثالها، وأيضاً كيف تعتقدون تأثير هؤلاء.

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ﴾ فيؤثرون بسببها ﴿ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ والتأثير مسبوق بهذه القوى كيف وشرط التأثير الحياة ولا حياة لهم أصلاً فكيف يؤثرون، وأنتم كيف تثبتون لهم التأثير أفلا تعقلون، ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل تبكيتاً لهم وإلزاماً: ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ الذين تدعون مشاركتهم مع الله واستظهروا منهم ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ وامكروني بمظاهرتهم بحيث لا أطلع بمكركم أصلاً ﴿فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ تمهلون مدة حتى أتأمل فيه وأطلع عليه وأشتغل لدفعه، وبالجملة لا أبالي بولاية غير الله ونصره وحفظه إياي بكم وبمكركم، وبمكر شركائكم ومعاونيكم.

﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ﴾ وحافظي ومولي جميع أموري ﴿ ٱللَّهُ ﴾ القادر القيوم

ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ....

﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾ أي القرآن لنصري وتأييدي ﴿وَ﴾ من غاية لطفه ﴿هُوَ﴾ سبحانه بنفسه ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ من عباده ويحفظهم من مكر الماكرين، سيما الأنبياء الذين هم في كنف جواره وحوزة حفظه، يحفظهم عن جميع ما يؤذيهم.

﴿وَ﴾ كيف لا يحفظهم سبحانه عن تأثير هؤلاء الأصنام ﴿ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ أنتم أيها الضالون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ سبحانه وتستنصرون منهم وهم ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ أي كيف ينصرونكم وهم لا ينصرون أنفسهم لعدم استعدادهم وقابلياتهم.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم وشدة شكيمتهم وضغينتهم ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ أيها المؤمنون أولئك المشركين الضالين ﴿إِلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ ودين الإسلام ﴿لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ ولا يقبلوا مع ورود هذه الدلائل الواضحة ﴿وَتَرَىٰهُمۡ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ ويسعون ويسمعون منك الأدلة القاطعة ﴿وَهُمۡ﴾ من خبث طينتهم وجهل جبلتهم ﴿لَا يُبۡصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾ إلى أصنامهم ولا يتأملون ولا يتفطنون أن ما ينسبون إلى هؤلاء من الشفاعة والشركة وهمٌ زائل وخيال باطل، وخروج عن مقتضى العقل الفطري، بل يصرون على ما هم عليه عتواً وعناداً.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ ....

وإذا كان حالهم هذا وإصرارهم بهذه الغاية.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي اختر يا أكمل الرسل طريق العفو واللين واترك الغضب والخشونة على مقتضى شفقة النبوة ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة القومَ الذين تفرست منهم الرشد بنور النبوة والولاية ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ المصرين وإن جادلوك، جادلهم بالتي هي أحسن، إن ربك أعلم منهم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم أيضاً بالمهتدين منهم.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ ينخسنك ويشوشنك ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ المثير للقوى الغضبية والحمية الجاهلية ﴿نَزْغٌ﴾ وسوسة وإغراء يحملك على الغضب ويخرجك عن مقتضى ما أمرت به من الحلم والملاينة ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ من غوائله، وارجع إليه من وسوسته وتحايله يكفيك سبحانه مؤنة شروره وإغوائه ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بذاته ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتك ﴿عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ بحاجاتك.

ثم قال سبحانه تذكيراً لنبيه وعظةً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ من عبادنا كانوا ﴿إِذَا مَسَّهُمْ﴾ واستولى عليهم ﴿طَٰٓئِفٌ﴾ خاطر يطوف حول قلوبهم ﴿مِّنَ﴾ قبل ﴿ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ ما أُمروا به ونهوا عنه من عند الله ﴿فَإِذَا هُم﴾ بتذكير المأمور والمنهي ﴿مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ مميزون مواقع الخطأ، فيحترزون

وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي ٱلْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ....

منها، ويتعوذون إلى الله عما يغريهم إليه.

﴿وَ﴾ الذين لم يتقوا بل هم ﴿إِخْوَٰنُهُمْ﴾ أي إخوان الشياطين إذا مسهم ما مسهم لا يتأتى بهم التذكر ولم يوفقوا عليه بل ﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ أي الشياطين بالتزيين والتحسين والوسوسة والإغراء إلى أن يوقعوا بهم ﴿فِي ٱلْغَيِّ﴾ والضلال ﴿ثُمَّ﴾ بعد الإيقاع فيه ﴿لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ بل يبالغون في إغوائهم وإغرائهم إلى حيث يردونهم بحال لا يرجى لهم الفلاح أصلاً ﴿وَ﴾ من غاية انهماكهم في الغي والضلال ونهاية غراقتهم فيه ﴿إِذَا لَمْ تَأْتِهِم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِـَٔايَةٍ﴾ اقترحوها منك عناداً ﴿قَالُواْ﴾ على سبيل التهكم والاستهزاء: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ أي هل انتخبتها من الأقوال وأنشأتها كسائر منشآتك أعجزت فيها ؟ فإن أعجزت لِمَ لمْ تطلبها من ربك على مقتضى دعواك كما طلبتَ غيرها منه ﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ما أنا مختلق بل رسول مبلغ ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ﴾ الذي هو مرسلي ومبلغي ما لي صنع في نظمه وتأليفه وبلاغته وفصاحته وإعجازه بل ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن وما فيه من الرموز والإشارات ﴿بَصَآئِرُ﴾ للمستبصرين المستكشفين بمقتضى الودائع الفطرية التي أودعها الله في قلوب عباده ومتى انكشفتم بودائعكم علمتم أنها ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى﴾ يوصلكم إلى ما جبلتم لأجله وهو التوحيد والعرفان ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ نازلةٌ لكم من الله يوقظكم عن نومة الغفلة والنسيان كل ذلك

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ ....

﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٢٠٣﴾ أي يتحققون بمرتبة اليقين العلمي، ويطلبون الترقي منها إلى العين والحق.

حققنا بلطفك بحقيتك، وخلصنا من هويتنا الباطلة، بفضلك وجودك يا أرحم الراحمين.

﴿وَ﴾ بعدما سمعتم من أوصاف القرآن ما سمعتم ﴿إِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ عندكم أو قرأتم أنتم ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ﴾ عن صميم قلوبكم وتأملوا في معناه بقدر وسعكم وطاقتكم ﴿وَأَنصِتُواْ﴾ أي اسكتوا وأعرضوا عن مقتضيات سائر قواكم ولا تلتفوا إليها أصلاً ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ تنكشفون وتتحققون بما في نفوسكم من ودائع الله بسببه.

ثم خاطب سبحانه حبيبه ﷺ لأن أمثال هذه الخطابات لا يسع إلا في وسعه وقابليته فقال: ﴿وَٱذۡكُر﴾ أي تذكر وتحقق ﴿رَّبَّكَ﴾ الذي أظهرك على صورته ﴿فِي نَفۡسِكَ﴾ إذ أنت ظاهره ﴿تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ﴾ متضرعاً متجنباً خائفاً عن غفلة الناسوت ﴿وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ إخفاء من المحجوبين الجاهلين برتبتك وغيرة عليه سبحانه ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي بجميع أوقاتك التي جرى عليك على مقتضى بشريتك ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٢٠٥﴾ لتحققك في مقام الشهود.

إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ حصلوا وتمكنوا ﴿عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ ﴿وَ﴾ لا يلتفتون إلى ما سواه بل ﴿يُسَبِّحُونَهُ﴾ أي ينزهونه ويقدسونه عما يصور لهم ويوهمهم منه سبحانه ناسوتهم ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ بمقتضى لاهوتهم منسلخين عن هوياتهم الباطلة بلا التفات منه إلى ما خيلتهم ناسوتهم أصلاً.

ربنا اكشف عنا بفضلك حجب ناسوتنا، وحققنا بفضاء لاهوتك بمقتضى لاهوتهم.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو القبلة الأحمدية والمقصد الأحدية المحمدية هداك الله إلى سواء سبيله وأوصلك إلى مقرك من التوحيد: أن تتوجه إلى فضاء قلبك وتتذكر ما فيه من ودائع ربك على وجه الخبرة والاستبصار، مجتنباً عما يشوشك من غبار الأغيار، معيراً بمعيار العبرة والاعتبار بحيث لا يلهيك عنها وسوسة الشيطان المكار وتعزيرات الدنيا الغرار الغدار، لا يتيسر لك هذا إلا بتذكر ما في كتاب الله من المواعظ والأخبار والآثار وامتثال ما فيه من الأوامر والنواهي والتدبر في سرائرها واستكشاف حكمها وأسرارها.

عليك أن تتوسل في استرشادك من كتاب الله إلى أحاديث رسوله ﷺ، إذ هي مبينة له كاشفة عن سرائره ومرموزاته، موضحة لما فيه من الغوامض، متكفلة لحفظ عقيدتك عن التزلزل والانحراف عن جادة الهداية، موصلة لك

بقدر قابليتك إلى مسالك مسائل التوحيد.

فلك أن تواظب على الاستفادة ناوياً في استفادتك استخلاص نفسك عن ربقة التقليد، مستقبلاً في سلوكك إلى مقر المعرفة والتوحيد،مشمراً ذيلك عن جميع ما يعوقك ويمنعك من لوازم بشريتك، ملتجئاً نحو الحق في جميع حالاتك، مستمداً في سلوكك هذا عن أرباب الولاء الوالهين في مطالعة جمال الله الواصلين إلى فضاء وحدته وبقائه، منخلعين عن جلباب ناسوتهم بالكلية.

بحيث لا يلتفتون إلى مقتضيات بشريتهم أصلاً إلا البدلاء وهم الحائرون الحاضرون الوالهون الواصلون الفانون الباقون المتبدلون المتحققون، ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ربنا اجعلنا بفضلك من خدامهم وتراب أقدامهم.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة الأنفال

لا يخفى على ذوي الألباب المستكشفين عن لب التوحيد المستنزهين عن قشوره إن من لم يترق ممن يتأتى منهم التكليف والسلوك في سبيل التوحيد عن المرتبة الحيوانية ولم يصل إلى الدرجة العلية الإنسانية ولم تثمر شجرة وجوده وظهوره ثمرة المعرفة التي غرست لأجلها وظهرت لحصولها.

وبالجملة لم يحيَ لحياة العلم اللدني الأزلي الأبدي بل بقي على الجهل الجبلي الهيولاني، فهو ميت حقيقة وإن كان حياً صورة، ومع موتهم وجهلهم هذا لا يستنشقون سمات الروح ونفحات الحياة الطبيعة الطيبة من أنفاس الأنبياء المبعوثين لإحيائهم بنفخ الروح الإلهي والنفس الرحماني المظهر لهوياتهم، المحيي لهياكلهم وماهياتهم من كتم العدم، ولم يؤمنوا بهم ولم يصدقوا فيما جاؤوا به من عند ربهم، بل كذبوهم وقاتلوا معهم، وأصروا على جهلهم، واستكبروا بمقتضى حميتهم الحيوانية الجاهلية الساقطة المسقطة الضالة المضلة.

لذلك صار دماؤهم مباحاً وأموالهم فيئاً عند العارف المتحقق وتوحيد الحق، وهي بالجملة من جملة أرزاق الله التي لم يضف إلى أحد من خلقه،

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ ....

ولم يقسم بين عباده، لذلك أخبر سبحانه نبيه ﷺ كيفية تقسيم أموال الفيء والغنيمة مخاطباً له على وجه التعليم فقال متيمناً:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المقسم لأرزاق عباده على العمل القويم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لهم بإصلاح ما ظهر بينهم من المخالفة والنزاع بإغواء الشيطان الرجيم ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يوفقهم على ازدياد الإيمان والتصديق، سيما بأحكام كتابه الكريم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي أصحابك لك أيها الرسول المبعوث على الخلق العظيم ﴿عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ﴾ أي عن قسمة الغنائم، عبر سبحانه عنها بالنفل وهو في اللغة: عطية زائدة اشترطها الإمام لمن اقتحم على محل الخطر زيادة على سهمه ؛ لأنها زائدة على سهام الغزاة المجاهدين المقاتلين في سبيل الله لإعلاء كلمة الحق طلباً لمرضاته وما يترتب عليه من أموال الدنيا بمنزلة النفل والعطية الزائدة على سهامهم التي هي المثوبة العظمى والمرتبة العليا عند الله، ﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿ٱلْأَنفَالُ﴾ كلها ﴿لِلَّهِ﴾ ومن مال الله، وقسمتها مفوض إليه سبحانه ﴿وَ﴾ إلى ﴿ٱلرَّسُولِ﴾ المستخلف منه النائب عنه بإذنه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها المؤمنون عن مخالفة أمره وأمر رسوله ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ أي الحالة والعداوة التي وقعت بينكم بوسوسة الشيطان وإغوائه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ أي انقادوا أمرهما ولا تتجاوزوا عن حكمهما ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ موقنين بتوحيد الله وتصديق رسوله ﷺ.

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ ....

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الكاملون في الإيمان المتحققون بمرتبة اليقين والعرفان المصدقون بالرسل المبين لهم طريق التوحيد هم ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ الواحد الأحد المتفرد بالألوهية المتوحد بالربوبية ﴿وَجِلَتْ﴾ أي خافت وترهبت واضطربت ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ من سطوة سلطنة عظمته وجلاله ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ﴾ الدالة على بسطته وكبريائه النازلة على رسله وأنبيائه ﴿زَادَتْهُمْ﴾ تلك الآيات ﴿إِيمَـٰنًا﴾ وتصديقاً وإذعاناً ويقيناً وعياناً وعرفاناً ﴿وَ﴾ هم من كمال يقينهم وعرفانهم ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لا على غيره من الأسباب الناقصة ﴿يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي يتوصلون ويستعينون في جميع الأمور لتحققهم وتمكنهم في مقام التوحيد المسقط للالتفات إلى غير الحق مطلقاً.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يديمون الميل إلى الله في جميع حالاتهم مراقبين لفيضه وجذب من جانبه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ من كد يمينهم ﴿يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ في سبيله طلباً لمرضاته.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون بمرتبة الإذعان والإيقان ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً مستقراً بلا اضطراب وتزلزل ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ﴾ عظيمة ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من درجات العلم والعين والحق ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ ستر

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ ....

لأنانيتهم وتعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ معنوي بدلها، يرزقون بها فرحين عناية من الله لأن من توجه نحو الحق ومال إلى جانبه ميلاً مسقطاً للتوجه إلى الغير مطلقاً وخرج عن لوازم الإمكان إلى حيث ينفق ويبذل جميع ما نسب إليه من أموال الدنيا إعراضاً عنها، مخرجاً محبتها من قلبها، أعطى له سبحانه بدل إخلاصه من الرزق المعنوي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

﴿كَمَآ﴾ أعطاك يا أكمل الرسل حين ﴿أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ حين أخبرك جبريل عليه السلام من إقبال عير مكة من قبل الشام وفيها أبو سفيان ملتبساً ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ المطابق للواقع ﴿وَ﴾ الحال ﴿إِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ خروجك.

ومن كمال كراهتهم ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو الجهاد سيما ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ وظهر لك بوحي الله إياك ووعده النصر والظفر لك وهم من غاية رعبهم حين خروجهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ مثل البهائم إلى المسلخ ﴿وَهُمْ﴾ حينئذ ﴿يَنظُرُونَ ۝٦﴾ حيارى خائفين مرعوبين مع أنهم كتب لهم الظفر والغنيمة والغلبة من عند ربهم.

وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام وفيهم أبو سفيان مع أربعين من

....

الفرسان ومعهم تجارة عظيمة فأخبر جبريل رسول الله ﷺ فأخبر به الرسول للمؤمنين.

فخرجوا مسرعين بلا عدة استقلالاً لهم وميلاً إلى أموالهم فلما خرجوا من المدينة بلغ خبر خروجهم إلى العير، فانصرفوا إلى الطريق وأرسلوا خبرهم إلى مكة فاستغاثوا فخرج أبو جهل مع جمع كثير فمضوا إلى بدر وكان رسول الله ﷺ بوادي دفران، فنزل جبريل عليه السلام ثانياً يعده إحدى الطائفتين أي العدو والعير فاستشار رسول الله ﷺ أصحابه وإن كان رأيه إلى المقاتلة مع العدو.

فقال بعضهم: هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له، إنا خرجنا للعير!

فقال ﷺ: «إِنَّ العِيْرَ مَضَتْ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ وَهَذَا أَبُو جَهْلٍ قَدْ أَقْبَلَ».

فقالوا كارهين مرعوبين خائفين: يا رسول الله ﷺ عليك بالعير ودع العدو، فغضب ﷺ، فقال المقداد بن عمرو: يا رسول الله امض بما أمرك الله فإنا معك حيثما أحببت، لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد ـ مدينة بأقصى الحبشة ـ مضينا معك بلا تكاسل ومخالفة، فدعا ﷺ له خيراً.

ثم قال ﷺ: اجتمعوا علي أيها الناس، يريد الأنصار القائلين حين بايعوه على العقبة أنهم براء من ذمامه حتى يصل إلى ديارهم فتخوف أن لا يروا نصرته إلا على عدوهم بالمدينة.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ....

فقال له سعد بن معاذ: لكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: أجل.

قال: قد آمنا لك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطينا على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة لما أمرت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت على البحر لخضنا معك بلا تخلف، أتحسب أنا إذا لاقينا العدو نتكاسل ونتساهل، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك.

ففرح رسول الله ﷺ ونشطه قول سعد ثم قال: «سِيْرُوْا عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، وَأَبْشِرُوْا، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَعَدَنِيْ الآنَ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، واللهِ لَكَأَنِّيْ الآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ»[1].

﴿وَ﴾ اذكروا أيها المؤمنون وقت ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ﴾ بالوحي على رسوله ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ مغلوبة مقهورة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ ﴿وَ﴾ أنتم حين سمعتم الوحي ﴿تَوَدُّونَ﴾ وتحبون ﴿أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ﴾ أي العير ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾ لأن أهلها قليل ومالها كثير لا احتياج لكم إلى المقاتلة معهم لقلتهم وعدم شركتهم ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ بمقتضى قهره وقدرته ﴿أَن يُحِقَّ﴾ أي يثبت

(١) في المستدرك (عن بن عباس رضي الله عنهما قال: لما فرغ رسول الله ﷺ من القتلى قيل له عليك العير ليس دونها شيء فناداه العباس وهو في وثاقه أنه لا يصلح لك قال لم قال لأن الله وعدك إحدى الطائفتين وقد أنجز لك ما وعدك) قال الحاكم :هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه المستدرك [/ ٣٥٧رقم / ٣٢٦١ / باب: تفسير سورة الأنفال].

ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ ....

ويظهر ﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي التوحيد المطابق للواقع الذي هو الإسلام ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ الملقاة من عنده لملائكته حين أمرهم بإمداد حبيبه الذي بعثه لإعلاء كلمة توحيده ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾﴾ أي يستأصلهم إلى حيث لم يبق منهم من يستخلفهم، كل ذلك فضل من الله وامتنان على رسوله.

﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي الإسلام المحقق المطابق لما عند الله ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ المخالف لدين الإسلام ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ المصرون على ما هم عليه قبل نزول الإسلام، ما أراد الله من تحقيق الحق وتمكينه وإبطال الباطل وتخذيله، أذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم ورحمته.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ حين اقتحم العدو وأنتم عزل قلائل وهم متكثرون ذو عَدَد وعُدَد ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ ربكم مغيثاً قائلاً لكم على لسان نبيكم: ﴿أَنِّى﴾ بحولي وقوتي ﴿مُمِدُّكُم﴾ أي معينكم ومغنيكم ﴿بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ على عددكم يضربونهم من ورائهم وأنتم من قدامهم.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾ أي إمدادكم أيها المؤمنون بملائكة السماء ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ لكم بفضلكم وكرامكتم عليهم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ في جميع ما وعدكم الله به ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المتحققون بمقام التوحيد ﴿مَا ٱلنَّصْرُ﴾

﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ ....

والغلبة والظفر ﴿إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد واختار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مقدوراته ومراداته ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ متقن في جميع أحكامه ومأموراته يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

اذكروا أيها المؤمنون فضل الله عليكم وامتنانه ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ﴾ ويغلب عليكم بلطفه ﴿ٱلنُّعَاسَ﴾ أي النومة إزالة لرعبكم حين كنتم في سهر من خوف العدو لتكون ﴿أَمَنَةً﴾ نازلة ﴿مِّنْهُ﴾ لتستريحوا وتطمئن قلوبكم ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حين كنتم مجنبين بإغواء الشيطان وعدوكم على الماء، والشيطان يعيركم بجنابتكم ويوسوس عليكم بأنكم تدعون الإمامة والولاية؟ كيف تخرجون غداً تجاه العدو وأنتم مجنبين، ودعواكم أن القتال والجهاد من أشرف العبادات؟ وبأمثال هذه الهذيانات يوقع بينكم الفتنة لتقعدوا عن القتال، وأنتم أيضاً مضطربون بما معكم عليه من الجنابة أنزل الله عليكم المطر ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ أي بالماء أبدانكم عن الجنابة الصورية كما طهر قلوبكم بماء العلم اللدني ورشحات التوحيد من الجنابة المعنوية التي هي الكفر والنفاق، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُذْهِبَ عَنكُمْ﴾ بإنزال المطر ﴿رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي وسوسته وإيقاعه وتخويفه من العطش وغيرها ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ بإنزاله إنه سبحانه يعين عليكم[1] وينصركم

(١) أي يعينكم (للمخطوط طريقة خاصة في استعمال حروف الجر).

وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ ....

حين اضطراركم ليزداد وثوقكم به وبنصره وعونه وإنجاز وعده ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ أي بهذا الربط أقدامكم على جادة التوحيد والتوكل إلى الله والتفويض نحوه في جميع الأمور.

اذكر يا أكمل الرسل وذكِّر من تبعك فضل الله عليك وعلى أصحابك وقت ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ المأمورين لعونك وإمدادك حين ازداد رعب أصحابك من اقتحام القتال قائلاً لهم: ﴿أَنِّي﴾ بكمال حولي وقوتي ﴿مَعَكُمْ﴾ حاضر عندكم، شهيد عليكم ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ في مكانهم تجاه العدو حتى لا يستدبروا إذ ﴿سَأُلْقِي﴾ من كمال نصري وعوني للمؤمنين ﴿فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي قلوب العدو ﴿ٱلرُّعْبَ﴾ من المؤمنين فاستكثروهم واستدبروا منهم ومتى استدبر العدو ﴿فَٱضْرِبُوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي أعاليها ﴿وَ﴾ إن وضعوا جننهم وأيديهم على أعناقهم حفظاً لها ﴿ٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ أي جميع أصابعهم لئلا يبقى لهم استعداد القتال[1] أصلا حتى لا يكروا عليكم.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي انهزامهم وانخذالهم ﴿بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ أي خاصموا وخالفوا مع الله ورسوله ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على

(١) في المخطوط (العباد).

وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا

كل ما أراد من القهر والانتقام ﴿وَ﴾ يخاصم ﴿رَسُولَهُۥ﴾ المؤيد من عنده لتبليغ الأحكام استحق أنواع العقوبة والنكال من عنده ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ صعب الانتقام سريع الحساب على من خالف أمره وعادى رسوله.

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ أي أنواع العقوبة والعقاب نازل على من تعدى حدود الله وكذب رسوله ﴿فَذُوقُوهُ ﴾ أيها المخالفون المصرون ما أعد لكم من العذاب ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرين المتمردين ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾﴾ يخلدون فيها أبد الآباد.

ثم قال سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ مقتضى إيمانكم إعلاء كلمة الحق وانتصار دينه فعليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أن تقاتلوا معهم وإن كانوا ﴿زَحْفًا ﴾ متكثرين بأضعافكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ أي لا ترجعوا منهم حين الالتقاء إلى أدباركم خائفين منهزمين حال كونهم بأضعافكم، فكيف إن كانوا مثلكم أو أقل منكم.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ ﴾ منكم ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ إلى يوم ملاقاة العدو ﴿دُبُرَهُۥٓ ﴾ أي مدبراً خائفاً ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا ﴾ أي قاصداً بالاستدبار التحيز واللحوق

إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

﴿إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ ثابتة من المؤمنين ليستعين بهم ﴿فَقَدْ بَآءَ﴾ أي رجع ولحق ﴿بِغَضَبٍ﴾ نازل ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لمخالفة أمره وحكمه وحكمته ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ مرجعه ومصيره.

وعليكم أيها المؤمنون أن لا تنسبوا القتل بل جميع ما صدر منكم إلى نفوسكم مفاخرة ومباهاة بل إن قتلتموهم صورة ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ حقيقة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأن جميع الأمور الكائنة في الآفاق صادرة من الله أولاً وبالذات ومن آثار أوصافه وأسمائه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أيها النبي المأمور برمي الحصا حين هجوم الأعداء على أصحابك ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي أوجد سبحانه الرمي بيدك التي هي يد الله فوق أيديهم لذلك ترتب على رميك انهزامهم الذي يستبعدونه أنتم وهؤلاء أيضاً ﴿وَ﴾ إنما رماهم سبحانه بما رمى ﴿لِيُبْلِىَ﴾ ويجرب ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي بنعمة الغنيمة والظفر هل يرجعون ويواظبون على شكر نعمه أم لا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع مناجاتهم الصادرة منهم على وجه الخلوص ﴿عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ بحاجاتهم التي يحتاجون إليها في معاشهم ومعادهم.

ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ....

﴿ ذَٰلِكُمْ﴾ أي ابتلاء الله بالبلاء الحسن مختص بالمؤمنين ﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المولي لأموركم ﴿مُوهِنُ﴾ مضعفُ ومبطل ﴿كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ ومكرهم وحيلهم التي يقصدون بها إهلاككم وإذلالكم.

ثم قال سبحانه على سبيل التهكم للكافرين الذين كانوا إذا أقبل عليهم المؤمنون للقتال يطوفون حول الكعبة متشبثين بأستارها متضرعين مستفتحين من الله قائلين: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟﴾ أيها الهالكون في تيه الضلال لمقاتلة نبينا ومن تبعه من المؤمنين ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ﴾ بقتلكم وسبيكم أي غلبة المؤمنين عليكم ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن مقاتلتهم ومعاداتهم وعن الاستفتاح لها، بل آمِنوا كما آمن هؤلاء لنبينا عن ظهر القلب ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِن﴾ صالحوا معهم وآمنوا نفاقاً ثم ارتدوا بأن ﴿تَعُودُوا۟﴾ إلى مقاتلتهم ومعاداتهم ﴿نَعُدْ﴾ إلى نصرهم وتأييدهم إلى أن يستأصلوكم ويخرجوكم من دياركم ﴿وَ﴾ لا تغتر بكثرة عَدَدكم وعُدَدكم إذ ﴿لَن تُغْنِىَ﴾ وترفع ﴿عَنكُمْ فِئَتُكُمْ﴾ التي تستظهرون بها ﴿شَيْـًٔا﴾ من غلبة المؤمنين وظفرهم ﴿لَوْ كَثُرَتْ﴾ فئتكم ﴿وَ﴾ كيف تغني فئتكم شيئاً منهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة ﴿مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ المجاهدين في سبيله لإعلاء كلمة توحيده ونصر دينه

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ....

ونبيه ينصرهم ويعين عليهم.

ثم قال سبحانه منادياً للمؤمنين توصية: وتذكروا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ مقتضى إيمانكم ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ إطاعة الله ﴿وَ﴾ إطاعة ﴿رَسُولَهُۥ﴾ المبلغ لكم أحكام الحق وشعائر دينه وتوحيده ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَوَلَّوْاْ﴾ أي لا تتولوا معرضين ﴿عَنْهُ﴾ عن رسوله حتى لا تنحطوا عن رتبة الخلافة وكيف لا تطيعون رسوله ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ كلمة الحق منه سمعاً وطاعة.

﴿وَلَا تَكُونُواْ﴾ في عدم الإطاعة والانقياد له ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ كفراً ونفاقاً: ﴿سَمِعْنَا﴾ ما تلوت علينا ﴿وَهُمْ﴾ من غاية بغضهم ونفاقهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ سمع إطاعة وتسليم فكأنهم لم يسمعوا أصلاً بل لا يتأتى منهم السماع لانحطاطهم عن رتبة العقلاء ولحقوا بالبهائم في عدم الفطنة بل أسوأ حالاً منها..

﴿۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ عن استماع كلمة الحق عن ألسنة الرسل والإطاعة بها ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن التكلم بها بعد ما فهموه ولاحت عندهم حقيقتها وبالجملة هؤلاء هم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي ليسوا من زمرة العقلاء، وإن ظهروا على صورتهم وشكلهم.

وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ....

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ﴾ أي في استعداد هؤلاء السفهاء المنحطين عن مرتبة العقلاء ﴿خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ كلمة الحق سمع طاعة ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ مع أنهم ليسوا مستعدين له ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ وانصرفوا من خبث طينتهم عنها ﴿وَّهُم﴾ في أصل فطرتهم ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ مجبولون على الأعراض، لا يرجى منهم الإطاعة أصلاً.

ثم قال سبحانه منادياً للمؤمنين تذكيراً لهم وتعليماً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مقتضى إيمانكم إجابة الله وإجابة رسوله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ﴾ بامتثال مأموراته وأحكامه واجتناب نواهيه ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ سننه وآدابه وأخلاقه ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ وحده باعتبار أن دعوة الرسول هي بعينها دعوة الحق ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ من العلوم الدينية والمعارف الحقيقية المثمرة للمكاشفات والمشاهدات التي اضمحلت دونها نفوس السوى والأغيار مطلقاً المورثة للحياة الأزلية والبقاء السرمدي التي لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى التي هي الانخلاع عن لوازم البشرية ومقتضيات القوى البهيمية، ولا بد أن تكون إجابتكم وقولكم على وجه الخلوص والتسليم ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يَحُولُ﴾ ويحجب ﴿بَيْنَ ٱلْمَرْءِ﴾ المشخص بالهوية الشخصية المتعين بالتعين العدلي ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ الذي يسع فيه

وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ....

الحق المنزه عن الإطلاق والتقييد المبرىء عن الإحاطة والتحديد بالحجب الكثيرة، فما دامت الحجُب والأستار مسدولة بين المرء وقلبه لم يشم رائحة المحبة والولاء، المؤدي إلى الفناء، المثمر للبقاء.

وانفتاح أبواب المحبة والولاء إنما يحصل بالإخلاص والتسليم والتفويض والتوكل والتبتل والتوحيد المسقط للإضافات مطلقاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أَنَّهُۥٓ﴾ أي الشأن ﴿إِلَيۡهِ﴾ سبحانه لا إلى غيره بعد رفع الأظلال الهالكة والتعينات الباطلة ﴿تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ترجعون رجوع الظل إلى ذي الظل.

﴿وَٱتَّقُواْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فِتۡنَةٗ﴾ أي معصية مسقطة للعدالة، مزيحة للمروءة مورثة للمصيبة الشاملة إثرها لعباد الله مثل الطاعون المترتب على الزنا واللواط، والقحط المترتب على التخسير والتطفيف والاحتكار وغيرها من طرق الربا مع أن أثرها ﴿لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي أتوا بها ﴿مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ بل يعم الظالمين وغيرهم بشؤمهم لأن غيرهم يداهنون معهم كأنهم راضون بفعلهم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة ﴿شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ صعب الانتقام، سريع الحساب على من خرج من مقتضى أمره ونهيه.

﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون نعمنا إياكم وداوموا بشكرها وقت ﴿إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ﴾ يستضعفكم من ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يعني أرض مكة شرفها الله

تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ

ومن غاية ضعفكم وقلتكم ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ﴾ ويلتقطكم ﴿ٱلنَّاسُ﴾ عن وجه الأرض إلى حيث يستأصلكم بالمرة من غاية ضعفكم وقلتكم ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ﴾ الله بحوله وقوته وأعادكم إليها بعدما أخرجكم العدو منها ظلماً وزوراً ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ بأن تغلبوا وتظفروا على عدوكم وتخرجوهم منها مهانين مغلوبين مستضعفين ﴿وَ﴾ بعدما أيدكم وأظفركم سبحانه ﴿رَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ التي غنمتم منها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ رجاء أن تواظبوا شكر هذه النعم الجسام.

ثم قال سبحانه على وجه العظة والتذكير تعليماً للمؤمنين منادياً لهم ليقبلوا بما أمروا ونهوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مقتضى إيمانكم أن ﴿لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في امتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾ في سننه وأخلاقه وآدابه التي وضعها فيما بينكم لإصلاح حالكم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ ﴿٢٧﴾﴾ التي ائتمنتم فيها اعتماداً وثقة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قبح الخيانة من أنفسكم بلا احتياج إلى إنذار منذر وإخبار مخبر، والخيانة في الأمانات إنما تنشأ من جلب المنفعة والحرص المفرط وتكثير الميل إلى المال الصالح للعيال.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ اختبار وابتلاء لكم من ربكم يجربكم هل تضطربون في أمر المال والعيال وتوقعون لأجلها في المهالك

وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ....

وإباحة المحرمات وارتكاب الخيانات المسقطة للمروءات مطلقاً؟ أم تفوضون الأمور كلها إلى الله وترضون بما قضى عليكم وقدر لكم في سابق علمه ولوح قضائه ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿عِندَهُۥٓ﴾ وفي كنف حفظه وجواره ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾﴾ للمفوضين الذين رضوا بقسمة الله في جميع حالاتهم ووفوا بما ائتمنوا من الأمانات، مجتنبين عن الخيانة فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وتحذروا[1] عن محارمه ومحظوراته مطلقاً وتؤدوا الأمانات التي ائتمنتم بها من الأموال والشهادات بلا خيانة فيها وتفوضوا[2] أموركم كلها إليه مجتنبين ﴿يَجۡعَل لَّكُمۡ﴾ وينزل على قلوبكم تفضلاً وامتناناً ﴿فُرۡقَانٗا﴾ ينور به قلوبكم إلى حيث تميزون الحق من الباطل والصواب من الخطأ والإلهام الإلهي من إغواء الشيطان وتقريره ﴿وَيُكَفِّرۡ﴾ به ويمحو به ﴿عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ﴾ أي جرائمكم اللاتي مضت عليكم بالمرة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ﴾ ويستر عنكم ذنوبكم مطلقاً تفضلاً وامتناناً ﴿وَ﴾ لا تتعجبوا من أفضاله هذا ولا تستبعدوا منه سبحانه أمثاله إن ﴿ٱللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ واللطف الجسيم على من توكل عليه والتجأ نحوه في جميع حالاته على وجه الخضوع والخشوع.

---

(١) في المخطوط (واحذروا).

(٢) في المخطوط (وفوضوا).

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ....

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل إنجاءنا وخلاصنا إياك وقت ﴿إِذْ يَمْكُرُ﴾ ويخدع ﴿بِكَ﴾ إهلاكك ومقتك ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني قريشاً شاوروا لأمرك في دار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ويحبسوك في دار ليس فيها منفذ ولا كوة يلقون منها طعامكم أحياناً ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ مزدحمين بحيث لم ينسب قتلك إلى معين منهم ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة محمولاً على عجل ليقتلك القطاع ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ أولئك الكفرة العصاة الطغاة لمقتك ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ الرقيب عليك لإنجائك وخلاصك من أيديهم فغلب مكره سبحانه على مكرهم وأخرجك من بينهم سالماً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لجميع محايلهم ﴿خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ أي أشدهم وأقواهم تأثيراً وقوة.

وذلك أنهم حين سمعوا إيمان الأنصار تشاوروا على أظهرهم في أمره ﷺ وارتفاع شأنه وسطوع برهانه، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ، وقال: أنا من نجد سمعت اجتماعكم فأحضركم لأعلم كيف تدبرون في أمر هذا الشخص الذي لو بقي زماناً على هذا يخاف عليكم من شره.

فقال أبو البحتري: رأيي أن تجسوه في بيت وتسدوا منافذه غير كوةٍ يلقون إليه طعامه وشرابه حتى يموت.

فقال الشيخ النجدي: بئس هذا الرأي يأتيكم من يقاتلكم من قومه، يخلصونه من أيديكم.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا ....

فقال هشام ابن عمرو: رأيي أن يحملوه على جمل فيخرجوه من أرضكم، ولا يلحقكم ضرر بني هاشم.

فقال الشيخ: يفسد قوماً آخر ويقاتلكم بهم، أما رأيتم طلاقة لسانه وحلاوة كلامه ووجاهة منظره.

فقال أبو جهل: أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً فيضربوه دفعةً واحدة، فيتفرق دمه في القبائل، فلا يقوى بنو هاشم على حروب قريش كلهم فإن طلبوا العقل، عقلناه.

فقال الشيخ: صدق هذا الفتى. واتفقوا على رأيه.

فأتى جبريل النبيَ عليهما السلام وأخبره الخبر، وأمره بالهجرة، فبيت ﷺ علياً كرم الله وجهه على مضجعه متسجياً ببرده وخرج ﷺ مع أبي بكر رضي الله عنه، ومضيا إلى الغار.

وبات المشركون يحرسون علياً كرم الله وجهه يحسبون النبي ﷺ.

فلما أصبحوا ساروا اليقتلوه فرأوا علياً، فقالوا: أين صاحبكم؟ فقال: ما أدري، فاتبعوا أثره، فلما بلغوا الغار رأوا نسج العنكبوت على بابه، فقالوا: لو دخله لم يبق لنسج العنكبوت أثر، فمكث فيه ﷺ ثلاثة، ثم خرج نحو المدينة.

﴿وَ﴾ من مكرنا إياهم أنا ختمنا على قلوبهم وسمعهم بختم القساوة والغفلة بحيث ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا﴾ مع أنهم عارضوا زماناً ثم عجزوا

قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾

مع وفوره دواعيهم فلما عجزوا عن إتيان مثله ﴿قَالُواْ﴾ مكابرة وعناداً: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي أكاذيبهم التي سطروها في دواوينهم لتعزيز السفهاء.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالُواْ﴾ من غاية عتوهم وفرط انهماكهم في الغفلة والضلال وإصرارهم على تكذيب القرآن والرسول: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا﴾ المفترى ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ الثابت النازل ﴿مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا﴾ بسبب تكذيبنا إياه ﴿حِجَارَةً مِّنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ واستأصلنا بها ﴿أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ مؤلم مفزع وما هذا إلا مبالغة في تكذيب القرآن والرسول على سبيل التهكم.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ وإن استحقوا أشد العذاب والنكال والهلاك الكلي بسبب تكذيبك وتكذيب كتابك ﴿وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ يعني ما دمت فيهم وفي ديارهم ومكانهم فإن عذبهم الله فقد أصابك مما أصابهم ﴿وَ﴾ إن أمكن تخليصك وإنقاذك حين تعذيبهم ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ﴾ وما أراد تعذيبهم واستئصالهم ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي يتوقع منهم من أخلافهم الإيمان والاستغفار في الاستقبال بخلاف الأمم الهالكة من قبل.

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ....

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: أيّ شيء يمنع تعذيب الله إياهم مع أنهم مستحقون للعذاب وكيف لا يعذبون هؤلاء المستكبرون المعاندون ﴿وَهُمْ﴾ من شدة عتوهم وعنادهم ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون المؤمنين ﴿عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ والطواف نحو البيت مدعين ولايته ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي ليس لهم صلاحية الولاية في بيت الله لخباثة كفرهم وفسقهم وعدم لياقتهم ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ويتطهرون عن المعاصي والآثام مطلقاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ عدم ولايتهم ولياقتهم لها ومع ذلك يدعونها مكابرة واستكباراً وإن كان بعضهم يعلم ولكن يعاند.

﴿وَ﴾ بعد ما لم يصلحوا لولاية البيت ﴿مَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾ ودعاؤهم ﴿عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ المعد للتوجه والتقرب نحو الحق على وجه الخضوع والانكسار والتذلل والافتقار ﴿إِلَّا مُكَآءً﴾ صفيراً وصداء ﴿وَتَصْدِيَةً﴾ تصفيقاً وتبختراً مع أنهم يدعون ولايته ورعاية حرمته وما ذلك إلا من أمارات الاستهانة والاستخفاف المستلزم للكفر ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ أيها المنهمكون في الضلال ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ في النشأة الأولى والأخرى.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ ....

ثم قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ستروا الحق وأصروا على الباطل عناداً واستكباراً إلى حيث ﴿يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ على وجه الصدقة للمتجيشين ﴿لِيَصُدُّواْ﴾ ويمنعوا أهل الحق ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ إعلاء للباطل على الحق وترويجاً للضلالة على الهداية وذلك يوم بدر ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا﴾ كثيراً أيضاً على هذه النية تتميماً لغرضهم الفاسد ورأيهم الكاسد فلا يصلون إلى مبتغاهم أصلاً وإن بالغوا في الإنفاق ﴿ثُمَّ﴾ بعدما تنبهوا بعدم إفادتها ﴿تَكُونُ﴾ وتصير تلك الصدقة والإنفاق ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ متمكنة راسخة في قلوبهم، مورثة لحزن طويل لتضييع المال بلا ترتب فائدة تبغونها ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ﴾ وهذا أعظم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ بالله وأعرضوا عن دينه ونبيه وكتابه ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان وسعير الطرد والحرمان ﴿يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ يساقون سوق البهائم والمسخ وإنما يفعل بهم سبحانه هذا

﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ﴾ الناقد البصير لأعمال عباده ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ المنغمس في الكفر والضلال ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ الصافي عن شوب الكدر مطلقاً ﴿وَ﴾ بعد فصله وتمييزه ﴿يَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ﴾ جملة واحدة بأن يضم ﴿بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ﴾

جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ ....

ويجمعه ﴿جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ﴾ ويطرحه بعد جمعه وتركيمه ﴿فِى جَهَنَّمَۚ﴾ الإمكان وجحيم الخذلان وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المنغمسون في خباثة الكفر والطغيان ﴿هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ المقصورون على الخسران الأبدي المجبولون على الحرمان السرمدي، ليس لهم نصيب من مستلذات الجنان وحظ من لقاء الرحيم الرحمن الكريم المنان.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تبشيراً لهم ووعداً: لا ييأس من روح الله وسعة جوده ورحمته عما هم عليه من الكفر والضلال بل ﴿إِن يَنتَهُواْ﴾ ويعرضوا عن الكفر والإلحاد نحو الباطل الزائغ والميل إلى البدع والأهواء الفاسدة الكاسدة من تكذيب الكتب والرسل بالإيمان الخالص عن ظهر القلب ورفع المنازعة والمخاصمة مع رسول الله ﷺ ومن تابعه ﴿يُغْفَرْ لَهُم﴾ ويعفى عنهم ﴿مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ من الجرائم مطلقاً ﴿وَإِن يَعُودُواْ﴾ على كفرهم ونزاعهم ويرتدوا بعد إيمانهم وصلحهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾ أي الأمم الهالكة الذين كفروا بالله وخرجوا على رسله فأصابهم ما أصابهم، كذلك يصيبهم مثل ما أصابهم فليتوقعوا.

﴿وَ﴾ بعدما خرجوا من عهدهم ونقضوا ميثاقهم وارتدوا على أدبارهم ﴿قَٰتِلُوهُمْ﴾ أيها المؤمنون أي المرتدين واستأصلوهم ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ﴾

﴿فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾

أي توجد وتبقى ﴿فِتْنَةٌ﴾ بقية من شركهم مضلة لضعفاء الأنام ﴿وَ﴾ بعد استئصالهم وانقطاع شركهم وعرقهم ﴿يَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ بالقتال عن شركهم وكفرهم وأقروا بالإيمان والإطاعة فخلوا سبيلهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع بضمائرهم ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ في بواطنهم من الوفاق والنفاق ﴿بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ يجازيهم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟﴾ أي لم ينتهوا بالقتال عن كفرهم بل أصروا عليه وأخذوا أولياء من إخوانهم وشياطينهم واستعانوا منهم بمقاتلتكم أيها المؤمنون لا تبالوا بهم وبمعاونيهم ومظاهريهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على وجوه الانتقام ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ معينكم ومولي أموركم ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ مولاكم ﴿وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ نصيركم وظهيركم.

﴿۞ وَ﴾ بعدما انتصرتم وظفرتم عليهم ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ منهم وأخذتم ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ أي مما يطلق عليه اسم الشيء حتى الخيط ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ أي فاعلموا أنَّ خمسه ثابت لله ﴿وَ﴾ يصرف من مال الله خمسه ﴿لِلرَّسُولِ﴾ المستخلف منه النائب عنه ﴿وَ﴾ بعد انقراضه يصرف إلى الولاة المقيمين لحدود الله، وسهم آخر منه ﴿لِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المنتمين إلى

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ

رسول الله ﷺ من بني هاشم وعبد المطلب، ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ الذين لا مال لهم ولا متعهد، ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿الْمَسَاكِينِ﴾ الذين أسكنهم الفقر والفاقة في زاوية الهوان والمذلة، ﴿وَ﴾ آخر حق ﴿ابْنِ السَّبِيلِ﴾ المنقطعين عن الأوطان لمصلحة شرعية، فعليكم أيها الحكام أن تحافظوا على هذه القسمة ولا تتجاوزوا عنها ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾ بمقتضى جودنا ولطفنا من النصر والظفر على الأعداء والإمداد بالملائكة ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وحبيبنا ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ الفارق بين الحق والباطل والمحق والمبطل وذلك ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ﴾ أي الصنفان من الطرفين في بدر مع ضعف أهل الحق وقوة الكفار ﴿وَٱللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من نصر ضعفاء الأولياء وانهزام أقوياء الأعداء ﴿قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾

اذكروا أيها المؤمنون ضعفكم ورثاثة حالكم وقت:

﴿إِذْ أَنتُم﴾ مترددون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي على شفير الوادي التي هي أقرب إلى المدينة ولا ماء فيها ورمالها تسوخ أرجلكم وأنتم راحلون ﴿وَهُم﴾ متمكنون ﴿بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ أي على شفير الوادي الأبعد من المدينة والماء عندهم ﴿وَٱلرَّكْبُ﴾ أي العير التي قصدتم نحوه قد كان بمكانٍ ﴿أَسْفَلَ﴾

مِنكُمْۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا ....

وأبعد ﴿مِنكُمْۚ﴾ على ساحل البحر مقدار ثلاثة أميال وانتم حيارى بين الإقدام والإحجام ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ أنتم وهم القتالَ في وقت معين بلا وحي من الله ووعد من جانبه ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم البتة لضعفكم وقوتهم وهيبتهم ﴿فِي الْمِيعَادِۙ﴾ الذي وعدتم معهم لرعبكم ورهبتكم منهم ﴿وَلَٰكِن﴾ جمع سبحانه بلطفه شملكم ومكنكم في مكانكم وأمطر عليكم في ليلتكم ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ﴾ المولي لنصركم وغلبتكم ﴿أَمْرًا﴾ حكماً مبرماً ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ عنده وإن لم يفعل بعد، وإنما فعل سبحانه بكم ما فعل من النصر والظفر بهم من القهر والقمع ﴿لِّيَهْلِكَ﴾ من الكفار ﴿مَنْ هَلَكَ﴾ أي مات وانخذل غيظاً ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ واضحة شاهدتها ﴿وَيَحْيَىٰ﴾ أيضاً من المسلمين ﴿مَنْ حَيَّ﴾ فرحاً ﴿عَنۢ بَيِّنَةٍۗ﴾ واضحة لائحة انكشف بها ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿لَسَمِيعٌ﴾ لمناجاة كلا الفريقين ﴿عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ بنياتهم، يفعل من كل منهم على مقتضى علمه.

اذكر يا أكمل الرسل وقت:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ أي أعداءك ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ﴾ مما كانوا عليه تشجيعاً لك ولأصحابك ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا﴾ وعلى شوكتهم التي هم

لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ....

فيها ﴿لَفَشِلْتُمْ﴾ وخيبتم البتة رهبة وهيبة ﴿وَ﴾ بعدما خيبتم ﴿لَتَنَازَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ أي أمر القتال بعدما عرفتم كثرتهم وشوكتهم بل تشرفون على الاستدبار والانهزام ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي أنعم عليكم بالسلامة من الفشل والتنازع بإنزال السكينة والوقار على قلوبكم بسبب تلبيس التقليل ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ يعلم مآل أمركم وعاقبته لذلك لبَّس عليكم ليجرئكم على القتال لإعلاء كلمة توحيده ونصر دينه.

﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً إمداد الله إياكم بتلبيس الأمر عليكم ﴿إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ﴾ أي أعداءكم ﴿إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ﴾ صافين من الطرفين ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾ كما في منامكم ﴿قَلِيلًا﴾ لتستقلوهم وتجترؤوا عليهم ﴿وَ﴾ يلبس أمركم عليهم أيضاً تغريراً لهم ومكراً إذ ﴿يُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى لا يبالوا بكم وبجمعكم، ولذلك قال أبو جهل حين تراءت الفئتان: أن محمداً وأصحابه أكلة جذور، وإنما فعل سبحانه ما فعل من التلبيس على كلا الفريقين ﴿لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ﴾ عنده ﴿مَفْعُولًا﴾ حتماً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ كلها إذ منه بدأ وإليه يعود.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مقتضى إيمانكم الاعتصام بحول الله وقوته

إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ ....

عليكم ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ من الكفار ﴿فَاثْبُتُوا﴾ وتمكنوا تجاه العدو ولا تضطربوا ولا تستدبروا ﴿وَ﴾ بعد استقراركم وثباتكم ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ﴾ ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾ واستعينوا منه وتوكلوا عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ تفوزون بالنصر والظفر والغلبة والغنيمة إن أخلصتم النية.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في جميع حالاتكم سيما عند المقابلة ومقاتلة العدو ﴿وَلَا تَنَازَعُوا﴾ باختلاف الآراء والأهواء بل فوضوا أموركم إلى الله ورسوله وإن وقع النزاع والمخالفة بينكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ وتضعفوا فيفتر عزمكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي دولتكم وهيبتكم التي ظهرت عليكم من نور الإسلام ﴿وَ﴾ بعدما سمعتم ما سمعتم ﴿اصْبِرُوا﴾ على مشاق الجهاد ورابطوا قلوبكم إلى الله ورسوله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ المرابطين المتمكنين يعين[1] عليهم وينصرهم.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون القاصدون نحو الجهاد ﴿كَالَّذِينَ﴾ أي كالكفار الذين ﴿خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم﴾ يعني مكة للقتال ﴿بَطَرًا﴾ مفاخرين مباهين بعَددهم وعُددهم ﴿وَ﴾ يقصدون بذلك الخروج ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾

---

(١) أي يعينهم.

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ ....

ليثنوا بالشجاعة والسماحة ﴿وَ﴾ هم بمجرد هذا القصد الفاسد والنية الكاسدة ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي ينصرفون ويحرفون ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ الموضوع على العدل القويم المسمى بالصراط المستقيم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع بجميع أحوالهم ﴿بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ ويؤملون من المخايل الفاسدة ﴿مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾ بعلمه الحضوري يجازيهم عليها بمقتضى علمه وخبرته.

﴿وَ﴾ من جملة ما يعين عليكم ويمد لنصركم تغرير الشيطان واغراؤه على أعدائكم إمداداً لكم فيصير وبالاً عليهم اذكروا ﴿ إِذۡ زَيَّنَ﴾ أي حسن وحبب ﴿لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي عداوتهم وقتالهم معكم ﴿وَقَالَ﴾ الشيطان تحريضاً لهم على القتال ملقياً في روعهم على سبيل الوسوسة حتى خيلوا أنهم لا يغلبون أصلاً اعتماداً على كثرة عَددهم وعُددهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فلكم اليد والغلبة ﴿وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ﴾ مجير لكم ﴿ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ﴾ أي تلاقيا وتلاحقا فرأى اللعين من صفوف الملائكة ما رأى ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾ أي رجع قهقرى ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ ومن جواركم ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾ من جنود السماء ﴿مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ ينزلون منها لإمداد هؤلاء بإذن الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ من قهره وغضبه ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر على جميع وجوه

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ ....

الانتقام ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ أليم العذاب، لا نجاة للعصاة الغواة من عذابه وعقابه.

اذكروا:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي الذين لم يصفوا عن شوب الشبهة، ولم يصلوا إلى مرتبة الاطمئنان في الإيمان حين خرجتم نحو العدو مجترئين مع قلتكم وكثرة عددكم: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فألقوا أنفسهم إلى التهلكة بأيديهم بخروج ثلاثمائة عزل بلا عدة إلى زهاء ألف مستعدين، لا تبالوا أيها المطمئنون بالإيمان بهم وبقولهم، لا تفتروا وتضعفوا من هذياناتهم بل توكلوا على ربكم وفوضوا الأمر إليه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فهو حسبه ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ غالب في ذاته، قادر على إعانة من استعان منه[1] ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ متقن في فعله وأمره ويأمر ما تستبعده العقول وتدهش فيه الأحلام.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ أيها الرائي وقت ﴿إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي يتوفاهم الملائكة ويقتلهم يوم بدر حال كونهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ من يأتي منهم من أمامهم ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي يضربون من خلفهم من يأتي من ورائهم ﴿وَ﴾ يقولون حين ضربهم وقتلهم تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ذُوقُوا۟﴾ أيها المعاندون

---

(١) للمخطوط استعمال خاص لحروف الجر.

عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ

المعادون مع الله ورسوله ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ أي أنموذج عذاب النار حتى تصلوا إليها، ولو رأيت حالهم حينئذ أيها الرائي لرأيت أمراً فظيعاً فجيعاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب والنكال في النشأة الأولى والآخرة إنما عرض عليكم أيها المسرفون ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بشؤم ما كسبتم لأنفسكم من الكفر والشرك ومعاداة الرسول والمؤمنين وبمقدار ما اقترفتم بلا ظلم عليكم ﴿وَ﴾ اعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ﴾ أي ظالم ﴿لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ الذين يظلمون أنفسهم باقتراف المعاصي والآثام، بل يجازيهم على مقتضى جرائمهم عدلاً منه سبحانه إذ دأب هؤلاء المصرين المعاندين.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي سنتهم وعملهم كعمل آل فرعون وسنتهم ﴿وَ﴾ كدأب القوم ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ كعاد وثمود ﴿كَفَرُوا۟﴾ أولئك البعداء الخارجون عن طريق الحق ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزلة على رسله عتواً وعناداً كهؤلاء المصرين المستكبرين ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ المنتقم منهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ التي كسبوها لنفوسهم كهؤلاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والجلال ﴿قَوِىٌّ﴾ على الانتقام ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ على من خرج عن مقتضى أمره بحيث لا يرفع عقابه شيء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي حلول الغضب والنكال عليهم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المنعم المفضل

لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ....

﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا﴾ مبدلاً محولاً ﴿نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾ تفضلاً وامتناناً ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من مقتضيات العبودية والانقياد بالخروج عن حدود الله ونقض عهوده وارتكاب نواهيه ومحظوراته وتكذيب آياته ورسله كما غيرها قريش ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿سَمِيعٌ﴾ لما يقولون على الله وعلى رسوله حين بطرهم وغفلتهم ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ بما يخفون في نفوسهم من الأباطيل، إذ دأب هؤلاء المسرفين المغيرين على ما هم عليه من المظاهرة والوفاق والأخوة والقرابة.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ خلوا ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ على ديدنتهم وسنتهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كهؤلاء المكذبين ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم﴾ واستأصلناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بشؤم ذنوبهم بأنواع العذاب بالطوفان والريح والخسف والكسف ﴿وَ﴾ لا سيما ﴿أَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ المسرفين المبالغين في العتو والاستكبار في اليم لاستغراقهم في بحر الغفلة والضلال ﴿وَكُلٌّ﴾ من أولئك الطغاة وهؤلاء الغواة ﴿كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أنفسهم بالخروج عن ربقة العبودية ورق الإطاعة والانقياد، لذلك جزيناهم بما جزيناهم، وهل نجازي إلا الكفور.

ثم قال سبحانه تسجيلاً عليهم بالكفر والضلال:

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ....

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الحكيم المظهر المتقن في إظهارها ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وآياته ورسله وأصروا عليه بلا تمايل منهم إلى الإيمان لرسوخهم فيه ﴿فَهُمْ﴾ من خبث طينتهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي لا يرجى منهم الإيمان أصلاً.

عبر سبحانه عنهم بلفظ الدواب لانخلاعهم عن مقتضى الإنسانية الذي هو الإيمان والمعرفة مطلقاً، فلحقوا بالبهائم بل أسوأ حالاً منها.

لذلك قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ [٨-الأنفال ٢٢، ٢٥]، وإنما صاروا من شر الدواب لأنهم:

﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ يا أكمل الرسل وأخذت مواثيقهم مراراً ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ وما هي إلا من شدادتهم وخباثة طينتهم وعدم فطنتهم لحكمة المعاهدة والمواثيق ﴿وَهُمْ﴾ من تركب جهلهم ﴿لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ ولا يتركون الغدر والنفاق ولا يوفون بالعهد والميثاق.

﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ﴾ وتظفرون عليهم ﴿فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم﴾ وفرق جمعهم وشتت شملهم بحيث ينقطع منهم ﴿مَّنْ﴾ يأتي ﴿خَلْفَهُمْ﴾ من مظاهرهم ومعاونيهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بتشتيتك وتفريقك إياهم ﴿يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يتعظون وينتبهون من أمرك وتأييدك، فيؤمنوا بك وبما جئت به.

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ....

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ عاهدت معهم وأخذت الميثاق عنهم ﴿خِيَانَةً﴾ ونقضاً من إماراتٍ لاحت منهم وظهر عليهم ﴿فَانْبِذْ﴾ واطرح ﴿إِلَيْهِمْ﴾ أولاً عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ بلا عذر وخداع، وأظهر العداوة، وارفع المعاهدة على رؤوس الملأ ثم أخرج عليهم بالقتال لئلا يؤدي إلى الخيانة والغدر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتصف بالعدل القويم ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ المخادعين الغادرين سيما من المؤمنين الموحدين.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وبك ﴿سَبَقُوٓا۟﴾ مضوا وانقرضوا على ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾﴾ المؤمنين ولا يضطرونهم إلى القتال فعليكم جمع العدة والتهيئة.

﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ أيها المؤمنون ﴿لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي هيئوا لقتالهم من الآلات والأسباب ما يحتاجون في حرابهم سيّما آلات الرمي ﴿وَمِن﴾ جملة العدة ﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ أي شد الفرس وارتياضه ليوم الحرب كما يفعله ويشده الأبطال المتشوقون إلى القتال ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ﴾ أي بالأعداد والشدّ ﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهم الذين في حواليكم يقاتلونكم ويخاصمون معكم جهرة وعلانية يعني كفار مكة ﴿وَ﴾ ترهبون به أيضاً ﴿ءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ يعني

لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ

الذين ينافقون معكم ويظهرون إطاعتكم وإخاءكم ظاهراً ويريدون إهلاككم ومقتكم في بواطنهم ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾ أي عداوتهم لإخفائهم وإظهارهم صداقتكم ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُهُمْۚ﴾ ويعلم عداوتهم ونفاقهم ويجازيهم عليها ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ﴾ للأعداء والتجهيز ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ونصر دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جزاؤه بأضعاف ما تصرفون وآلافه ﴿وَأَنتُمْ﴾ في إنفاقكم وإعدادكم ﴿لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي لا تنقصون من جزائه، ولا تخسرون بل تربحون وتفوزون بما ترضى به نفوسكم، وبما لا تدركه عقولكم من الكرامة تفضلاً وامتناناً.

﴿۞ وَ﴾ بعدما أعددتم عددكم وهيأتم أسباب الحرب ﴿إِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ﴾ أي مال أعداؤكم للمصالحة والمعاهدة ﴿فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ أي مل وارض أيها الداعي للخلق إلى الحق تليناً لهم وتلطيفاً معهم على مقتضى مرتبة النبوة والتكميل ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ في جميع أمورك وثق به سبحانه ولا تخف من مكرهم وخداعهم، فإن الله حسبك وظهيرك يحفظك من مكرهم وغدرهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ بذاته ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ بنياتهم وأعمالهم.

﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟﴾ بعدما صالحوا وعاهدوا ﴿أَن يَخْدَعُوكَ﴾ ويمكروا بك وبأصحابك فلا تبالوا بهم وبغدرهم وخداعهم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ﴾ أي كافيك

ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾

وظهيرك ومولى جميع أمورك ﴿ٱللَّهُۚ﴾ الرقيب عليك في جميع حالاتك، كيف لا يرقبك من مكرهم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ﴾ وقواك وأظفرك عليهم ﴿بِنَصۡرِهِۦ﴾ بلا أعداء ورباط خيل ﴿وَ﴾ بعد تأييدك بنصره أيدك أيضاً ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ بإيمانهم وإطاعتهم لك وبذل مالهم ومهجهم لتقويتك وإعلاء دينك.

﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ﴾ بحيث ارتفع غشاوة الحمية وحجب التعصب عن ضمائرهم مطلقاً، وصاروا في محبتك ومودتك مستوية الأقدام، متحابين لله، منخلعين عن لوازم البشرية مطلقاً مع كونهم في جاهليتهم على التغالب والتهالك بمقتضى الحمية الجاهلية والغيرة البشرية بحيث ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ﴾ وصرفت ﴿مَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ لائتلافهم واجتماعهم ﴿مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ﴾ لشدة بغضهم ونفاقهم ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ المحول لأحوال عباده ﴿أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ بمقتضى لطفه وجماله، لينصروك ويقبلوا دينك ويصلوا إلى مرتبة اليقين والعرفان ويتحققوا في مقر التوحيد ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ﴾ غالب على جميع مراداته ومقدوراته ﴿حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ متقن في جميع أفعاله، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ المؤيد من عند الله بالنصر والظفر على الأعداء ﴿حَسۡبُكَ ٱللَّهُ﴾ المولي لأمورك ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ بإذن الله ومشيئته ﴿مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ ....

الموقنين بتوحيد الله، الموفين بعهوده، الباذلين مهجهم في سبيله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ المظفر المنصور بنصر الله ﴿حَرِّضِ﴾ ورغب ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموحدين ﴿عَلَى ٱلْقِتَالِۚ﴾ في سبيل الله لترويج توحيده، وقل لهم نيابة عنا ووعداً منا: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ مستقرون ثابتون تجاه العدو ﴿يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِۚ﴾ منهم بتأييد منا وعون ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ﴾ صابرة راسخة متمكنة ﴿يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بإمدادنا إياكم إلى حيث يقاوم واحد منكم عشرة منهم، ذلك المغلوبية والانهزام إنما عرض عليهم ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي لا يصلون إلى مرتبة العلم اليقيني بالله وكتبه ورسله حتى يترقوا منه إلى مرتبة العين والحق، بل يبقون على مرتبة الحيوانية مهانين مغلوبين مخذولين.

هذا في بدء الإسلام وضعف المسلمين وقلتهم، وبعدما ارتفع قدره وعلا رتبته وكثر أهله وانتشر في الآفاق، قال سبحانه:

﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ أي حين كثر عددكم وعُدَدكم وثقل عليكم ما أمرتم ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ﴾ الميسر لأموركم أثقالكم ﴿عَنكُمْ وَعَلِمَ﴾ بعلمه الحضوري ﴿أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ﴾ تستثقلون بتحمل المأمور به، أمركم ثانياً بقوله:

فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ﴾ ثابتة ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ونصره وتأييده ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لأحوال عباده ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ المتجملين في متاعب أمور الدين.

ثم أشار سبحانه إلى سر جواز أخذ الفدية والجزية للرسل والأنبياء ووقته وسببه فقال:

﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِنَبِيٍّ﴾ من الأنبياء ﴿أَن يَكُونَ لَهُ﴾ وفي يده ﴿أَسْرَى﴾ من الكفار يفديهم على المال ويخلي سبيلهم ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يجوز لهم أخذ الفدية إلى أن يكثر القتل ويذل الكفار ويعز الدين ويغلب أهله إلى حيث اضطر المخالفون لتخليص نفوسهم إلى الفدية، مع أنه لا يتوقع منهم المنازعة والمخاصمة أصلاً، وصاروا مهانين مقهورين، ومتى لم يصلوا إلى هذه المرتبة لم يصح أخذ الفدية، وإذا كان أمر الفدية هكذا، كيف ﴿تُرِيدُونَ﴾ أيها المؤمنون بأخذها ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ ومتاعها وحطامها ﴿وَاللَّهُ﴾ المصلح لأحوالكم، المدبر لأموركم ﴿يُرِيدُ﴾ لكم ﴿الْآخِرَةَ﴾ وثوابها بأخذها، وما يترتب عليها من اللذات الروحانية، وأنتم تقصدون أن تستلذوا بحطام الدنيا ومزخرفاتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المراقب لحالاتكم ﴿عَزِيزٌ﴾

حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

غالب فيما أراد لأجلكم ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ يريد لكم ما يليق بحالكم.

﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ﴾ حكمٌ وأمر ثابت نازل ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المنتقم الغيور ﴿سَبَقَ﴾ في سابق علمه بأن لا يأخذ المجتهد المخطئ بخطئه ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ أصابكم ونزل عليكم ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ وافتديتم من أسارى بدر ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ مقدار ما فوتم من حكمة الله وأبطلتم حكمه.

روي أنه ﷺ أتى يوم بدر بسبعين أسيراً فيهم العباس وعقيل ابن أبي طالب.

فاستشار رسول الله ﷺ فيهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم، وخذ منهم فدية يقوى بها أصحابك.

وقال عمر رضي الله عنه: اضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، فإن الله أغناك من الفداء، فمكنّي من فلان لنسب له، ومكن علياً وحمزة من أخويهما، فلنضرب أعناقهم.

فقال رسول الله ﷺ: «مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [١٤- إبراهيم٣٦]، ومثلك يا عمر مثل نوح حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [٧١- نوح٢٦]» فخيّر أصحابه، فأخذوا الفداء، فنزلت.

فدخل عمر على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله - ﷺ - أخبرني فإن أجد بكاء بكيت وإلا تباكيت، فقال: «أبكي على

فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَاللَّهُ ....

أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه» لشجرةٍ قريبة عنده.

فقال ﷺ: «لو نزل العذاب لما برئ منه غير عمر وسعد بن معاذ»[1].

ومتى اجتهدتم في أخذ الفدية من الأسرى فأخذتم الفدية وإن كان اجتهادكم خطأ ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ بعد إخراج الخمس وافتديتم من الأسرى، إذ هي من جملة الغنيمة ﴿حَلَٰلًا﴾ مستحلين مستبيحين ﴿طَيِّبًاۚ﴾ خالياً عن وصمة الشبهة لاجتهادكم في أخذها ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَۚ﴾ من المبادرة في الأمور واحتاطوا فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المدبر لأموركم﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنكم من المبادرة إلى الفدية ﴿رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾﴾ أباح لكم ما أخذتم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ المبعوث لتكميل الخلائق ﴿قُل﴾ على وجه العظة والتذكير بمقتضى شفقة النبوة والإرشاد ﴿لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم واستعداداتكم ﴿فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ إيماناً وإيقاناً واطمئناناً وعرفاناً ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ﴾ من حطام الدنيا وهي اللذات الروحانية والكشوف والمشاهدات التي لا مقدار للذات الجسمانية دونها ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ ما صدر عنكم من الكفر والعصيان ﴿وَاللَّهُ﴾ الهادي لعباده نحو

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره [٤/ ٣٧٣].

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ

توحيده ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم بعدما وفقهم للإيمان والإطاعة ﴿رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ يرحمهم بعدما رجعوا نحوه وأنابوا.

روي أنها نزلت في العباس رضي الله عنه كلفه رسول الله ﷺ أن يفدي نفسه وابني أخويه: عقيل ابن أبي طالب، ونوفل بن الحارث.

فقال: يا محمد تركتني أتكفف قريشاً ما بقيت، فقال ﷺ: «فأين الذهب الذي دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك فقلتَ لها: إني لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا فإن حدث لي حدث فهو لكِ ولعبد الله وعبيد الله والفضل وقثم» وقال العباس: وما يدريك؟ قال ﷺ: «أخبرني ربي».

قال: أشهد أنك صادق وأن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله، ولقد دفعته إليها في سواد الليل.

فقال العباس رضي الله عنه: فأبدلني الله خيراً من ذلك إلى الآن عشرين عبداً، إن أدناهم ليضرب عشرين ألفاً، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا أنتظر المغفرة من ربكم يعني الموعود بقوله: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٨-الأنفال ٧٠، ٥٧الحديد ٢٨] (١).

﴿وَإِن يُرِيدُوا۟﴾ أولئك الأسارى ﴿خِيَانَتَكَ﴾ بعد ما عاهدت معهم وتلطفت بهم فلا تتعجب من خيانتهم ونقضهم ﴿فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالكفر والشرك ونقض العهد والخروج عن مقتضى المأمور ﴿مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ﴾ أي

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره [٤/ ٣٧٤]..

مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ....

أمكنك ومكنك أولاً عليهم حتى انتقمت ﴿مِنْهُمْۗ﴾ يوم بدر بالقتل والأسر فإن عادوا ورجعوا بالخيانة، أمكنكم ثانياً وثالثاً، فلا تبال بهم وبخيانتهم فإن الله معينك وناصرك يعصمك من مكايدهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لمخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ بمجازاتهم يجازيهم على مقتضى علمه.

ثم قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وأيقنوا بتوحيد الله ووجوب وجوده ﴿وَهَاجَرُواْ ﴾ عن بقعة الإمكان طالبين الترقي إلى المراتب العلية ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ منفقين لها ليتجردوا عنها ويطهروا نفوسهم عن الميل والمحبة إليها ﴿وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ممسكين لها عن مقتضياتها ومشتهياتها باذلين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ليتحققوا بمرتبة الفناء فيه ليفوزوا ببقائه ﴿وَٱلَّذِينَ ﴾ تحققوا بمرتبة التوحيد وتمكنوا فيها ﴿ءَاوَواْ ﴾ أي مكنوا ووطنوا من يرجع إليهم ويسترشد منهم من أهل الطلب والإرادة ﴿وَّ﴾ بعد تمكينهم وتوطينهم ﴿نَصَرُواْ﴾ وأعانوا عليهم بالتنبيهات اللائقة إمداداً لهم وبالواردات الغيبية والإلهامات القلبية والمكاشفات العينية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله، الوالهون في بيداء ألوهيته ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ يتناصرون ويتعاونون إلى أن يرتفع تعددهم وتضمحل كثرتهم، وسقط الافتراق والاجتماع عنهم، وانقطع السلوك والطلب، وفني السالك والسلوك والمسلك، وبقي ما بقي، لا إله إلا هو، لا شيء سواه، وكل شيء

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ ....

هالك إلا وجهه ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ إلى الفناء فيه ﴿مَا لَكُم﴾ أيها الواصلون ﴿مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ ويتشمروا السلوك مسلك الفناء ﴿وَ﴾ بعد ما دخلوا باب الطلب ﴿إِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ﴾ واستعانوا منكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ أي في سلوك طريق التفويض والانقياد ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾ أي لزم عليكم أن تنصروهم وتعينوا[1] عليهم ليغلبوا على جنود القِوَى البهيمية والشياطين الشهوية والغضبية ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ من جنود النفس اللوامة المطلعة لغوائل الأمارة الخبيثة ووخامة عاقبتها ﴿وَاللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالاتكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من النصر والإعانة ﴿بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ يجازيكم على مقتضى بصارته وخبرته.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ولم يتفطنوا سر سريان وحدته الذاتية السارية في جميع الأكوان ولم يتنبهوا للفناء في ذاته، ومع ذلك كذبوا الرسل المنبهين المبشرين المنذِرين إصلاحاً لهم وإرشاداً أولئك الأشقياء المردودون ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ يتعاونون ويتعاضدون في كفرهم وجهلهم ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي أن لا تفعلوا ما أمرتم به من الموالاة والمواصلة والنصر والمعاونة ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ سارية ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أي طبيعة العدم ﴿وَ﴾ حدث فيها ﴿فَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ هو غفلة الأظلال عن الذات، والظل

(١) أي يعينوهم.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ﴾ ....

والصور عن ذي الصورة، والعكوس عما انعكس فيها.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ﴾ أي سلكوا وسافروا وبعدما تحققوا باليقين العلمي ﴿وَجَٰهَدُواْ﴾ أي ارتاضوا أي انخلعوا عن جلباب التعين ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الفناء فيه ليتحققوا باليقين العيني ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ﴾ ووالوا أولياء الإرادة ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أرباب الطلب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الواصلون المبرزون ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ المتحققون المثبتون في مرتبة اليقين الحقي ﴿حَقًّاۚ﴾ ثابتاً بلا دغدغة استكمال وانتظار متقرراً في مقر التوحيد ومقعد الصدق عند مليك مقتدر ﴿لَّهُم﴾ بعد وصولهم إلى مقرهم ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ ستر لأنانيتهم التي كانوا عليها على مقتضى تعيناتهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾ من الكشف والشهود نزلاً من عند العزيز العليم.

ثم بشر سبحانه بما بشر به من اقتفى أثركم أيها المكاشفون الواصلون وسلك سبيلكم من أصحاب الإرادة والطلب فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ﴾ كما هاجرتم أيها الفائزون الواصلون ﴿وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله وترويج دينه وسننه بأنفسهم وأموالهم كما جاهدتم أنتم ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المجاهدون الباذلون ﴿مِنكُمْۚ﴾ أي من جملتكم وعدادكم وأجرهم عند الله مثل أجركم وهم إخوانكم وأرحامكم في الدين

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧٥﴾

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذووا المناسبات والقرابات في الدين والعرفان ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في الولاية والنصر والمصاحبة والمؤاخاة ﴿فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ﴾ أي في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على ذرائر الآفاق ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ من رقائق المناسبات ودقائقها ﴿عَلِيمٌ ٧٥﴾ بعلمه الحضوري لا يعزب عن حضوره شيء.

خاتمة السورة

عليك أيها المتوجه نحو الفناء، المهاجر عن ورطة الغفلة والغرور، أن تقتفي في سلوكك هذا أثر أهل الهجرة والنصرة المرابطين قلوبهم لتوحيد الحق، الباذلين مهجهم في تقوية من ظهر عليه ﷺ وترويج دينه وسننه، المتخلقين بأخلاقه، المتعطشين بزلال مشربه، المستظلين بظل روائه، المستمسكين بعروة ولايته، ولا يحصل لك هذا إلا بالركون والإعراض التام عن مقتضيات القوى البشرية ولوازم الطبيعة مطلقاً كهؤلاء الكرام المنخلعين عن جميع ما يشوشهم من لوازم هوياتهم في معاشهم حتى عن الأهل والأوطان.

لذلك انكشف لهم من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات إلى حيث اضمحلت عن عيون بصائرهم ما سوى الحق مطلقاً وصاروا فانين

في الله متحققين بمقام «وَبِيْ يَسْمَعُ وَبِيْ يُبْصِرُ وَبِيْ يَبْطُشْ»[1] الحديث.

ولك في عزيمتك هذا التشبث بكتاب الله الذي هو المرشد الحقيقي، وبأحاديث الرسول ﷺ وبكلمات المشايخ العظام قدس الله أرواحهم ولا سيما ذلك الاستمداد من قلوب البدلاء الوالهين الحائرين بمطالعة وجه الله الكريم إذ هم لاستغراقهم في بحر الشهود انخلعوا عن لوازم هوياتهم، وما لنا من حالاتهم إلا الحسرة والعبرة، إن كنا من أهل الاعتبار والاستبصار.

ربنا اهدنا إليك بأي طريق شئت، إنك بفضلك وجودك تهدي من تشاء من عبادك،وإنك على ما تشاء قدير.

(١) رواه البخاري في صحيحه [٥/ ٢٣٨٤رقم / ٦١٣٧ / باب: من جاهد نفسه في طاعة الله] وابن حبان في صحيحه [٢/ ٥٨رقم / ٣٤٧ /] والطبراني في المعجم الأوسط [٩/ ١٣٩رقم / ٩٣٥٢ /] والكبير [٨/ ٢٠٦رقم / ٧٨٣٣ /] وغيرهم وللحديث طرق وشواهد كثيرة.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة التوبة

لا يخفى على من تمكن في مقر التوحيد وتوطن في مكمن الفناء والتجريد، خالصاً عن توهمات التخمين والتقليد، مستوياً على جادة اليقين والتحقيق، معرضاً عن كلا طرفي الإفراط والتفريط: أن من لم يترق عن مرتبة الحيوانية ولم تثمر شجرة هويته ثمرة الإنسانية التي هي المعرفة والتوحيد، فهي والحيوانات العجم سواء في الرتبة بل أسوأ حالاً منها، ومتى لم يطع حكم المربي ولم ينقد لأمره لينقذه من جهله ويوصله إلى ما خلق لأجله، سيما إذا تعنت وتجبر واستكبر على من بُعث لتربيته وأُمر لإرشاده وتكميله بل كذبه وأنكر عليه وطغى على أمره وأشرك به غيره ـ العياذ بالله ـ فقد حل قتله واستباح دمه على الموحدين المتمكنين الذين يبذلون أرواحهم في ترويج كلمة التوحيد ونصرة الدين القويم والشرع المستقيم.

لذلك فرض الجهاد والغزاء على أرباب الولاء، المستمسكين بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ليكون غزاتهم مع الله في جميع حالاتهم وشهداؤهم أحياء عند ربهم يرزقون من موائد أفضاله ما لم نره عيونهم ولم تشهده نفوسهم ولهذا ما خلا نبي من الأنبياء من لدن آدم إلى نبينا صلوات الله عليه وعليهم أجمعين على[1] القتال والجهاد.

---

(١) أي من.

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ....

وكما فصل سبحانه بقص قصصهم وسيرهم في كتابه وأجمل البعض وقال مخاطباً لنبيه: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [٤٠-غافر٧٨] والسر في وجوب القتال للأنبياء والله أعلم أن بعثة الرسل والأنبياء إنما هو لإصلاح أحوال العباد وإرشادهم إلى الخير والصواب في معادهم ومعاشهم، وذلك لا يتصور إلا بعد ظهور الآراء الباطلة المتخالفة المتداعية إلى أنواع الإخلال وتزاحم الأهواء الفاسدة المستلزمة للضلال والإضلال، وانتشار أنواع البدع والجدال. ورفعُ هذه المفسدة وقمع أهلها وقلع عرقها وأصلها إنما هو باستئصال من تمسك بها وظهر عليها ولا يتيسر ذلك إلا بالمقاتلة والمشاجرة، لذلك جرت سنته سبحانه عليها وعدها من أفضل العبادات.

ثم لما كان المشركون المصرون على شركهم من أعدى الأعادي وأشدهم غيظاً مع الله ورسوله، وكان عهودهم ومواثيقهم غير معول عليها[1] في علم الله، تبرأ سبحانه منهم، وأمر رسوله أيضاً بالتبري عنهم وعن عهودهم ومواثيقهم، فقال:

﴿بَرَآءَةٌ﴾ أي هذه براءة ونقض عهد وإسقاط ذمة ورفع أمان كان بينكم أيها المؤمنون وبين المشركين نزلت إليكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المطلع على مخايل أهل الشرك أصالة ﴿وَ﴾ من ﴿رَسُولِهِۦٓ﴾ لتنبذوا وتطرحوا عهودكم ومواثيقكم ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ وعليكم أن لا تبادروا ولا تفاجئوا إلى المقاتلة بعد نبذ العهد بل أمهلوهم وقولوا لهم:

(١) وفي نسخة أخرى (أذى غير معقول).

فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ ....

﴿فَسِيحُواْ﴾ أي سيروا أيها المسرفون ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي في أرضنا هذه آمنين بلا خوف ﴿أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ﴾ قيل هي عشرون من ذي الحجة وتمام المحرم والصفر وربيع الأول وعشر من ربيع الآخر واستعدوا في تلك المدة وهيئوا أسباب القتال فيها ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المصرون على الشرك يقيناً وإن زعمتم غلبتكم علينا بمظاهرة إخوانكم واستعانة قبائلكم وعشائركم ﴿أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ﴾ أي لستم غالبين على الله المتعزز برداء العظمة والكبرياء المتفرد بالمجد والبهاء ﴿وَ﴾ اعلموا أيضاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم من عصاة عباده ﴿مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾﴾ أي مهينهم ومذلهم وإن أمهلهم زماناً بطريق على تجبرهم وتكبرهم.

﴿وَ﴾ هذه أيضاً ﴿أَذَٰنٞ﴾ إعلام وتشييع ونداء صدر عنه ﴿مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ بإذنه ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ المجتمعين من أقصى البلاد ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ لأن وقوف يوم عرفة كان يوم الجمعة لذلك سمي به ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي بأن الله المتعزز بالعظمة والكبرياء ﴿بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي من عهودهم ومواثيقهم لا يؤمنهم بعد عامكم هذا ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ أيضاً مأمور من عنده بالبراءة ونقض العهد وإسقاط الذمة وبعد اليوم ارتفعت الهدنة وصار الأمر إما السيف وإما الإسلام ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ﴾ ورجعتم عما أنتم عليه من الكفر والشرك إلى الإيمان والتوحيد

فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ....

﴿فَهُوَ﴾ أي إيمانكم ورجوعكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم عن الإسلام والإيمان وأصررتم على الشرك والطغيان ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي لستم غالبين على جنوده ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿بَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله وأصروا عليه ولم يرجعوا عنه مع ورود الزواجر والخوارق ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ في النشأة الأولى بالقتل والسبي والإجلاء وفي الآخرة بالحرمان عن رتبة الإنسان.

ثم لما لم يصدر عن بعض المشركين شيء من أمارات النقض والإتيان وعلامات المخالفة والمخادعة استثناهم الله سبحانه وأمر المؤمنين بمحافظة عهودهم إلى انقضاء المدة المعلومة فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ﴾ بعد المعاهدة ﴿لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ مما عاهدوا عليه والتزموا حفظه بل داوموا على حفظها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يُظَاهِرُوا﴾ ولم يعانوا ﴿عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ من أعدائكم حفظاً لعهدكم وميثاقكم ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ﴾ أي أنتم أولى بإيفاء العهد وإتمام مدته ﴿إِلَىٰ﴾ انقضاء ﴿مُدَّتِهِمْ﴾ التي عاهدوا عليها ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ الذين يواظبون على إيفاء العهود وحفظ المواثيق

فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ....

حذراً عن تجاوز حدود الله وعهوده.

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ﴾ أي انقضى ومضى ﴿ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ﴾ المأمورة فيها السياحة والأمن ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك الناقضين للعهد والميثاق ﴿حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ في حل أو حرم مستأمنين أم لا ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي إسروهم واسترقوهم واستولوا عليهم ﴿وَ﴾ إن استحفظوا واستحصنوا ﴿ٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ﴾ لأخذهم وقتلهم ﴿كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ وممر من شعاب الجبال وشفار الوادي ﴿فَإِن تَابُوا۟﴾ ورجعوا عن الشرك ومالوا إلى الإيمان ﴿وَ﴾ بعد إيمانهم ﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ التي هي علامة إيمانهم وتصديقهم ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التي تطهر قلوبهم عن أمارات النفاق ﴿فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ كسائر المسلمين، تتذكروا وتلتفتوا بما صدر عنهم من المخالفة والمقاتلة والشقاق فيما مضى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عنهم من المعاصي والآثام ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ لهم يوصلهم إلى دار السلام بعدما أخلصوا الإنابة والرجوع.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ المناقضين الذين أُمرت بقتلهم وأسرهم ﴿ٱسْتَجَارَكَ﴾ وطلب منك جوارك ليأمنه عما يؤذيه ﴿فَأَجِرْهُ﴾ أي فعليك يا

حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ ....

أكمل الرسل على مقتضى شفقة النبوة والرسالة أن تجيره وتؤمنه في جوارك ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ الهادي لعباده ويفهم سرائر دينك وشعائر شريعتك كأنه يطلع على حقيقته، لأن أصل فطرة كل أحدٍ وجبلته على الإسلام ﴿ثُمَّ﴾ بعد حصول اليأس عن الإيمان من إيمانه وتنبهه ﴿أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ﴾ أي موضع أمنه ومحل قرانه تتميماً للشفقة والمروءة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأمن والمواساة والتليين المأمور ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ﴾ في غاية البعد عن الإيمان وما يترتب عليه من المؤاخاة والمواساة وأنواع الخيرات والمبرات ﴿لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ أي لا يطمعون ولا يتوقعون صدورها من أهل الإيمان، فمتى صدر منكم أمثال هذا عسى أن يتحاببوا ويتقربوا إليكم.

ثم قال سبحانه:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد، المبالغين في العتو والاستكبار ﴿عَهْدٌ﴾ مقبول ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ إذ هم من غاية انهماكهم في كفرهم وضلالهم لا يلتفتون إلى الله ورسوله، لذلك لا يقبل منهم العهد والميثاق بل أمرهم إما السيف وإما الإسلام ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ﴾ معهم ﴿عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ﴾ فإنهم وإن كانوا أيضاً من المشركين المصرين إلا أن حرمة المسجد الحرام توجب إيفاء عهودهم ما داموا موقنين

فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا

بها ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ واستحفظوا ﴿لَكُمْ﴾ عهدكم ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ﴾ بل أنتم أولى لرعاية حرمة المسجد الحرام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن سوء الأدب مع الله في جميع أحوالهم، سيما رعاية حرمة بيته الحرام.

﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين معكم عهد أيها المؤمنون وكيف تعتمدون على ميثاقهم ﴿وَ﴾ هم من غاية بغضهم وشدة شكيمتهم ﴿إِن يَظْهَرُوا۟﴾ ويظفروا ﴿عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ﴾ أي لا يحافظوا ولا يراعوا في حقكم ﴿إِلًّا﴾ أي عهداً وميثاقاً ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ حقاً لازماً يلتزمون رعايتها كالحقوق التي جرت بين المتعاهدين بل حالهم أنهم ﴿يُرْضُونَكُم﴾ ويعاهدون معكم ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ خداعاً ومداهنة ﴿وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ﴾ عما صدرت على ألسنتهم من المعاهدة بل ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ خارجون متمردون عن العهد مطلقاً، لا يتفوهون به أصلاً فكيف أن يعهدوا.

ومن غاية فسقهم وتمردهم ونهاية توغلهم في الضلال ﴿ٱشْتَرَوْا۟﴾ واستبدلوا ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ المنزلة على رسوله، الدالة على توحيده مع وضوحها وسطوعها ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي بدلاً حقيراً مبتذلاً مرذولاً، وهو اتباع الأهوية الباطلة والآراء الفاسدة التي ابتدعها المبتدعون بتسويلات شياطينهم

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ ....

﴿فَصَدُّواْ﴾ أي أعرضوا وانصرفوا نفوسهم وأتباعهم بسبب تلك الآراء ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ أي عن دين الله الموصل إلى توحيده ﴿إِنَّهُمۡ﴾ من غاية ضلالهم وإضلالهم ﴿سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ هذا العمل.

ومن سوء عملهم أيضاً وقبح صنيعهم أنهم من غاية بغضهم مع المؤمنين ﴿لَا يَرۡقُبُونَ﴾ ولا يراعون ﴿فِي﴾ حق ﴿مُؤۡمِنٍ﴾ أي واحد من أهل الإيمان وإن بالغ في ودادهم وإخائهم ومحافظة عهودهم وذممهم ﴿إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ﴾ أصلاً لشدة شكيمتهم وقوة بغضهم وضغينتهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون المطرودون ﴿هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ المقصورون على التجاوز عن حدود الله ومقتضى المروءة اللازمة للمرتبة الإنسانية لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿فَإِن تَابُواْ﴾ ورجعوا إلى الإيمان بعدما بالغوا في العناد والاستكبار ﴿وَ﴾ بعد رجوعهم ﴿أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المصفيةُ لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عما يشغلهم عن الحق ﴿فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ أنتم وهم سواء في سلوك طريق الحق والرجوع إليه ﴿وَ﴾ إنما ﴿نُفَصِّلُ﴾ ونوضح ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالة على توحيدنا ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾﴾

وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ ....

ويصلون إلى مرتبة اليقين العلمي، ويريدون الترقي منها إلى اليقين العيني والحقي.

﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ﴾ ونقضوا ﴿أَيۡمَٰنَهُم﴾ ونبذوا عهودهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ﴾ وراء ظهورهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿طَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ بتصريح التكذيب والتقبيح في الأحكام والمعتقدات والطاعات والعبادات ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾ أيها الغزاة المرابطون قلوبكم مع الله ورسوله ﴿أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ﴾ أي صناديدهم ورؤساءهم لأنهم ضالون مضلون وإن تفوَّهوا بالعهد والميثاق لا تبالوا بهم وبعهودهم ﴿إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ﴾ أصلاً لتخمير طينتهم على الشرك والشقاق ﴿لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ ويتنبهون أي سفلتهم الضالون عما عليه رؤساؤهم المضلون بعد انقراضهم.

ثم قال سبحانه تحريضاً للمؤمنين على القتال على وجه المبالغة:

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ ﴿وَ﴾ بعد نقضهم الأيمان والعهود ﴿هَمُّواْ﴾ أي قصدوا واهتموا ﴿بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُم﴾ قوم ﴿بَدَءُوكُمۡ﴾ بالمعاداة والمخاصمة ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ في بدء الإسلام حين تحدوا مع رسول الله بالمعارضة فأفحموا

أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ

والتجؤوا إلى المقارعة والمشاجرة ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ منهم أيها المؤمنون في مقاتلتهم أن يلحقكم مكروه من جانبهم أم تداهنون معهم وتضعفون عنهم وإن خشيتم عن لحوق المكروه وعروض المنكر ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ لأنه قادر على وجوه الانتقامات فعليكم أن تخشوا من الله ومخالفة أمره وحكمه ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ بالله وبأوامره ونواهيه.

وبالجملة ﴿قَٰتِلُوهُمۡ﴾ حيث وجدتموهم فإنكم منصورون عليهم ﴿يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ بأنواع العذاب من الأسر والقتل والإجلاء ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ أي يذلهم ويهينهم ما بقي منهم من ذرياتهم ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ﴾ دائماً ﴿عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ﴾ بقهرهم وإذلالهم ﴿صُدُورَ قَوۡمٖ﴾ غرباء ﴿مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ حيث صارت قلوبهم مرضى من وعيدات أولئك الطغاة الغواة المتجبرين المستكبرين.

﴿وَيُذۡهِبۡ﴾ بقتل أولئك الكفرة وقمعهم واستئصالهم ﴿غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ﴾ أي ما حدث وخدش في قلوب هؤلاء الغرباء المؤمنين الذين تركوا أوطانهم لحب دين الإسلام من استيلاء الكفار وكثرة عَددهم وعُددهم وجاههم ومالهم ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ أي يصرف ويرجع من الباطل بسبب قلعهم وقمعهم مَن في قلوبهم مرض من الأقاصي والأداني ﴿وَٱللَّهُ﴾

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ ....

المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم وأمراض قلوبهم ﴿حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ في علاجها ودفعها.

ثم قال سبحانه على وجه التشنيع للمؤمنين تحريكاً لحمية الإيمان:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ وظننتم أيها المؤمنون الكارهون للقتال المتقاعدون عن امتثال الأوامر الواقعة فيه ﴿أَن تُتْرَكُوا۟﴾ على ما أنتم عليه ولا تؤمروا بالقتال من بعد ﴿وَ﴾ زعمتم زعماً فاسداً ﴿لَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾ ولما يفصل ويميز بعلمه الحضوري ﴿ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ﴾ في سبيله مخلصين خالصاً لرضاه ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿رَسُولِهِۦ﴾ المستخلف منه، النائب عنه ﴿وَلَا﴾ من دون ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله ﴿وَلِيجَةً﴾ أي بطانة ومرجعاً يوالونهم ويفشون إليهم سرائرهم، بلى إن الله عليم بجميع ما صدر عنكم من علامات الإخلاص وأمارات النفاق ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لجميع أحوالكم ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ أي تتخيلون وتحضرون من التكاسل والتواني والإلجاء إلى الأعداء والرجوع إليهم في خلواتكم وأسراركم.

ثم قال سبحانه:

﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ المصرين على الشرك والعناد

أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ ....

﴿أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ المعدة لأهل الإيمان ليعبدوا فيها حتى يتحققوا بمقام المعرفة والتوحيد حال كونهم ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِۚ﴾ والشرك قولاً وفعلاً وشركهم مناف لتعميرها إذ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء الهالكون في تيه الضلال ﴿حَبِطَتْ﴾ أي سقطت عن درجة الاعتبار ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الصالحة عند الله بحيث لا ينفعهم أصلاً لمقارنتها بالشرك بل ﴿وَ﴾ مآل أمرهم ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ المعدة لأهل الشرك والضلال ﴿هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾﴾ لا نجاة لهم أصلاً، سواء صدر عنهم الأعمال الصالحة أم لا، بل

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ المعدة لخلاء العبادة والتوجه نحو الحق والمناجاة معه ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وتحقق بمرتبة اليقين العلمي في توحيده ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ الذي يصير الكل إليه ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي أدام الميل والرجوع نحو الحق دائما ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تخفيفاً وتطهيراً لنفسها عن العلائق العائقة عن التوجه الحقيقي الحقي ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أي لم يكن في قلبه خشية من فوات شيء أصلاً إلا من عدم قبول الله أعماله ومن عدم رضاه سبحانه منه ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ وقرب ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الأمناء، الباذلون جهدهم في طريق التوحيد، المشتاقون إلى فضاء الفناء

أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ ....

﴿أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ المتحققين في مقام الرضا والتسليم وإن وفقوا بالإخلاص من عنده.

اصنع بنا ما تحب أنت وترضى يا دليل الحائرين.

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ ﴾ أي صيرتم وسويتم أيها المشركون المعاندون المكابرون ﴿سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ مع كونهما صادرتين عنكم وأنتم على شرككم وضلالكم ﴿كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ ﴾ أي كإيمان من آمن بتوحيد الله ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿وَجَٰهَدَ ﴾ بماله ونفسه ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده كلا وحاشا ﴿لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ﴾ عملة السقاية وعمارة المساجد مع المؤمنين الموقنين بتوحيد الله، المجاهدين في سبيله لنصرة دينه ﴿ وَٱللَّهُ ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه المنزلة على رسله وأنبيائه.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي تحققوا بمرتبة اليقين العلمي بتوحيد الله ﴿وَهَاجَرُوا۟ ﴾ عن بقعة الإمكان طالبين مرتبة أعلى منها ﴿وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وطريق توحيده ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي ببذل ما نسب إليهم من أمتعة الدنيا العائقة عن

وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ....

الوصول إلى فضاء الوحدة ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾ بمنعها عن مشتهياتها ومقتضياتها طالبين إفناء أنانياتهم وهوياتهم في هوية الحق ﴿أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ وأعلى منزلة ومرتبة ماداموا سالكين سائرين ﴿وَ﴾ بعد وصولهم وانقطاع سلوكم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الواصلون ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

لذلك ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم﴾ أي باستعداداتهم الكامنة في عالم الأسماء والصفات ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ غير منقطعة نازلة ﴿مِّنْهُ﴾ سبحانه ﴿وَرِضْوَٰنٍ﴾ كلت الألسن عن تفسيره وانحسرت العقول عن التعبير عنه ﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ منتزهات متجددات حسب تجددات التجليات الحبية ﴿لَّهُمْ فِيهَا﴾ أي في تلك الجنات المتجددات ﴿نَعِيمٌ﴾ أي إمداد وفواتح ﴿مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ دائم غير منقطع.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ﴾ مؤبداً لا تأبيدَ أمدٍ وزمانٍ، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتجلي على قلوب خلص عباده ﴿عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ لهم بحسب استعداداتهم وقابلياتهم بعدما انكشفوا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مقتضى إيمانكم الاجتناب عن أهل الغفلة والغرور حتى لا يسري ضلالهم إليكم سيما أقرباؤكم النسبية ﴿لَا تَتَّخِذُوٓا۟﴾

ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

أيها المهاجرون ﴿ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ﴾ واختاروا ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ والشرك ﴿عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ﴾ والتوحيد ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ﴾ بعد ورود النهي ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المتخذون المضلون الضالون ﴿هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ المتجاوزون عن مقتضى حكم الله ونهيه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمؤمنين الذين يقصدون موالاة أنسابهم: ﴿إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي أقاربكم وذووا أرحامكم ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي اكتسبتموها بأيدكم ﴿وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ لمضي وقت ربحها ونمائها ﴿وَمَسَـٰكِنُ﴾ طيبة ﴿تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي ترضى بها نفوسكم وتطيب بها قلوبكم ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المحبوب في قلوب أوليائه ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ الذي هو حبيبه وخليله ﴿وَ﴾ من ﴿جِهَادٍ﴾ هو عبارة عن الاجتهاد ﴿وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ لتفوزوا بشرف الوصول والشهود ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾ أي فعليكم أن تتربصوا وتنتظروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ﴾ المنتقم من المتخذين لغيره أولياء ﴿بِأَمْرِهِۦ ۗ﴾ الموجب لعذابه ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الخارجين عن مقتضى ولائه وولايته.

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ....

اذكروا أيها المؤمنون ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾ الحفيظ الرقيب عليكم ﴿فِى مَوَاطِنَ﴾ ومواقع ﴿كَثِيرَةٍ﴾ حين لا ينفعكم أحسابكم وأنسابكم شيئاً لا سيما في حرابكم مع هوازن وثقيف ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ هو وادٍ بين مكة والطائف ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أن تكونوا مغلوبين، إذ أنتم اثنا عشر ألفاً وعدوكم أربعة آلاف ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ حينئذ كثرتكم ﴿عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ من غلبة العدو مع قلتهم ﴿وَ﴾ صرتم من غاية رعبكم وخوفكم إلى حيث ﴿ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي مع وسعتها، فلم تجدوا فيها مقراً تمكنون عليها من غاية رهبتكم ﴿ثُمَّ﴾ أدى أمركم وخوفكم إلى أن ﴿وَلَّيْتُم﴾ ورجعتم ﴿مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ صائرين ظهركم على العدو.

﴿ثُمَّ﴾ بعد انهزامكم وإدباركم ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المولي لأموركم ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ أي رحمته الموجبة للقرار والوقار والطمأنينة ﴿عَلَىٰ﴾ قلب ﴿رَسُولِهِۦ وَعَلَى﴾ قلوب ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين تمكنوا معه واستقروا حوله اتكالاً على الله واتفاقاً مع رسوله ﷺ ﴿وَ﴾ بتثبيت الرسول وتقرير من تبعه ﴿أَنزَلَ﴾ سبحانه نصرة لنبيه من الملائكة ﴿جُنُودًا﴾ مجندة ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بنزولها عذاباً شديداً من القتل والأسر والإذلال في النشأة

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ....

الأولى والأخرى بأضعافها ﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي ما لحقهم من أنواع الإذلال ﴿جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ المحاربين مع الله ورسوله.

روي أن رسول الله ﷺ خرج بعد فتح مكة، ثم توجه نحو حنين لقتال هوازن وثقيف مع عشرة آلاف من المهاجرين وألفين من الطلقاء، وكان العدو أربعة آلاف، فأعجب المسلمين كثرتهم، فلما التقوا، فقالوا: لن نغلب اليوم؛ لأن العدو في غاية القلة، فكره الله قولهم وإعجابهم هذا، فاقتتلوا قتالاً عظيماً، فغلب العدو عليهم فولوا منهزمين، فبقي رسول الله ﷺ مع شرذمة قليلة، فأراد أن يقتحم على العدو فأخذ عمه العباس بعنانه فنزل ﷺ وقبض قبضة من التراب ورمى نحو العدو، وذلك عند نزول الملائكة فقال: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب الآن حمي الوطيس»، أي التنور.

فأمر العباس أن يصيح على الناس المنهزمين فصاح: يا عبد الله، يا أصحاب الشجرة، يا أصحاب سورة البقرة، فكروا عنقاً واحداً، فاستقبلوا قائلين: لبيك لبيك، فصفوا خلف الملائكة وازدحموا وهجموا على العدو والريح من خلفهم ومن أمام عدوهم، فانهزم العدو بنصر الله وتأييده ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عليهم ويوفق منهم ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ﴾ إيمانه من أولئك المنهزمين، فأتوا رسول الله ﷺ وآمنوا فأعطى ﷺ من سبى منهم بلا فدية ﴿وَٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب وآمن ﴿رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ يقبل توبته،

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ

ويرحم عليه[1] إن أخلص.

ثم قال سبحانه:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مقتضى إيمانكم أن تذبوا وتدفعوا أهل الشرك عن الحرم ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ المنغمسون في خباثة الشرك والضلال ﴿نَجَسٌ﴾ يجب أن يطهر بيت الله منهم ﴿فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ﴾ أي سنة حجة الوداع ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المؤمنون بسبب إخراجهم ومنعهم عن الحرم ﴿عَيْلَةً﴾ فقراً وقلة زاد ومكتسب ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ وسعة رزقه ﴿إِن شَآءَ ۚ﴾ ترفهكم واتساعكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالحهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ في إتيانها عند الحاجة ومقدارها وبالجملة:

﴿ قَـٰتِلُواْ﴾ أيها الغزاة الحماة لدين الله المشركين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتوحيده ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ المعد لجزاء الأعمال، وإن تفوهوا بالإيمان مداهنة ونفاقاً لا تبالوا بإيمانهم ﴿وَ﴾ هم ليسوا مراعين مقتضى الإيمان إذ ﴿لَا يُحَرِّمُونَ﴾ من المحرمات ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بإذنه سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يَدِينُونَ﴾ ولا ينقادون ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ المنزل

---

(١) في المخطوط (ورحم عليه).

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ....

على الحق، ليصلوا إلى مقر التوحيد، وإن كانوا يدعون أنهم ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي يدعون إتيانه إياهم، إذ هم ليسوا على مقتضى الكتاب وإن ادعوا بهم وبادعائهم، بل قاتلوهم إلى أن تذلوهم وتصاغروهم ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ﴾ هي التي تجزى بها دينهم حماية له ﴿عَن يَدٍ﴾ أي حال كون إعطائهم صادرة منهم عن يد قاهرة غالبة عليهم ﴿وَهُمْ﴾ في حين الإعطاء ﴿صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ ذليلون مهانون، يؤخذ من لحاهم ويضرب في لهازمهم.

﴿وَ﴾ بالجملة خذوا الجزية منهم على وجه تضطروهم وتلجؤوهم[1] إلى الإيمان وكيف لا يقتل هؤلاء الكفرة المشركون ﴿قَالَتِ ٱلْيَهُودُ﴾ منهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ المنزه عن التزوج والازدواج والأبوة والبنوة إذ هي من لوازم البشر، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى﴾ أيضاً: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ذَٰلِكَ﴾ القول المهمل ﴿قَوْلُهُم﴾ دائماً جارياً ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ وأن فرض مخالفة اعتقادهم قولهم فلا أقل أنهم ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ ويشابهون قولهم هذا ﴿قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وأشركوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ بأمثال هذه المهملات، حيث قالوا: الملائكة بنات الله لذلك ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأهلكهم بأمثال هذه المقالات المهملة ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي كيف يصرفون أيها

---

(١) في المخطوط (اضطروهم والتجؤوهم).

ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ ....

الناكبون عن الطريق الحق الصريح إلى الباطل الزائغ الزائل.

وبالجملة ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ ﴾ من فرط جهلهم وخبث طينتهم ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ مستقلين في الوجود ومتأصلين فيه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المنزه عن الشريك مطلقاً، المستقل في الوجود، المتفرد فيه بلا وجود لغيره أصلاً يعبدونهم كعبادة الله ﴿وَ﴾ خصوصاً ﴿ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿مَآ أُمِرُوٓاْ ﴾ في كتبهم التي يدعون بمقتضاها ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾ أحداً صمداً فرداً وتراً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً إذ ﴿لَّآ إِلَـٰهَ﴾ ولا موجود ﴿ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ له من مصنوعاته وأظلاله.

﴿ يُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه المفتريات الباطلة ﴿أَن يُطْفِـُٔواْ﴾ أي يخمدوا ويستروا ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ المتجلي في الآفاق، المتشعشع في الكائنات ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي بشركهم الناشئ من أفواههم بلا سندٍ من عقل أو نقل أو كشف وشهود ﴿وَيَأْبَى﴾ أي يمنع ﴿ ٱللَّهُ﴾ المنزه عن التعدد مطلقاً أن يكون له شريك في الوجود ﴿ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي سوى أن يتجلى بجميع أوصافه وأسمائه على من استخلفه من خلقه فيتراءى منه جميع آثار أسمائه وأوصافه وأخلاقه، ألا وهو المظهر الكامل الجامع المحمدي الذي اتحد دون مرتبته ﷺ قوسا الوجوب والإمكان ودائرتا الغيب والشهادة.

....

لذلك قال ﷺ: «أنا أتمم مكارم الأخلاق»[١]، وقال أيضاً: «أنا سيد ولد آدم»، وقال أيضاً: «آدم ومن دونه تحت لوائي»[٢]، وقال أيضاً: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن رآني فقد رأى الحق»[٣] ونزل في شأنه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ

---

(١) رواه البيهقي في السنن الكبرى [١٠/ ١٩١باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها]، ومالك في الموطأ [٢/ ٩٠٤ رقم / ١٦٠٩/ باب: ما جاء في حسن الخلق]، وقال: (حسن الأخلاق) بدل (مكارم الخلاق) وأحمد في المسند [٢/ ٣٨١ رقم / ٨٩٣٩/] وقال: (صالح الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق)، ورواه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول [٤/ ٨٥] وقال: (محاسن الأخلاق) بدل (مكارم الأخلاق) وغيرهم بألفاظ مختلفة.

(٢) رواه الترمذي في سننه بلفظ :«عَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرُ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرُ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرُ، قَالَ: فَيَفْزَعُ النَّاسُ ثَلاَثَ فَزَعَاتٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ. فَيَقُولُ: إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أُهْبِطْتُ مِنْهُ إِلَى الأَرْضِ. وَلَكِنِ ائْتُوا نُوحًا. فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ: إِنِّي دَعَوْتُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ دَعْوَةً فَأُهْلِكُوا. وَلَكِنِ اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ. فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: إِنِّي كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ». ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْهَا كَذْبَةٌ إِلاَّ مَاحَلَ بِهَا عَنْ دِينِ اللهِ وَلَكِنِ ائْتُوا مُوسَى. فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: إِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا وَلَكِنِ ائْتُوا عِيسَى. فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: إِنِّي عُبِدْتُ مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَكِنِ ائْتُوا مُحَمَّدًا. قَالَ: فَيَأْتُونَنِى فَأَنْطَلِقُ مَعَهُمْ». قَالَ ابْنُ جُدْعَانَ قَالَ أَنَسٌ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ. فَيَفْتَحُونَ لِي وَيُرَحِّبُونَ فَيَقُولُونَ: مَرْحَبًا، فَأَخِرُّ سَاجِدًا فَيُلْهِمُنِي اللهُ مِنَ الثَّنَاءِ وَالْحَمْدِ فَيُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَقُلْ يُسْمَعْ لِقَوْلِكَ، وَهُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللهُ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء]». قَالَ سُفْيَانُ لَيْسَ عَنْ أَنَسٍ إِلاَّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ «فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا». قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ.

سنن الترمذي [١١/ ٤٢٥/ رقم / ٣٤٤١/ باب ومن سورة بني إسرائيل] وأبو يعلى في مسنده ، [٢٣٢٨/ أول مسند ابن عباس]، وأحمد في مسنده [٦/ ١٢١/ رقم / ٢٥٩٥/]، والبيهقي في شعب الإيمان [٤/ ٢١/ رقم / ١٤٦٣/]، وغيرهم وللحديث طرق وشواهد كثيرة.

(٣) حديث متفق عليه، صحيح البخاري [٦/ ٢٥٦٨رقم / ٦٥٩٥/ باب:رؤيا الليل] وصحيح مسلم

وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ ....

لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [٥-المائدة ٣] إلى غير ذلك مما دل وحدة مرتبته وإحاطتها على جميع المراتب، لذلك ختم به ﷺ أمر الرسالة والتشريع ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ الساترون ظهور الحق، المريدون إطفاء نور الوجود في المشكاة المحمدية، وكيف يريدون إطفاء نوره اللائح اللامع من المظهر الجامع المحمدي.

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ ﴾ الهادي ﴿بِٱلْهُدَىٰ ﴾ العام الشامل لكافة البرايا ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ وهو الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُۥ ﴾ أي الرسول ودينه ﴿عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أي على كل الأديان وينسخ جميعها به لابتناء دينه على التوحيد الصرف الخالي عن شوب التنويه وشين الكثرة مطلقاً ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ ظهوره بالهداية العامة، ونسخ دينه جميع الأديان، لخبث باطنهم.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ بالله ورسوله وتحققوا وتيقنوا ﴿إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ ﴾ الموسوسين لضعفاء العوام، الملبسين لهم طريق الحق بالتغديرات المبتدعة من تلقاء نفوسهم كالشيخوخة التي ظهرت في زماننا هذا، إنما غرضهم ومعظم مأمولهم ﴿لَيَأْكُلُونَ﴾ ويأخذون ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ ﴾ المنحطين

[٤ / ١٧٧٦ رقم / ٢٢٦٧ / باب: لا يخبر بتلعب الشيطان به في المنام] وغيرهم وعند البخاري رواية أخرى أيضاً بلفظ: عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «من رَآنِي فَقَدْ رَأَى الْحَقَّ فإن الشَّيْطَانَ لَا يَتَكَوَّنُنِي» [٦/ ٢٥٦٨ رقم / ٦٥٩٦ / باب: رؤيا الليل].

بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾..........

عن زمرة أهل التحقيق ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي بترويج الباطل الزائغ الذي ابتدعوها بلا مستند لهم ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ أي يصرفون ويضلون أباطيلهم وتلبيساتهم ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإسلام تلبيساً عليهم وتغريراً لهم ليأخذوا الرشى منهم ويكنزوها ﴿وَ﴾ لم يعلموا أن ﴿ٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ أي يجعلونها مخزوناً محفوظاً من أي ملة كانوا ﴿وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طلباً لمرضاته ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ يا أكمل الرسل ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ مؤلم مفزع.

اذكر لهم ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ﴾ أي حين توقدون وتحرقون ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على تلك الذهب والفضة المخزونة المحفوظة نارٌ مع أنها موضوعة ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ وهذا مبالغة لشدة إحمائه، وبعدما حميت إلى أن صارت جذوة نار ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ﴾ ليوسموا بها ويعلموا على رؤوس الأشهاد جزاء ما افتخروا بها في النشأة الأولى ﴿وَجُنُوبُهُمْ﴾ ليتألموا بها أشد تألم، بدل ما يتلذذون بها أشد تلذذ ﴿وَظُهُورُهُمْ﴾ بدل ما يستظهرون بها ويتعاونون بسببها ويقال حين كيهم وتعذيبهم: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ وخزنتم ﴿لِأَنفُسِكُمْ﴾ لتتنعموا بها وتسروا بجمعها وادخارها ﴿فَذُوقُوا﴾ اليوم وبال ﴿مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بدل ما تتلذذون بها.

ثم قال سبحانه تعليماً للمؤمنين على ما ثبت عنده من الأيام والشهور

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ ....

لتتميم مصالحهم ومعاملاتهم:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ﴾ على ما ثبت ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي في حضرة علمه ولوح قضائه ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي حين أظهر سبحانه عالم الكون والفساد المقدر بمكيال الأيام والليالي المنقسمتين إلى الشهور والأعوام والأسبوع والساعات، إذ في أزل الذات لا صباح ولا مساء ولا صيف ولا شتاء ولا الشهور ولا السنون، فسبحان من تنزه عن التبديل والتحويل وتقدس عن الظهور والبطون، ﴿مِنْهَآ﴾ من تلك الشهور في كتاب الله ﴿أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم، سميت بها لأن الله سبحانه حرم فيها لعباده بعض ما أباح في الشهور الأخر كرامة لها واحتراماً، فعليكم أيها المكلفون أن تواظبوا فيها على الطاعات وتداوموا على الخيرات والمبرات، واجتنبوا عن الآثام والجهالات، وأكثروا فيها الأعمال الصالحات، وتوجهوا نحو الحق في جميع الحالات سيما في تلك الشهور المعدة للتوجه من عنده ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي تحريم الشهور الأربعة ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيم الموروث لكم من ملة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ بالخروج عن مقتضى تحريمها وهتك حرمتها، حتى لاتستحقوا عذاب الله ونكاله ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيها إن قاتلوكم، ولا تبادروا وتسابقوا إلى قتالهم فيها وفي غيرها، بل إن بادروا

كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ....

على قتالكم قاتلوكم واقتلوهم ﴿كَآفَّةً﴾ أي جميعاً ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ بلا ترحم وتوقيت ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المستوي على العدل القويم ﴿مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن هتك حرمة الله قد حرمها الله لحكمة ومصلحة لم يطلعكم عليها.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾ أي تأخير حرمة الشهر المحرم إلى شهر آخر بدله من غير المحرمات ﴿زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ لأن خصوصية هذه الأشهر معتبرة في الحرمة واستبدالها ازدياد في الكفر؛ لأن هتك الحرمة كفر، وتبديلها كفر آخر ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي بسبب تبديلهم إضلالاً زائداً على ضلالهم الأصلي إذ ﴿يُحِلُّونَهُۥ﴾ أي النسيء الذي يؤخرونه ﴿عَامًا﴾ سنة ﴿وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ آخر بلا رعايةٍ خصوصيةٍ في التحريم وليس غرضهم من هذا التحليل والتحريم إلا ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ويوافقوا ﴿عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وهي الأربعة من غير التفات إلى خصوصية ﴿فَيُحِلُّواْ﴾ بفعلهم وتبديلهم ﴿مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بخصوصه وما ذلك إلا أن ﴿زُيِّنَ﴾ أي حسن وحبب لهم ﴿لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾ أي تحليلهم وتبديلهم القبيح ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى صوب جنابه ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ الخارجين عن مقتضى مأموراته.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا﴾ ذا عرض ولحق ﴿لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لنصرة دينه وإعلاء كلمة توحيده ﴿ٱثَّاقَلْتُمْ﴾ أي تثاقلتم وتعاللتم وتباطأتم وصرتم من غاية ثقلكم وتكاسلكم كأنكم تلزقون ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم﴾ أيها المستبطئون ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الدنية الحقيرة ومزخرفاتها الفانية بدلاً ﴿مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ ولذاتها الباقية ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ والاستمتاع بها والتلذذ بمستلذاتها ومشتهياتها ﴿فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ أي جنب لذاتها ودرجاتها ﴿إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ مستحقر مسترذل بل فانٍ مطلقاً لا وجود لها أصلاً عند من كحّل الله عين بصيرته واذهب عمى قلبه.

﴿إِلَّا تَنفِرُواْ﴾ بعدما أمرتم به ﴿يُعَذِّبْكُمْ﴾ الله المنتقم منكم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ باستيلاء عدوكم عليكم واستئصالكم بأفظع الوجوه وأفزعها ﴿وَ﴾ بعد إهلاكهم ﴿يَسْتَبْدِلْ﴾ منكم ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ مطيعين لأمره، منقادين لحكمه، لينفروا في سبيله كأهل اليمن والفرس ﴿وَ﴾ اعلموا أنكم بتكاسلكم وتقاعدكم عن القتال المأمور ﴿لَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ﴾ إذ هو منزه عن تقويتكم وإضراركم وكفركم وإيمانكم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المنتقم على من خرج عن مقتضى أمره ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من صور الانتقام ﴿قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ لا يخرج عن حيطة قدرته شيء.

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي إن لم تنصروا نبيه المؤيد من عنده ﴿فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ الرقيب عليه، اذكروا نصر الله إياه وقت ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي أهل مكة من مكة حال كونه ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي ليس معه إلا رجل واحد وهو أبو بكر رضي الله عنه، فذهبا نحو الجبل، فدخلا الغار، واقتفى العدو أثرهما فوصلوا الغار ﴿إِذْ هُمَا﴾ خبيئين ﴿فِي ٱلْغَارِ﴾ فتحزن صاحبه من إدراك العدو اذكروا ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ ﷺ في تلك الحالة ﴿لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ عن إدراكهم ولا تيأس عن نصر الله وحفظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ الرقيب علينا حاضر ﴿مَعَنَا﴾ يكفينا مؤونة ضررهم ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه بقوله ﷺ ﴿سَكِينَتَهُۥ﴾ أي اطمئنانه وقراره ﴿عَلَيْهِ﴾ أي على صاحبه ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ﴾ أي ملائكة مستحفظين مستحصنين حارسين له ﴿لَّمْ تَرَوْهَا﴾ عيونكم مثل أولئك الجنود ﴿وَجَعَلَ﴾ سبحانه بنصره وتأييده إياه ﷺ ﴿كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي ما يدعون ويخاصمون معه لأجله وترويجه ﴿ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي الأدنى الأنزل لا يؤبه[1] ولا يبالي بها أصلاً ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ﴾ أي كلمة توحيده التي ظهر بها حبيبه ﷺ ﴿هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ إذ الحق يعلو ولا يُعلى ﴿وَٱللَّهُ﴾ القادر المقتدر على كل ما يشاء

(١) في المخطوط (لا يعبأ).

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ ....

﴿عَزِيزٌ﴾ غالب في نصر أوليائه على أعدائه ﴿حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ في جميع أفعاله وتدبيراته.

﴿ٱنفِرُوا۟﴾ أيها الغزاة المجاهدون في سبيل الله ﴿خِفَافًا﴾ نشطاً فرحاناً منبسطين لمرتبة الشهادة ﴿وَثِقَالًا﴾ قاصداً لأخذ الغنيمة والأحمال والأثقال من عدوكم أو مشاة وركباناً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿جَاهِدُوا بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾ لتهيئة الأسباب وإعداد السفر ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ بتحمل المشاق والمتاعب ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لتفوزوا من عنده بالمثوبة العظمى والدرجة العليا التي لا درجة أعلى منها ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي ما أمرتم به من عند ربكم ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في أولاكم وأخراكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ الخير وتميزونه من الشر.

ثم قال سبحانه في حق المستخلفين عن القتال المأمور به، المستأذنين عن رسول الله ﷺ المعتذرين له بالعذر الكاذب توبيخاً لهم وتقريعاً:

﴿لَوْ كَانَ﴾ ما تدعوهم إليه يا أكمل الرسل ﴿عَرَضًا﴾ أي متاعاً دنيوياً مما يشتهيه نفوسهم ﴿قَرِيبًا﴾ سهل الحصول ﴿وَ﴾ كان السعي في حصوله ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ متوسطاً أي مساوياً نفعه لمشقة تحصيله ﴿لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ البتة طائعين لمصلحة ما يؤملونه من جلب النفع لا لغرض ديني ونفع أخروي ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ﴾ المسافة واشتدت ﴿ٱلشُّقَّةُ﴾ أي المشقة فيها مع جزمهم بعدم

وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ ....

الفائدة فيها بزعمهم الفاسد واعتقادهم الكاسد ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ معتذرين متمنين بلا موافقة قلوبهم بألسنتهم بعدما رجعت من غزوة تبوك: ﴿لَوِ ٱسْتَطَعْنَا﴾ بالخروج استطاعة مالية أو بدنية ﴿لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ البتة مع أنهم قادرون مستطيعون بكلتا الاستطاعتين وهم لخبث باطنهم ﴿يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ بهذا الحلف الكاذب ويعرضونها على عذاب الله ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لمخايل هؤلاء المنافقين ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في حلفهم وعذرهم هذا.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ ما جئت به من ترك الأولى ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ استأذنوك بالقعود أي هؤلاء المنافقين المتخلفين المعتذرين بالأعذار الكاذبة ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ﴾ ويظهر ﴿لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟﴾ في الاعتذار والاعتدال ﴿وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ فيها على مقتضى نفاقهم الكامنة في نفوسهم.

﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي ليس من عادة المؤمنين الاستئذان منك إلى الخروج نحو القتال مطلقاً بل هم منتظرون دائماً متهيئون دائماً أسبابهم مترصدون إلى ﴿أَن يُجَٰهِدُوا۟﴾ في سبيل الله ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ وينتهزون الفرصة بالمسابقة حين أمروا فكيف أن يتأذنوا بالقعود

وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ....

وعدم الخروج، والمعذورون متألمون متحسرون يبكون في زاوية الحرمان محزونون ملهوفون متأسفون لذلك وعد لهم سبحانه من فضله درجة عظيمة ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الذين يحفظون نفوسهم من مخالفة أمر الله وأمر رسوله، بلا عذرٍ شرعي. بل:

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ﴾ بالقعود والتخلف ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ وتوحيده ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ المعد لجزاء الأعمال ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ لعدم اطمئنانها ورسوخها بالإيمان والتوحيد ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ ﴾ المركوز في جبلتهم ﴿يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ يتحيرون ويتذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ ﴾ وقصدوا الوفاق مع المؤمنين كما أظهروا ﴿لَأَعَدُّوا۟ ﴾ وهيؤوا ﴿لَهُۥ عُدَّةً ﴾ أهبة وأسباباً ﴿وَلَـٰكِن ﴾ لخبث باطنهم وانهماكهم في الضلال ﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ﴾ المطلع على قساوة قلوبهم ﴿ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ أي اهتزازهم وتحركهم نحو القتال ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ لذلك وحبسهم وأقعدهم في مكانهم بإلقاء الرعب والكسل في قلوبهم ﴿وَ﴾ كأنه ﴿قِيلَ ﴾ لإسماعهم تضليلاً لهم وتغريراً: ﴿ٱقْعُدُوا۟ ﴾ أيها المنهمكون في الغفلة ﴿مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ من النساء والصبيان والمرضى والزمناء.

وإنما ثبطهم سبحانه وكره نهوضهم لأنه سبحانه علم منهم أنهم

لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ....

﴿لَوْ خَرَجُوا۟﴾ معكم وكانوا ﴿فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً بالغيبة والنميمة وإيقاع الفتنة بينكم ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟﴾ أي أسرعوا وأدخلوا ركائبهم ﴿خِلَٰلَكُمْ﴾ ليتخللوا فيكم وليفرقوا جمعكم حتى يشتغلوا بالنميمة، وإذا ازدحم العدو هزموكم بتفريق جمعكم وتشتيت شملكم وبالجملة إنما ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون إيقاع الفتنة بينكم بأي وجه كان ﴿وَ﴾ الحال أن ﴿فِيكُمْ﴾ وبينكم ﴿سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي ضعفة يسمعون قولهم ويقبلون نصحهم ويرغبون إليهم ويطيعون أمرهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أوامره سراً وعلانية.

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي ليس هذا أول ابتغائهم وإيقاعهم بل أوقعوا الفتنة ﴿مِن قَبْلُ﴾ وأرجفوا بهلاكك وشتتوا شمل أصحابك ﴿وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي النصر والتأييد الثابت عنده، المقرر دونه سبحانه من نصر دينك وإعلائه ونسخ الأديان كلها ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وإعلاء كلمته ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ من خبث باطنهم ظهور دينك وارتفاع شأنك وسمو برهانك.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ ....

﴿وَمِنْهُم﴾ أي من المستأذنين المتخلفين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لك حين استأذنك بالقعود: ﴿ٱئْذَن لِّي﴾ إذ ليس لي قوة الخروج ﴿وَلَا تَفْتِنِّيٓ﴾ أي لا توقعني في الفتنة بالخروج إذ إني أخاف على نفسي من الفتنة والعصيان لو خرجت قل لهم يا أكمل الرسل توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟﴾ أي وقعوا في فتنة التخلف وظهور النفاق والشقاق باستئذانهم وقولهم هذا ﴿وَ﴾ استحقوا العذاب والنكال ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ في الدنيا والآخرة، ومن شدة شكيمتهم وغيظ قلوبهم معك يا أكمل الرسل.

﴿إِن تُصِبْكَ﴾ في بعض أسفارك وغزواتك ﴿حَسَنَةٌ﴾ ظفرة وغنيمة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ وتزيد غيظهم ونفاقهم ﴿وَإِن تُصِبْكَ﴾ في بعضها ﴿مُصِيبَةٌ﴾ كسرٌ وهزيمةٌ ﴿يَقُولُوا۟﴾ تصحيحاً وتحسيناً لرأيهم الفاسد: ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا﴾ وأصبنا فيه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي حين تخلفنا ﴿وَيَتَوَلَّوا۟﴾ عن مجمعهم الذي يتشامتون فيه بالمؤمنين تبجحاً ﴿وَّهُمْ﴾ في رجوعهم وتفرقهم ﴿فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مسرورون.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل للمتشامتين المنافقين على مقتضى كشفك وشهودك بربك: ﴿لَّن يُصِيبَنَآ﴾ من الحوادث ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ﴾

لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ

المقدر للآجال والأرزاق وجميع الأفعال والأحوال والحوادث الجارية في عالم الغيب والشهادة ﴿لَنَا﴾ وخصصنا بها في حضرة علمه إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿مَوْلَىٰنَا ۚ﴾ ومولي جميع أمورنا يصنع بنا على مقتضى ما ثبت في حضرة علمه بلا تبديل ولا تغيير ﴿وَ﴾ ما لنا إلا الرضا بما جرى علينا وسيجري من القضاء لذلك ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل، إذ مرجع الكل إليه كما أن مبدأه منه أولاً بالذات ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ بتوحيد الذات وسريان سر الوحدة على صفائح المكونات.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ﴾ أي تترقبون وتنتظرون ﴿بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ﴾ أي العاقبتين الحميدتين اللتين كل منهما محضٌ خيرٌ، إما النصرة وإما الشهادة، إذ وَعدنا الله من فضله بهما ﴿وَنَحْنُ﴾ أيضاً ﴿نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ على مقتضى وحي الله وإلهامه ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ﴾ نازل ﴿مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾ بلا دخل منا وصنع من كسف أو خسف وزلزلة وغيرها ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ﴾ من القتل والأسر والإجلاء والإذلال ﴿فَتَرَبَّصُوٓا۟﴾ وانتظروا لما وُعد لنا ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أيضاً لما أوعدتم به حتى ننظر كيف يجري حكم الله ومشيئته.

﴿قُلْ﴾ للمنافقين المتخلفين الذين يريدون إعانتك بالمال بدل الخروج إلى

أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ ....

الجهاد لن ينفعكم إنفاقكم عند الله سواء: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا﴾ طائعين ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ كارهين ﴿لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ لأن الإنفاق إنما يقبل من المؤمنين الصالحين المخلصين ﴿إِنَّكُمْ﴾ بسبب كفركم ونفاقكم مع الله ورسوله ﴿كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ لا يقبل منكم الصدقات مطلقاً لعدم مقارنتها بالإيمان.

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ﴾ أي ليس عدم قبول نفقاتهم وصدقاتهم عند الله ﴿إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ﴾ المتوحد بذاته وأشركوا له ما هو من مصنوعاته ﴿وَبِرَسُولِهِۦ﴾ بتكذيبه وعدم إطاعته وانقياده ﴿وَ﴾ علامة كفرهم ونفاقهم أنهم ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الفاصلة الفارقة بين الكفر والإيمان ﴿إِلَّا﴾ يأتونها مداهنة ﴿وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ مبطئون مؤخرون بلا انبعاث قلبي وداعية شوقية ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿لَا يُنفِقُونَ﴾ ما ينفقون ﴿إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ كراهة قلبية لأنهم لا يتوقعون ترتب الثواب عليها لعدم إيمانهم بيوم الجزاء والثواب والعقاب.

ومتى تحقق كفرهم ونفاقهم:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أي كثرتها وتفاخرهم بها لأنها من أسباب العذاب والنكال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ المنتقم منهم

لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ ....

﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بجمعها وحفظها ونمائها وارتكاب المحن والشدائد في تحصيلها ﴿وَ﴾ من كثرة محبتهم لها وحرصهم عليها ﴿تَزْهَقَ﴾ وتزول ﴿أَنفُسُهُمْ﴾ وقت حلول الأجل ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ محجوبون عن توحيد الله والإيمان.

﴿وَ﴾ من جملة نفاقهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ﴾ بالحلف الكاذب ﴿إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ﴾ أي من جملتكم وزمرتكم يفرحون بفرحكم وسروركم ويتغممون بحزنكم ومصيبتكم ﴿وَ﴾ الحال انهم ﴿مَا هُم مِّنكُمْ﴾ لكفرهم وشركهم المركوز في قلوبهم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ يخافون أن تفعلوا بهم فعلكم مع المشركين، فاضطروا إلى المداهنة والنفاق، فأظهروا الإسلام حفظاً لدمائهم وأموالهم، وهم مضطرون على إظهار الإيمان، ومن غاية تذللهم واضطرارهم.

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ منيعا من الحصون والقلاع ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ في شعاب الجبال ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ جحراً يمكنهم الانجحار والاستتار فيه ﴿لَّوَلَّوْاْ﴾ وانصرفوا البتة ﴿إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ يسرعون كالفرس الجموح ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ﴾ يعينك وينصرك ﴿فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي قسمة الغنائم ويتردد حولك حين القسمة طامعاً ﴿فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا﴾ بينهما أو شيئاً يعتد به ﴿رَضُواْ﴾ منك

وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ....

وأثنوا عليك شكراً لإعطائك ﴿وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ﴾ لعدم استحقاقهم وبسبب تخلفهم ونفاقهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ يفاجئون بالغيظ والسخط إظهاراً لما في قلوبهم من الأكنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ كانوا مؤمنين كما ادعوا ﴿رَضُواْ﴾ في تقاسيم الغنائم وغيرها على ﴿مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ وأعطاهم من فضله إذ هو الحكيم في قسمة أرزاق عباده على تفاوت درجاتهم ﴿وَرَسُولُهُۥ﴾ المستخلف له، الملهم من عنده ﴿وَقَالُواْ﴾ من كمال إخلاصهم وتفويضهم كسائر المؤمنين: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ المدبر الكافي لأمورنا يكفينا علمه بنا ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ﴾ المكفل لأرزاقنا ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ وسعة لطفه وجوده ما يكفينا ﴿وَ﴾ سيعطينا ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ النائب عنه بإذنه من الغنائم والصدقات ما يشبعنا ويغنينا ﴿إِنَّآ﴾ بعد ما آمنا بالله وتحققنا بتوحيده بإرشاد رسله ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الباقي بالبقاء الأزلي السرمدي لا إلى غيره من الأظلال والأموال والمزخرفات الفانية ﴿رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ ليرزقنا من فوائد رزقه المعنوي وفوائد توحيده الذاتي، أي هم لو رضوا كما رضي المؤمنون الموقنون، واعترفوا كما اعترفوا لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وتقريراً في قلوبهم.

ثم بين سبحانه مصارف الصدقات فقال:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ﴾ أي الزكوات يصرف ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وهم الذين

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ ....

لا مال لهم ولا مكسب لهم من الحرث وغيره كأنه يكسر فقار ظهرهم الفاقة والاحتياج ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الذين لهم مكسب وصنعة لكن لا تفي لعيالهم، كأن الاحتياج أسكنهم في زاوية المسكنة والهوان ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ أي الساعين لجمعها وإيصالها إلى مصارفها ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ وهم الذين قرب عهد إسلامهم، يجب على المسلمين مؤانستهم ومواساتهم ليقروا على الإيمان ﴿وَ﴾ يصرف منها أيضاً ﴿فِي ٱلرِّقَابِ﴾ أي فكها من الرق وتحريرها وهو من أهم مهمات الإسلام ﴿وَٱلْغَٰرِمِينَ﴾ الذين استغرق أموالهم في ديونهم ولم تف لأدائها يصرف إليهم منها ليؤديها ﴿وَ﴾ يصرف منها سهم ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لتجهيز جيوش أهل الجهاد وتهيئة أسبابهم وعُددَهم، إذ هو من أهم مهمات هذا الدين ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الذي انقطع عن الأهل والمال لمصلحة شرعية، إنما جرى هذه القسمة لهؤلاء المستحقين ﴿فَرِيضَةً﴾ صادرة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مقدرة من عنده ليحافظ المؤمنون عليها ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصارف الصدقات ﴿حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ في صرفها إياهم تقوية لهم وإمداداً.

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ﴾ ويسيئون الأدب معه ﴿وَيَقُولُونَ﴾ في حقه افتراء واستهانة: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي سمع كله ليس له دربة ودراية وتعمق في المعارف والحقائق بل يسمع منا ويجري على ما سمع بلا تفتيش وتدبر ﴿قُلْ﴾

أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ

لهم يا أكمل الرسل إنما: أذن لكم لا أذن شر وفتنة بل ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ إن صدر عنكم ما يتعلق بأمور دينكم مواقفاً لما أمر الله به يقبله منكم لأنه ﷺ ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يقر ويصدق بوحدانيته ﴿وَيُؤْمِنُ﴾ أيضاً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ المخلصين فيما أتوا به من الأعمال والأقوال الصادرة عن الإخلاص ﴿وَ﴾ كيف لا يكون الرسول أذن خير إذ هو كله ﴿رَحْمَةٌ﴾ أي شفقة وعطف ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ﴾ وأخلصوا في إيمانهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ بأي وجه كان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ في النشأة الأخرى جزاء لما أتوا به من إيذاء رسوله.

ومن جملة نفاق المنافقين وشقاقهم أنهم ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ﴾ لتسليتكم وتلبيسكم أيها المؤمنون على ما صدر عنهم من التخلف والتقول على سبيل العذر ﴿لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي لترضوا عنهم وتقبلوا عذرهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿وَرَسُولُهُۥٓ﴾ الملهم من عنده بمخايلهم وأباطيلهم ﴿أَحَقُّ﴾ وأليق ﴿أَن يُرْضُوهُ﴾ أي رسوله أحق بالارضاء والمراضاة، وحّد الضمير؛ لأن إرضاء الرسول مستلزم لإرضاء الله، بل هو عين إرضائه سبحانه عند من ارتفع سبل التعدد عن عينه وغشاوة الكثرة عن بصره ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ بالله وبحقية رسوله.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ ويفهموا أولئك المتخلفون المؤذون لله ورسوله ﴿أَنَّهُۥ﴾

مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ....

أي الشأن ﴿مَن يُحَادِدِ﴾ ويشاقق ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ويتعد حدود الله ويخالف أمر رسوله ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ جزاء لما اقترف من المعاداة فيكون ﴿خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ لا ينجو منها أصلاً ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الخلود في جهنم الحرمان ﴿ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ والهلاك الدائم.

ومن شدة نفاقهم وشقاقهم:

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ المصرون على الكفر الكامن في قلوبهم المظهرون للإيمان استهزاء و مداهنة ﴿أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي على المؤمنين ﴿سُورَةٞ﴾ طائفةٌ من الكلام ﴿تُنَبِّئُهُم﴾ وتخبرهم ﴿بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ من الكفر والنفاق، فحينئذ فعلوا ما فعلوا بالمشركين المجاهرين ﴿قُلِ﴾ لهم تهديداً وتقريراً ﴿ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ بالمؤمنين وامضوا على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنتقم منكم ﴿مُخۡرِجٞ﴾ مظهر ﴿مَّا﴾ كنتم ﴿تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ منه، وهو إنزال السورة لإفشاء حالكم.

﴿وَ﴾ كيف لا ينتقم الله عنهم[1] ﴿لَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ﴾ أي لئن سألتهم وأخذتهم حين استهزؤوا بك وبأصحابك وقت مرورهم عليك في غزوة تبوك قائلين: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه هيهات هيهات، فألهمت به فدعوتهم، وقلت لهم: قلتم كذا وكذا؟

---

(١) أي منهم.

إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ

فقالوا: لا والله ما كنا في أمرك وأصحابك في شيء، بل ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ﴾ بالأراجيف مزاحاً لِيهُونَ السفر علينا ﴿قُلْ﴾ لهم بمقتضى علمك إياهم بوحي الله وإلهامه توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَبِاللَّهِ﴾ المنزه ذاته عن أن يستهزئوا ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ البريئة عن النقص ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ المطهر عن شوب الكذب ﴿كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أيها الحمقى، فتربصوا وانتظروا حتى يستهزئ الله بكم.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟﴾ بالأعذار الفاسدة ولا تحلفوا بالحلف الكاذب إنكم ﴿قَدْ كَفَرْتُم﴾ وأظهرتم بإيذاء الرسول والطعن في دينه ﴿بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ﴾ بعد ما أظهرتم الإيمان فارتفع الأمان عنكم بفعلكم هذا، فلحقتم بالمشركين فنفعل بكم ما نفعل بهم ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ بعدما تابوا عما صدر عنهم ورجعوا إلى الله نادمين خاشعين عن ظهر القلب ﴿نُعَذِّبْ﴾ بالقتل والأسر والإجلاء والإذلال ﴿طَآئِفَةًۢ﴾ أخرى منكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ مصرين على ما هم عليه من الكفر والنفاق وإيذاء الرسول والتخلف عن أمره بلا توبة وندامة، فعليكم أيها المؤمنون أن تعذبوهم ذكراً أو أنثى. إذ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ المصرون على النفاق أصالة ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ المصرات عليه تبعاً ﴿بَعْضُهُم﴾ ناشيء ﴿مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ يتظاهرون ويتعاونون في نفاقهم

يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ ....

﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ على عكس المؤمنين ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الخيرات والمبرات كلها وما ذلك إلا أنهم ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ المظهر الموجد لهم بالإعراض عن حكمه وإيذاء رسوله المبين لأحكامه ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ الله أيضاً ولم ينظر إليهم بنظر الرحمة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ المصرين على النفاق المتمردين عن الوفاق ﴿هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ المقصورون على الخروج عن مقتضى أمر الله وحكمه.

لذلك ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ المنتقم القادر على أنواع الانتقام ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ﴾ المجاهرين بلا تفاوت ﴿نَارَ جَهَنَّمَ﴾ لا نجاة لهم منها أصلاً بل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً ﴿هِىَ﴾ أي النار ﴿حَسْبُهُمْ﴾ أي محسبهم وقرينهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي طردهم وأبعدهم عن سعة رحمته ﴿وَلَهُمْ﴾ بسبب طرد الله إياهم ولعنه ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم فوق عذاب جهنم ﴿مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ دائم غير منقطع، يتألمون طرد الله إياهم ويتعذبون ولا عذاب أعظم من حرمان الوصول إلى جنة الحضور.

وأعوذ بك منك لا ملجأ لنا غيرك.

وبالجملة مثلكم أيها المتمردون المنهمكون في الكفر والضلال، المصرون على النفاق والعناد، المعادون مع الله ورسوله.

كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ....

﴿كَٱلَّذِينَ﴾ أي كمثل الكفرة الذين مضوا ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ بطرين مفتخرين بما عندهم من حطام الدنيا ومزخرفاتها بل هم ﴿كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ﴾ وقدرة ﴿وَأَكۡثَرَ﴾ منكم ﴿أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ﴾ أي نصيبهم وحظهم مما قدر لهم من لذات الدنيا وشهواتها واستكبروا على من أرسل عليهم لتكميلهم وإرشادهم ﴿فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ أيضاً ﴿بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ﴾ أي أخذتم وشرعتم في الأباطيل وتكذيب الرسول والمعاداة معه وقصد إيذائه وقتله وقتل من آمن له ﴿كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ وشرعوا في حق أنبيائهم ورسلهم انظروا إلى وخامة عاقبتهم كيف استؤصلوا فانتظِروا لمثله بل بأشد منها وبالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المردودون عن منهج الرشاد والسداد ﴿حَبِطَتۡ﴾ أي هلكت واضمحلت وبطلت ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ التي عملوها لتفيدهم وتنفعهم ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ فلم ينفعهم أصلاً لا في الأولى ولا في الأخرى لعدم مقارنتها بالإيمان وتصديق الرسول ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الضالون عن طريق الحق ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ المقصورون على الخسران، المقضيون بالحرمان والخذلان.

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ ....

وبالجملة مثلكم أيها المنافقون كمثلهم بل أنتم أسوء حالاً منهم، إذ نبيكم الذي كذبتم به أعلى رتبة من جميع الأنبياء.

﴿أ﴾ يصر المنافقون على النفاق والشقاق و﴿ لَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ﴾ أي خبر إهلاك القوم ﴿الَّذِينَ ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ ﴾ كيف يهلكهم الله بظلمهم وذنوبهم مثل ﴿قَوْمِ نُوحٍ ﴾ كيف استؤصلوا بالطوفان ﴿وَعَادٍ ﴾ بالريح ﴿ وَثَمُودَ ﴾ بالرجفة ﴿وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ بالبعوض ﴿وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ أي قوم شعيب أُهلكوا بالنار النازلة عليهم من السماء يوم الظلة ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قرى قوم لوط هلكوا بالزلزلة وإمطار الأحجار إلى حيث يجعل عاليها سافلها كل من أولئك الهالكين ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ الواضحة الدالة على صدقهم ودعواهم فكذبوهم عناداً ومكابرة، فلحقهم ما لحقهم بشؤم تكذيبهم ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي لم تكن من سنته سبحانه الانحراف عن القسط إلى حيث يؤدي إلى الظلم، إذ هو سبحانه مستوٍ على العدل القويم ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ بالخروج عن مقتضى العدل الإلهي الموضوع فيهم من قبل الحق بنيابة رسله.

ثم لما ذكر سبحانه أحوال المنافقين والمنافقات ومظاهرتهم ومعاونتهم عقَّب أحوالهم بأحوال المؤمنين جرياً على السنة المستمرة فقال:

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً ....

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ الموقنون بتوحيد الله المصدقون لرسله ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ الملحقات بهم المتفرعات عليهم ﴿بَعْضُهُمْ﴾ في الأمور الدينية ﴿أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ بالمظاهرة والموالاة ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ على مقتضى ما وصل إليه من رسلهم ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضة المصفية لبواطنهم عن الميل إلى غير الحق ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ المطهرة لظواهرهم عن الاشتغال بما سواه سبحانه ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُطِيعُونَ ٱللَّهَ﴾ في جميع حالاتهم إطاعة تفويض وتسليم ﴿وَ﴾ ينقادون ﴿رَسُولَهُۥٓ﴾ في جميع ما جاء به ودعا إليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء المفوضون أمورهم إلى الله المنقادون لرسوله ﴿سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ﴾ الرقيب عليهم من فضله ولطفه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع ما أراد بهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ متقن في جزائهم حسب أعمالهم واستعدادهم لذلك.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أنهار المعارف والمكاشفات المتجددة حسب تجددات التجليات الإلهية ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً لا يتحولون عنها أصلاً ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً﴾ أي مقراً في مقام التوحيد، خالياً عن وصمة

﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٧٢ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٣﴾ ....

الكثرة، طاهراً عن لوث السوى والأغيار مطلقاً ﴿فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿رِضۡوَٰنٞ﴾ وقبول ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ المستوي على العدل القويم بحيث لا يسخط لهم أصلاً لتحققهم بمقام التخلق بأخلاقه سبحانه بحيث لا يبقى لهم شائبة انحراف عن صراطه المستقيم الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل ﴿أَكۡبَرُۚ﴾ من جميع ما ذكر من قبل من الدرجات العلية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الرضا من الله والقبول من جانبه ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٧٢﴾ واللطف الجسيم لأرباب الولاء الواصلين إلى مرتبة الفناء فيه سبحانه والبقاء ببقائه، لذلك وعدوا من عنده بما لا يمكن التعبير عن كنهه إلا كوشف به وشوهد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ الهادي لعباد الله إلى تلك المرتبة بإذن الله ﴿جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ﴾ المتمردين علن الإطاعة والانقياد لإرشادك وتكميلك ﴿وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ الذين يحيلون ويخدعون معك في إظهار الإيمان وهم في سرهم وباطنهم على شركهم وكفرهم الأصلي متقررون ثابتون ﴿وَ﴾ بعدما أصروا على نفاقهم وشقاقهم ﴿اغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ حسب إصرارهم وإعراضهم ﴿وَ﴾ لا تبال بهم إذ ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ﴾ ومنقلبهم ﴿جَهَنَّمُۖ﴾ البعد والخذلان في الدنيا والآخرة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٧٣﴾ مصير أولئك المحرومين المطرودين عن ساحة عز القبول.

ومن جملة نفاقهم وكفرهم أنهم:

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۚ

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ ﴾ كذباً وميناً أنهم ﴿ مَا قَالُواْ ﴾ من الطعن في كتاب الله وتكذيب رسوله ﷺ ﴿وَ﴾ الحال أنهم ﴿لَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ أي كلمة الطعن والتكذيب المستلزم للكفر فحلفوا على عدم القول كذباً ﴿وَ﴾ هم في أنفسهم ﴿كَفَرُواْ﴾ بالحق وأعرضوا عنه ﴿ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ أي انقيادهم وتسليمهم أي اختاروا الكفر بعدما أظهروا الإسلام ﴿وَ﴾ لا يقتصرون على إظهار الكفر فقط بل ﴿هَمُّواْ﴾ وقصدوا ﴿بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ﴾ من قتل الرسول ﷺ والاقتحام عليه بغتة في الليل بلا علم من أصحابه، أو همّوا بإخراجه ومن معه من أصحابه من المدينة ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ ﴾ وقصدوا إهلاك رسول الله ﷺ وإخراجه ﴿ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أصحاب رسول الله ﷺ بفتح أبواب الرزق والمكاسب ﴿ وَرَسُولُهُۥ﴾ بإعطاء الغنائم ﴿مِن فَضْلِهِۦۚ ﴾ ففي مقام الشكر وإظهار المنة ينكرون له ويكفرون نعمه[1]، وبعد ما وقع ما وقع ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ ﴾ عما صدر عنهم توبة صادرة عن محض الندامة والإخلاص ﴿ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ ﴾ عند الله يغفر لهم ويعفو عن زلتهم ﴿وَإِن يَتَوَلَّوْاْ ﴾ ويعرضوا عن التوبة ويصروا على ما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ ﴾ المنتقم منهم ﴿ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ مؤلماً فجيعاً ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ ﴿ وَ﴾ بالقتل والسبي والإجلاء والإذلال وأنواع العقوبات في ﴿ ٱلْأٓخِرَةِ ﴾

(١) في المخطوط (ينكروا له ويكفروا).

وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ....

بأضعاف ما في الدنيا وآلافها لانحطاطهم عن المرتبة الإنسانية وقبول التكليفات الإلهية المقتضية لإظهار الحكمة والكرامة المودعة في هياكلهم ﴿وَ﴾ إن استظهروا واستنصروا من أوليائهم ﴿مَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بعد انتشار دين الإسلام في أقطارها ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يعينهم ويولي أمورهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ ينصرهم من بأس الله وعذابه.

﴿ ۞ وَمِنْهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ﴾ مالاً وأعطانا رزقاً كثيراً ﴿لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ منها للفقراء المستحقين ﴿وَلَنَكُونَنَّ﴾ بالبذل والإنفاق وأداء الشكر ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ الشاكرين المنفقين طلباً لمرضاة الله.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم﴾ الله ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ما طلبوا منه ﴿بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ ومنعوا حق الله منه ﴿وَتَوَلَّوا۟﴾ عن امتثال أمر الله وإطاعة رسوله ﴿وَّهُم﴾ قومٌ ﴿مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ عادتهم الإعراض عن إطاعة الله ورسوله لخبث طينتهم.

﴿فَأَعْقَبَهُمْ﴾ الله بسبب فعلهم هذا ﴿نِفَاقًا﴾ راسخاً متمكناً ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمراً ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ أي الله سبحانه في يوم الجزاء فيجازيهم على مقتضى نفاقهم وشقاقهم أسوأ الجزاء ذلك ﴿بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ من

وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ....

الصدق والصلاح والشكر والفلاح ونقضوا عهده ﴿وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ أي وبكذبهم حين العهد والميثاق بلا موافقة من قِبلهم

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ حين هموا إلى القول الكذب مع الله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿سِرَّهُمْ﴾ أي إخلافهم الوعد من حصول المطلوب ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي مناجاتهم معه لا عن إخلاصٍ ناشئٍ من محض المعرفة والإيمان بالله والإقرار بربوبيته لرسوخ الكفر والشرك في جبلّتهم ﴿وَ﴾ لم يعلموا أيضاً ﴿أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فمَن آمن بتوحيده وإحاطة علمه وقدرته كيف خرج عن أمره وإطاعته.

ومن المنافقين المصرين على النفاق والشقاق مع المؤمنين هم:

﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ ويستهزئون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ المتطوعين ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي﴾ إعطاء ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ خصوصاً المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾ من الصدقة ﴿إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي يبذلون مقدار طاقتهم طلباً لمرضاة الله ﴿فَيَسْخَرُونَ﴾ أولئك اللامزون المستهزئون ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من الذين بذلوا جهدهم في أمر الصدقة ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ في الآخرة مجازاة على سخريتهم

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ ....

هذه ﴿وَلَهُمْ﴾ فيها ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ بدل لذتهم بسخريتهم.

وذلك أنه ﷺ حث المؤمنين يوماً على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف دينار، وقال: لي ثمانية آلاف فأقرضت ربي أربعة آلاف وأمسكت لعيالي أربعة.

فقال ﷺ: «بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت».

وأتى عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر، وجاء عقيل الأنصاري بصاع تمر، فقال: بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر، وتركت صاعاً لعيالي وأتيت بالآخر، فأمره ﷺ أن ينثره على الصدقات تبركا، فلمزهم المنافقون فقالوا: ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صاع عقيل، ولكنه أحب أن يعد نفسه مع المتصدقين، فنزلت.

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ يا أكمل الرسل لهؤلاء اللامزين المستهزئين المستسخرين من المؤمنين بإنقاذهم من العذاب أو تخفيفه ﴿أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ سواء عند الله في انتقامهم وعذابهم بل ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ لا مرة ولا مرتين بل ﴿سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ البتة لعظم جرمهم وفسقهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي عدم غفرانهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ وأشركوا معه غيره في الألوهية مع أنه منزه عن الشريك مطلقاً ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ أي كذبوا برسوله وبما جاء به من عند ربه، واستهزؤوا بالمؤمنين المصدقين له، المتصفين في سبيل الله ﴿وَٱللَّهُ﴾

لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ....

الهادي لعباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ عن مقتضى أوامر الله ونواهيه، المسيئين الأدب مع الله ورسوله والمؤمنين.

ثم قال سبحانه:

﴿فَرِحَ﴾ المنافقون ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ عن رسول الله، المتخلفون لأمره، المتمكنون ﴿بِمَقْعَدِهِمْ﴾ أي بمكان قعودهم ﴿خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ حين خرج إلى غزوة تبوك ﴿وَ﴾ ما ذلك أي قعودهم واستقرارهم بعد رسول الله ﷺ في مكانهم إلا أنهم ﴿كَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لخبث باطنهم وقسوة قلوبهم ﴿وَقَالُواْ﴾ أيضاً للمؤمنين تقريراً وتكسيلاً: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي لا تجاهدوا ولا تقاتلوا في الصيف حتى لا تضعفوا أنتم ومواشيكم ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل: ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾ البعد والخذلان التي استوجبتم بها بتخلفكم وقعودكم عن الجهاد ﴿أَشَدُّ حَرًّا﴾ وأبلغ إحراقاً وإيلاماً ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾﴾ ويفهمون ما هي وكيف هي، لمْ يختاروها على حر الدنيا.

﴿فَلْيَضْحَكُواْ﴾ أولئك المتخلفون الهالكون في العذاب المؤبد والوبال المخلد ﴿قَلِيلًا﴾ في الدنيا ﴿وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا﴾ لما لحقهم بعد خروجهم منها من أنواع العذاب والنكال ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فيها من الجرائم

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾

العظائم والمعاصي والآثام.

﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ﴾ وردك من غزوتك هذه أي غزوة تبوك ﴿إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي من المستخلفين المستأذنين الذين قعدوا في المدينة بلا عذر وبعدما قصدت غزوة أخرى ﴿فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ﴾ تلافياً لما مضى ﴿فَقُل﴾ لهم: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ﴾ إلى الجهاد ﴿أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ﴾ أصلاً ﴿إِنَّكُمْ﴾ قوم ﴿رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ﴾ والتخلف ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بلا عذر بل عن غدر وخديعة ﴿فَٱقْعُدُوا۟﴾ دائماً ﴿مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ المعذورين من النساء والصبيان والزَّمنى والمرضى.

﴿وَ﴾ متى ظهر لك حال أولئك الغواة الطغاة الهالكين في البغض والنفاق ﴿لَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ﴾ ولا تدعُ [لـ] ﴿أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ أي بعد ورود النهي أصلاً ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ﴾ لتستغفر له ﴿إِنَّهُمْ﴾ من خبث بواطنهم ﴿كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ في حال حياتهم ﴿وَمَاتُوا۟﴾ على الكفر أيضاً ﴿وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ مجبولون على الفسق في أصل فطرتهم.

﴿وَ﴾ بعدما تحقق عندك وظهر كفرهم وفسقهم ﴿لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ﴾ التي هي وبال عليهم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ المضل المذل لعصاة عباده

أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ ....

﴿أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بأنواع الحوادث والمصيبات ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾، وميلهم ومحبتهم منوطةٌ بها ﴿وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ بالله غير معتبرين معترفين بألوهيته وربوبيته.

﴿وَ﴾ من شدة نفاقهم وبغضهم مع الله ورسوله ﴿إِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من القرآن ناطقة ﴿أَنْ ءَامِنُوا۟﴾ أيها المكلفون ﴿بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ﴾ في سبيله ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ﴾ والسعة ﴿مِنْهُمْ﴾ أي صناديدهم وعظماؤهم خوفاً من أموالهم وأنفسهم ﴿وَقَالُوا۟ ذَرْنَا﴾ ودعنا ﴿نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ المعذورين الغير القادرين. وبالجملة:

﴿رَضُوا۟﴾ أولئك الغواة مع قوتهم وسعتهم ﴿بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي الضعفاء الفاقدين للقوة والسعة ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طُبِعَ﴾ وخُتم ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالكفر والضلال ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ قبحَ ما جاؤوا به من المخالفة والقعود مع أولئك المعذورين، ولذلك لم يأتوا بالمأمور ولم يتمثلوا به.

﴿لَـٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ امتثلوا الأمر الله وانقادوا الحكمه سمعاً وطاعة لذلك ﴿جَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ في سبيل الله ابتغاءً لمرضاته

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٨ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٨٩ وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٠﴾ ....

وتثبيتاً في دينه ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ المؤمنون المجاهدون ﴿لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ﴾ والمثوبات العظمى والدرجات العليا عند الله ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٨٨﴾ الفائزون من عنده بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وبالجملة ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ﴾ المجازي لخلّص عباده ﴿لَهُمۡ﴾ أي لهؤلاء المجاهدين المرابطين قلوبهم مع الله ورسوله، الباذلين مُهَجهم في سبيله ﴿جَنَّٰتٖ﴾ منتزهاتٍ علميةٍ وعينيةٍ وحقيةٍ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أنهار الشهود والكشوف والواردات والإلهامات لا دفعة ولا دفعات بل ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أبداً ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٨٩﴾ واللطف العميم لهؤلاء المختصين بالعناية الأزلية والسعادة السرمدية.

﴿وَ﴾ متى جاءت ونزلت سورةٌ ناطقة بالقتال والجهاد ﴿جَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ﴾ بالأعذار الكاذبة ومَن في قلوبهم مرض ﴿مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ الذين لا اطمئنان لهم في الأيمان ﴿لِيُؤۡذَنَ لَهُمۡ﴾ بالقعود وعدم الخروج إلى الجهاد ﴿وَقَعَدَ﴾ المصرون ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ من غير مبالاة بأمر الله وإطاعة رسوله، لا تبال بهم وبمخالفتهم وكذبهم إذ ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ﴾ بعد افتضاحهم وظهور نفاقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٩٠﴾ في الدنيا والآخرة، لا نجاة لهم أصلاً.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ....

ثم قال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ ﴾ الفاقدين استطاعة الحرب ولو كانوا أصحاء كالنسوان والصبيان والشيوخ ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ الفاقدين الاستطاعة بعروض العوارض كالعمى والعرج والزمانة[1] وغيرها ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ﴾ للزاد والسلاح والمركب وغيرها ﴿حَرَجٌ﴾ أي إثم ومعصية في قعودهم وتخلفهم ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي أخلصوا في الإيمان والإطاعة بالله ورسوله بلا مرض في قلوبهم ودعوا للمجاهدين والغزاة خيراً وأحسنوا مع أهل بيتهم وأطفالهم وفعلوا معهم خيراً إن استطاعوا ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ القاعدين المعذورين مع الله ورسوله والمؤمنين ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ في المعاتبة والحرج فضلاً عن العقاب الأخروي، إذ هم من جملتهم وزمرتهم ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ يجازيهم على قعودهم هذا خيراً لكونهم معذورين فيه.

﴿وَلَا﴾ حرج ولا عقاب أيضاً ﴿عَلَى﴾ المؤمنين المخلصين ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ﴾ حين صمم عزمك إلى الخروج ﴿لِتَحْمِلَهُمْ﴾ على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة كمعقل بن يسار، وصخر بن خنساء، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن زيد وعبد الله بن مغفل، وهم البكاؤون،

(١) في المخطوط (الزمن).

قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ ....

وعبد الله بن كعب الأنصاري وغيرهم حتى يبلغوا مكان العدو ﴿قُلْتَ﴾ لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ﴾ وانصرفوا من عندك آيسين ﴿وَّأَعْيُنُهُمْ﴾ حين تولّيهم ﴿تَفِيضُ﴾ وتسيل ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا﴾ وأسفاً ﴿أَلَّا يَجِدُواْ﴾ لئلا يجدوا ﴿مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ حتى يبلغوا المعركة ويحضروا الوغى، فهؤلاء أيضاً لا عتاب لهم ولا عقاب بل يُرجى لهم الأجر الجزيل من الله لإخلاصهم وأسفهم.

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة وأنواع العذاب ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ بالقعود معتذرين ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ﴾ مستطيعون قادرون بالجسد والمال غاية ما في الباب أنهم ﴿رَضُواْ﴾ من خبث باطنهم ومرض قلوبهم ﴿بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ المعذورين الغير المستطيعين ﴿وَ﴾ ما ذلك إلا أن ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾ المذل المضل لأهل الغفلة والعناد ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ بالجهل والضلال ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ جهلهم وضلالهم حتى يتسببوا لإزاحتها وإزالتها. ومع ذلك

﴿يَعْتَذِرُونَ﴾ أولئك المستأذنون المستطيعون ﴿إِلَيْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ من غزوتكم هذه ﴿إِلَيْهِمْ ۚ﴾ بالأعذار الكاذبة الغير

﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ﴾ ....

المطابقة للواقع تسليةً لكم وتغريراً تتميماً لنفاقهم ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل تعليماً للمؤمنين في مقابلة أعذارهم: ﴿لَّا تَعْتَذِرُواْ﴾ مراء ومداهنة إنا ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ ونصدق ﴿لَكُمْ﴾ سيما ﴿قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم وما يجري في صدوركم بالوحي على رسوله ﴿مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ التي تكتمونها في نفوسكم من الشر والفساد وبالنسبة إلينا وإلى نبينا ﴿وَ﴾ كيف تعتذرون عن جرائمكم وتلبسونها ﴿سَيَرَى ٱللَّهُ﴾ الناقد البصير ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ فتفضحون على رؤوس الأشهاد ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ﴾ في النشأة الأخرى ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ وتحاسبون عنده عليها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ ويظهر عليكم مفصلاً ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ في النشأة الأولى، فيجازيكم على مقتضى علمه.

ومن جملة نفاقهم وتلبيسهم أنهم:

﴿سَيَحْلِفُونَ﴾ يقسمون ﴿بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ ورجعتم مشتكياً[١] معاتباً ﴿إِلَيْهِمْ﴾ عن قعودهم وتخلفهم إنما عرضهم من الحلف الكاذب تغريركم وتلبيسكم ﴿لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم ولا تسألوا عن مخالفتهم وقعودهم ﴿فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ﴾ وعن عتابهم قبل حلفهم وتلبيسهم ولا تلتفتوا إليهم ﴿إِنَّهُمْ﴾

---

(١) أي مشتكين معاتبين.

رِجْسٌۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ ....

في أنفسهم ﴿رِجْسٌۖ﴾ جبلتهم على الخباثة والنجاسة لا تقبل التطهير بالتأديب أصلا ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم في النشأة الأخرى ﴿جَهَنَّمُ﴾ الطرد والخذلان ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ في النشأة الأولى من الكفر والنفاق والإصرار على الشرك والشقاق. وإنما

﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ حين شكواكم وعتابكم ﴿لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْۖ﴾ وتقبلوا إخلاصهم ومودتهم وتكونوا معهم كما كنتم ﴿فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ﴾ بمجرد حلفهم الكاذب وتغريرهم الفاسد لا يغني رضاكم عنهم شيئاً من سخط الله عليهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لما في ضمائرهم من الأكنة والنفاق ﴿لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ الخارجين عن مقتضى الأوامر والنواهي الواردة لتطهير النفوس الخبيثة عن أرجاس الطبيعة وتصفيتها عن أدناس الأخلاق الذميمة العائقة عن الوصول إلى مقر التوحيد.

ثم قال سبحانه:

﴿ٱلْأَعْرَابُ﴾ أي أهل الوبر المترددون في البوادي، المنهمكون في الغي والضلال والعتو والفساد ﴿أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل المدر المستأنسين مع العقلاء المستفيدين منهم ﴿وَ﴾ لشدة شكيمة أولئك الأعراب وجهلهم وعدم قابليتهم ﴿أَجْدَرُ﴾ أي أحق وأليق ﴿أَلَّا يَعْلَمُواْ﴾ أي بأن لا يعلموا

حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ

﴿حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المدبر المصلح لأحوال عباده ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ النائب عنه، المتكلف لإرشاد عباده بإقامة حدوده المنزلة من الأوامر والنواهي المستلزمة لتأديبهم في معاشهم ومعادهم، إذ هم في غاية البعد عن الهداية والصلاح وتحمل التكاليف الإلهية ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ باستعداداتهم الكامنة فيهم ﴿حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ في إلزام التكليف عليهم.

﴿وَمِنَ﴾ منافقي ﴿ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ﴾ أي يعد ويحسب ﴿مَا يُنفِقُ﴾ بأمر الله في سبيله ﴿مَغْرَمًا﴾ أي غرامة وخسراناً لعدم إيمانه واعتقاده بترتب الثواب عليه، بل إنما ينفق رياء وتقيةً ﴿وَ﴾ من خباثة باطنه ﴿يَتَرَبَّصُ﴾ أي يترقب وينتظر ﴿بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ أي نوائب الزمان الدائرة عليكم لينقلب الأمر ويتحول الحال ويخلص من الإنفاق بالنفاق بل يدور ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ﴾ على عكس مرامهم دائماً متجدداً مستمراً ﴿وَٱللَّهُ﴾ الرقيب عليهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لمناجاتهم ﴿عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ بنياتهم وحاجاتهم، تدير عليهم ما يتربصون بكم من الدوائر.

﴿وَمِنَ﴾ مخلصي ﴿ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ﴾ أي يوقن ويذعن بتوحيده ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ أي يصدق باليوم الآخر المعد لجزاء الأعمال وترتب المثوبات بالقربات والصدقات ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ﴾ في سبيل الله

﴿قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٞ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾

﴿قُرُبَٰتٍ﴾ ونيل مثوبات ورفع درجات ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ﴾ أي بسبب استغفاره ودعائه له ﴿أَلَآ إِنَّهَا﴾ أي ما يتصدقون بها أولئك المؤمنون المخلصون المتقربون ﴿قُرْبَةٞ لَّهُمْۚ﴾ وسبب وصولهم إليه ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ﴾ الموفق لهم، الرقيب عليهم ﴿فِي﴾ سعة ﴿رَحْمَتِهِۦٓۚ﴾ وجوده بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿غَفُورٞ﴾ لما صدر عنهم من المعاصي قبل إيمانهم ﴿رَّحِيمٞ ٩٩﴾ لهم يقبل منهم بعد إيمانهم وإخلاصهم ما يتقربون به لمرضاته.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في الإيمان المبادرون إلى التصديق وقبول الأحكام ﴿ٱلْأَوَّلُونَ﴾ الأقدمون بمتابعة الرسول ﴿مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ الذين هاجروا من مألوفات نفوسهم ومشتهيات طباعهم إلى الفناء في الله ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ الأبرار الذين سلكوا نحو الحق بالرياضات والمجاهدات الشاقة المزيحة لدرن التعلقات ورين الإضافات، المانعة من التوجه الحقيقي ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم﴾ واقتفوا أثرهم من أهل الطلب والإرادة ﴿بِإِحْسَٰنٖ﴾ أي بلا تمايل إلى الرياء والسمعة والعجب، أولئك المبرورون المقبولون ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ لتحققهم بمرتبة الإخلاص والتسلم ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لإيصالهم إلى مقر التوحيد وفضاء الفناء المثمر للبقاء الأبدي والحياة السرمدية ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾

جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ....

سبحانه في حوزة حمايته وروضة بقائه ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منتزهات ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من العلوم والمعارف ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ لا يتحولون عنها أصلاً ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ واللطف الجسيم لأهل العناية من أرباب الولاية والمحبة، المنخلعين عن جلباب ناسوتهم مطلقاً.

﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم﴾ أيها المؤمنون ﴿مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الساكنين في البوادي قوم هم ﴿مُنَٰفِقُونَۖ﴾ معكم وإن أظهروا المودة والإخاء والإيمان على طرف اللسان، لا تبالوا بإيمانهم ولا تغفلوا عن خدعهم ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِۖ﴾ أيضاً قوم ﴿مَرَدُوا۟﴾ أي رسخوا ﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ ومن شدة نفاقهم وتمرنهم عليه صاروا بحيث ﴿لَا تَعْلَمُهُمْۖ﴾ أيها المتصف بالفراسة الكاملة من غاية تلبيسهم وإخفائهم بل ﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ﴾ ونعلم ما في ضمائرهم من الخيالات الفاسدة ﴿سَنُعَذِّبُهُم﴾ في الدنيا ﴿مَّرَّتَيْنِ﴾ مرة بتفضيحهم وإظهار ما في قلوبهم من الأكنة والشقاق، ومرة بقتلهم وسبيهم وإجلائهم ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ هو حرمانهم وانحطاطهم عن المرتبة الكاملة الإنسانية التي هي مرتبة الخلافة والنيابة الجامعة لجميع المراتب الكونية والكيانية.

﴿وَ﴾ من أهل المدينة قوم ﴿ءَاخَرُونَ﴾ ليسوا من المصرين على النفاق

ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ ....

المتمرنين فيه بل ﴿ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ التي صدرت عنهم من المخالفة والبغض والطعن والاستخفاف والغيبة حين خلوا مع المنافقين، المتمرنين وهم وإن صدر عنهم الإيمان والإخلاص لكنهم ﴿خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ من الإخلاص والرضاء والتسليم ﴿وَ﴾ عملاً ﴿ءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ وهو اتفاقهم مع المنافقين في خوضهم وطعنهم وبذلك انحطوا عن رتبة المخلصين في جميع حالاتهم ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي يوفقهم على التوبة والندامة، ويقبل منهم توبتهم بعدما أخلصوا فيها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿غَفُورٞ﴾ لمن تاب وندم عن ظهر القلب ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ يقبل توبتهم إن أفرطوا.

﴿خُذۡ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ أي من أموال هؤلاء المذنبين التائبين النادمين عما صدر عنهم من المخالفة حين أذنوا لك أن تخرج منها ﴿صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ﴾ عن أدناس الطبيعة المولعة لحب المال والحرص في جمعها ونمائها ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي تصفي بواطنهم عن الشواغل العائقة عن اللذات الروحانية ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ واستغفر لذنوبهم وادع لهم بالدعاء الخير ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ﴾ والتفاتك بحالهم ﴿سَكَنٞ لَّهُمۡۗ﴾ أي سكينة لقلوبهم ووقار وطمأنينة، وسبب لتقررهم وتثبتهم على جادة التوحيد والإيمان ﴿وَٱللَّهُ﴾ المراقب عليهم في حالاتهم ﴿سَمِيعٌ﴾ لإخلاصهم ومناجاتهم ﴿عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾

أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ .....

بنياتهم وحاجاتهم.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أولئك التائبون النادمون المخلصون المتضرعون نحو الحق على عفو زلاتهم وتقصيراتهم ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوالهم ﴿هُوَ﴾ بلطفه وفضله ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بعدما وفقتهم عليها ويتجاوز عن سيآتهم ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ من أموالهم أي يقبلها منهم تطهيراً لقلوبهم عما يشوشهم من رذائل هوياتهم وتعيناتهم ليتشمروا نحو الحق مخفِّين ﴿وَ﴾ لم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المتفضل لعباده ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع لهم عن مقتضيات نفوسهم نحو جنابه ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ عليهم يوصلهم إلى بابه إن أخلصوا في سلوكهم وتوجههم.

﴿وَقُلِ﴾ يا أكمل الرسل للمخلفين من الأعراب ﴿ٱعْمَلُواْ﴾ ما شئتم من الكفر والنفاق ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ﴾ الرقيب عليكم ﴿عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ بوحيه سبحانه وإلهامه ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بتبليغه ﴿وَ﴾ اعلموا أيها الغواة المجرمون ﴿سَتُرَدُّونَ﴾ للحساب والجزاء ﴿إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي السرائر والخفيات التي تسترونها[1] من الكفر والمعاصي ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي التي تعلنون بها ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾ سبحانه على التفصيل ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ من طغيان نفوسكم ويجازيكم عليها.

---

(١) في المخطوط (تسترونها) مكرر.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ

﴿وَءَاخَرُونَ﴾ من المتخلفين بعدما تنبهوا بقبح صنيعهم ﴿مُرْجَوْنَ﴾ مؤخرون منتظرون ﴿لِأَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وحكمه وصاروا مترددين بين الخوف والرجاء فيما فعل الله معهم ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ أخذاً على ما صدر عنهم بمقتضى عدله ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويوفقهم على التوبة بمقتضى فضله وسعة رحمته وجوده ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لخفيات صدورهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بإخلاصهم ونياتهم ﴿حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ في فعله بهم بعد علمه بحالهم.

﴿وَ﴾ من أشدهم كفراً ونفاقا وأغلظهم بغضاً وشقاقاً هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟﴾ تلبيساً وتغريراً ﴿مَسْجِدًا﴾ قاصدين في بنائه ﴿ضِرَارًا﴾ مضرة وسوءاً لرسول الله ﷺ وللمؤمنين ﴿وَكُفْرًا﴾ أي اشتداداً وزيادة فيه لأنهم يقصدون بإنشائه وبنائه قتل رسول الله والمؤمنين فيه ﴿وَ﴾ قصدوا أيضاً ﴿تَفْرِيقًا﴾ وتشتيتاً ﴿بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المجتمعين في مسجد قباء ﴿وَ﴾ بالجملة إنما يبنونه ﴿إِرْصَادًا﴾ أي ترقباً وانتظاراً ﴿لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وهو أبو عامر الراهب الذي حارب مع المؤمنين ﴿مِن قَبْلُ﴾ يومَ حنين فانهزم، فهرب إلى الشام ليذهب إلى قيصر، فيأتي بجنوده وهم منتظرون لمجيئه ﴿وَ﴾ بعدما ظهر نفاقهم وخداعهم بوحي الله وإلهامه على رسوله ﴿لَيَحْلِفُنَّ﴾ وليقسمن بالأيمان الغليظة ﴿إِنْ أَرَدْنَآ﴾ أي ما قصدنا ببنائه ﴿إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والخير وهي الصلاة المقربة نحو الحق والذكر

وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ....

والتسبيح والتوسعة على المؤمنين وازدياد شعائر الإسلام ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائرهم ومحايلهم ﴿يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ في حلفهم.

وإذا عرفت يا أكمل الرسل حالهم وحلفهم وسوء قصدهم وفعالهم.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ للتوجه والصلاة لكونه مبنياً على الخداع والتزوير ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ﴾ وبني ﴿عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ عن محارم الله وخالصاً لرضاه ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ بني وهو مسجد قباء ﴿أَحَقُّ﴾ أي أليق وأولى ﴿أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ للصلاة والميل نحو الحق إذ ﴿فِيهِ رِجَالٌ﴾ مؤمنون كاملون في الإيمان ﴿يُحِبُّونَ﴾ دائماً ﴿أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ عن المعاصي والآثام، ويتوجهوا نحو الحق برفض الشواغل ونقض العوائق والعلائق ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع بنياتهم ﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ القاصدين تطهير ذواتهم عن التوجه إلى ما سوى الحق المطلق بل عن هوياتهم وتعيناتهم الباطلة.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ﴾ ووضع ﴿بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ﴾ قاعدة محكمة وركن شديد هي ﴿تَقْوَىٰ﴾ أي تحفظ وتحصن ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي غضبه وسخطه ﴿وَ﴾ طلب ﴿رِضْوَٰنٍ﴾ ومثوبة عظيمة ومنزلة رفيعة منه ﴿خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي على طرف واد جوفه السيول والأمطار فسقط

﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ ....﴾

البعض، وأشرف على السقوط[1] والانهدام البعض الآخر فوضع عليه بناءه ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ﴾ وسقط معه ﴿فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ﴾ أي الوادي الغائر الهائر المملوءة من نار الحرمان والخذلان ﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لخلص عباده ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ الخارجين عن مقتضى أوامره ونواهيه.

ومن شدة غيظهم وخبث باطنهم.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟﴾ يورث ويزيد ﴿رِيبَةً﴾ شكاً وريباً متزايداً ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مترشحاً فيها ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ﴾ بنيران الحسرة، وتفتت وتلاشت بأهوال العذاب إلى حيث لا يتأتى منها الإدراك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمخايلهم الكامنة في صدروهم ﴿حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ في جزائها وانتقامها.

ثم قال سبحانه تبشيراً للمؤمنين الباذلين مهجهم في سبيل الله:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتفضل بالفضل العظيم واللطف الجسيم ﴿ٱشْتَرَىٰ﴾ واستبدل ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الفانية في أنفسها، المعدومة المبذولة في سبيله سبحانه في النشأة الأولى ﴿وَأَمْوَٰلَهُم﴾ المصروفة فيه أيضاً ﴿بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ الباقية واللذة المستمرة الدائمة بدلها لذلك ﴿يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أولئك المتمثلون بحكم الله، المصدقون لوعده ﴿فَيَقْتُلُونَ﴾

---

(١) في المخطوط (وتشرف على السقوط).

وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ....

أعداءه فيستحقون المثوبة التي وعد الغزاة المجاهدين ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ ويصلون إلى درجة الشهداء الذين هم أحياء عند الله يرزقون من موائد أفضاله، فرحون يوعدون من عنده سبحانه ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ﴾ بلا خلف فيه ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً مثبتاً ﴿فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ المنزلة من عنده ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ ووفى العهود استحق ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ الوعد الموعود ﴿فَاسْتَبْشِرُوا﴾ أي افرحوا واربحوا أيها المؤمنون ﴿بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ﴾ مع ربكم بأن استبدلتم الفاني الزائل بالباقي المستمر الدائم ﴿وَذَٰلِكَ﴾ الموعود لكم ﴿هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ المعد لأرباب العناية. وهم

﴿التَّائِبُونَ﴾ النادمون على ما جرى عليهم من المعاصي، المحافظون عليها بلا مراجعة أصلاً ﴿الْعَابِدُونَ﴾ بالعزائم الصحيحة والإخلاص التام ﴿الْحَامِدُونَ﴾ الشاركون الصارفون ما أعطاهم الحق من النعم إلى ما أمرهم من المصارف ﴿السَّائِحُونَ﴾ السائرون السالكون في سبيل الحق لازدياد المعارف والحقائق ﴿الرَّاكِعُونَ﴾ المتواضعون المنكسرون لجميع مظاهر الحق تعظيماً لشأنه ﴿السَّاجِدُونَ﴾ المتذللون الواضعون جباههم على تراب المذلة خضوعاً وانقياداً ميلاً ودعاء ﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ المستحسن عقلاً

وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ ....

وشرعاً بالقلب واللسان وجميع الجوارح ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المستقبح عقلاً وشرعاً لجميع ما ورد النهي به ﴿وَ﴾ بالجملة هم ﴿الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ الموضوعة بين أرباب التكليف، القابلين المستعدين لسلوك طريق التوحيد ﴿وَبَشِّرِ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ الموصوفين بهذه الصفات الجميلة باللذات التي لا يمكن وصفها بلسان التعبير من لدن حكيم خبير.

ثم قال سبحانه على طريق النهي عموماً:

﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ الأمي الهاشمي ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ معه وأخلصوا فيه ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا۟﴾ ويشفعوا ﴿لِلْمُشْرِكِينَ﴾ بتخفيف العذاب ودخول الجنة ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ من النسب، إذ لا عبرة لقرابة النسب، بل القرابة المعتبرة هي قرابة الحسب والإيمان سيما ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ﴾ موتهم على الكفر والجاهلية ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ أي ملازموها وملاصقوها، لا نجاة لهم منها لإصرارهم على موجبها.

﴿وَ﴾ لا يرد على هذا استغفار إبراهيم لأبيه إذ ﴿مَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ على سبيل الشفاعة والشفقة والعطف الموجب لها بل ما

إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمَۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

هو ﴿إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ﴾ وعهد ﴿وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ حين أراد أن يخرجه من الكفر والشرك بأن يستغفر له ما تقدم من ذنبه إن آمن فاستغفر قبل الإيمان إنجازاً لوعده ليلين قلبه ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ﴾ وظهر عنده ﴿أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ﴾ مصر على كفره، مطبوع على قلبه ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ واسترجع إلى الله منيباً لاجترائه واستغفاره في حق أبيه مع عدم العلم باستعداده وتوفيق الله إياه ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مع كونه متحققاً بمقام الخلة مع الله ﴿لَأَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه والتحزن عن أمثال هذه الجرأة ﴿حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ كثير الشفقة والمرحمة على أهل الغفلة لظهوره على مقتضى اللطف والجمال.

﴿وَ﴾ اعلموا أيها المؤمنون ﴿مَا كَانَ ٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لِيُضِلَّ قَوْمَۢا﴾ ويسميهم ضلالاً وفساقاً ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ للإيمان والإسلام ﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم﴾ وينبه عليهم ﴿مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ ويحذرون من المحارم والمعاصي لامتناع تكليف الغافل، ثم بعد ارتكاب المحذور به يسميهم ما يسميهم ويأخذهم منتقماً عليهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مما يتعلق بصلاحهم وإصلاحهم ﴿عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ لا يعزب عن علمه شيء، فعليكم أيها المؤمنون أن تفوضوا أموركم كلها إلى الله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المستقل بالألوهية والوجود ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وما فيها من

وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ ....

الكواكب والنجوم ﴿وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ وما عليها وكذا ما بينهما ﴿يُحۡيِۦ﴾ ويظهر بلطفه متى تعلق إرادته ﴿وَيُمِيتُۚ﴾ يعدم ويخفي بقهره متى شاء ﴿وَمَا لَكُم﴾ أيها المؤمنون الموقنون بتوحيد الله ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ليس معه شيء ولا دونه حي ﴿مِن وَلِيّٖ﴾ يولي أموركم ﴿وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ ينصركم عليها.

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ أي وفقه على التوبة بعدما صدر عنه إذن المخالفين المستأذنين المعتذرين بالأعذار الكاذبة تغريراً له وتلبيساً عليه مع عدم علمه بحالهم ﴿وَ﴾ تاب أيضاً على ﴿ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ نحو تبوك حين خرج إليها ﴿فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ وأيام القحط إذ ليس لهم في تلك السفر زاد ولا راحلة ولا ماء حيث يتعاقب عشرة على بعير، وقسيم تمر بين اثنين في يوم، وشرب الفظ[١] والفرث[٢] من شدة العطش، لذلك تمايل على المخالفة ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ﴾ وقرب ﴿يَزِيغُ﴾ ويميل عن المتابعة ﴿قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ من قلة الصبر وكثرة المقاساة والأحزان ﴿ثُمَّ تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيۡهِمۡۚ﴾ ووفقهم على التوبة مما أخطروا ببالهم وتخيلوا في خيالهم ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِهِمۡ﴾ بعد ما علم استعداداتهم وقابليتهم ﴿رَءُوفٞ﴾ عطوف يعفو

(١) أي ماء الكرش يقتصر ويشرب.

(٢) أي روث الكرش.

رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ....

عما صدر عنهم وقت الاضطرار ﴿رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ يقبل عنهم ما جاؤوا به من الإنابة والاستغفار.

﴿وَ﴾ أيضاً تاب سبحانه ﴿عَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟﴾ عن غزوة تبوك بلا عذر، هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وصاروا من عدم التفات رسول الله والمؤمنين إليهم بعدما أمرهم الرسول أن لا يتكلموا معهم خمسين ليلة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي مع وسعتها وفسحتها ﴿وَ﴾ صاروا من الأعراض إلى أن ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ واشتد عليهم الأمر وانسد أبواب التدابير مطلقاً، فاضطروا في أمرهم والتجؤوا نحو الحق مخلصين ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ بل كوشفوا ﴿أَن لَّا مَلْجَأَ﴾ ولا مفر ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من غضبه وسخطه ﴿إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ إذ ليس بغيره وجود حتى يلجأ إليه، لذلك قال ﷺ في أمثال هذه المضائق: «أعوذ بك منك» ﴿ثُمَّ﴾ بعدما أخلصوا في الإنابة والرجوع وفوضوا أمورهم إليه سبحانه ﴿تَابَ﴾ الله ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي أقدرهم ووفقهم على التوبة ﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾ ويرجعوا إلى الله نادمين على ما صدر عنهم من المخالفة فيغفر لهم ويعفو عن زلاتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح الموفق ﴿هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ الرجاع لعباده نحو جنابه حين صدر عنهم المعاصي ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ لهم يرحمهم ويقبل توبتهم عند رجوعهم متضرعين مخلصين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مقتضى إيمانكم التقوى عن محارم الله ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عن مخالفة أمره ﴿وَكُونُواْ﴾ في السراء والضراء ﴿مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ المصدقين لرسوله المتابعين له في جميع أموره.

واعلموا أنه

﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ﴾ يسكن ﴿حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ المترددين في بواديها ﴿أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ حين خرج إلى القتال واقتحم على الأعداء ﴿وَلَا﴾ يصح لهم أن ﴿يَرْغَبُواْ﴾ ويميلوا ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ لحفظها وصيانتها ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ بل يجب عليهم أن يفدوا نفوسهم ويكفلوا في صيانته وحفظه ﷺ وحيث اقتحم ﷺ فلهم المبادرة والمسابقة ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ما وجب عليهم من تحمل المشاق والمتاعب والإسراع إلى الاقتحام والإقدام عليها ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم متى خرج ﷺ ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ أي عطش ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ ألم من أنواع الآلام ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي مجاعة ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لإعلاء دينه وكلمة توحيده ﴿وَ﴾ كذا ﴿لَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا﴾ ولا يدوسون مكاناً ﴿يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ مرورهم عنه ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ من القتل والأسر والغلب والنهب

إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةًۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ....

﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ ﴾ عند الله ﴿عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ ﴾ موجب للمثوبة العظمى والدرجة العليا، وبالجملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ المحسن المتفضل لخواص عباده ﴿ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ الذين يحسنون الأدب مع الله ويعبدونه كأنهم يرونه ومع رسوله، المستخلف منه، النائب عنه.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ ﴾ هؤلاء المحسنون ﴿نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ في سبيل الله طلباً لمرضاته ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ تجاه العدو حين أمرهم الله ورسوله ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ في ديوان حسناتهم ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بها جزاء ﴿أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ أي مثل جزاء أحسن أعمالهم.

ثم قال سبحانه:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي وما استقام لهم وناسب بحالهم ﴿لِيَنفِرُوا۟ ﴾ عن أماكنهم وبلادهم ﴿كَآفَّةًۚ ﴾ بحيث تخلو بلدانهم عن الحفظة والحراس ﴿فَلَوْلَا ﴾ وهلا ﴿نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ إلى الرسول ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ ويتعلموا شعائره وما يتعلق به من الأدب ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ ﴾ بذلك ﴿ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ ويقيموا لهم ما يتعلمون من شعائر الإسلام ومناسك

لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ

الدين القويم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ عن منهيات الدين ويتصفون بمأموراته ويصلحون عقائدهم بها، فيؤمنوا ويوقنوا بالله، ويتدينوا بدينه.

ومن معظم شعائر الإسلام: القتال

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ ويقرب منكم في حواليكم وحواشيكم ﴿مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ وليضيقوا ويشددوا عليهم ﴿وَلۡيَجِدُواْ﴾ ويشاهدوا ﴿فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ تشدداً وتصبراً على القتال وجرأة وتهوراً عليها فيخافوا منكم فيتركوا عنادهم، ولا تبالوا بكثرة عَددهم وعُددهم واجترئوا عليهم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة ﴿مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ الذين يحفظون حدود ما أنزل الله عليهم، فتوكلوا عليه وامتثلوا بمأموره إن كنتم موقنين.

﴿وَ﴾ كيف لا تقاتلون ولا تشددون أيها المؤمنون على الغواة المستهزئين الذين ﴿إِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ من عندنا مشتملة على تكميل دينكم وزيادة إيمانكم ويقينكم ﴿فَمِنۡهُم﴾ أي من المنافقين ﴿مَّن يَقُولُ﴾ لأصحابه ورفقائه له من خبث باطنه وركاكة فطنته استهزاء وسخرية: ﴿أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ﴾ استحقاراً لها ﴿إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وبجميع ما نزل من عنده لإصلاح أحوال عباده ﴿فَزَادَتۡهُمۡ﴾ بعدما تأملوا فيها وتدبروا

إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ....

في مرموزاتها ﴿إِيمَٰنًا﴾ يقيناً واطمئناناً ﴿وَهُمْ﴾ بعدما أطلعوا على مطلعها ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ بنزولها.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هو التعامي عن آيات الله ومقتضى إشاراته ورموزه ﴿فَزَادَتْهُمْ﴾ هذه ﴿رِجْسًا﴾ كفراً وشركاً متضمناً ﴿إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ الأصلي وكفرهم الجبلي وصاروا منغمسين منهمكين بالكفر والضلال ﴿وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ مصرون على كفرهم فلحقوا بشياطينهم الذين مضوا قبلهم، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ﴾ من خباثة بواطنهم ورجاسة نفوسهم ﴿يُفْتَنُونَ﴾ يقتلون ويصابون ﴿فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً﴾ بلية ﴿أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بَلِيَّتَيْنِ لِتَلِينَ قلوبهم بها ويتنبهوا فيتوبوا ﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ إلى الله من كفرهم ولا يرجعون نحوه بالإيمان ليقبل عنهم ﴿وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ بها أي يتذكرون ويتفطنون بها بل يصرون ويعاندون.

﴿وَ﴾ من جملة إصرارهم وعنادهم أنهم ﴿إِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ مفضحة لهم، مفصحة بما عليهم من النفاق والشقاق ونقض العهود والميثاق

نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ....

﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ يتغامزون بعيونهم ويقولون استهزاءً وتهكماً: ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ من هؤلاء المؤمنين ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ۚ﴾ من عنده مريدين النفاق والشقاق بأضعاف ما كانوا عليه بسبب تفضيحهم بهذه السورة لذلك ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿قُلُوبَهُم﴾ عن الإيمان وجادة التوحيد ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ أي لا يفهمون لذة الإيمان ولا يتخلقون على نشأة التوحيد والعرفان مثل الموحدين.

لذلك ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾ أيها الأعراب ﴿رَسُولٌ﴾ بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة منتشئ ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ وجنسكم، ومن غاية شفقته ومرحمته لكم ﴿عَزِيزٌ﴾ شاقٌ شديدٌ ﴿عَلَيْهِ﴾ ﷺ ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي عنتكم ولقاءكم المكروه، إذ هي من أمارات الكفر والشرك وعدم الإطاعة والانقياد بأوامر الله ونواهيه مع أنه ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على إيمانكم وإسلامكم وإصلاح حالكم، إذ هو ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الموقنين الموحدين المخلصين ﴿رَءُوفٌ﴾ عطوف مشفق ﴿رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ يرحمهم ويرضى عنهم لخروجهم عن ظلمة الكفر بنور الإيمان.

وكن في نفسك يا أكمل الرسل على الوجه المذكور.

فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ وأعرضوا وانصرفوا عنك وعن الإيمان بك وبدينك وكتابك ﴿فَقُلْ﴾ في نفسك ملتجئاً إلى ربك: ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ الرقيب علي يكفيني مؤنة خصومتهم عني إذ ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ يُرجع إليه في الوقائع ويلجأ نحوه في الخطوب ﴿إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ﴾ لا على غيره، إذ لا غيره حق في الوجود ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿وَ﴾ كيف لا أتوكل عليه وأرجع إليه إذ ﴿هُوَ﴾ بذاته ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ أي مربيه والمستوي عليه بالاستقلال والإحاطة والاستيلاء التام، إذ لا شيء في الوجود سواه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب المشمر لسلوك طريق الفناء كي تصل إلى فضاء البقاء، شكّر الله سعيك، وهداك إلى غاية مبتغاك: أن تقتفي في تشمرك هذا أثر من نبهك عليها وهداك إليها، وهو الذي اختاره الله واصطفاه من بين خليقته لتكميل بريته، وأظهره على صورته، وخلّقه بجميع أخلاقه، لذلك اتخذه حبيباً، وجعله على سائر الأنبياء إماماً ونقيباً.

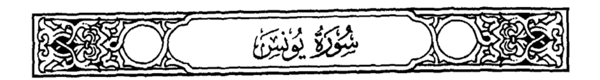
وتشبثْ بأذيال لطفه فعلاً وقولاً وشيمة، صارفاً عنان عزمك إلى سرائر جميع ما جاء به من عند ربه لإرشاد عباد الله، وما سمح به من تلقاء نفسه صلوات الله عليه وسلامه من الرموز والإشارات التي استنبطها من كلامه وفاضت عليه بوحي الله وإلهامه لصفاية استعداده الذي صار به مرآةً لتجليات

الحق وشؤونه وتطوراته، وخليفة الله في أرضه وسمائه؛ وما التقط من كلماته وإشاراته الأولياء الوارثون منه، المقتفون أثره قدس الله أرواحهم، وما ورد عليهم من تفاوت طبقاتهم في طريق التوحيد من المواجيد والملهمات الغيبية، المنتشئة من النفحات الإلهية والنفسات الرحمانية، الناشئة من التجليات الجمالية والجلالية، المتفرعة على الشؤون والتطورات الكمالية.

وبالجملة لا بد لك أن تفرغ همتك عما سوى الحق مطلقاً، ولا يتيسر لك هذا إلا بمتابعة المحققين بمقام الكشف والشهود، الواصلين إلى مقام المراقبة والمشاهدة والاستفادة منهم ومن ملتقطاتهم وارداتهم حتى يمكن لك التمكن في مكمن الفناء، والتقرب في مقر البقاء.

وحينئذٍ يصح لك أن تقول بلسان حالك ومقالك: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

جعلنا الله من عباده المفوضين المتوكلين الذي يتخذون الله وقاية ووكيلاً ويجدونه ولياً وحسيباً.



بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة يونس عليه السلام

لا يخفى على المنجذبين نحو التوحيد الإلهي من طريق السلوك والمجاهدة ورفض الشواغل وقطع العلائق ونفي الخواطر والوساوس وإسقاط الأوهام والخيالات المستندة إلى الهويات الجزئية المستلزمة للغيرية والامتياز والاستقلال في الوجود، وما يترتب عليه من الآثار والإضافات: أن السلوك من هذا الطريق لا يتم إلا بالاستمداد والاسترشاد من أهل الخبرة والاستبصار وأرباب الكشف والاعتبار، الواصلين إلى مقر التوحيد من جادة المجاهدة ومحجة الفناء، المقتضية للموت الإرادي عن لوازم الهوية البشرية مطلقاً.

وبالجملة إن الكاملين المكملين العارفين بأمارات الطريق وموانعه وإن قضية الحكمة وأمر المناسبة الإلهية الواقعة بين الأوصاف الذاتية تقتضي أن يكون بين المفيد والمستفيد علاقة وارتباط، إذ لا يمكن الاستفادة من أي شخص كان، لا بد من المناسبة والعلاقة المصححة للإفادة والاستفادة في هذا الطريق الآمن، جذبه الحق بنفسه وأخلع عنه جلباب ناسوته مطلقاً، وصار هو هو، بل ارتفعت الهوية واضمحلت الموضوعية والمحمولية أيضاً عن بصر شهوده ونظر بصيرته، فهم تحت قباب العز ولواء العظمة والكبرياء

وسرادقات المجد والبهاء، وليس عندهم سلوك وسالك ومسلك وقصد، ومقصودهم لا يصرفون سوى الحق ولا يعرفهم أيضاً سوى الحق، كما نطق به الحديث القدسي، لذلك ما يرى هؤلاء إلا به وفيه.

وأما أهل الطلب والإرادة المندرجون في سلوك طريق الفناء، المتعطشون بزلال التوحيد والبقاء، فلا بد لهم أن يتشبثوا ويتوسلوا بذيل من أيده الحق لتكميل العباد وإرشادهم إلى مبدئهم ومعادهم وهم الأنبياء الذين جبلوا على النفوس القدسية المطهرة عن الكدورات الأنسية والعلائق البشرية العائقة عن الفناء في هوية الحق، ثم الأولياء الوارثون منهم، الواصلون بمتابعتهم إلى مرتبة التوحيد والعرفان التي هي الفناء في ذاته.

والمحجوبون المجبولون على الغفلة المنهمكون في الغي والضلال يتعجبون عن إرشاد الأنبياء والأولياء عبادَ الله إلى فضاء توحيده، وينكرون لياقتهم للنبوة والرسالة، إنما هو لجهلهم بدقائق المناسبات ورقائق الارتباطات الواقعة بين الحق والإنسان الكامل، ويقيسون أحوال الأنبياء والأولياء إلى أحوال آحاد الناس، ولم يتفطنوا أن أفضل البشر أفضل من أفضل الملائكة لتحققهم في مرتبة الخلافة والنيابة الإلهية بجمعيتهم دونهم لعدم جمعيتهم.

لذلك رد الله سبحانه على هؤلاء الجهلة بما هم عليه من التعجب والإنكار، ووبخهم بما وبخهم؛ لينبه المؤمنين[1] على ما هو الحق، فقال متيمناً باسمه العظيم ومخاطباً على[2] رسوله الكريم:

(١) في المخطوط: (لينبه بالمؤمنين).

(٢) هكذا استعمال المخطوط لحروف الجر.

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ....

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ الذي ظهر على ما ظهر بمقتضى أوصافه وأسمائه الكامنة في وحدة ذاته فيتراءى متكثرة بكثرة أسمائه وصفاته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ على جميع مظاهره بالإمداد الدائم المتجدد وحسب تجدد تجلياته الذاتية الحبية ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ على خلاصة مظاهره وزبدة مكوناته التي هي الإنسان الجامع لجميع مراتب المظاهر بالنبوة العامة والولاية التامة الشاملة لكِلتا مرتبتي[1] الأول والآخر، والظاهر والباطن، في المبدأ والمعاد باعتبار النشأتين.

﴿ الٓر ﴾ أيها الإنسان اللبيب الرشيد اللائق للرسالة العامة والرئاسة الكلية الكاملة الشاملة على كافة البرايا ﴿ تِلْكَ ﴾ الآيات المنزلة في هذه السورة ﴿ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ ﴾ أي بعض آيات الكتاب الإلهي، الذي هو حضرة علمه ولوح قضائه، ناطقة بالصدق والصواب على مقتضى الحكمة المتقنة الإلهية، نازلة من عنده لتصديقك[2] وتأييدك يا أكمل الرسل في تبشيراتك وإنذاراتك ونبوتك ورسالتك وإرشادك لأهل الغي والضلال.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ الناسين بطلان هوياتهم ﴿عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾ ألهمنا من محض فضلنا وجودنا ﴿ إِلَىٰ رَجُلٍ ﴾ ناشئ ﴿ مِّنْهُمْ ﴾ وظهر من جنسهم وبني نوعهم ﴿ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾ المنهمكين في الغي والضلال بمقتضى أهوية هوياتهم الباطلة وماهياتهم العاطلة تعجباً ناشئاً عن محض الغفلة والنسيان

(١) في المخطوط (لكلا مرتبتي).

(٢) في المخطوط (لقصدك).

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ ....

والإعراض عن الحق والانحراف عن طريق التوحيد وجادة الإسلام ﴿وَبَشِّرِ﴾ منهم أهل المحبة والولاء يعني ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وأيقنوا برسالتك وإرشادك بوحدة ذات الحق واستقلاله في الوجود، وما يترفع عليه من الأسماء والصفات والآثار المترتبة عليها والشؤون المتجددة بها ﴿أَنَّ لَهُمۡ﴾ أي بأن لهم ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ أي إقدام صادق وقدم راسخ ثابت في جادة التوحيد وإرادة خالصة، وصاروا ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ من السابقين المقربين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثم لما ظهر أمر الرسالة وعلا قدره وشاع دينه وكثر أتباعه ﴿قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ المصرون على الشرك والفساد من خبث طينتهم وشدة بغضهم وشكيمتهم بعدما أبصروا منه خوارق عجزوا عنها، سيما القرآن الكامل في الإعجاز البالغ أعلى مراتب البلاغة: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المدعي للنبوة والرسالة

﴿لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾ ظاهر متفرد في فن السحر، وحيد في عصره فيه، ومن قرأ السحر أراد به القرآن المعجز لجمهور البلغاء مع توفر دواعيهم في معارضته، وصاروا من عجزهم بحيث لم يقدروا على إتيان أقصر آية منه.

وكيف يعارضون مع رسوله والكتاب المنزل من عنده سبحانه.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أيها المؤمنون ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي قدر ببسط عكوس أسمائه ومد أظلال أوصافه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات التي هي الأعيان الثابتات ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ أي عالم الطبيعة القابلة للانعكاس منها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ....

أي ستة جهات إذ يتوهم الامتداد والأبعاد والأقطار فيها ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ بلا توهم التراخي والزمان والمهلة على ما يقتضيه لفظة: ثم، بل: بلا أين وكيف وكم ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ المعروش المبسوط من انعكاس أسمائه وأوصافه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي الحوادث الكائنة بالاستقلال ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ من المظاهر والمصنوعات ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ وإمضاء مشيئته وإنفاذ قضائه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الموصوف المتفرد المتوحد في ذاته بالألوهية، المستقل في آثاره وتدبيراته بالربوبية ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي مربيكم وموجدكم ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾ حق عبادته حتى تعرفوه حق معرفته ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ وتتفكرون وحدة ذاته وعظمة أسمائه وصفاته أيها العقلاء المجبولون على التفكر والتذكر في آلاء الله ونعمائه؟.

وكيف لا تتفكرون آلاءه إذ؟

﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، إذ لا غير معه سبحانه في الوجود ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ كما وعدكم بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ [١٠-يونس٢٣] ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:٢٥] ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [٢١-الأنبياء٣٥] إلى غير ذلك من الآيات ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي لا يخلف ميعاده أصلاً ﴿حَقًّا﴾ ثابتاً لازماً بلا تغيير وتبديل وكيف لا يكون وعده حقاً، إذ هو قادر على جميع المقدورات والمرادات، ومن كمال قدرته ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ﴾

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ ....

ويظهره من العدم إظهاراً إبداعياً بلا سبق مادة ومدة، ثم يعدمه إظهاراً لقدرته أيضاً ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ في النشأة الأخرى لإظهار أسرار تكليفاته التي كلف بها عباده في النشأة الأولى ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيده وصدقوا رسله ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المأمورة من عنده بألسنة كتبه ورسله ﴿بِٱلْقِسْطِ ۚ﴾ والعدل القويم، وتفضل على من تفضل عنايته منه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله وأشركوا له شيئاً من مظاهره ﴿لَهُمْ﴾ في يوم العرض والجزاء بعدما يحاسبوا ﴿شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بدل ما يتلذذون بالأشربة المحرمة في النشأة الأولى ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ بالله ويكذبون رسله عناداً وإصراراً.

وكيف يكفرون بالله أولئك الحمقى العميى، الهالكون في تيه الغفلة والضلال وظلمة الجهل وسوء الفعال.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ ليكون دليلاً على كمال ظهوره وإشراقه وجلائه وانجلائه ﴿وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ منيراً في ظلمات الليل ليكون دليلاً على إنارته وإضاءته سبحانه في مشكاة التعينات وظلمات الهويات ﴿وَقَدَّرَهُۥ﴾ أي للقمر ﴿مَنَازِلَ﴾ في السموات تسهيلاً لكم في أموركم ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾ التي تحتاجون إليها في معاملاتكم وتجاراتكم وحرثكم، كما قدر منازل نور النبوة والولاية في مشكاة الأنبياء والأولياء الوارثين منهم

مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ ......

لتقتبسوا أنوار الإيمان المزيحة لظلم الكفر والعصيان من مصابيح أولئك الأمناء الكرام، وتتوسلوا بهم إلى أن تستضيئوا بضياء الشمس الحقيقي التي لا أفول لها أصلاً. ثم قال سبحانه ترغيباً لعباده وتنبيهاً لهم على أصل فطرتهم: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي ما أظهر وأوجد سبحانه ما أظهر في عالم الغيب والشهادة حسب أسمائه وأوصافه إلا بالحق الثابت الصريح بلا احتياج إلى الدلائل والشواهد، إذ لا شيء أظهر من ذاته سبحانه حتى يجعل دليلاً عليه وإنما ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ المنبهة عليها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ يتحققون بمرتبة اليقين العلمي ليترقوا منها إلى اليقين العيني والحقي وأما المحجوبون فهم من عداد البهائم والأنعام، لا يرجى منهم الفلاح لخباثة طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ﴾ وإيلاجه في النهار ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾ وإيلاجه في الليل ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى﴾ أوضاع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الأمور المقتضية لاختلافهما ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ من المكونات الكائنة فيها على مقتضى تربية العلويات وتدبيراتها ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دلائل واضحات وشواهد لائحات دالة على قدرة القادر الحكيم المتقن في أمره وفعله ﴿لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ عن قهر الله ويلتجئون إليه سبحانه عن غضبه وسخطه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ ....

ثم قال سبحانه على سبيل التهديد والوعيد: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ لإنكارهم إعادتنا إياهم في يوم الجزاء لنجزيهم وفق ما عملوا ﴿وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ المستعار بلا التفات إلى دار القرار ﴿وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا ﴾ أي أسكنوا ووطنوا نفوسهم بلذاتها وشهواتها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ لقساوة قلوبهم وغباوة فطنتهم ﴿عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ ذاهلون مع وضوحها وظهورها.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البعداء المعزولون عن مقتضى العقل المستفاد من العقل الكل ﴿مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ من الكفر والعصيان ومخالفة الفعل المفاض.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته المستمرة من تعقيب الوعيد بالوعد وبالعكس: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وتوحيده ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ المأمورة من عنده لإصلاح أحوالهم ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم ﴾ إلى فضاء توحيده ﴿بِإِيمَٰنِهِمْۖ ﴾ ويقينهم العلمي ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي جداول المعارف والحقائق المنتشئة من بحر التوحيد من صبغةٍ باليقين العيني والحقي ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ أي هم مخلدون في مستلذاتهم الروحانية.

دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ....

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ ومناجاتهم مع ربهم بعدما انقطعوا عن السلوك والتكميل ﴿سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ﴾ أي اللهم إنا ننزهك تنزيهاً ونقدسك تقديساً عن جميع ما يليق بجناب قدسك ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا﴾ أي ترحيب بعض أرباب الدرجات مع بعض على تفاوت مراتبهم ﴿سَلَٰمٌ﴾ وتسليم لتحققهم بمقام الرضا ومقعد الصدق ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ ﴾ بعد وصولهم إلى غاية مأمولهم ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ ﴾ والمنة والثناء ﴿لِلَّهِ﴾ المنعم المفضل ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ يربيهم بأنواع اللطف والكرم تفضلاً منه سبحانه وامتناناً.

ثم قال سبحانه حثاً لعباده إلى الرجوع والتوجه نحوه:

﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ﴾ حين استعجلوه لغرض من الأغراض ﴿ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ ﴾ أي كاستعجال الخير لهم حين طلبوا أودعوا لأجله ﴿لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ﴾ يعني انقرض مدة حياتهم بحلول أجلهم بدعائهم ولكن أمهلناهم رجاء أن يستغفروا منهم من يستغفر وبالجملة ﴿فَنَذَرُ﴾ ونترك المصرين ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ﴾ ورضوا بالحياة الدنيا واقتصروا عليها وأنكروا يوم الجزاء واللقاء ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ ﴾ المتجاوز عن الحد ﴿ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ يترددون إمهالاً

وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ

لهم وتهويلاً لعذابهم.

﴿وَ﴾ من شدة عمههم وطغيانهم ﴿إِذَا مَسَّ﴾ وعرض ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ أي ما يضره من مرض مؤلم وأمر مفجع مفزع ﴿دَعَانَا﴾ مشتكياً إلينا، باثاً شكواه عندنا، ملقياً ﴿لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ إن لم يقدر على غيره ﴿أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمٗا﴾ متضرعاً متفجعاً مستكشفاً ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ﴾ وعجلنا له مراده تجاوز عنا وعن أمرنا ولم يلتفت إلينا أصلاً، وصار من شدة عمهه وغفلته ﴿مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ﴾ كشف ﴿ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما سمعت ﴿زُيِّنَ﴾ أي حبب وحسن ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المنهمكين في الغي والضلال ﴿مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ من مخالفة أمر الله ومخاصمة رسوله والمؤمنين المتابعين له والإصرار على ما هم عليه من العتو والعناد.

ثم قال سبحانه مهدداً مقسماً:

﴿وَ﴾ الله يا أهل مكة ﴿لَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ﴿ٱلۡقُرُونَ﴾ الماضية ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ﴾ أي حين ظلموا مثل ظلمكم وخرجوا عن إطاعة الله وإقامة حدوده مثل خروجكم ﴿وَ﴾ هم أيضاً أمثالكم قد ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة الدالة على صدقهم، إنما جاءهم ليمتنعوا عما هم عليه من الظلم والفساد

وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ

﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ أي أولئك الأمم ﴿لِيُؤْمِنُوا۟﴾ لهم ويصدقوهم فيما جاؤوا به أمثالكم بل كذبوهم وأصروا لهم على ما هم عليه، بل زادوا عليها عناداً ومكابرة، فأخذناهم بظلمهم وأهلكناهم بإصرارهم بعدما نبهنا عليهم فلم ينتبهوا ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ المصرين على الجرم مع ورود الزواجر والروادع.

﴿ثُمَّ﴾ بعد إهلاكهم واستئصالهم ﴿جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي استخلفناكم فهم خلفائه ﴿فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ مختبرين مبتلين أمثالهم ﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ أتعملون الخير فيجازيكم خيراً، أم تعملون الشر فيجازيكم شراً مثل ما جزيناهم.

﴿وَ﴾ هم كانوا من شدة انهماكهم في الغفلة والضلال ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ﴾ أي مع كونها مبينات لأحوال النشأة الأخرى وأهوال عذابها ونكالها ﴿قَالَ﴾ الكافرون: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ بل ينكرون الحشر والنشر والثواب والعقاب وجميع ما يترتب على النشأة الأخرى فكيف لقاءنا فيها ﴿ٱئْتِ﴾ أيها الداعي من عند ربك ﴿بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ﴾ القرآن إن أردت أن نؤمن لك ﴿أَوْ بَدِّلْهُ ۚ﴾ وغير بعض آياته المشتملة على الإنذارات والتخويفات الشديدة، فإنا لا طاقة لنا بها إنما يقصدون بقولهم هذا استهزاء

قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ....

وسخرية برسول الله واستخفافاً بكتاب الله ﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل في جوابهم: ﴿مَا يَكُونُ ﴾ أي ما يصح ويجوز ﴿لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ﴾ وأحرفه ﴿مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓۖ﴾ على مقتضى أهويتكم الفاسدة ﴿إِنْ أَتَّبِعُ ﴾ أي ما أتبع وانتظر ﴿إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ ﴾ وليس في وسعي وطاقتي سوى الاتباع والانتظار وكيف أتصرف فيه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ﴾ بمجرد استماع قولكم هذا العصيان على نفسي فكيف ﴿إِنْ عَصَيْتُ ﴾ بقصد التبديل والتغير ﴿رَبِّي﴾ استوجبت ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ كما استوجبتم بسوئكم هذا على سبيل الاقتراح والإلحاح.

﴿ قُل ﴾ أيضاً لهم إلزاماً وتبكيتاً: ﴿لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ أي لو تعلق مشيئته غير هذا المتلو ﴿مَا تَلَوْتُهُۥ﴾ أنا وما أوحاه علي وما أجراه على لساني ﴿عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦۖ ﴾ وأعلمكم على لساني ولكن تعلق بمشيئته بهذا فأوحاه وأجراه ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ مدة أربعين سنة ﴿مِّن قَبْلِهِۦٓۚ ﴾ أي قبل وحي القرآن بلا تلاوة وإدراء وإعلام ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ وتستعملون عقولكم في هذا الأمر، ولا تدبرون وتدربون فيه مع أنكم متدربون بأساليب الكلام، متبالغون فيه أقصى الغاية.

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ ونسب إليه ما لم يصدر عنه

أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ....

افتراء ومراء ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ﴾ التي صدرت عنه، ونزلت على رسله وأنبيائه لإصلاح أحوال عباده وإرشادهم مبدأه ومعاده وبالجملة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ المفترون عليه بالأباطيل الزائفة، المكذبون كلامه المنزل من عنده على رسله.

وكيف يفلحون ويفوزون بالفلاح؟.

﴿وَ﴾ هم من شدة ضلالهم﴿يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ المتوحد بذاته المستقل بألوهيته ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لأنهم ليسوا من ذوي القدرة والإرادة بل من جملة الجمادات المعطلة التي لا شعور لها أصلاً ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من كمال غفلتهم وضلالهم ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ الأجسام والتماثيل العاطلة ﴿شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ ينقذوهم من بأس الله وبطشه إن تحقق وقوعه ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل تسفيهاً وتحميقاً: ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ﴾ وتخبرون بقولكم هذا ﴿ٱللَّهَ﴾ العالم بالسرائر والخفايا ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ من الأمور الكائنة لا ﴿فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ من الكوائن فيها مع أنه سبحانه لا يعزب عن حيطة علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ من الأوثان والتماثيل التي لا شعور لها أصلاً، مع أنها من

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ ....

أدون المظاهر وأخس المخلوقات، وبالجملة ما قدروا الله أولئك الحمقى حق قدره، لذلك نسبوا إليه ما هو منزه عنه، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ ﴾ المجبولون على مظهرية الحق، المنعكسون من أظلال أسمائه الحسنى وصفاته العليا ﴿إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ ملتجئة إلى الله، مقتبسة من أنوار تجلياته ﴿فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ أي الأظلال الهالكة باختلاف صور الأسماء المتقابلة والأوصاف المتضادة المتخالفة حسب الشؤون والتجليات المتجددة في الكمالات المترتبة عليها ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ ﴾ يا أكمل الرسل لتسويتهم وتعديلهم في النشأة الأخرى ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بالعدالة والقسط ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ في هذه النشأة بلا تأخير إلى أخرى، لكن الحكمة المتقنة الإلهية تقتضي تأخيرها، ولذلك أخرت أمرهم وحسابهم وعذابهم، لئلا يبطل سر التكاليف والأوامر والنواهي.

﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ بعدما اقترحوا عنه بالآيات ولم تنزل: ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ من الآيات المقترحة مع أنه دعواه أن الله قادر على جميع المقدورات والمرادات لا يخرج عن حيطة قدرته شيء ﴿ فَقُلْ ﴾

إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ....

في جوابهم: بلى إن الله قادر على جميع المقدورات ومن جملة مقترحاتكم، إلا أن في عدم انزالها وانجاحها حكمة غيبية ومصلحة خفية لا يعلمها إلا هو ﴿إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ﴾ كله ﴿لِلَّهِ﴾ وفي حيطة حضرة علمه ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ بتعليق إرادته بمقترحاتكم ﴿إِنِّي مَعَكُم﴾ أيضاً بلا تفاوت بيني وبينكم في عدم الاطلاع على غيبه ﴿مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثم قال سبحانه على سبيل التوبيخ والتقريع للمسرفين:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً﴾ خلاصاً ونجاة ﴿مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾ واضطرتهم إلى الرجوع والتوجه نحونا ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ﴾ أي ما جاؤوا بعد نزول الرحمة إلى المكر والخديعة مع نبينا والطعن ﴿فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل نيابةً عنا: ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لضمائركم ومخايلكم ﴿أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ﴾ وأشد تدبيراً وانتقاماً على مكركم وخداعكم، أعد لكم عذاب مكركم، وأشهد عليكم الملائكة كما قال ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ الموكلون عليكم المراقبون لأحوالكم ﴿يَكْتُبُونَ﴾ في صحائف أعمالكم ﴿مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وتحيلون مع الله ورسوله.

وكيف لا يراقبكم ويحافظ عليكم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ أي يمكنكم على السير والسياحة ﴿فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾

حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ....

ليجرب إخلاصكم وتقواكم ورسوخكم في الإيمان ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي السفن ﴿وَجَرَيْنَ﴾ الجواري ﴿بِهِم﴾ أي بمن في السفن ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ معتدلة موافقة لسيرها ﴿وَفَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وبجريها على مرادهم ﴿جَآءَتْهَا﴾ بغتة ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب مزلزلة لها ﴿وَ﴾ من شدة هبوبها وتحريكها البحر ﴿جَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ﴾ مثل الجبال الرواسي ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي جانب وجهة ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ من غاية ارتفاع الأمواج المتوالية المتتالية ﴿أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ﴾ أسباب الإهلاك فتقع عليهم وتستأصلهم وحينئذٍ ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ ملتجئين متضرعين ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي مقتصرين الإطاعة والانقياد له إذ لا تعارضه حينئذ الأهواء الفاسدة والآراء الباطلة قائلين: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ يا ربنا بفضلك وجودك ﴿مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ البلية المحيطة بنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ لنعمك، المتذكرين دائماً لجودك وكرمك.

﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ إجابة لدعائهم وكشفنا لضرهم وبلائهم ﴿إِذَا هُمْ﴾ يفاجئون إلى الكفران ويسارعون إلى الطغيان حيث ﴿يَبْغُونَ﴾ ويطلبون الفساد ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعدة للعبادة والصلاح ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ﴾ أي بلا رخصة شرعية بل عن بغي وعناد، التفت سبحانه من الخطاب إلى الغيبة تنبيهاً على

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ....

بعدهم وطردهم عن ساحة عز الحضور، لذلك أبعدهم بالغيبة بعدما قربهم بالخطاب.

ثم قال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الناسين نعمة الإنجاء والخلاص عن ورطة الهلاك ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ﴾ وكفرانكم الذي فاجأتم به بدل الشكر والإطاعة في النشأة الأولى وبالٌ عائد ﴿عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾ في النشأة الأخرى إذ ﴿مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي التمتع بلذاتها وشهواتها والركون إلى مزخرفاتها قليل حقير ونزر يسير لا ينبغي للعاقل أن يترك الباقي لأجل الفاني واللذة الروحانية الدائمة المستمرة للذة الجسمانية المتناهية القصيرة ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا، إذ لا غير معنا ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ ومصيركم رجوع الأظلال والأضواء والعكوس إلى الشمس ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾ أي نخبركم ونعمل بكم ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي بمقتضى عملكم، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

وبالجملة ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي شأنها وحالها العجيبة التي كنتم تغترون بها وتميلون إليها وتفتخرون بمزخرفاتها ومموهاتها وأمتعتها وأبنيتها ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ ﴾ واشتبك ﴿ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي ترابها المنبتة للنبات وحصل من اختلاطها ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ من

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾ ....

أنواع البقول والحشائش ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا﴾ أي شرعت لتربيتها ﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ أي تزينت بأنواع التزيينات ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ﴾ متمكنون ﴿عَلَيۡهَآ﴾ وعلى جمعها وحصادها وأخذ غلاتها ﴿أَتَىٰهَآ﴾ بغتة ﴿أَمۡرُنَا﴾ بإهلاكها واستئصالها ﴿لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا﴾ قبل صلاحها بل مقطوعاً من أصلها إلى حيث ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ ولم تنبت فيها منها شيء ﴿بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ﴾ ونمثل ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ ويستعملون عقولهم بإدراك الممثل والممثل به، وبعد تعقلهم وتفكرهم، يتنبهون أن الدنيا وحياتها ما هي إلا سرابٌ غدارٌ غرارٌ، وبرق بلا قرار، من اغتر بغرورها هلك عطشى الأكباد، ومن استنار بنورها، ضل عن طريق الرشاد.

﴿وَٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ جميع عباده إذ أصل فطرتهم وجبلتهم على التوحيد ودين الإسلام ﴿إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي مقر التوحيد الذي من تمكن فيه سَلِم من جميع الآثام، وسلّم أمره إلى العليم العلام القدوس السلام ﴿وَ﴾ بعد دعوته جميع الأنام ﴿يَهۡدِي﴾ ويوفق ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من خلص عباده ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٥﴾﴾ موصلٍ إلى توحيده، وهو دين الإسلام المنزل على خير الآنام تتميماً لحكمة التكاليف المنزلة من عنده، وتمييزاً بين أهل الضلال

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ ....

والهداية من عباده، وأصحاب الجنة والنار بطبقاتهم.

لذلك قال سبحانه:

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ في هذه النشأة مع الله ورسله وامتثلوا جميع ما جاء من عنده في كتبه تعبيراً وانقياداً إيماناً واحتساباً ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي المثوبة العظمى والدرجة العلى بدل إحسانهم في الدنيا عدلاً من الله ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ عليها وهي رضوان الله منهم غاية وتفضلاً، ﴿وَ﴾ صاروا من صفاء عقائدهم وإحسانهم مع الله ﴿لَا يَرْهَقُ﴾ ويلحق ﴿وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ﴾ غبار الغفلة والندامة ﴿وَلَا ذِلَّةٌ﴾ صغار وهوان من التواني والتكاسل في احتمال التكاليف الإلهية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون عند الله ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ المعدة لأرباب الفضل والعناية ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ جزاءً بما كانوا يعملون من الخيرات والمبرات.

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ من طغيان نفوسهم ولم يلتفتوا إلى ما أمرهم الحق وهداهم إليه رسله يجيزون على مقتضى ما اقترفوا ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تغطاهم غبار المذلة والخذلان بدل ما اكتسبوا من البغي والعدوان ﴿مَّا لَهُم﴾ حينئذ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي من عذابه وعقابه

مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ....

﴿مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ حافظ يحفظهم أو شفيع يشفع لهم ويخفف عنهم، بل صاروا من ظلمة كفرهم وفسقهم ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ﴾ سترت وأحيطت ﴿وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ في غاية الظلمة لعدم استنارتهم بنور الإيمان والعمل الصالح ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء الهالكون في تيه الغي والضلال ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ المعدة لأهل الغفلة والأهواء ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ جزاء بما كانوا يكسبون من الكفر والمعاصي.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ﴾ أي كلا الفريقين ﴿جَمِيعٗا﴾ في يوم العرض والجزاء ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ﴾ بنا غيرنا من التماثيل والأصنام: ألزموا ﴿مَكَانَكُمۡ﴾ واستقروا عليها ﴿أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ﴾ حتى تسألوا[1] عما أجرمتم ﴿فَزَيَّلۡنَا﴾ فرّقنا وفصّلنا ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي رفعنا رابطة العابدية والمعبودية التي بها وَصْلَتُهم وارتباطُهم ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم﴾ مخاطبين إياه مشافهة برءة لنفوسهم: ﴿مَّا كُنتُمۡ﴾ أيها الضالون المنهمكون في الغي والضلال ﴿إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ بعلمنا وأمرنا، إذ لسنا من ذوي العلم وأولي الأمر، بل تعبدون أنتم أهواءكم وشياطينكم الكامنة في نفوسكم، قد افتريتم علينا ونسبتم بنا عناداً ومكابرة.

(١) في المخطوط (حتى تسألون).

فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ....

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ اليوم وفيما مضى ﴿شَهِيدَۢا﴾ على ما جرى ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ هو أعلم بعلمه القديم ﴿إِن كُنَّا﴾ أي إنا كنا ﴿عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ﴾ أي توجهكم ورجوعكم إلينا ﴿لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ إذ لم نخلق من ذوي الشعور والإدراك في نشأة الاختبار حتى نضلكم ونستعبدكم. وبالجملة:

﴿هُنَالِكَ﴾ أي حين أُحضروا للسؤال والجواب والجزاء والحساب ﴿ تَبۡلُواْ ﴾ أي تختبر وتتفطن ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ﴾ جزاء ﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾ وكسبت فيما سبقت ﴿وَ﴾ بعد تفطنهم وتنبههم ﴿رُدُّوٓاْ﴾ جميعاً ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المتوحد المتفرد للجزاء إذ هو ﴿مَوۡلَىٰهُمُ﴾ ومولى أمورهم ﴿ٱلۡحَقِّۖ﴾ وما سواه من الآلهة الكاذبة الباطلة ومع بطلانها ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم﴾ أي غاب عنهم وضاع عنهم ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ ظلماً وزوراً، وسموهم آلهة وشفعاء، ولم يبق إلا الله الواحد القهار، ولو كوشفوا بوحدة الحق في جميع الأحيان والأحياز لتحققوا بتوحيده دائماً بلا توقف إلى يوم القيامة، إلا أنهم لانهماكهم في الغفلة والضلال لم ينتبهوا في النشأة الأولى.

﴿ قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل لمن أنكر توحيد الحق واستقلاله في الآثار والتدبيرات الواقعة في الأقطار إلزاماً لهم وتبكيتاً: ﴿مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بإمطار الأمطار وتصعيد البخار ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ بالإنبات والإخراج ﴿أَمَّن يَمۡلِكُ﴾

ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ

ويستطيع أن يخلق ﴿ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ اللتين هما من أعظم أسباب حفظكم وحضانتكم ﴿وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾ الحيوان السوي ﴿مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ أي النطفة ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ أي النطفة الجامدة من الحيوان ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ﴾ في عالم الأسباب والمسببات ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ اضطراراً لغاية ظهوره ووضوحه لا يمكنهم أن يكابروا: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ المدبر لجميع الأمور الكائنة في الآفاق والأنفس، إذ من غاية ظهوره لا يعاندون ولا يكابرون ﴿فَقُلۡ﴾ لهم بعدما اعترفوا بالله المدبر لجميع الكوائن والفواسد توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ وتحذرون من بطشه وانتقامه، تشركون له ما لا يسمع ولا يضر ولا يغني من الحق شيئاً.

﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ الذي اعترفتم به هو ﴿ٱللَّهُ﴾ المتوحد المستحق للألوهية والمعبودية إذ هو ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي مربيكم ومدبر أمركم لأنه ﴿ٱلۡحَقُّۖ﴾ الثابت الحقيق بالحقية ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ﴾ وحدة ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مما اتخذتم آلهة ظلماً وزوراً ﴿إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ الباطل ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي فكيف تصرفون وترجعون إلى غيره من الأظلال الهالكة وتنسبونها إلى الألوهية والربوبية.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كما ثبت الربوبية والألوهية للحق سبحانه ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي ثبتت وتمت صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾

أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ....

أي خرجوا من عبادة الله ظلماً وعدواناً ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي لا يوقنون بالله ولا يصلون إلى مرتبة التوحيد أصلاً لا علماً ولا عيناً.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتبكيتاً: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم﴾ أي في وسعهم وقدرتهم ﴿مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ أي يوجده ثم يعدمه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ﴾ كما هو شأن الإله المنفرد بالألوهية ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي كيف تشكون وتصرفون عن جادة التوحيد بالميل إلى هؤلاء التماثيل الزائفة العاطلة المعطلة.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضاً تبكيتاً وإلزاماً ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى﴾ طريق ﴿ٱلْحَقِّ ۚ﴾ وصراط مستقيم موصل إلى توحيده فإن بهتوا ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ﴾ وطريق توحيده من يشاء من عباده ويوصله إلى مرتبة حق اليقين ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي اليقين الحقي ﴿أَحَقُّ﴾ أي أليق وأحرى ﴿أَن يُتَّبَعَ﴾ أي يطاع وينقاد له ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ﴾ بنفسه إلى شيء أصلاً ﴿إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ﴾ فاهتدى إن كان من أهل الاستهداء كبعض آلهتكم مثل عزير وعيسى ﴿فَمَا﴾ عرض ولحق ﴿لَكُمْ﴾ أيها العقلاء المعزولون عن مقتضى العقل ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ بألوهيتهم وشركتهم مع أن بديهة العقل يأبى عن ذلك.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ﴾ أي أكثر المشركين في إشراك هؤلاء المنحطين عن درجة الاعتبار مع الله المنزه عن الشريك مطلقاً ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وتخميناً ناشئاً من تخيلات فاسدة وتوهمات كاسدة من إنشاء الآثار إلى ظواهر الأسباب مع الغفلة عن المسبب الموجد لها و ﴿إِنَّ الظَّنَّ﴾ والتخمين الذي تشبثوا وتمسكوا به ﴿لَا يُغْنِي﴾ ولا يفيد ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ الصريح الذي هو مناط الإيمان والاعتقاد ﴿شَيْئًا﴾ من الإغناء ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلهم ﴿عَلِيمٌ﴾ خبير بصير ﴿بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ على مقتضى ظنونهم وخيالاتهم وأوهامهم، فيجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

وبعدما نبه سبحانه على بطلان اعتقاداتهم وظنونهم وجهالاتهم، أراد أن ينبه أن مستند أهل الإيمان الذي هو القرآن الموضح لهم طريق التوحيد والعرفان ليس كذلك فقال:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ﴾ المنزل على خير الأنام، المبين لهم قواعد دين الإسلام ﴿أَن يُفْتَرَىٰ﴾ ويخيل أنه صدر ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ العليم الحكيم، وكيف يصدر هذا من غير الله، إذ هو في أعلى مراتب البلاغة ونهاية درجات الإعجاز لصدوره عن الحكمة المتقنة الإلهية التي كلت الأفهام دونها وعجزت المدارك والآلات عن دركها فلا يتوهم صدوره عن غير الله أصلاً ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطابقاً كما نزل من عنده في الكتب السالفة

وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ....

بل هو أعلى حكمة، وأتم به فائدة منها ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الذي من علمه[١] ولوح قضائه وبالجملة ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنه نازل ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ ليس في وسع بشر أن يأتي بمثله.

أيشكون نزوله على رسول الله ﷺ ؟

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ واخترعه من عنده ونسبه إلى الله ترويجاً وتعظيماً؟﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل بعدما شككتم أنه من عند الله بل جزمتم بأنه من عند غيره ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ قصيرة ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ في الفصاحة ورعاية المقتضيات[٢] والحكم والمطابقات ووجوه الدلالات والتمثيلات والتشبيهات والمجازات والكنايات ﴿وَ﴾ إن عجزتم أنتم ﴿ٱدْعُوا۟﴾ واستظهروا ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم﴾ واستوثقتم به ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ في دعواكم أنه من كلام البشر، مفترى على الله.

ثم لما أفحموا على الإتيان وعجزوا عن المعارضة ومع ذلك لم ينصفوا أو لم يقروا بأنه معجز ليس من كلام البشر ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟﴾ بادروا إلى الرد والتكذيب ﴿بِمَا﴾ أي بشيء ﴿لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ ولم يعلموا ويفهموا ما فيه من قرائحهم ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ من معلم وملهم بل كابروا في تكذيبه بلا

---

(١) في المخطوط (الذي حضرة علمه ولوح قضائه).

(٢) في المخطوط (ورضيات المقتضيات).

كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾ ....

سند عقلي ونقلي ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل تكذيبهم هذا ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ أنبياءهم وكتبهم التي جاؤوا به ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ الخارجين عن مقتضى الأوامر المبادرين إلى تكذيب الله وتكذيب كتبه ورسله وما جرى عليهم من المصيبات الهائلة، فانتظر يا أكمل الرسل لهؤلاء المكذبين المكابرين أمثالها.

﴿وَمِنۡهُم﴾ أي من المكذبين المكابرين ﴿مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ أي بالقرآن ويصدق بإعجازه في نفسه ويصر على التكذيب عناداً ومكابرة ﴿وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ لغلظ غشاوته وشدة قساوته وشكيمته ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ المكذبين المعاندين الذين يفسدون في الأرض بأنواع الفسادات.

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ وأصروا على تكذيبك مع وضوح دلائل صدقك ﴿فَقُل﴾ تبرياً وتنزيهاً: ﴿لِّي عَمَلِي﴾ أنا أجزى بما أعمل ﴿وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ﴾ تجزون أنتم أيضاً بما تعملون ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ﴾ منكرون له ﴿وَأَنَا۠﴾ أيضاً ﴿بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ بأضعاف براءتكم فانتظروا بجزاء أعمالكم، وأنا أيضاً أنتظر بجزاء عملي حتى يأتي وقت الجزاء.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ....

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ استهزاءً وأنت تلتفت إلى أسماعهم، وتبالغوا فيه ليتعظوا، وهم لا يسمعون ولا يفقهون لأكنة قلوبهم وصمم أسماعهم ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ وتجتهد في إصغائهم وإسماعهم ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ لجهلهم المركوز في جبلتهم ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ ويعاين دلائل نبوتك ويشاهد أماراتها ومع ذلك ينكر بك وبنبوتك ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ وتقدر على أسماعه ﴿وَلَوْ كَانُوا۟﴾ مجبولين بأنهم ﴿لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ لتعامي بصائرهم وأبصارهم وقساوة قلوبهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ﴾ المستوجبين للعذاب والنكال ﴿شَيْـًٔا﴾ مما لحقهم منه ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ الناسين صرف ما أنعم الله لهم إلى ما خلق لأجله ﴿أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ بصرفها إلى خلاف ما حكم الله وأظهره له، لذلك استحقوا المقت والانتقام.

﴿وَ﴾ اذكر لهم يا أكمل الرسل ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي أهواله المتطاولة وشدائده المترادفة المتتالية إلى حيث يصور عندهم مدة حياتهم في الدنيا ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ فيها ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ لطول ذلك اليوم وشدة أهواله

يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ....

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي وهم يعرف بعضهم بعضاً هذا في أول النشر، ثم يشتد عليهم الأمر ويرتفع التعارف والالتفات ويصير كل منهم رهينة ما كسبت وبالجملة ﴿ قَدْ خَسِرَ﴾ وخاب خيبة عظيمة ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة وأصروا على ما هم عليه من اقتراف المعاصي، ولم يلتفتوا إلى الأنبياء والذي جاؤوا به من عند الله لإصلاح أحوالهم في مبدئهم ومعادهم ﴿وَمَا كَانُوا۟﴾ أيضاً ﴿مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ بطريق الصلاح والصواب من تلقاء نفوسهم بلا إرشاد مرشد.

﴿وَ﴾ لقصورهم عن الرشد والهداية بلا مرشد مهدي ﴿إِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ بالهداية والإرشاد والسلوك في سبيل الصواب والسداد ﴿ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل وصولهم إلى فنائك ليسترشدوا منك ويستهدوا من زلال هدايتك ويسترشحوا من رشحات فيضك وجودك ليصفوا من كدر هوياتهم ورين أنانياتهم ﴿ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جميعاً ضالاً وهادياً رجوع الأظلال إلى الشمس ﴿ ثُمَّ﴾ بعد رجوعهم ﴿ ٱللَّهُ﴾ المظهر لهم من كتم العدم لحكمية العبودية والعرفان ﴿شَهِيدٌ﴾ مطلع حاضر بعلمه الحضوري ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ من المعرفة والضلال والإيمان والطغيان، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ ....

﴿وَ﴾ اعلموا أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي فرقةٍ وطائفة ﴿رَّسُولٌ﴾ مرسل من عند الله على مقتضى حكمته وحكمه ليهديهم إلى توحيده ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ والعدل الموضوع من عند الله لإصلاح أحوال عباده ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في يوم الجزاء، ولا ينقصون من أجور أعمالهم، بل يجازون مقدار ما يقترفون من المعاصي.

﴿وَ﴾ من خبث بواطنهم ﴿يَقُولُونَ﴾ لك مستنكراً عليك مستهزئاً معك يا أكمل الرسل: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ الذي ادعيت إتيان العذاب فيه عين وقته ﴿إِن كُنتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ في هذه الدعوة، مصدقين لمن يدعي الصدق فيه.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل: ﴿لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى﴾ ولا أقدر أن أكتسب عليها ولها ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ اللَّهُ﴾ وقدّره في سابق قضائه، ومتى لم أقدر على أحوال نفسي فكيف لي قدرة على استعجال ما في مشيئة الله في غيبه وتعيين وقته، مع أنه لم يأذن لي ولم يوح إلي من عنده سوى أن ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم سواء كانوا محقين أو مبطلين ﴿أَجَلٌ﴾ معين ووقت مقدر مقرر في علم الله ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ الذي عينه الحق لإهلاكهم فيه، لا يمكن التخلف

فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ....

فيه إذاً لا استعجال ولا استئخار ﴿فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ أي لا يمكنهم طلب التأخر لمحة وطرفة، إذ الساعة مصروفة إلى مطلق الزمان ليدفعوا الضر، ولا يمكنهم أيضاً طلب التقديم ليجلبوا النفع، بل الأمر حتم في وقته لا يتجاوز عنه أصلاً، فانتظروا فسيجيء أجلكم ووقتكم وينجز وعدكم.

ومتى كان الأجل مبهماً، ولم يمكن لأحد أن يعين وقته.

﴿قُلْ﴾ لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني أيها المجرمون المستعجلون للعذاب والنكال ﴿إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا﴾ أي حال كونكم بائتين في الليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ حال كونكم مترددين فيها، وعلى أي شأن وكل حال يصعب عليكم أمره، إذ هو يفزعكم ويفجعكم، وإذا كان حالكم عند نزوله وحلوله هذا ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ﴾[1] سبحانه من طوله إذ كله مكروه ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ المستحقون لأنواع العقوبة والعذاب، أتنكرون وتكذبون له وتصرون على ما أنتم عليه من الكفر والشرك إلى وقت حلول العذاب.

﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ﴾ ونزل ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ ولم ينفعكم الإيمان حينئذ إذ قيل لكم حينئذ من وراء سرادقات العز والجلال: ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ﴾ أيها الضالون المكذبون آمنتم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدْ كُنتُم﴾ من شدة إنكاركم وإصراركم ﴿بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ استهزاء وسخرية.

(١) في المخطوط (في الكفر طوله إذ كله مكروه).

ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ بالله بالخروج عن مقتضى أوامره وتكذيب رسله: ﴿ذُوقُوا۟ ﴾ بدل ذوقكم واستلذاذكم بتكذيب الرسل والاستهزاء بهم ﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ المستمر الدائم الذي لا ينقطع أبد الآباد ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ ﴾ به ﴿إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ في النشأة الأولى من الجرائم العظام والمعاصي والآثام.

﴿ ۞ وَ﴾ بعد تبليغك إليهم، مآلُ أمرهم وعاقبة حالهم أنهم ﴿يَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ ويستخبرونك على مقتضى أكنتهم المستكنة في قلوبهم: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي ما أخبرت به من الوعيدات الهائلة، يعني أجدٌّ هو أم هزلٌ وتخويفٌ ﴿قُلْ﴾ مبالغاً في تحقيقه وتقريره: ﴿إِى وَرَبِّىٓ ﴾ أقسم بربي ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ ثابت محقق عندي بوحي الله وإلهامه، لا شبهة في وقوعه وثبوته ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ بأمثال هذه الشبهات الواهية والظنون والجهالات ﴿بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ مسقطين العذاب النازل عليكم.

﴿وَ﴾ كيف تسقطون عذاب الله عنكم لو فرض ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ﴾ وخرجت عن مقتضى أوامر الله ونواهيه ﴿مَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي خزائن ما فيها جميعاً ﴿لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ بل بأضعافه وآلافه لو فرض قبول الفدية منها ﴿وَ﴾ بعد افتدائهم هذا ﴿أَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ أي بهتوا حين عاينوا

وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ....

العذاب وأهوالها وندموا عما افتدوا بمقابلته وآيسوا عنها مطلقاً ﴿وَ﴾ لم ينفعهم الفدية أصلاً بل ﴿قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾ الإلهي ومقتضى حكومته وحكمته ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ في جزاء ظلمهم وكفرهم، وكيف يتصور الظلم من الله، إذ الكل من أظلال أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ وحيطة قدرته وعلمه ﴿مَا﴾ ظهر ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾ ﴿وَ﴾ ما ظهر في ﴿الْأَرْضِ﴾ من الكائنات والفاسدات يعذب به من يشاء عدلاً منه ويرحم على من يشاء فضلاً ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي وعد لعباده من الثواب والعقاب ﴿حَقٌّ﴾ محقق ثابت لا محالة، إذ لا يجري الخلف في وعده أصلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ لقصور فهمهم وقلة تدبرهم في أحكامه المبرمة وحكمته المتقنة ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ حقية وعده، ولا يؤمنون بها جهلاً وعناداً.

وكيف يشكون ويرددون أولئك المصرون المعاندون في سعة قدرته، وتستبعدون منه إنجاز ما وعده. إذ

﴿هُوَ يُحْيِي﴾ أي يظهر ويوجد بالتجلي الحبي أولاً هياكلهم وأشباحهم مع أنهم لم يكونوا شيئاً مذكورا ﴿وَ﴾ بعد إظهارهم وإحيائهم ﴿يُمِيتُ﴾ ويعدم بالتجلي القهري على ما هم عليه من العدم ﴿وَ﴾ كيف لا يقدر على إعادتهم أحياءً للجزاء والحساب بعد إماتتهم، إذ هم بجميع أمورهم وأحوالهم ﴿إِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره، إذ لا غير في الوجود سواه ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ رجوع

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم ....

الأضواء والأظلال إلى الشمس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ الناسين المنشأ الأصلي والوطن الحقيقي ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم﴾ لإيقاظكم وانتباهكم ﴿مَّوۡعِظَةٞ﴾ وتذكير ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي تشفيه[1] لغليلكم وأكنتكم المستكنة في صدوركم ﴿وَهُدٗى﴾ هادياً لأرباب الغاية والوصول إلى مقر التوحيد ﴿وَرَحۡمَةٞ﴾ عامة شاملة ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ من أصحاب البر والتقوى فعليكم أن تتعظوا وتتذكروا بأحكامه وتتأملوا في رموزه وإشاراته وتدربوا في مفاتحه ومطالعه، حتى تنكشفوا منه بقدر وسعكم وطاقتكم ما تنكشفوا، والله الهادي إلى جنابه من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

﴿قُلۡ﴾ يا أكمل الرسل لمن تبعك إرشاداً لهم وتذكيراً: ﴿بِفَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ وحسن قبوله وشرف عزه وحضوره ﴿وَبِرَحۡمَتِهِۦ﴾ الواسعة المتسعة لجميع مظاهره فليتشرفوا ولينكشفوا ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ التلذذ والحضور الحقيقي ﴿فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ بدل ما لم يتلذذوا ولم يفرحوا بالمستلذات الجسمانية الفانية المتناهية ﴿هُوَ﴾ أي فرحكم وسروركم الروحاني ﴿خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨﴾ من أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم إن كنتم مؤقنين مخلصين.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم﴾ أي أخبروني كيف كفرتم في ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾

---

(١) في المخطوط (تشفٍ).

مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ

لمعاشكم وتقوية مزاجكم ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ مسوق إليكم محصل بأسباب سماوي مباح لكم ﴿فَجَعَلْتُم﴾ من تلقاء أنفسكم ﴿مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ أي حرمتم بعضه وحللتم بعضاً آخر بلا ورود شرع ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل إلزاماً وتقريعاً: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ بهذه التفرقة والقسمة ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ بنسبتها إليه.

﴿وَمَا ظَنُّ﴾ أي أيُّ شيء ظن أولئك المفترون ﴿ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ بأنهم لم يجازوا ولم يؤاخذوا ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ على افترائهم على الله ما لم يصدر عنه، بل إنهم مؤاخذون على جرأتهم على الله وافترائهم به، سيما بعد ورود الزواجر والروادع من الآيات الدالة على امتناعهم عنها فلم يمتنعوا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿لَذُو فَضْلٍ﴾ عظيم ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بإنزال الكتب وإرسال الرسل المنبهين على ما هو الأصلح لهم وأليق بحالهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ بجهلهم وخبث باطنهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾ نعمه بل ينكرون ويكفرون بها عناداً ومكابرة.

﴿وَ﴾ كيف ينكرون رسالتك ووحيك من الله وتأييدك من عنده سبحانه إذ ﴿مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ وأمر من ادعاء الرسالة من الله والتشريع من جانبه بلا إذن منه ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾ مدعياً نزوله من عنده بلا وحيه وإنزاله

وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ....

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم أيضاً ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ صالح أو طالح، خير أو شر ﴿إِلَّا كُنَّا﴾ بذاتنا وأوصافنا وأسمائنا ﴿عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ حضراء رقباء، مطلعين على جميع ما جئتم به وقت ﴿إِذْ تُفِيضُونَ﴾ أي تخوضون وتقصدون الشروع ﴿فِيهِ﴾ أو الذب عنه ﴿وَ﴾ كيف لا نطلع عليها ولا يحيط علمنا بها وشهودنا إياها إذ ﴿مَا يَعْزُبُ﴾ أي لا يغيب ويبعد ﴿عَن رَّبِّكَ﴾ ومربيك أيها المظهر الجامع لجميع المراتب الكونية والكيانية والمتخلق بجميع الأخلاق الإلهية ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ كائنة ﴿فِي﴾ أقطار ﴿الْأَرْضِ وَلَا﴾ كائنة ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ وفضائها ﴿وَ﴾ كيف يعزب ويغيب عن حيطة علمه شيءٌ إذ ﴿لَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ المقدار ﴿وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ ظاهر الإبانة والظهور بالنسبة إلى أرباب الولاء، الباذلين أرواحهم في طريق الفناء، المستغرقين في بحر الوحدة، الفانين عن هوياتهم بالمرة.

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾ المنخلعين عن لوازم البشرية بالكلية المنسلخين عن مقتضيات أهوية نفوسهم رأساً ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إذ الخوف والحزن إنما هي من لوازم الطبيعة ومن ارتكاب مقتضياتها.

وبعدما انسلخوا عنها وتجردوا عن لوازمها وفانوا في هوية الحق وصاروا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤ وَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ ....﴾

ما صاروا، لم يبق فيهم مبدأ الخوف والحزن والأمن والسرور، إذ لا يتصف الفاني بأمثال هذه الأضداد، وهم:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بالله في بداية سلوكهم أي تحققوا بمقام اليقين العلمي ﴿وَ﴾ بعد تمكنهم وتقررهم فيه ﴿ كَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ ويحذرون من سطوة سلطنة صفاته الجلالية لانغماسهم بشواغل أهوية الهويات وانهماكهم بعلائق التعينات.

ثم لما استخلصوا منها بالإخلاص والإخبات الصادق ﴿ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ عند الله بالفوز العظيم ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ إذ هم تحققوا بمقام العبودية وتقرروا في مقر التوحيد ووصلوا إلى ما أظهرهم الحق لأجله وهو المعرفة والشهود ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ التامات الناطقة بالكرامة والبشرى ﴿ذَٰلِكَ ﴾ التبشير الشامل للنشأتين ﴿هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾ واللطف الجسيم لأهل العناية من أرباب القبول.

﴿وَ﴾ بعدما تحققت يا أكمل الرسل بولاية الله واتصفت بولائه وفزت بما فزت ﴿لَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ﴾ الباطل بالكفر والإشراك بالله وتكذيب كتابه، ومنه أنزل إليه ولا تغتم بتهديدهم إياك ولا تبال مفاخرتهم وخيلاءهم بالمال والجاه عليك ﴿إِنَّ ٱلۡعِزَّةَ ﴾ المعتبرة العظيمة ﴿ لِلَّهِ ﴾ المتعزز برداء

جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ....

العظمة والجلال، المتوحد بنعوت الكمال والجمال ﴿جَمِيعًاۚ﴾ لا يعتد بعزة هؤلاء الغواة والعصاة، وسيخذلهم الله عن قريب بالقهر والانتقام، وينصرك عليهم بالغلبة والاستيلاء إذ ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالهم الكاذبة الباطلة ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ بنياتهم الفاسدة يجازيهم على مقتضى علمه، وينتقم عنهم وفق خبرته.

قل يا أيها النبي الهادي لمن يدعي ربوبية الأظلال الهالكة وألوهية التماثيل الباطلة تنبيهاً لهم وإيقاظاً عن غفلتهم: كيف تدعون أيها الحمقى شركة المصنوع المفضول مع الصانع القديم الحكيم؟!.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ﴾ أي تنبهوا أيها المسرفون الجاهلون بقدر الله، المتوحد المتفرد بذاته المتجلي في الآفاق بأسمائه وصفاته، مظاهر[1] ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الملائكة ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾ من الثقلين، وهم مع فضلهم وشرفهم وعلو شأنهم لا يستحقون الألوهية والربوبية ﴿وَ﴾ كيف يستحق أولئك الجمادات الساقطة عن درجة الاعتبار لذلك ﴿مَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ﴾ المشركون الذين ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ﴾ في ألوهيته مستحقين للعبادة كعبادته إلا الزور الباطل والزائغ الزائل بل ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ أي ما يتعبون هؤلاء الضالون المشركون ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾

(١) أي لله مظاهرُ.

﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ ....﴾

والتخمين الناشئ من جهلهم وغفلتهم عن سر هوية الحق في المظاهر كلها، لذلك حقَّرُوها في مظهر دون مظهر ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ أي ما هم في ادعائهم وحصرهم هذا إلا كاذبون آفكون إفكاً عظيماً، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

كيف تغفلون عن الله أيها الجاهلون وكيف تشركون معه غيره أيها المحجوبون.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ﴾ بكمال قدرته وحكمته لباساً ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ وتستريحوا من المتاعب ﴿وَ﴾ جعل لكم ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ لتهتدوا إلى مطالبكم في أمور معاشكم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الجعل والتقدير ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على كمال قدرته ومتانة حكمه وحكمته وتوحده في ألوهيته وتفرده في ربوبيته واستقلاله في التصرف بلا مظاهرة أحد ومشاركة ضد وند ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾ سمع تدبر وتدرب واستكشاف تام بعزيمة صادقة صافية عن شوب الغفلة والذهول.

ومن كثافة حجبهم وغشاوة قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم ما قدروا الله حق قدره، لذلك نسبوا إليه ما هو منزه عنه سبحانه حيث

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۖ﴾ وتعالى عما يقول الظالمون علواً

هُوَ ٱلْغَنِيُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ ....

كبيراً، كيف يكون له ولد ﴿هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ بذاته عن التعدد مطلقاً، ليس لغيره وجود أصلاً بل ﴿لَهُۥ﴾ مظاهر ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظهر عليها سبحانه حسب أسمائه الحسنى وصفاته العليا على مقتضى التجلي الحبي اللطفي بلا انصباغ لها بالكون والتحقق بل بالانعكاس ﴿إِنْ عِندَكُم﴾ أي ما عندكم أيها الجاهلون بمعرفة الله وحق قدره ﴿مِّن سُلْطَٰنٍۭ﴾ حجة وبرهان ﴿بِهَٰذَآ﴾ الادعاء الكاذب والقول الباطل بل تتكلمون به افتراء ومراء ﴿أَتَقُولُونَ﴾ وتفترون أيها المفترون ﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ ولا تدركون لياقته لجنابه.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل نيابة عنا للمكذبين المفترين كلاماً ناشئاً عن محض الحكمة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ وينسبون ﴿عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ ولا يفوزون في النشأة الأخرى بمرتبة التوحيد التي هي معراج أهل الكمال، بل يحصل لهم بافترائهم هذا

﴿مَتَٰعٌ﴾ أي تمتع قليل ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من الرئاسة والجاه ﴿ثُمَّ﴾ بعد انقضاء النشأة الأولى ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في النشأة الأخرى ﴿ثُمَّ﴾ بعد تيقنهم وكشفهم فيها ﴿نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ بدل ما يتلذذون في

بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

النشأة الأولى ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ أي بسبب كفرهم وشركهم.

﴿۞ وَٱتْلُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ تذكيراً وتعريضاً ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي قصته مع قومه وقت ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ﴾ حين استعظموا أمره وقصدوا إهلاكه عناداً ومكابرة ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه على مقتضى شفقة النبوة: ﴿إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي شق وعظم ﴿عَلَيْكُم مَّقَامِى﴾ فيكم وحياتي بينكم ﴿وَتَذْكِيرِى﴾ إياكم ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على توحيده واستقلاله في ألوهيته وربوبيته ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره، إذ لا غير معه ولا شيء سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ أي وثقت به وفوضت أمري إليه ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ أي فعليكم أن تجمعوا ﴿أَمْرَكُمْ﴾ وتدابيركم في قتلي وإهلاكي ﴿وَ﴾ مع ذلك ادعوا ﴿شُرَكَآءَكُمْ﴾ مستظهرين لهم في دفعي ﴿ثُمَّ﴾ بعد تدبيركم واستظهاركم بهم أظهروا علي بحيث ﴿لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ﴾ أي لم يبق فيه ﴿عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ سترة تغتمون بها وتحزنون بسببها، بل رتبوا أمركم على ما تقتضيه نفوسكم وترتضيه عقولكم ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ﴾ واصرفوا نحوي ما هيأتم ودبرتم من الأسباب الموجبة لإهلاكي ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ أي لا تمهلوني طرفةً بل امضوا على ما أنتم عليه من قتلي وإهلاكي فإني لا أبالي بكم وبتدابيركم وظهرائكم، إذ الله حسبي وعليه توكلي وبه اعتمادي واعتصامي، اذكر لكم بإذنه وأعظكم بوحيه.

فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾..................

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ وانصرفتم عن تذكيري ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ ﴾ أي ليس بسبب توليكم وإعراضكم سؤالي منكم الجعل حتى يشق عليك إعطاؤه فانصرفتم وأعرضتم بل ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ أي ما أجري وجعلي ﴿ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ ﴾ الذي أمرني به ﴿ وَأُمِرْتُ ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ المسلّمين الأمور كلها إليه، المنقادين لحكمه وقضائه، إذ الكل منه بدأ وإليه يعود.

ومع ذلك النصح والشفقة والتليين التام المنبعث عن محض الحكمة والحجج والبراهين الدالة على صدقه في دعواه.

﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ عناداً ومكابرة وأصروا على تكذيبه عتواً واستكباراً فأخذناهم بالطوفان لانهماكهم في الغي والطغيان ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن﴾ آمن ﴿مَّعَهُ﴾ من الغرق محفوظين ﴿فِي الْفُلْكِ﴾ التي نحتها بيده بوحي الله إياه وتعليمه، وهم قد استهزؤوا معه حين اشتغل بتربيتها ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ أي أصحاب الفلك ﴿خَلَائِفَ﴾ من الهالكين وهم ثمانون مؤمنون بالله مصدقون لرسوله ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ فَانظُرْ﴾ أيها المعتبر الرائي ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴿٧٣﴾﴾ المكذبين لنذيرهم، وإلى أين أدى إنكارهم واستكبارهم، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ....

﴿ثُمَّ﴾ لما ازداد أولئك الخلفاء الناجون، وتشعبوا أمماً وأحزاباً ودار عليهم الأدوار فصاروا منصرفين عن طريق الحق، مائلين عن سبيل الرشاد، ﴿بَعَثْنَا﴾ لإصلاح أحوالهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي بعد نوح ﴿رُسُلًا﴾ منهم كل واحد من الرسل ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحة والمعجزات الساطعة القاطعة المثبتة لدعواهم ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ أي فما تيسر لهم وصح عندهم وثبت لديهم أن يؤمنوا ويصدقوا ﴿بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ﴾ اي قبل بعثة الرسل، بل أصروا على ما هم عليه، واعتادوا له بلا تغيير وتبديل لتركب جهلهم المركوز في جبلتهم وخباثة طينتهم ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ﴾ ونختم بختام الغفلة والنسيان ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ المجاوزين عن حدود الله، الراسخين على التجاوز والعدوان.

﴿ثُمَّ﴾ لما عتوا منهم من عتوا وأخذنا منهم من أخذنا ﴿بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم﴾ أي بعد أولئك الرسل الماضين ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ الذي هو أخوه وظهيره ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ المبالغ في العتو والعناد إلى حيث ادعى الربوبية لنفسه بقوله: أنا ربكم الأعلى ﴿وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ المؤمنين له المعاونين لشأنه ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على استقلالنا في الآثار وتفردنا في الألوهية والربوبية وعلى صدق رسولنا في جميع ما جاء به من عندنا ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الانقياد واستقبلوا بالتكذيب

وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ....

والعناد ﴿وَ﴾ هم في سابق علمنا ﴿كَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ بأعظم الجرائم مستحقين بأشد العذاب، لذلك أظهروا ما في استعداداتهم وقابلياتهم.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الحقيق بالاتباع والانقياد ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ بعدما عارضوا معه وقابلوا بمعجزاته ما قابلوا ﴿قَالُوٓا۟﴾ من فرط عتوهم وعنادهم بدل ما صدقوه وآمنوا له بعد ظهور أمره وشأنه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الذي جاء به هذا الساحر الكذاب ﴿لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ عظيم ظاهر فائق على سحر جميع السحرة.

﴿قَالَ مُوسَىٰٓ﴾ بعدما سمع قولهم هذا يسال عن إيمانهم متحسراً متحزناً على مقتضى شفقة النبوة موبخاً لهم على وجه الفطنة والتذكير: ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الحمقى ﴿لِلْحَقِّ﴾ الصريح الثابت الصحيح ﴿لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ لإصلاح حالكم ليورث في قلوبكم تصديقاً لوحدانية ربكم أنه سحر باطل ﴿أَ﴾ ما تستحيون من الله ولا تنصفون وتقولون: ﴿سِحْرٌ هَٰذَا﴾ ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ ولا يفوز بالخير ﴿ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وهذا خير كله عاجلاً وآجلاً، وفوز بالفلاح والنجاح.

﴿قَالُوٓا۟﴾ على سبيل المكابرة بعدما سمعوا من موسى قوله ونصحه: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ أيها الساحر الكذاب ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾ وتصرفنا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾

وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ ....

وأسلافنا ﴿وَ﴾ اشتهيت أن ﴿تَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ والعظمة ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التي كنا عليها مستقرين ﴿وَ﴾ اذهبا إلى حيث شئتما ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ مصدقين منقادين.

﴿وَ﴾ بعدما أفحموا عنه براهينهما وحججهما، وعجزوا عن معجزاتهما صمموا[1] العزم لمعارضتهما حيث ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ آمراً لأعوانه وأنصاره: ﴿ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ ماهر كامل فيه، فأرسلوا شُرَطاً لجميع أهل السحر فأجمعوا واجتمعوا وجاؤوا على فناء فرعون مجتمعين، ثم عينوا الوقت والموعد، فخرجوا إليه ليعارضوا[2] معهما.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ الميقات والموعد قالوا لموسى تحقيراً له وتهويناً لأمره: ألق ما جئت به من السحر ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ مستعيناً بالله من عنده متوكلاً عليه: ﴿أَلْقُوا۟﴾ أيها المغترون المكذبون ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ ما جاؤوا به من السحر واستحسنوا من فرعون واستأملوا منه الجعل الكثير وجزموا الغلبة ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ بعدما رأى ما ألقوا: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ أيها المفسدون المعاندون ﴿ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لجميع مخايلكم ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ عن قريب، ثم ألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فانقلبوا هنالك صاغرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾

(١) في المخطوط (هموا).

(٢) في المخطوط (لتعارضوا).

لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ............

المصلح لأحوال عباده ﴿لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ منهم لانهماكهم في الإفساد والإسراف، المصرين على العتو والعناد.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ الثابت من عنده ويقرره في مكانه ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ اي بأوامره ونواهيه وآياته ومعجزاته ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ المحرومون عن نور الإيمان والتوحيد ذلك التثبيت والتقرير.

ثم لما ظهر أمر موسى وشاع غلبته وفاق معجزاته على ما جاؤوا به من السحر والشعبذة ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ منهم بعد ظهور صدقه بين أظهرهم ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن﴾ شبان ﴿قَوْمِهِۦ﴾ أي بني إسرائيل وسبب توقفهم بعد الدعوة أنهم ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ﴾ وخطر عظيم ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ﴾ الذين يجتمعون حولهم من القبط ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ﴾ ويصول عليهم ليقتلهم ﴿وَ﴾ كيف لا يخافون أولئك المظلومون ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ المتناهي في العتو والاستكبار ﴿لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ غالب قاهر على جميع من فيها ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ بالاستيلاء والبسطة والكبرياء إلى حيث تفوه من غاية كبره: بـ (أنا ربكم الأعلى).

﴿وَ﴾ بعدما رأى موسى توقف قومه في أمر الإيمان بعد وضوح البرهان ﴿قَالَ مُوسَىٰ﴾ على وجه العظة والتذكر وتعليم التوكل والتفويض الذي هو

يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةٗ لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ بُيُوتٗا وَٱجۡعَلُواْ بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ ....

أقوى شعائر الإيمان منادياً لهم ليقبلوه عن ظهر القلب: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أراد به بني إسرائيل ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ الرقيب الحسيب لعباده ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾ في جميع أموركم وحالاتكم ﴿إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ مسلّمين أموركم إليه، منقادين لحكمه، وما جرى عليكم من قضائه.

ثم لما سمعوا مقالة موسى تأثروا منها وتذكروا

﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المتولي لأمورنا ﴿تَوَكَّلۡنَا رَبَّنَا﴾ يا من ربانا بلطفك وهدانا إلى توحيده ﴿لَا تَجۡعَلۡنَا﴾ بحولك وقوتك ﴿فِتۡنَةٗ﴾ أي محل فتنة ومصيبة ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ الذي قصدوا أن يتسلطوا علينا ويفتنوا بنا.

﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ﴾ التي وسعت كل شيء ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ القاصدين ستر الحق بأباطيلهم الزائغة، الكائدين الماكرين مع من توجه نحوك ورجع إليك.

﴿وَ﴾ بعدما أخلصوا في تضرعهم وتوجههم إلينا ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾ أصالة ﴿وَأَخِيهِ﴾ تبعاً ﴿أَن تَبَوَّءَا﴾ أي خذا مباءة أي مسكناً ومبيتاً ﴿لِقَوۡمِكُمَا بِمِصۡرَ﴾ وأمر لهم أن يبنوا ﴿بُيُوتٗا﴾ فيها ﴿وَ﴾ بعد ما بنيتم بيوتاً ﴿ٱجۡعَلُواْ﴾ أي كل واحد منكما ومنهم ﴿بُيُوتَكُمۡ قِبۡلَةٗ﴾ ومسجداً تتوجهون فيها إلى

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

الله وتتقربون نحوه ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ ﴾ فيها أي أديموا الميل والتوجه نحو الحق مخبتين خاشعين مخلصين ﴿وَ﴾ بعد ما واظبوا على ما أُمروا واستقاموا عليه مخلصين ﴿ بَشِّرِ ﴾ يا موسى الداعي لهم إلى الحق ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ المتوجهين نحوه بالنصرة على الأعداء في الدنيا، والكرامة العظيمة في النشأة الأخرى، والفوز بالوصول إلى فناء المولى.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ ﴾ بعدما تفرس القبول والإجابة للدعاء داعياً على الأعداء: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ﴾ بفضلك وجودك ﴿ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً ﴾ يتزينون بها ﴿وَأَمْوَٰلًا ﴾ يميلون إليها ويفتخرون بها ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ولم يشكروا لنعمك بل يكفروا بها يا ﴿ رَبَّنَا ﴾ وإنما افختروا وباهوا بحطامهم ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ ﴾ ضعفاء المؤمنين المتلونين الذين لم يتمكنوا في مقر اليقين ولم يتوطنوا في موطن التمكين ﴿ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أي امحها واتلفها، لئلا يتمكنوا على تضليل عبادك بها ﴿وَٱشْدُدْ﴾ ختمك وطبعك ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ ﴾ ولا ينكشفوا بالإذعان والقبول ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ المعد لهم لكفرهم وإصرارهم ﴿ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ المؤلم في غاية الإيلام حين رأوا المؤمنين في سرور دائم ولذة مستمرة وجنة نعيم.

قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ....

﴿قَالَ﴾ سبحانه مبشراً لموسى: ﴿قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾ ووقع مناجاتكما في محل القبول ـ ثنّى الضمير لأن هارون يؤمّن حين دعا ـ ﴿فَٱسۡتَقِيمَا﴾ على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجة ولا تفتروا في أمركما هذا، والزما الصبر، إذ الأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ في الاستعجال والاستسراع ﴿سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ الأدب مع الله في إلحاحهم واقتراحاتهم في طلبه الحاجات.

﴿۞ وَ﴾ بعدما تمرنوا بالصبر واستقاموا على ما أُمروا مخبتين فازوا بما ناجوا وطلبوا مؤملين حين ﴿جَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ أي عبرناهم من البحر سالمين، وذلك حين هم فرعون وملأه أن يكبوا على بني إسرائيل ويستأصلوهم بالمرة، فأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ليلاً فأسرى بهم، فأخبروا فخرجوا على الفور فأدركوهم على شاطئ البحر، فأوحينا إلى موسى بضرب العصا فضرب فانفلق وافترق فرقاً فعبروا سالمين، فلما أبصروا انفلاق البحر وعبورهم سالمين ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ فاقتحموا في البحر بلا مبالاة وتأمل ﴿بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾ ظلماً وزوراً، علواً واستكباراً، فاجتمع البحر وعاد على ما كان، فغرقوا ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ﴾ أي فرعون ﴿ٱلۡغَرَقُ﴾ وآيس من حياته وجزم أن لا نجاة له أصلاً ﴿قَالَ﴾ في حالة الاضطرار مصرخاً

ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٔـٰنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدۡ بَوَّأۡنَا

صائحاً باكياً راجياً الخلاص بمجرد الإقرار: ﴿ءَامَنتُ﴾ واعترفت ﴿أَنَّهُۥ﴾ أي بأنه ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ يعبد بالحق ﴿إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ المنقادين لما جاء به رسوله، وحين تفوه بها، هتف هاتفٌ من وراء سرادقات العز والجلال قائلاً:

﴿ءَآلۡـَٔـٰنَ﴾ أيها الطاغي الغاوي الباغي آمنت حين انقرض وقت الإيمان وانقضى زمانه ﴿وَقَدۡ﴾ أخذت على ما ﴿عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ في مدة حياتك ﴿وَكُنتَ﴾ في زمان طغيانك وعصيانك الذي هو زمان الإيمان والعرفان ﴿مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ بأنواع الفسادات لا من المؤمنين.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾ لا ينفعك إيمانك ﴿نُنَجِّيكَ﴾ نخرجك من البحر ﴿بِبَدَنِكَ﴾ بلا روح، ونسقطك على الساحل عرياناً ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ﴾ من المتجبرين المتكبرين ﴿ءَايَةٗۚ﴾ زاجرة وعبرة رادعة عن العتو والعناد، صارفة عن الجور والفساد ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ الناسين عهودنا وميثاقنا الذي عهدنا معهم في لوح قضائنا ﴿عَنۡ ءَايَٰتِنَا﴾ الدالة على أخذنا وانتقامنا ﴿لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ مثلك أيها الطاغي.

﴿وَ﴾ بعدما أهلكنا فرعون وملأه ﴿لَقَدۡ بَوَّأۡنَا﴾ أي مكنّا وأسكنّا

بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ....

﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدۡقٖ﴾ أي مقعد صدق وموضع ثبوت واستقرار وتمكين على ما تقتضيه نفوسهم وترتضيه عقولهم ﴿وَ﴾ بعد تمكينهم وتوطينهم ﴿رَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي أطياب الأغذية والفواكه ولذائذها ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ﴾ في أمر دينهم قبل نزول الكتاب بل هم متفقون مجتمعون على ما بلَّغهم رسولهم وهداهم إليه ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُۚ﴾ وأنزل عليهم الكتاب فاختلفوا فيه وتفرقوا فرقاً وتحزبوا أحزاباً وانحرفوا عن طريق الحق وحرّفوا الكتاب، سيما نعتك وحليتك وأوصافك يا أكمل الرسل ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ ويحكم عليهم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي يفصل بينهم ويميز محقهم من مبطلهم بالإثابة والعقاب.

﴿فَإِن كُنتَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِي شَكّٖ﴾ وريب ﴿مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ في كتابك من قصصهم وأخبارهم ﴿فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ وارجع إليهم لإزالة شكك وحل شبهتك وتفحص عنهم حتى تنكشف لك ويتحقق عندك ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن﴾ عند ﴿رَّبِّكَ﴾ الصريح المطابق للواقع ﴿فَلَا تَكُونَنَّ﴾ فيه ﴿مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ إذ ليس هذا محلاً للشك والارتياب، إذ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه تنزيل

وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ....

من حكيم عليم.

وبعدما سمعت ما سمعت

﴿وَلَا تَكُونَنَّ﴾ البتة ﴿مِنَ﴾ المسرفين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة على كمال قدرته ومتانة علمه وحكمته ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾ الساقطين عن مرتبة الخلافة، النازلين عن درجة أهل المعرفة والتوحيد.

وأمثال هذه الخطابات والعتابات من الله العليم الحكيم لحبيبه الذي ظهر على الخلق العظيم وتمكن على الصراط المستقيم إنما هو حث وترغيب للمؤمنين على ملازمة كتاب الله ومحافظة أوامره ونواهيه، وتثبيت لهم في إيمانهم وتصديقهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ﴾ أي ثبتت وجرت ﴿عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يا أكمل الرسل في سابق علمه ولوح قضائه في كفرهم وشركهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾﴾ بدعوتك وتبليغك إليهم الآيات الرادعة الزاجرة والبراهين الساطعة القاطعة. بل

﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ اقترحوها لم يؤمنوا لشدة شكيمتهم وكثافة غشاوتهم ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ المعد لهم من عند العزيز العليم، فأعرض عنهم يا أكمل الرسل ودعهم وأمرهم، فإنا ننتقم منهم[1].

---

(١) في المخطوط (عنهم).

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ....

﴿فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من القرى التي أُهلكوا بظلمهم ﴿ءَامَنَتْ﴾ حين حلول العذاب عليهم وظهر أماراته كما آمن فرعون حين غشية اليم ﴿فَنَفَعَهَآ﴾ في تلك الحالة ﴿إِيمَٰنُهَآ﴾ ونُجي به عن العذاب ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ حين ظهر عليهم أمارات العذاب ولاح علامات الغضب الإلهي وأخلصوا لله مخبتين خاضعين ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ﴾ الذي يفتضحون به ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ لو لم نكشف ﴿وَ﴾ بعدما كشفنا العذاب عنهم ﴿مَتَّعْنَٰهُمْ﴾ بأنواع التمتع مترفهين ﴿إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ أي حين حلول الأجل.

وذلك أنّه لما بعث يونس إلى نينوى قرية من قرى الموصل، كذبوه واستهزؤوا به، فوعدهم العذاب بعد ثلاث[1] أوأربعين، فلما قرب الموعد خرج من الأفق سحابٌ غليظٌ وغيمٌ أسودٌ، ودخانٌ شديدٌ، فغشي قريتهم، فهابوا هيبة عظيمة.

فطلبوا يونس فلم يجدوه، فأيقنوا صدقه وهموا إلى الإنابة والتضرع، فلبسوا المسوح، وخرجوا إلى الصحراء بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم، وفرقوا بين كل والدة وولدها، وحن بعضها إلى بعض، فصرخوا، وتضرعوا إلى حيث علت الأصوات والضجيج، وأظهروا الندامة، وأخلصوا التوبة، فرحمهم الله وكشف عنهم، وكان يوم عاشوراء، يوم الجمعة.

(١) وعدهم نبيهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام إن لم يؤمنوا، وندما عاينوا أسباب العذاب تضرعوا إلى الله أربعين ليلة، فكشف عنهم العذاب بإذن الله.

وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ....

﴿وَ﴾ لا تستبعد يا أكمل الرسل أمثال هذه الألطاف من الله الغفور الرحيم ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ وتعلق إرادته بالإيمان من على الأرض ﴿لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ﴾ بحيث لم يبق على وجه الأرض كافرٌ أصلا بل يؤمنهم ﴿جَمِيعًا ۚ﴾ مجتمعين بلا اختلاف و تفرقة، لكن قضية الحكمة تقتضي الاختلاف والافتراق والكفر والإيمان والحق والباطل والهداية والضلال، ليظهر سر التكليفات والتحميلات الواردة من الله على ألسنة رسله وسر المجازاة في النشأة الأخرى وحكمة خلق الجنة والنار وجميع الأمور الأخروية ومتى جرت حكمة الله على هذا ﴿أَفَأَنتَ﴾ يا أكمل الرسل من كمال حرصك على تكثير المؤمنين ﴿تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ﴾ وتلجئهم إلى الإيمان ﴿حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ جميعاً، مع أن بعضهم مجبولون على الكفر، ولم يتعلق إرادة الله ومشيئته بإيمانهم.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا كَانَ لِنَفْسٍ﴾ أي ما تيسر ووسع في وسعها وطاقتها ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ بالله باختيارها ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ وتوفيقه وإقداره، فعليك يا أكمل الرسل أن لا تجهد نفسك في إهداء من أراد الله إضلاله؛ لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم ﴿وَ﴾ من حكمته أنه ﴿يَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي الخذلان والحرمان ﴿عَلَى﴾ الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ ....

أي لا يستعملون عقولهم التي هي مناط التكاليف إلى ما خُلق لأجله ولا يتفكرون ويتأملون في الآثار الصادرة من القادر المختار حتى ينكشفوا بتوحيده.

﴿قُلِ﴾ لهم يا أكمل الرسل على مقتضى مرتبة النبوة تهييجاً لهم وتحريكاً على استعدادهم و قابليتهم: ﴿ٱنظُرُواْ﴾ أيها المجبولون على النظر والتأمل ﴿مَاذَا﴾ أي أيّ شيءٍ وذاتٍ ظَهَرَ بحسب أسمائه وصفاته ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي العلويات والسفليات والغيوب والشهادات ﴿وَ﴾ إن كان ﴿مَا تُغۡنِي﴾ وتكفي ﴿ٱلۡأٓيَٰتُ﴾ الدالة على وحدة الذات المتجلي في جميع الكوائن والجهات ﴿وَٱلنُّذُرُ﴾ المبين للآيات المنبهين على مدلولاتها ﴿عَن قَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ أي لم يتعلق إرادة الله بإيمانهم وتوحيدهم وعرفانهم.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ﴾ أي ما ينتظرون أولئك المتمردون[1] على الإيمان ﴿إِلَّا مِثۡلَ﴾ ما وقع على أمثالهم من الخسف والكسف والغرق وغير ذلك من المعايب التي وقعت في ﴿أَيَّامِ﴾ المشركين ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ ومضوا ﴿مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ فإن عارضوا معك بمثل ما عارضت معهم مثل ما سلف من أسلافهم مع أنبيائهم ورسلهم ﴿قُلۡ﴾ لهم تبكيتا وإلزاما ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ لمقتي وهلاكي ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ لكن لمقتكم وهلاككم، فالأمر

---

(١) في المخطوط (المتمردين).

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ....

بيد الله وقبضة قدرته ومشيئته.

﴿ ثُمَّ ﴾ بعد ما أهلكنا الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل وإصرارهم على الكفر والشرك ﴿نُنَجِّي﴾ مما أصابهم ﴿رُسُلَنَا﴾ الذين أرسلناهم إليهم ﴿وَ﴾ ننجي أيضا ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ بنا وصدقوا رسلنا وانقادوا بما جاؤوا به ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل إنجائنا إياهم ﴿ حَقًّا عَلَيْنَا ﴾ تفضلاً منا وامتناناً على عبادنا ﴿نُنجِ ﴾ جميع ﴿الْمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ المنقادين لرسلنا، المتدينين بديننا وعلى ذلك جرت سنتنا.

﴿ قُلْ ﴾ يا أكمل الرسل للمترددين في أمرك ودينك المتمردين عن إطاعتك وانقيادك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ المجبولون على الغفلة والنسيان ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ وريب ﴿مِّن دِينِي﴾ الذي هو أسدُّ الأديان وأصحها وأشملها وأشرف الملل وأكملها، إذ هو مرجع كل الأديان كما هو مبدؤه لابتنائه على توحيد الذات التي اضمحلت دونها جميع الكثرات، ومع ظهور فضله و كماله ووضوح حجته وبرهانه وعلو شأنه، أنتم تشكون فيه فأنا أحق أن أشك فيما أنتم عليه وعبدتم إليه ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ لقصورهم عن المعبودية وعدم استحقاقهم للألوهية والربوبية ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ ﴾ الواحد الأحد الصمد ﴿الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أي أعدمكم ومعبوداتكم بعدما أظهركم

وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ ....

وإياهم من العدم ﴿وَأُمِرْتُ﴾ من عنده ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ الموقنين لتوحيده المنقادين لحكمه.

﴿وَ﴾ أيضا أمرت من عنده ﴿أَنْ أَقِمْ﴾ واستقم ﴿وَجْهَكَ﴾ أي بوجهك الذي هو يلي الحق ﴿لِلدِّينِ﴾ الذي أنزل إليك لإصلاح حالك حال كونك ﴿حَنِيفًا﴾ مائلاً على جميع الأديان الباطلة والآراء الفاسدة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَكُونَنَّ﴾ بعد ما ظهر عليك حقية دينك ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ الذين يدعون الوجود لغير الله ويشركون معه سبحانه و تعالى عناداً ومكابرةً.

﴿وَ﴾ متى عرفت حقيقة الحال وظهر عندك جلية المقال ﴿لَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الواجب وجوده ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾ من الموجودات الباطلة والأظلال الزائلة ﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أيضاً إذ لا أثر لها من ذاتها ولا وجود لها من نفسها ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ وادعيت وجود غير الحق ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ الذين يظلمون على الله بادعاء الوجود والأثر لغيره.

﴿وَ﴾ كيف تدعي و تثبت لغيره وجودا وأثراً ﴿إِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ﴾ الرقيب عليك و يصيبك ﴿بِضُرٍّ﴾ يسوءك و يحزنك ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ ولا يدفع عنك ضرره ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا شيء سواه ولا اله إلا هو ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾

فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ ....

يسرك تفضلاً عليك وامتناناً لك ﴿فَلَا رَآدَّ﴾ ولا دافع ﴿لِفَضْلِهِۦ﴾ عنك ﴿يُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي بالفضل والحسنى ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَ﴾ لا يمنع فضله جرائمهم وعصيانهم إذ ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبهم بعد استغفارهم ورجوعهم ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ عليهم يقبل توبتهم ويتجاوز عن سيئاتهم.

﴿قُلْ﴾ يا من بعث لكافة البرايا وأرسل إليهم بالتوحيد الذاتي الذي ختم به أمر التشريع والإرسال والإنزال بلّغ إليهم ما جئت به من ربك منادياً عليهم ليقبل بقبوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ المكلفون بالعبادة والعرفان ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الصريح ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو الإسلام المبين لشعائر المعرفة والتوحيد ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ بالإسلام إلى التوحيد ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾ ويكتسب الهداية لها ونال ثوابها إليها ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ولم يهتدِ بنور الإسلام ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ويقترف الضلالة لنفسها فعاد وبالها عليها، قل لهم أيضا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ حفيظ كفيل لأموركم ضمين لها، بل ما أنا إلا بشير ونذير أبلغكم ما أرسلت به فلكم الخيار وعليكم الاختيار.

﴿وَٱتَّبِعْ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من ربك وامض عليه وبلغ الناس ﴿وَ﴾ لا تبالي بإعراضهم وتكذيبهم بل ﴿ٱصْبِرْ﴾ على أذاهم وتحمل

حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

مكروهاتهم ولا تفتر عن دعوتك إياهم ﴿حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ﴾ المتولي لأمورك بنصرك وغلبتك عليهم بالقتال وبنسخ دينك جميع الأديان و بنشره في جميع الأقطار ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ إذ هو مطلع على سرائر الأمور وخفاياها، قادرٌ على جميع الانتقام لمن أراد مقتك وأعرض عنك.

رب احكم بالخير و الحسنى ووفقنا على متابعة سيد الورى.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب لتحقيق الحق، العازم على طريق التوحيد والعرفان، المستكشف عن رموز أهل الكشف وأرباب المحبة والولاء، انجح الله آمالك ويسر الله مآلك، ويصونك عما عليك: أن تحافظ على شعائر دين الإسلام الذي هو الحق الصريح المنزل على خير الأنام بالعزيمة الصحيحة الخالصة عن شوب الرياء والسمعة، الصافية على قدر الغفلة والهوى، وتلازم الاستفادة والاسترشاد من كتاب الله وأحاديث رسوله صلوات الله عليه وسلام، وما سمحت به أكابر الصحابة، سيما الحضرة الرضوية المرتضوية وأولاده الكرام سلام الله عليهم وكرم الله وجوههم، والتابعين لهم بإحسان رضوان الله عليهم أجمعين، وما جاد به المشايخ العظام والأماجد الكرام، أنار الله براهينهم، وقدس أسرارهم.

وكن في عزمك هذا متوجهاً إلى قبلة التوحيد وكعبة الذات مائلاً عن الأديان الباطلة والآراء الفاسدة، مصفياً قلبك عن إمارات الكثرة والتعدد إلى حيث ارتفع عنك الالتفات إلى نفسك وشأنك حتى يحل عليك الحيرة المغنية لهويتك في هوية الحق المسقطة لتعينك رأساً.

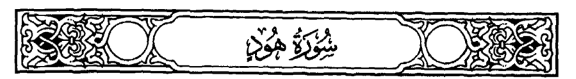
ولا يتيسر لك هذا إلا بالركون عن لوازم الطبيعة والخروج عنها وعما يترتب عليها من اللذات الوهمية والمشتهيات البهيمية[١] التي هي مقتضيات التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية.

ومتى صفت سرك وسريرتك عن أمثال هذه المزخرفات العائقة عن الاستغراق في بحر الذات، فزتَ بما فزتَ، وصرت بما صرت، وحكم الله عليك بالخير والحسنى، وأسكنك عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، وليس وراء الله مرمى، لا حول ولا قوة إلا بالله، هو يقول الحق، وهو يهدي السبيل

تمَّ بحمدِ الله تعالى
الجزء الأول من مخطوط تفسير شريف
لحضرة سلطان العارفين الشيخ
عبد القادر كيلاني (الجيلاني)
قدس الله سره

---

(١) في المخطوط (التهمية).



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة هود عليه السلام

لا يخفى على ذوي البصيرة والاستبصار وأولي الخبرة والاعتبار من المنقطعين نحو الحق، المتأملين في كشف غوامض أسرار توحيده بقدر الاستطاعة والاقتدار بتوفيق من الحكيم القدير، المجبولين على الحكمة والتدبير من لدن حكيم خبير، أن مبنى الأمر ومناط هذا الشأن العظيم الذي هو التوحيد والعرفان إنما هو[1] على العبودية والتذلل التام والانكسار المفرط المفضي إلى إفناء الهويات الباطلة في هوية الحق الحقيق بالحقية وفناء التعينات العدمية فيها، وذلك لا يحصل إلا بمتابعة الرسول البشير والنذير، المؤيد من عند العليم القدير، ليرشدهم ويهديهم بالتوجه والتبتل إلى اللطيف الخبير، إذ مرجع الكل إليه كما أن مبدأه من عنده ومصدره لديه ومعاده عليه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [١١-هود٦].

لذلك أخبر سبحانه لرسوله المبعوث على كافة الخلق، المبين لهم طريق الرشاد في كتابه المنزل عليه بعد إحكام آياته وتفصيلها تأييداً له وتقوية لأمره، ليهدي به التائهين عن جادة التوحيد، المنصرفين نحوها بمتابعة الشيطان المريد، فقال متيمناً باسمه العظيم ومخاطباً على رسوله الكريم:

(١) في المخطوط (هي).

الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي ....

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ الذي أحكم آيات كتابه الدالة على توحيد ذاته لتكون موصلة إليه سبحانه لمن تمسك بها ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ على عباده بتفصيل تلك الآيات تسهيلاً عليهم وتوضيحاً ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم يأمرهم بالعبادة والتذلل ليتحققوا بمرتبة حق اليقين الذي هو الصراط المستقيم.

﴿ الٓرۚ﴾ أيها الإنسان الأحق الأليق لإعلاء لواء لوازم أنوار الألوهية وارتفاع رايات رموز أسرار الربوبية بين الأنام بالبيان والتبيان هذا ﴿ كِتَٰبٌ﴾ أنزل إليك لتأييدك في أمرك، مصدقٌ لما في الكتب السالفة جامع لأحكامها ﴿أُحۡكِمَتۡ﴾ ونظمت ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾ أشد تنظيم وأبلغ إحكام وإتقان بحيث لا يعرضه خلل واختلال لا في معناه ولا في لفظه، لذلك عجزت عن معارضته جميع أرباب اللسن والفصاحة مع وفور وعيهم ﴿ ثُمَّ﴾ بعد إحكامه لفظاً ومعنى ﴿ فُصِّلَتۡ﴾ وأوضحت فيه من المعارف والحقائق والأحكام المتعلقة بالعقائد والعلوم اليقينية والقصص المشيرة إلى العبر والمواعظ والأمثال المشعرة إلى الرموز والإشارات ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ﴾ متقن في أفعاله ﴿خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾ يصدر عنه الأفعال على وجه الخبرة والاعتبار، وحَكَم فيه:

﴿ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ﴾ أيها المجبولون على العبادة في الفطرة الأصلية ﴿ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي أوجدكم من كتم العدم باستقلاله إيجاداً إبداعياً، وقل لهم يا أكمل الرسل تبشيراً وتنبيهاً: ﴿ إِنَّنِي﴾ مع كوني من جملتكم

لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ ....

﴿لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من الله المتوحد بذاته بأمره ووحيه ﴿نَذِيرٌ﴾ أنذركم عما يبعدكم عن الحق، حتى لا تستحقوا عذابه وعقابه ﴿وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾﴾ أبشركم ما يقربكم إلى جنابه، حتى تستحقوا الفوز العظيم من عنده.

﴿وَ﴾ حكم فيه أيضاً ﴿أَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟﴾ واسترجعوا في فرطاتكم ﴿رَبَّكُمْ﴾ الذي أوجدكم على فطرة المعرفة والتوحيد ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ وتوصلوا به بعد رفع حجب الأنانية عن البين، وكشف سدل التعينات الوهمية عن العين ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ بعد اضمحلال رسومكم وتلاشي هوياتكم في هويته بالرزق المعنوي والغذاء الحقيقي من عنده ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ على مقتضى نشأته وأوصافه وأسمائه وتطورات تجلياته الجمالية والجلالية ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الطامة الكبرى التي انقهرت دونها توهمات الأظلال وتخيلات السوى والأغيار ﴿وَ﴾ بعد تسييركم وتنزيلكم من عالم الغيب متنازلين إلى عالم الشهادة لاقتراف الحقائق والمعارف، وترجيعكم منها إليها متصاعدين إظهاراً لقدرته وبسطته ﴿يُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ أي ليؤت ويعط كلاً من ذوي العناية، الموفقين على الهداية التي جبلوا لأجلها ﴿فَضْلَهُۥ﴾ أي حقه وجزاءه، أي قَبِل منهم ما اكتسبوا من الحقائق والمعارف والمكاشفات والمشاهدات وأقرهم في النهاية على مقرٍ نزلوا منه في الهداية ﴿وَ﴾ قل لهم يا أكمل الرسل إمحاضاً للنصح: ﴿إِن تَوَلَّوْا۟﴾ وتعرضوا وتنصرفوا أيها المجبولون على التكليف عن

فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ ....

مقتضى إنذاري وتبشيري ﴿فَإِنِّيٓ﴾ من غاية إشفاقي لكم وتحنني نحوكم ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ أي نزول العذاب يوم العرض الأكبر الذي أشرقت فيه شمس الذات إلى حيث اضمحلت الأظلال والعكوس مطلقاً، ونودي من وراء سرادقات العز والجلال بلا تزاحم الأظلال والأغيار: لمن الملك اليوم؟ وأجيب أيضا من ورائها: لله الواحد القهار.

واعلموا أيها الأظلال المقهورة ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ الواحد الأحد الصمد المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿مَرۡجِعُكُمۡۖ﴾ ورجوعكم رجوع الظل إلى ذي الظل والعكوس إلى ما انعكس منها ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته قاهر فوق عباده ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ من صور العذاب والانتقام ﴿قَدِيرٌ ٤﴾ لا يخرج عن حيطة قدرته شيء، ولا يعزب عن علمه معلوم، مما جرى عليهم من الأحوال.

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ﴾ أي المحجوبون الغافلون من غاية جهلهم وغفلتهم عن الله ﴿يَثۡنُونَ﴾ أي يقطعون وينحرفون ﴿صُدُورَهُمۡ﴾ عن الميل إلى الحق والتوجه نحوه طالبين ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾ أي يستروا ويخفوا من الله ما تكمن صدورهم من الإعراض عن الحق بأوامره ورسله ﴿أَلَا﴾ إنهم لم يعلموا ولم يتفطنوا أن الله المطلع بجميع ما جرى في ملكه يعلم منهم ما جرى عليهم وظهر منهم ﴿حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي يطلبون التدثر والتغطي وقت رقودهم

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ....

في مضاجعهم بل ﴿يَعْلَمُ﴾ منهم ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في ضمائرهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم ومشاعرهم، وكيف لا يعلم سبحانه ﴿إِنَّهُۥ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿عَلِيمُۢ﴾ بعلمه الحضوري ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ وبما هو مكنون فيها من السرائر والضمائر.

﴿۞ وَ﴾ كيف يستبعد أمثال هذا من حيطة حضرة علمه إذ ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تترك ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مثلاً ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ المتكفل لأرزاق مظاهره ومصنوعاته ﴿رِزْقُهَا﴾ أي ما تعيش وتتقوم به ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَعْلَمُ﴾ منشأها ومصدرها في عالم الغيب ويعلم أيضاً ﴿مُسْتَقَرَّهَا﴾ أي محل قرارها وبقائها في عالم الشهادة ومقدار ثباتها واستقرارها فيها ﴿وَ﴾ يعلم أيضاً ﴿مُسْتَوْدَعَهَا﴾ ومرجعها في عالم الغيب بعد انقضاء النشأة الأولى، وبالجملة ﴿كُلٌّ﴾ من الأحوال والأطوار والنشأة الطارئة عليها بحيث لا يشذ شيء منها محفوظ مثبت ﴿فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ هو حضرة علمه ولوح قضائه، فكيف تنكرون أيها المنكرون إحاطة علمه، وتستخفون منه شيئاً من مخايلكم.

﴿وَ﴾ أنى يعزب[1] ويغيب عن علمه شيء؟! ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أي أظهر وأبدع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي العلويات والسفليات اللتين هما بمثابة الآباء والأمهات والفواعل والقوابل لنشأتكم وظهوركم ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ليحيط

---

(١) في المخطوط (وأن يغرب).

وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ ....

بالجهات كلها ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ أي مجلاه ومحل بروزه على الماء، وتشعشع تجلياته قبل ظهور هذه المظاهر والمكونات ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي على الحياة الحقيقية الخالية عن التغيرات والانقلابات المتوهمة من التعينات العدمية والتشخصات الهيولانية، وإنما أظهرها على هذا التمثال وأوجدها على هذا المنوال ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم أيها الأظلال والعكوس ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾ وقبولاً، وأتم توجهاً ورجوعاً، وأكمل تحققاً ووصولاً في يوم الجزاء ﴿وَ﴾ بعد ما نبههم الحق على ما هو الحق، وأوجدهم على فطرة الفطنة والذكاء بمبدئهم ونشأتهم الأصلية ﴿لَئِن قُلْتَ﴾ يا أكمل الرسل تذكيراً لهم وإصلاحاً لحالهم: ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ للحساب والجزاء وتنفيذ الأعمال، فعليكم أن تتهيؤوا لها وتدخروا لأجلها حتى لا تؤاخذوا ولا تعاقبوا ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ منهم من كمال غفلتهم وقسوتهم بعدما سمعوا منك قولك هذا: ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي ما الذي تقوّل به هذا الرجل إن وقع وتحقق ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ عظيم، إذ إحياء الموتى من العظام الرفات لا يُتصور إلا بالسحر الخارق للعادات، فإن وقع فهو في غاية العظمة ونهاية الغرابة.

﴿وَ﴾ بعدما استوجبوا لأسوأ العذاب واستحقوا لأليم العقاب بكفرهم وإنكارهم ﴿لَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ المعد لهم أي إتيانه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي

مَّعۡدُودَةٖ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ أَلَا يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ﴿٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ....

جماعة من الأيام والأوقات ﴿مَّعۡدُودَةٖ﴾ قلائل ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ مستهزئين مستسخرين من غاية جهلهم وإنكارهم: ﴿مَا يَحۡبِسُهُۥٓۗ﴾ أي يمنعه عن إتيان ما يدعيه من العذاب ووقوع ما يعد به من الأخذ والبطش ﴿أَلَا﴾ تنبهوا أيها المؤمنون وتذكروا ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمۡ﴾ العذاب واعلموا يقيناً أن العذاب ﴿لَيۡسَ مَصۡرُوفًا عَنۡهُمۡ﴾ حينئذ ساقطاً عن ذمتهم، بل نزل عليهم ﴿وَحَاقَ﴾ وأحاط ﴿بِهِم﴾ حتماً ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨﴾﴾ من العذاب الموعود وقت إنذار الرسول.

﴿وَ﴾ من غاية لطفنا وجودنا إلى الإنسان ونهاية إحساننا معه وتفقدنا لحاله ﴿لَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ المجبولَ على النسيان والكفران وأعطيناه ﴿مِنَّا رَحۡمَةٗ﴾ ونعمة تسره وتفرج همه ﴿ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ﴾ ومنعناها عنه إظهاراً لقدرتنا وكمال بسطتنا ﴿إِنَّهُۥ﴾ من قلة تصبره وغاية ضعفه وتكسره ﴿لَيَـُٔوسٞ﴾ قنوطٌ من فضلنا ورحمتنا ﴿كَفُورٞ ﴿٩﴾﴾ لما وصل إليه من نعمتنا.

﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ﴾ وأنعمنا عليه ﴿نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ أي أعجزته وأزعجته ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ مفتخراً مباهياً بطراً ﴿ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ﴾ المؤلمة المحزنة ﴿عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ﴾ من غاية غفلته عن المنعم ﴿لَفَرِحٞ﴾ بَطِرٌ فرحان ﴿فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ ....

مغرور مفتخر بما في يده من النعم، مشغول بها عن شكرها وأداء حقها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على ما أصابهم من السيئات المملة المؤلمة واسترجعوا إلى الله لكشفها ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وواظبوا على الخيرات والحسنات وداوموا على الإيثار والصدقات شكراً لما أنعمنا عليهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الصابرون عن البلاء الشاكرون على النعماء ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أي ستر ومحو لذنوبهم التي مضت عليهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ هو الرضاء منهم تفضلاً عليهم وامتناناً.

﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا أكمل الرسل من غاية ودادك إيمانهم ومحبتك متابعتهم ﴿تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ من عندنا مشتملاً على توبيخهم وتقريعهم وزجرهم وتشنيعهم، كراهة أن يركنوا عنك وينصرفوا عن متابعتك ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ أي بسبب ما يوحى إليك ﴿بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ مخافة ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ حين أظهرت عليهم بما أوحيت به: ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ بدل هذه التوبيخات والتقريعات من عند ربه ليتابع الناس له ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ مصدق لنبوته ورسالته ليطيعوا ويؤمنوا له طوعاً بلا كلفة، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبقولهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ بلّغ ما أنزل إليك من إنذارهم وتخويفهم، ولا تلتفت إلى ردهم وقبولهم وتوكل على دينك وثق به فإنه يكفي عنك مؤنة

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ......................

شرورهم وضررهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ﴾ صدر عنهم ﴿وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ عليهم يعلم منهم ما هو مستوجب العقوبة والعذاب، وما هو قوي للنوال والثواب، يجازيهم على مقتضى علمه وخبرته، أو لم يكف بتصديقك القرآن المعجز لأرباب اللسن والبيان في تشددهم في المعارضة والمقاتلة.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ﴾ مكابرة وعناداً ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ واختلقه من تلقاء نفسه ونسبه إلى الوحي ﴿قُلۡ﴾ لهم يا أكمل الرسل حين نسبوك إلى الافتراء والاختلاق: ﴿فَأۡتُواْ﴾ أيها المكابرون المعاندون ﴿بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ أي مثل أقصر سورة من سور القرآن ﴿مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ مختلقات على ما زعمتم مع أنكم أحق باختلاقها لكثرة تمرنكم وتزاولكم في أمر الإنشاد والإنشاء، وتتبع كلام البلغاء والتعود بممارسة القصص والقصائد، وإن عجزتم عن اختلاقها بأنفسكم، فاستظهروا بإخوانكم ومعاونيكم ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ واتفقوا معهم في اختلاقها ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ في ظنكم هذا.

﴿فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ﴾ أيها المؤمنون ولم يأتوا بما تحديتم لهم ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون واطمأنوا وتيقنوا ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ﴾ وبكمال قدرته وإرادته، لا يمكن لأحد من مظاهره ومصنوعاته أن يأتي بمثله ويعارض معه، وكيف لا يعارض معه إذ لا شيء سواه ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود

إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ منقادون لحكمه، مسلّمون أموركم كلها إليه، مخلصون مطمئنون متمكنون في جادة التوحيد، بل أنتم أيها الموحدون المحمديون هكذا.

ثم قال سبحانه على سبيل العظة والتذكير:

﴿مَن كَانَ﴾ بارتكاب الأعمال واحتمال شدائدها ومتاعبها ﴿يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ المزخرفة التي تترتب عليها من الأموال والأولاد ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾ لأجلها ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ أي لا ينقص شيء من أجور أعمالهم في النشأة الأولى، إن كان غرضهم مقصوراً عليها، محصوراً بها.

وأما في النشأة الأخرى:

﴿أُوْلَٰئِكَ﴾ القاصرون المقصرون هم ﴿الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي لم يبق لهم مما يترتب على أعمالهم فيها ﴿إِلَّا النَّارُ﴾ إذ حسناتهم توفى إليهم في النشأة الأولى ولم يبق لهم إلا توفية السيئات، وليس توفية السيئات إلا بالنار وما يترتب عليها من العذاب والآلام ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿حَبِطَ﴾ وضاع واضمحل ﴿مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾ أي في النشأة الأولى من الخيرات والمبرات بإرادتهم الأمور الدنيوية لأجلها ﴿وَ﴾ صار بعدم إصلاحهم وعكس مرادهم ﴿بَٰطِلٌ﴾ فاسدٌ مقتضى ﴿مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ من الصالحات فيها، وإن

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ ....

ظهر على صورة الصالحات.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي تظنون وتحسبون إنّ من انكشف له برهان واضح وكشف صريح وشهود محقق من قبل ربه، وتحقق بمقام التوحيد، وبسريان وحدة الذات في جميع الكائنات والفاسدات ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَتْلُوهُ﴾ يطرأ عليه ويجري على لسانه ﴿شَاهِدٌ﴾ ناطقٌ بتصديقه نازلٌ ﴿مِّنْهُ﴾ أي من عند ربه امتناناً له وتفضلاً عليه يريد ويقصد من أفعاله وأعماله الصادرة عنه ظاهراً مثل ما أراد أولئك المحجوبون المستورون عن الحق وإحاطته وشموله واستقلاله في الآثار الظاهرة في الآفاق، كلا وحاشا هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وما يتذكر إلا أولو الألباب ﴿وَ﴾ كيف ينكرون شهادة القرآن على تصديق خير الأنام إذ ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي من قبل القرآن جاء ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ من قبل مصدقاً له في دعواه وصار من عموم حكمه ﴿إِمَامًا﴾ أي قدوة لقاطبة الأنام ﴿وَرَحْمَةً﴾ شاملة للخواص والعوام لإهدائهم إلى دار السلام ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي أهل التوراة وهم الذين يؤمنون بها ويمتثلون بما فيها ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي بحقية القرآن لكونه مذكوراً في التوراة المنزل عليهم ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ﴾ أي القرآن وبحقيته ﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ المتحزبين مع المحرّفين للتوراة المنحرفين عن جادة الإيمان ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ لا بد أن يرد عليها على مقتضى العدل الإلهي ﴿فَلَا تَكُ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾

مِّنْهُۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ ....

شك وارتياب ﴿مِّنْهُۚ﴾ أي من ورودهم عليها إنجازاً لوعده ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ النازل ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ لا بد أن يتحقق وقوعه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة وغلظ حجابهم عن الله ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ بحقيته وحقية وعده وإنجازه الموعود، لذلك حرفوا ما جاء من عنده في كتابه، وزادوا عليه ما لم يجيء منه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ على الله ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ عمداً وحرَّف كتابه بتنقيص شيء منه أو زيادة عليه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المحرِّفون المجترئون على الله بتبديل آياته ﴿يُعْرَضُونَ﴾ في يوم العرض الأكبر ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ويُسألون عما فعلوا بكتاب الله فينكرون ويستنزهون أنفسهم عنه ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ من أعضائهم وجوارحهم إلزاماً لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المسرفون المعاندون ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ وحرّفوا كتابه افتراء ومراء، ظلما وعدواناً، وبعد إشهاد هؤلاء الأشهاد، نودي من وراء سرادقات العز والجلال تفضيحاً لهم وتخذيلاً على رؤوس الأشهاد: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ﴾ وطرده وإبعاده عن سعة رحمته ﴿عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ المجاوزين عن مقتضى حكمه وحكمته عناداً ومكابرة. وهم ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون عباد الله ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الشرع

وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ

المنزل من عنده على أنبيائه ورسله بالعدالة والتقويم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يريدون أن يحدثوا فيها عوجاً وانحرافاً ليصرفوا ويرتدوا منها أهلها بعد إيمانهم بها وانقيادهم إليها فاستحقوا العذاب والنكال الأخروي ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿هُم بِالْآخِرَةِ﴾ المعدة للجزاء والانتقام ﴿هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ منكرون لخبث طينتهم ورداءة فطرتهم.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ البعداء المسرفون المفترون على الله، المفرطون في تحريف كتابه ﴿لَمْ يَكُونُوا﴾ من أهل الإعجاز حتى صاروا ﴿مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ كل من تحدى معهم ويعارضهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ حتى ينصروهم ويحفظوهم عن عذاب الله إياهم إن تعلق إرادته بتعذيبهم في الدنيا، وإنما أمهلهم وأخر عذابهم إلى يوم الجزاء ليقترفوا من موجباته وأسبابه أكثر مما كانوا عليه، حتى يدوم وبالها لأجلهم بل ﴿يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ لأنهم بسبب إعراضهم عن الحق ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ لأن في آذانهم وقراً عن استماعه ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ لتعاميهم عن أبصار آثاره ودلائله، وبالجملة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المعزولون عن استماع كلمة الحق وإبصار علاماته هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بالافتراء على الله بما لا يليق بجنابه بإشراك مصنوعاته معه

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا

في استحقاق العبادة ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ضَلَّ﴾ وغاب ﴿عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ من الآلهة الباطلة، ولم يبق لهم سوى الندامة والخسران.

لذلك ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ المقصورون على الخسران والحرمان، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله وفوضوا أمورهم كلها إليه ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة لهم إلى جنابه ﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي تضرعوا له مطمئنين خاشعين ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ السعداء المقبولون الصالحون المصالحون الخاشعون المخبتون ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ﴾ التي هي دار السعداء ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ دائمون مطمئنون متمكنون لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ أي المؤمن والكافر في السعادة والشقاوة والهداية والضلال ﴿كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ﴾ كل مع نقيضتها ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ كل من النقيضين ﴿مَثَلًا ۚ﴾ أيها العقلاء ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ التفاوت والتفاضل حتى تتنبهوا وتتفطنوا.

﴿وَ﴾ من عدم تذكر الإنسان وتوغله في الغفلة والنسيان ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾

إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ....

الناجي عما سوى الحق، المنجي للهالكين في تيه الضلال ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الكفر والعصيان، ولاح فيهم علامات الظلم والطغيان قائلاً لهم على وجه العظة والنصيحة: ﴿إِنِّي﴾ من غاية إشفاقي وعطفي ﴿لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ أنذركم من طول العذاب ونزول غضبه بسبب ظلمكم وكفركم ﴿مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ مظهر مبين لكم ما يوجب تعذيبكم من أفعالكم وأعمالكم الدالة على كفركم وشرككم، فعليكم أيها المسرفون المفرطون.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ ولا تتوجهوا ﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له ولا شيء سواه، ولا تشركوا به غيره ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ لو أشركتم بالله وكفرتم به ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ مؤلم مفزع، كأن ألم العذاب يسري في زمانه لفظاعته وشدته.

ثم لما سمعوا قوله وفهموا مراده استكبروا عليه واستبعدوا أمره.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي الأشراف ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ مستكبرين عليه مستهزئين له: ﴿مَا نَرَىٰكَ﴾ يا نوح ﴿إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ كيف تدعي الرسالة والنيابة عن الله والوحي من جانبه ﴿وَ﴾ مع ذلك لا شوكة ولا استيلاء لك ولا قوة بسبب المكر والأعوان والأنصار حتى تدعي الرئاسة علينا إذ ﴿مَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ منا ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي أدنانا وأسافلنا عقلاً وجاهاً وسعة

بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ....

ومالاً ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ يظهر رذالتهم للناظرين في أول الفكر والنظر بلا احتياج إلى تعمق وتدبر ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَرَىٰ لَكُمْ﴾ أيها السفلة والأراذل تابعاً ومتبوعاً ﴿عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ زيادة في العقل والمال والجاه والرئاسة حتى نتبعكم ونقبل قولكم ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ﴾ ونعتقدكم ﴿كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ في دعواكم، مفترين فيه، طالبين الرياسة بسببه بلا إظهار معجزة وبينة واضحة.

﴿قَالَ﴾ نوح متحسراً آيساً منهم قنوطاً عن إيمانهم بعدما سمع منهم ما سمع: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه بعد يأسه على مقتضى شفقة النبوة ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ واضحةٍ دالة على صدقي في دعواي نازلةٍ ﴿مِّن رَّبِّي﴾ لتأييدي وتصديقي ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿ءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ تفضلاً وامتناناً مشعرة بنجابتي وطهارتي وصدقي في قولي وتذكيري ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ أي خفيت واشتبهت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ الدلائل والشواهد مع وضوحها وسطوعها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ بها ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ منكرون غير ملتفتين إليها ولا متأملين فيها وفي إشاراتها ورموزها.

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغي وإرشادي إياكم وإهدائي لكم ﴿مَالًا﴾ جُعْلاً وأجراً ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ أي ما أجري ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي أمرني به

وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ....

وبعثني لتبليغه ﴿وَ﴾ إن أردتم أن أطرد من معي من المؤمنين فاعلموا أني ﴿مَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ وليس في وسعي طردهم وكيف أطردهم ﴿إِنَّهُم﴾ من غاية سعادتهم وصلاحهم ﴿مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ الذي وفقهم على الإيمان والهداية فيخاصمون مع طاردهم وينتقمون عنه ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ﴾ من خبث باطنكم ﴿قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ تنكرون لقاء الله وحوله وقوته وإعانته للمظلوم وانتقامه للظالم الطارد.

﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ المكابرين المعاندين في طلب طرد المؤمنين الموقنين ﴿مَن يَنصُرُنِي﴾ ويدفع عني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ وبطشه وانتقامه ﴿إِن طَرَدتُّهُمْۚ﴾ ابتغاء لمرضاتكم ومواساة لكم بلا إذنٍ واردٍ من قبل الحق، ووحي نازل من عنده ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أيها المجبولون على العقل المفاض المستلزم للتوحيد والعرفان لينكشف الأمر عنكم وتعرفوا وخامة عاقبة التماسكم طرد المؤمنين وتوقيفكم الإيمان عليه.

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مدعياً بعدم طرد المؤمنين الفاقدين حطام الدنيا ﴿عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ فأغنيهم بها، لذلك لم أطردهم ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي لا أدعي الاطلاع على غيوب أحوالهم في مآلهم حتى يكون سبب ودادي لهم ﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لكم مباهاة ومفاخرة: ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتى تقولوا ما أنت إلا بشر مثلنا

وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ

﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ أيضاً ﴿لِلَّذِينَ﴾ أي للمؤمنين الذين ﴿تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي استرذلتموهم وتقولون في حقهم: ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ﴾ ويعطيهم ﴿ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا والآخرة، إذ حالهم ومآلهم من الغيوب التي استأثر الله بها، ولم يطلعني عليها إذ ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ من الإخلاص والرضا، وما لي علم بحالهم إلا بوحي الله وإلهامه، ولم يوح إلي شيء من أحوالهم، وإن تفوهت عنهم وعن أحوالهم بلا وحي ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ المجترئين على الله في ادعاء الاطلاع على غيبه رجماً به.

وبعدما سمعوا من نوح عليه السلام ما سمعوا

﴿قَالُوا۟﴾ من فرط عتوهم وعنادهم: ﴿يَٰنُوحُ﴾ نادوه استهانة واستحقاراً ﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ وخاصمتنا بالمقدمات الكاذبة الوهمية ﴿فَأَكْثَرْتَ﴾ علينا ﴿جِدَٰلَنَا﴾ وبالغت فيها وتماديت ﴿فَأْتِنَا﴾ أيها المكثر المفرط ﴿بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب، فإنا لن نؤمن بك ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ في دعواك.

﴿قَالَ﴾ نوح متأسفاً متحزناً آيساً من إيمانهم: يا قوم لست بآتٍ بموعدٍ حتى تعجزوني وتضطروني وتستهزؤا بي[1] بل ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي بالعذاب الموعود ﴿ٱللَّهُ﴾ المنتقم منكم ﴿إِن شَآءَ﴾ انتقامكم وتعلق إرادته لهلاككم

---

(١) في المخطوط (تستهزؤن معي).

وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ ....

﴿وَمَآ أَنتُم﴾ حين غضبه سبحانه عليكم ﴿بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ الله في فعله وأخذه، إذ هو القاهر فوق عباده، بل أنتم حينئذٍ عاجزون ومضطرون مقهورون.

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ﴾ اليوم ﴿نُصْحِىٓ﴾ لئلا يلحقكم ما سيلحقكم حين حلول العذاب ﴿إِنْ أَرَدتُّ﴾ وأحببت ﴿أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ لأحفظكم ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ أي لا ينفعكم نصحي اليوم إن تعلق إرادة الله ومشيئته في سابق علمه لإغوائكم بل ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ ومولي أموركم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال ﴿تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ في جميع أموركم وحالاتكم.

أتريد يا نوح نصحهم وإشفاقهم، وهم لا يقبلون منك.

﴿أَمْ﴾ بل ﴿يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾ أي اختلقه من عنده ونسبه إلى الوحي ترويجاً ﴿قُلْ﴾ لهم حين قالوا لك هذه مجاراة عليهم ومماراة: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ واختلقت ما جئت به ﴿فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي وبال أمري ونكاله ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿أَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ وتنسبون إليّ من الجرائم.

﴿وَ﴾ بعد ما بالغوا في العتو والفساد والإصرار على ما هم عليه من الجور والفساد ﴿أُوحِىَ﴾ وأُلهم ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾ حين ظهر عليهم أمارات الإنكار، ولاح علامات الاستخفاف والاستكبار ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ﴾ لك أبداً بعد هذا

مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا

﴿مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ لك قبل هذا، فاقنط عن إيمانهم، ولا تجتهد في نصحهم وإهدائهم ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تغتم من إهلاكهم ونزول العذاب عليهم إنهم مهلكون ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ من الإعراض والإنكار والعتو والاستكبار.

﴿وَ﴾ بعدما حصل لك اليأس والقنوط من إيمانهم ﴿ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ لحفظك ولمن آمن معك من الغرق ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ أي بكنفنا وجوارنا وحفظنا وحصاننا ﴿وَوَحْيِنَا﴾ لك كيف تصنعها وتشيدها ﴿وَ﴾ بعدما صنعت ما صنعت ﴿لَا تُخَٰطِبْنِى﴾ ولا تناج معي ﴿فِى﴾ إنجاء القوم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ أنفسهم بالمكابرة والعناد ونبذوا وراء ظهورهم ما جئت به من الهداية والرشاد ﴿إِنَّهُم﴾ بسبب انهماكهم في الغفلة والغرور ﴿مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ مهلكون حتماً، لا نجاة لهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعدما أوصاه الحق وأمره، شرعَ ﴿يَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾ بتعليم جبرائيل عليه السلام إياه بإذن الله ﴿وَ﴾ كان ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ﴾ طائف ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ حين اشتغل بالفلك ﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ واستهزؤوا به لكونه في باديةٍ لا ماء فيها، وقالوا على سبيل التهكم: صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً ﴿قَالَ﴾ لهم نوح المكشوف عنده مآل ما أمر الحق له: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا﴾ الآن لجهلكم بسرِّ

فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ....

صنيعنا ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ حين كنا[1] على الفلك وأنتم غرقى ﴿كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ اليوم منا.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ وتدركون وبال ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ وحان أجلنا الذي أجلنا لمقتهم وهلاكهم ﴿وَفَارَ﴾ أي نبع حينئذٍ ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ المعهود في حضرة علمنا، نَبَع ماء الطوفان، وبعد فوران التنور وغليانه وأطلعت عليه امرأته فأخبرته إياه ﴿قُلْنَا﴾ له تفضلاً عليه وامتناناً: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ أي من جنس ما يعيش في الهواء ﴿ٱثْنَيْنِ﴾ ذكراً وأنثى ﴿وَ﴾ احمل أيضاً عليها ﴿أَهْلَكَ﴾ أي جميع أهل بيتك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منا في سابق قضائنا بأنه كان من الكافرين المغرقين ﴿وَ﴾ احمل أيضاً عليها ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ لك من قومك ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ﴾ من قومه ﴿إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ قيل كانوا تسعة وسبعين وزوجته[2] المسلمة، وبنوه الثلاثة: سام وحام ويافث، ونساؤهم واثنان وسبعون رجلاً من غيرهم.

---

(١) أي حين نكون على الفلك.

(٢) قيل امرأة نوح كانت معهم في السفينة وهذا فيه نظر، بل الظاهر أنها هلكت لأنها كانت على دين قومها فأصابها ما أصابهم. وقيل هذه غير زوجته المسلمة.

۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ ....

روي أنه عليه السلام أتم السفينة وكان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسين، وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في أسفلها الدواب والوحوش، وفي أوسطها الإنس، وفي أعلاها الطير ﴿ ۞ وَ﴾ بعدما نبع التنور وانتشر الماء وانبسط على الأرض ﴿ قَالَ ﴾ نوح بوحي الله إياه: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ أي صيروا في جوفها متمكنين، واستقروا عليها قائلين متيمنين: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ إذ هو سبحانه بحوله وقوته ﴿مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ حيث أراد إجراءها وإرساءها ﴿ إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بلطفه وأوصاني بصنعها ﴿لَغَفُورٞ﴾ لمن استغفر له ﴿رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾﴾ يقبل توبته ويمحو زلته وينجو عن عذابه، فركبوا مسمين متيمنين.

﴿ وَهِيَ﴾ أي السفينة ﴿تَجۡرِي بِهِمۡ فِي﴾ خلال ﴿مَوۡجٖ ﴾ وهو ما ارتفع من الماء من شدة الريح عالٍ ﴿كَٱلۡجِبَالِ ﴾ الشامخ ﴿وَ﴾ حينئذ ﴿نَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ المسمى بكنعان ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ من أبيه أي اعتزل عنه وانصرف عن دينه، فرآه بين الماء، فتحرك عطف الأبوة فصاح عليه: ﴿يَٰبُنَيَّ ﴾ صغره للشفقة والترحم ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا ﴾ لتنجو من الغرق ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ حتى لا تغرق.

﴿قَالَ﴾ ابنه مستنكراً عليه: ﴿سَـَٔاوِيٓ ﴾ والتجئ ﴿إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ عالٍ ﴿ يَعۡصِمُنِي مِنَ ﴾ إغراق ﴿ ٱلۡمَآءِۚ﴾ بشموخه وعلوه ﴿قَالَ﴾: يا بني

لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ....

﴿لَا عَاصِمَ﴾ ولا ينجي ﴿ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ المبرم وحكمه المحكم ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ الله وأنجاه، إذ لا عاصم غيره ﴿وَ﴾ حينئذٍ ﴿حَالَ بَيْنَهُمَا﴾ أي بين نوح وابنه ﴿ٱلْمَوْجُ﴾ العظيم ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ أي صار ابنه من الغرقى الهالكين.

﴿وَ﴾ بعدما انبسط الماء على وجه الأرض وعلا على أعالي الجبال، وأقلال الرواسي وهلك من عليها ﴿قِيلَ﴾ من وراء سرادقات العز والجلال منادياً آمراً على الأرض والسماء مثل النداء على ذوي العقول المكلفين المبادرين إلى امتثال الأوامر: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾ النابعة للماء المخرجة له ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ أي انشقي ما نبع عنك من الماء ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ الماطرة الهامرة ﴿أَقْلِعِى﴾ وأمسكي ماءك، ولا تمطري إذ يمطر الماء مثلما نبع من الأرض ﴿وَ﴾ بعد ورود الأمر الإلهي ﴿غِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ ونقص بنشف الأرض وإمساك السماء ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ الموعود الذي هو إهلاك الكفار وإنجاء المؤمنين ﴿وَ﴾ بعد انقضاء المأمور وإنجاز الموعود ﴿اسْتَوَتْ﴾ السفينة واستقرت ﴿عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ جبل بالموصل، وقيل بالشام، وقيل أو آمل.

روي أنه عليه السلام ركب السفينة عاشر رجب، ونزل عليها عاشر المحرم، فصام ذلك اليوم، فصار سنة له على من بعده، وهو يوم عاشوراء

وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ ....

﴿وَ﴾ بعد إهلاك أولئك العصاة الغواة الكفرة ﴿قِيلَ﴾ من قبل الحق: ﴿بُعْدًا﴾ أي مقتاً وهلاكاً ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ الخارجين عن مقتضى الوحي الإلهي، المكذبين لرسله، وطرداً لهم عن ساحة عز الحضور بحيث لا يرجى قربهم أصلاً.

﴿وَ﴾ بعد ما وقع ما وقع ﴿نَادَىٰ﴾ وناجى ﴿نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾ باثاً له شكواه في حق ابنه ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى﴾ أيضاً ﴿مِنْ أَهْلِى﴾ وأنت بفضلك وعدتني بإنجاء أهلي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ﴾ الذي به ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الصدق لا خلف فيه ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ أي أقسطهم وأعدلهم بأحكام جميع الحكام راجع إليك.

﴿قَالَ﴾ سبحانه مجيباً له مزيلاً لشكواه: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ﴾ بسبب اعتزاله عنك وعن دينك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ إذ لا قرابة ولا ألفة بين المؤمن والكافر، وكيف يكون من أهلك ﴿إِنَّهُۥ﴾ من غاية فسقه وفساده ﴿عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ كأنه مغمورٌ فيه مجسم منه لا يرجى صلاحه أصلاً ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ﴾ متعرضاً معترضاً عليّ ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ لوروده علي ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ وأذكر لك ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي كونك بذهولك عما نبهت عليك بالاستثناء السابق، يعني ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ [١١-هود٢٣، ٤٠-المؤمنون٢٧].

﴿قَالَ﴾ نوح معتذراً إلى ربه مستحيياً منه: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ﴾ بعد ظهور خطئي

أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ ....

وذلتي ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ بعد هذا ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ أي ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي﴾ زلتي وسوء أدبي ﴿وَ﴾ لم ﴿تَرْحَمْنِي﴾ بفضلك وجودك ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ خسراناً مبيناً.

﴿قِيلَ﴾ من قبل الله بعد ما غاض الماء واستوت السفينة وانكشفت الأرض ويبست: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ انزل من السفينة أنت ومن معك وما معك مقروناً ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ أي سلامة ونجاة وأمن ناشئ ﴿مِّنَّا﴾ عليك تفضلاً وامتناناً ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ أي خيرات ومبرات كثيرة نازلةٍ منا ﴿عَلَيْكَ﴾ أصالة ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ تبعاً سماهم أمماً باعتبار المآل ﴿وَ﴾ من ذرية من معك ﴿أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ ونربيهم في النشأة الأولى بأنواع النعم ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا﴾ في النشأة الأخرى بسبب كفرهم وفسقهم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ مؤلم بدل ما يتلذذون بنعم الدنيا، ويكفرون بها.

تلك أي قصة نوح عليه السلام.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي بعض أخباره ﴿نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ﴾ يا أكمل الرسل تعليماً لك وتذكيراً لأمتك ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ بالدراسة والتعليم ﴿مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ الوحي والإنزال، وإن طعن المشركون لك ونسبوك إلى الكذب

فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ ....

والافتراء ﴿فَٱصْبِرْۖ﴾ على أذياتهم، وكن في تبليغك على عزيمة صحيحة ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ﴾ الحميدة والأجر الجزيل في النشأة الأخرى ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ الذين يحفظون نفوسهم عن الميل إلى البدع والأهواء، ويصبرون على المكاره والأذى، حتى يتحققوا بمقام الرضا ويفوزوا بشرف اللقاء.

﴿وَ﴾ بعد ما تناسل قوم نوح وتكاثرت أمم منهم، فاستكبروا عن طريق التوحيد واتخذوا الأصنام والأوثان آلهة، أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ العادين عن طريق الحق، المتجاوزين عن صراط التوحيد ظلماً وعدواناً ﴿أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾ ليهديهم إلى طريق الحق وصراط مستقيم ﴿قَالَ﴾ بعدما أوحينا إليه وأذنا له بتذكير قومه: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أضافهم إلى نفسه تحنناً وإشفاقاً على ما هو مقتضى الإرشاد ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي لا إله إلا هو واعتقدوا ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ يعبد بالحق ويرجع إليه ما في الأمور ﴿غَيْرُهُۥٓۖ﴾ إذ لا موجود سواه ولا إله إلا هو ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم بعدما ظهر الحق باتخاذ الأوثان آلهة غيره ﴿إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ مبطلون في اتخاذها افتراء ومراء.

﴿يَٰقَوْمِ﴾ اسمعوا قولي واتعظوا به وامضوا بمقتضاه واقبلوا نصحي إذ ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ﴾ ولا أطلب منكم عوضاً بل أنا مأمور بالتبليغ والتذكير من عند العليم الخبير ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ﴾ أي بعثني بالإرشاد

أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ

والإهداء، أتشكون في أمري وتترددون في شأني وتذكيري ونصحي ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ وتستعملون عقولكم في أفعالكم القبيحة وأعمالكم الفاسدة الناكبة عن طريق الاعتدال الذي هو صراط الله الأقوم الأعدل.

﴿وَ﴾ بعد ما ازدادوا الإصرار والاستكبار أخذهم الله بعقم الأرحام والأمطار فاضطروا، قال هود عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ من فرطاتكم وهفواتكم واطلبوا المغفرة والنجاة منه ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ﴾ واسترجعوا ﴿إِلَيۡهِ﴾ نادمين مخلصين: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم﴾ بأمر الله تفضلاً وامتناناً ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ أمطاراً كثيرة على سبيل التتابع والإدرار ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ أي يضاعف أولادكم التي هي قوة ظهوركم ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾ على الله حال كونكم ﴿مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ معرضين عنه وعن رسله مصرين على ما أنتم عليه.

﴿قَالُواْ﴾ بعدما سمعوا منه ما سمعوا ﴿يَٰهُودُ﴾ نادوه استحقاراً له واستكباراً عليه: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ واضحة مثبتة لدعواك حتى نقبل منك قولك ﴿وَ﴾ بعد ما لم تجيء إلينا بالبينة[1] الملجئة ما كنا نعتقدك صادقاً صدوقا ثقة حتى نقبل قولك بلا بينة، اترك ما أنت عليه من الدعوة الفاسد إذ ﴿مَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ التي وجدنا آباءنا لها عاكفين ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾ أي

(١) في المخطوط (يجيىء بالبينة).

وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ ....

عن مجرد دعواك بلا بينة ودليل ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ مصدقين لك بلا شاهد وبينة بل:

﴿إِن نَّقُولُ ﴾ أي ما نقول في حقك ﴿إِلَّا اعْتَرَاكَ﴾ أي سوى هذا القول وهو أنك أصابك ورماك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍۗ﴾ جنون وخفة عقل واختلال حال، وكنت أنت تسيء الأدب معهم، وتذكرهم وتهجيهم بما لا يليق بجنابهم، ولذلك أصابوك واستخفوا عقلك، وبعدما سمع هود ما سمع، آيس من إيمانهم وهدايتهم ﴿قَالَ﴾ مبرئاً أولاً لنفسه من الشرك إمحاضاً للنصح: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ العالم بسري وإعلاني وخفيات إسراري ﴿وَاشْهَدُوٓا ﴾ أنتم أيضاً أيها الهالكون في تيه الغفلة والغرور علي ﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ الله الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود أصلاً من الأظلال الهالكة والتماثيل الباطلة المتخذة.

﴿ مِن دُونِهِۦۖ﴾ آلهة سواه ﴿فَكِيدُونِي﴾ أي فعليكم أيها الحمقى المنحطين عن زمرة العقلاء بعدما سمعتم قولي وحققتم براءتي أن تمكروني وتصيبوني أنتم وشركاؤكم ﴿جَمِيعًا ثُمَّ﴾ بعد اليوم ﴿لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي لا تمهلون في أمري ولا في مكري.

﴿ إِنِّي﴾ بعدما ﴿تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ لا أبالي بكم وبشركائكم

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ ....

ولا تحزن لمكرهم ومكركم بعدما أتمكن بمقر التوحيد إذ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ يتحرك على الأرض ﴿إِلَّا هُوَ﴾ سبحانه بذاته ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ أي وجودها التي تلي الحق يقودها ويتصرف بها كيف يشاء حسب إرادته اختياراً ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ في جميع شؤونه وتطوراته ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ٥٦﴾ لا عوج له أصلاً.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي تتولوا وتعرضوا عما جئت به من ربي ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾ واجتهدت في تبليغه وبذلت وسعي فيه، فاعلموا أنه لا يبالي الله في إعراضكم وإصراركم بل إن شاء يستأصلكم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ ليتعظوا ويعتبروا منكم ﴿وَ﴾ أنتم بإعراضكم عنه سبحانه ﴿لَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾ من الأضرار لا بالله ولا بي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ من كمال جوده وسعة رحمته ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كائن في حيطة جوده ووجوده ﴿حَفِيظٌ ٥٧﴾ رقيب قريب.

﴿وَلَمَّا﴾ تمادوا في الغفلة والإعراض وبالغوا في الإصرار والاستكبار ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالريح، فعصفت عليهم السَّموم وكانت تدخل من أنوفهم وأفواههم فقطعت أمعاءهم فهلكوا، ولما أخذناهم بما أخذناهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ من مقام جودنا ﴿هُودًا﴾ الداعي لهم إلى سبيل الحق ﴿وَ﴾ نجينا أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ منهم ﴿مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ تفضلاً عليهم وامتناناً

وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا

﴿وَ﴾ ما اقتصرنا على إنجائهم بل ﴿نَجَّيْنَاهُم﴾ كرامة منا إياهم ﴿مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ معد لأولئك الكفرة في النشأة الأخرى.

﴿وَتِلْكَ﴾ العصاة الغواة المقهورون بقهر الله وغضبه ﴿عَادٌ﴾ المبالغون في العتو والعناد ﴿جَحَدُوا﴾ من غاية غفلتهم وغرورهم ﴿بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ المنزلة على ألسنة رسله ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ بالتكذيب والاستحقار لاستلزام الواحد تكذيب الجميع ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ من غاية جهلهم ونهاية بغضهم مع الله ورسله ﴿أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ مبالغ في التجبر والتكبر ﴿عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ متناه في المكابرة والعناد، فتركوا متابعة الداعي لهم إلى سبيل الرشاد.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي صاروا متبوعين للطرد والتخذيل في النشأة الأولى والأخرى ﴿أَلَا﴾ تنبهوا يا أولي الأبصار والاعتبار ﴿إِنَّ عَادًا﴾ المعاندين ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ نعمه وجحدوا توحيده ﴿أَلَا بُعْدًا﴾ طرداً وتخذيلاً وتبعيداً عن ساحة عز الحضور ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ أردفه بعطف البيان للتمييز عن عاد إرم.

﴿۞ وَ﴾ بعدما انقرضوا وانقهروا بما انقهروا أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ حين ظهروا بالكفر والشقاق والانصراف عن منهج الرشاد باتخاذ الأوثان آلهة ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ لأنه أولى وأليق لإرشادهم وإهدائهم

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ ....

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يكن له كفواً أحد، ولا تشركوا به شيئاً إذ ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ موجد مظهر لكم من كتم العدم ﴿غَيۡرُهُۥۖ﴾ بل ﴿هُوَ﴾ بذاته وأسمائه وأوصافه الذاتية والفعلية ﴿أَنشَأَكُم﴾ وأظهركم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بامتداد أظلال أسمائه ورش نوره ﴿وَ﴾ بعدما أظهركم منها ﴿اسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾ واستبقاكم ﴿فِيهَا﴾ ورباكم بأنواع اللطف والكرم عليها ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ واسترجعوا إليه على ما فرطتم في حقه ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ مخلصين نادمين عسى أن يقبل منكم ويعفو عن زلاتكم ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ﴾ لكم يعلم توبتكم وإخلاصكم فيها ﴿مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾﴾ يجيب دعوتكم ويعفو زلتكم.

﴿قَالُواْ﴾ بعدما سمعوا دعوته وتذكيره: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ أي مستشاراً ومؤتمناً واعتقدناك سيداً ذا رشد ﴿قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ الزمان فالآن صرت أخرق ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي نهيتنا عن عبادة معبودات آبائنا ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿إِنَّنَا لَفِي شَكّٖ﴾ وترددٍ عظيم ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ من توحيد الإله المعبود بالحق وإبطال آلهتنا التي وجدنا آباءنا لها عابدين، ﴿مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾﴾ ذي ريبة منتهية إلى كمال الارتياب، مع أنك لم تأت ببينة معجزة تلجئنا إلى تصديقك.

قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَـٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ملتبساً ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ واضحةٍ دالة على صدق ما ادعيت نازلةٍ ﴿مِّن﴾ عند ﴿رَّبِّي﴾ لتصديقي وتأييدي ﴿وَ﴾ الحال أني قد ﴿آتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ نبوة ورسالة تامة مؤيدة بأنواع المعجزات ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ ويمنعني ﴿مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ في تبليغ رسالته وإظهار ما أمرني بظهوره وأوصاني بنشره ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ حين ابتلائي وأخذ الله إياي بعصياني ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾ على تخسير وتخذيل على تخذيل.

﴿وَ﴾ بعد ما آيس عن إيمانهم قال ﴿يَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ دالة على صدقي في دعواي وتأييد الله إياي ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ مسلمة بلا منع وإباء ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ لأجل الماء والكلأ ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ ويلحقكم بعدما أصبتموها بسوء ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾ أجله وحلوله، وبعدما ظهرت الناقة بين أظهرهم وأكلت كلأهم وشربت ماءهم فتضرروا منها وشاوروا في أمرها وتقرر رأيهم إلى قتلها ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ وهلكوها ظلماً وزوراً ﴿فَقَالَ﴾ صالح بعدما وقع الواقعة الهائلة: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِي دَارِكُمْ﴾ أي عيشوا فيها بعد ما خالفتم حكم الله وآتيتم بما نهيتم ﴿ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ الأربعاء والخميس

ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾

والجمعة، فوادِعوا فيها وتوادعوا واعلموا أن ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ﴾ أوحي إلي من ربي ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾﴾ أي غير منسوب إلى الكذب، بل مصدق متيقن فلا تشكوا.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذاب المهلك بعد انقضاء الأيام الثلاثة التي ظهرت فيها علاماته من اصفرار في وجوههم في اليوم الأول، واحمرارها في الثاني، واسودادها في الثالث ﴿نَجَّيۡنَا﴾ من فضلنا وجودنا ﴿صَٰلِحٗا﴾ الذي صلح نفسه وأصلح نفوسهم فلم يقبلوا إصلاحه بل أفسدوها بأنفسهم ﴿وَ﴾ نجينا أيضاً منهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وصلحوا بإصلاحه ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ على قلوبهم ليوفقوا بها على قبول دعوته والإيمان به، وبسبب إيمانهم نجوا من خزي النشأة الأخرى ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ أيضاً ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا أكمل الرسل الموفق لهم على الإيمان والإذعان ﴿هُوَ ٱلۡقَوِيُّ﴾ المحصور على القوة والقدرة، إذ لا حول ولا قوة إلا به ﴿ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾ الغالب على إمضائه وإنفاذه حيث أراد وشاء.

﴿وَ﴾ بعد ما أنجاهم الله بلطفه ﴿أَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أنفسهم بالعتو والفساد ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ الهائلة التي وعدها الله لإهلاكهم ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ بعدما سمعوا الصيحة في أثناء الليل ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ التي صاروا متمتعين فيها ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ ....

جامدين ميتين.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَآ﴾ أصلاً، ونادى عند وقوع الواقعة الهائلة أصحاب الاعتبار والاستبصار: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ بكفران نعمه وتكذيب رسله ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ عن سعة رحمة الحق في النشأة الأولى والأخرى.

وبعدما انقرض أولئك الهالكون حدث بعدهم قوم لوط المبالغون في الغفلة القبيحة عقلاً ونقلاً، المصرون عليها إلى أن أخذناهم بما أخذناهم

﴿وَ﴾ حين أردنا أخذهم ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ أي الملائكة المأمورون لإهلاك قوم لوط ﴿إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ والبشارة بالولد بعدما آيس هو وزوجته عن التوالد والتناسل ﴿قَالُواْ﴾ له حين لاقوه: ﴿سَلَٰمًا﴾ أي نسلم سلاماً عليكم ترحيباً منا عليك ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ عليكم دائماً مستمراً أيها المستحقون للتحية والترحيب ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ وسكن بعد نزولهم إلى ﴿أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ مشوي ضيافة لهم ونزلاً لقدومهم ووضع بين أيديهم فانصرفوا عنه ولم يمدوا أيديهم نحوه.

﴿فَلَمَّا رَءَآ﴾ إبراهيم ﴿أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ ولا يتناولون منه كما هو عادة المسافرين ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي أنكر منهم عدم أكلهم، لأن الامتناع من الطعام

وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ....

دليل على قصد المكروه لصاحبه ﴿وَأَوْجَسَ﴾ أي أضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ خوفاً ورعباً حتى أحسوا منه الخوف وعلامات الرعب ﴿قَالُوا۟﴾ تسلية وتسكيناً: ﴿لَا تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّآ﴾ وإن كنا من أهل الإنذار والإهلاك ﴿أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ﴾ إهلاك ﴿قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ ما لنا معك شغل.

﴿وَ﴾ حين قالوا له ما قالوا، ﴿ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أي سارة حاضرةٌ ﴿قَآئِمَةٌ﴾ لخدمة الأضياف ﴿فَضَحِكَتْ﴾ بعدما سمعت قولهم فرحاً وسروراً؛ لأنها كانت تقول لإبراهيم: اضمم إليك لوطاً فإني أعلم أن البلاء ينزل على هؤلاء المسرفين ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا﴾ أي سارة تفضلاً وامتناناً ﴿بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ ولده ﴿يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ أبا الأنبياء.

﴿قَالَتْ﴾ بعدما سمعت التبشير مستحية مستغربة: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أي يا هلكتي وفضيحتي ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ قد مضت علي تسع وتسعون سنة ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ فانياً ابن مائة وعشرين سنة ﴿إِنَّ هَٰذَآ﴾ أي التوالد بيننا ﴿لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ غريب خارق للعادة إن وقع.

﴿قَالُوٓا۟﴾ إزالة لشكها وتعجبها: ﴿أَتَعْجَبِينَ﴾ أي تستبعدين ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر بالقدرة الكاملة أمثال هذا أي التوالد بين الهرمين تفضلاً

رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ....

وامتناناً مع أنها ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾ أي أنواع فضله وجوده ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ أي خيراته الكثيرة النازلة ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾ يا أهل بيت الخلة والنبوة ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه في ذاته ﴿حَمِيدٌ﴾ يفعل ما يوجب الحمد له ﴿مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ محسن كثير الإحسان والإنعام المستجلب لأنواع المحامد والأثنية.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ أي الخوف والرعب بتسلية الرسل إياه ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بما لا ترقب له فيه أخذ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ أي يجادل مع رسلنا ويناجي معنا ﴿فِى﴾ حق ﴿قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ وأخذِنا إياهم، وما حمله على المجادلة والمناجاة في حقهم إلا فرط إشفاقه ورقة قلبه.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾ في نفسه ﴿لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول على الانتقام، كظيم الغيظ والغضب ﴿أَوَّٰهٌ﴾ كثير التأوه والتأسف من الذنب الصادر عنه ﴿مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ رجاع إلى الله في جميع حالاته، فقاس حالهم على نفسه، فأخذ يجادل في حقهم.

قال الرسل بوحي الله إياهم: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ المتحقق بمقام الخلة ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ﴾ الجدال وانصرف عن مدافعة كلام الله المبرم ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ﴾ وثبت منه سبحانه الحكم بهلاكهم حتماً مبرماً، ولا تنفعهم مجادلتك وممانعتك ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ﴾ عن قريب ﴿عَذَابٌ﴾ حتمٌ ﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ ....

بتقويتك وحمايتك.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿لَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ على أشكال مرد ملاح صباح متناسبة الأعضاء، وهم لا يرون أمثالهم في الصباحة واللطافة وكمال الرشاقة ﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾ أي ساء مجيئهم على هذه الأشكال لوطاً ومن آمن معه ﴿وَضَاقَ﴾ جيئتهم على هذه الصورة البديعة ﴿بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي شق على لوط والمؤمنين أمر حفظهم وحضانتهم، لأنهم علموا قبح صنيع قومهم لو علموا جيئتهم قصدوا لهم مكروهاً، واشتد عليهم أيضاً مدافعتهم وإخراجهم، لأنهم نزلوا ضيافاً، فاضطر لوط في أمرهم وشأنهم وتحير ﴿وَقَالَ﴾ متأوهاً متأسفاً متضجراً: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ شديد مظلم في غاية الشدة والظلمة.

﴿وَ﴾ بعدما أُخبر القوم بنزولهم ﴿جَاءَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ متجسسين ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يطوفون حول بيته سريعاً، ويطلبون فرصة الدخول عليهم، ويحتالون لدفع لوط والمؤمنين وهم قوم خبيث ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟﴾ من نهاية خباثتهم ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ الخارجة عن مقتضى العقل والنقل والمروءة، وحين اضطر لوط من ترددهم وتبخترهم ولم ير في نفسه مدافعتهم ومقاومتهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ لهم من غاية غيرته وحميته في حق أضيافه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الإناث ﴿بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾

إن أردتم الوقاع ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المنتقم الغيور عن تفضيحي ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ ولا تخجلوني في ضيفي ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ﴾ أيها المجبولون على فطرة الإدراك ﴿رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ ذو مروءة وعقل كامل.

﴿قَالُواْ﴾ في جوابه مبالغين مقسمين: والله ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ﴾ يقيناً ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ أي ميلٍ وحظٍ، بل إنما عرضتَ بناتك علينا لنترك أضيافك ﴿وَإِنَّكَ﴾ أيضاً ﴿لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾.

ولما اضطر لوط مسارعتهم ومماراتهم

﴿قَالَ﴾ مشتكياً إلى الله: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ أدفع بها حزني وخزي أضيافي لأدفعكم بتوفيق الله ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ﴾ وأرجع حين ظهور عدم مقاومتي ومدافعتي معكم ﴿إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ هو حفظ الله وكنف جواره وحصن حضانته.

ثم لما رأى الرسل اضطرار لوط واضطرابه، إذ هو يغلق على أضيافه باب بيته، فيجادل مع قومه، يتكلم معهم، وبعد ما امتدت مجادلته معهم، قصدوا أن يثقبوا الجدار فاشتغلوا بالثقب والنقب.

﴿قَالُواْ﴾ أي الرسل بعدما بلغ ألم لوط غايته: ﴿يَٰلُوطُ﴾ لا تغتم ولا تضطرب في أمرنا ولا تهلك نفسك غيرة وغيظاً ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أبداً أي لن ينالوا باضرارنا حتى اضطررت من أجلنا، ذرنا معهم، واخرج من

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ ....

بيننا وبينهم، وخرج لوط مفتحاً باب بيته، فدخلوا على الرسل بالفور، فضرب جبرائيل عليه السلام بجناحه فأعماهم، فانقلبوا صائحين صارخين: النجاء النجاء! فإن في بيت لوط سحرة، وبعدما خرجوا فاقدين أبصارهم قال الرسل أمراً للوط: ﴿فَأَسْرِ﴾ أي سر ليلاً ﴿بِأَهْلِكَ﴾ أي بمن آمن معك ﴿بِقِطْعٍ﴾ أي بعد مضي طائفة ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ وَ﴾ بعدما خرجتم ﴿لَا يَلْتَفِتْ﴾ ولا ينظر ﴿مِنكُمْ﴾ أيها الخارجون ﴿أَحَدٌ﴾ خلفه حين سمع حنينهم وأنينهم وتشدد العذاب عليهم ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فإنها تلتفت حين سمعت الصيحة، فخرجوا على الوجه المأمور، فنزل عليهم العذاب بعد خروجهم بالفور، فصاحوا صيحةً عظيمةً، ولم يلتفت أحد من الخارجين إلا امرأته، فلما سمعت التفتت، وصاحت: واقوماه! فأصيبت بلا تراخٍ ومهلةٍ ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي الشأن والأمر في علمنا أنها ﴿مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ فلما سمع لوط ما سمع، استسرع إلى مقتهم من كمال ضجرته منهم، قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي موعد هلاكهم صبح هذه الليلة ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ﴾ أيها المستعجل ﴿بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ على رسلنا بإهلاكهم ﴿جَعَلْنَا﴾ أي جعل الرسل بإقدارنا وتمكيننا إياهم قريتهم ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أي يقلبون عليهم بيوتهم ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿أَمْطَرْنَا﴾ من جانب السماء ﴿عَلَيْهَا﴾ أي على أماكنهم وقراهم

حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَ..............................

﴿حِجَارَةً﴾ تنحجر ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ وهو معرب من سنك كل ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ ممتزج منضد بعضها على بعض ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة مقدرة ﴿عِندَ رَبِّكَ ۖ﴾ وفي حضرة علمه ولوح قضائه لأمثال هذه البغاة الغواة الهالكين في تيه الغفلة والغرور.

﴿وَمَا هِيَ﴾ أي أمثال هذه البليات والمعيبات ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الخارجين عن مقتضى حدود الله وأوامره ونواهيه ﴿بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ غريب حتى يستغرب في حقهم.

﴿۞ وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل للمؤمنين المعتبرين من ذوي الاستبصار والاعتبار وقت إذ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ حين بالغوا التطفيف والتخسير في المكيلات والموزونات ﴿أَخَاهُمْ﴾ ومن شيعتهم ﴿شُعَيْبًا ۚ﴾ المتشعب منهم، ليكون أدخل في نصحهم وأجهد في إهدائهم وإرشادهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ موصياً لهم متحنناً على وجه الشفقة والنصيحة: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الذي ليس له شريك في الوجود والألوهية والربوبية، وتيقنوا أنه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ﴾ مظهر لكم ولجميع ما ظهر وبطن غيباً وشهادة ﴿غَيْرُهُۥ ۖ﴾ بل الألوهية محصورة إليه، مقصورة له، إذ لا شيء سواه، ولا يستحق للعبادة إلا هو ﴿وَ﴾ عليكم أيها المأمورون من عنده بالاعتدال والاقتصاد في جميع الأخلاق

لَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ ....

والأفعال والأحوال أن ﴿لَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ لبني نوعكم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي سعة ورفاهية غاية لكم وتفضلاً عليكم، فعليكم أن تزيدوها وتديموها بالشكر والإنصاف والانتصاف على مقتضى ما أُمرتم به من عند ربكم، وإن لم تعلموا مني ونصحي ولم تقبلوا قولي ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ من غيرة الله وكمال قهره وسطوته ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ فيه عذابه على جميع أهل الزيغ والضلال، المنحرفين عن جادة الاعتدال.

﴿وَ﴾ بعدما قدم عليهم المنهي للعناية والاهتمام بشأنه أردفه بالمأمور للتأكيد والمبالغة وزيادة التقرير والإحكام، كأنه استدل عليه لمزيد إشفاقه وكمال مرحمته فقال: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ إن أردتم خير الدارين ونفع النشأتين ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ على عباد الله، أي لا تزيدوا عليها ولا تنقصوا منها، إذ الطرفان كلاهما مذمومان، بل أوفوهما ﴿بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ والعدل ﴿وَ﴾ عليكم أن ﴿لَا تَبْخَسُوا۟﴾ ولا تنقصوا ﴿ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ في حال من الأحوال ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي لا تظهروا عليها بالخداع والحيف والبخس والتطفيف.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾ التي قدرها في سابق حضرة علمه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ومزيد مما

إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ....

لكم من تطفيفكم وتنقيصكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبتدبيراته وتقديراته ﴿وَ﴾ اعلموا يا قوم إني ﴿مَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ يحفظكم عن جميع ما لا يعنيكم، بل أنا مبلغ ما أُرسلت به إليكم، فلكم الامتثال والتوفيق من الله الكبير المتعال.

ثم لما سمعوا منه ما سمعوا

﴿قَالُوا۟﴾ مستهزئين متهكمين: ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ المدعي دعوة الخلق إلى الحق ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ الكثيرة التي تصليها في خلواتك ﴿تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ من الأصنام والأوثان ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾ أي تأمرك صلواتك أن نترك أفعالنا التي كنا عملنا بها في ازدياد أموالنا حسب إرادتنا واختيارنا ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الداعي للخلق إلى الحق ﴿لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ﴾ ذو الحلم والكرم ولا تعجل في الانتقام ﴿ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ العاقل لا تتكدر بمثل هذه الأوهام قالوا له هذا استهزاء وسخرية.

﴿قَالَ﴾ شعيب بعدما تفرس بنور النبوة باستهزائهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ الساعين للباطل المصرين عليه ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ﴾ جئت لكم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ مصدقة ناشئة ﴿مِّن﴾ قبل ﴿رَّبِّى﴾ معجزة لجميع ما يقابلني ويعارضني

وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ

﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿رَزَقَنِي مِنْهُ﴾ أي من عنده سبحانه ﴿رِزْقًا حَسَنًا﴾ معنوياً وصورياً وروحانياً وجسمانياً، فهل يليق بمثلي أن يفتري عليه، وينسب إليه مراء ما لم يوح من عنده كذباً وبهتاناً ﴿وَ﴾ اعلموا أيضاً أني ﴿مَا أُرِيدُ﴾ بنهيي لكم عن التطفيف والتبخيس ﴿أَنْ أُخَالِفَكُمْ﴾ فيما أنتم عليه وارجع بنفسي ﴿إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ لأستبد واتخصص به، وهو إفساد وميل عن جادة الله الحق وصراط الله الأقوم، فكيف يميل الموحد المؤيد إلى أمثال هذا بل ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾ أي ما أريد ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ﴾ مقدار ﴿مَا اسْتَطَعْتُ﴾ ﴿وَ﴾ ما أنا متكفل للصلاح أيضاً ومدع الاستقلال به ﴿مَا تَوْفِيقِي﴾ أي إقداري وتمكيني وحولي وقوتي ﴿إِلَّا بِاللَّهِ﴾ إذ لا حول ولا قوة بالأصالة إلا بالله لذلك ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي وثقت والتجأت ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ أرجع وأتوجه في جميع ما رجوت، إذ هو مولاي ومولي أموري وعليه اعتمادي واعتضادي.

﴿وَ﴾ بعد ما تفرس منهم المصيبة والمراء المفرط، قال على مقتضى المحبة والشفقة وإرخاء العنان: ﴿يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي﴾ أي لا يحملنكم بغضي وعداوتي على الجرائم المستجلبة لأنواع العذاب والنكال إني أخاف عليكم ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ بسبب جرائمكم وعصيانكم ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ﴾ مثل ما

قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ....

أصاب ﴿قَوْمَ هُودٍ أَوْ﴾ مثل ما أصاب ﴿قَوْمَ صَٰلِحٍ﴾ وبالجملة ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ﴾ وقصة استئصالهم وإهلاكهم وتقليب أماكنهم عليهم ﴿مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ متمادٍ في البعد إلى حيث يحصل لكم الذهول عنه لقرب عهدهم.

﴿وَ﴾ يا قوم ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ الذي أظهركم من العدم من جميع فرطاتكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي أخلصوا في إنابتكم ورجوعكم، ولا تغتموا بعد إخلاص التوبة بما جرى عليكم من الجرائم ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ يقبل توبتكم ويعفو عن زلاتكم ﴿وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ يحبكم ويرحمكم ويتفضل عليكم.

وبعدما بالغ في نصحهم وإرشادهم ﴿قَالُوا۟﴾ تسفيهاً عليه وتخويفاً: ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ نادوه على سبيل الاستهزاء والاستحقار ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ونفهم ونعقل ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي بعض هذياناتك التي تكلمت بها ﴿وَإِنَّا﴾ أي وإن لم نفهم بعض كلماتك لابتنائها على الخبل والخرق ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ في بادي الرأي ﴿فِينَا ضَعِيفًا﴾ في غاية الضعف والحقارة ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي عشائرك وأقوامك ﴿لَرَجَمْنَٰكَ﴾ بالحجارة البتة بسبب هذياناتك وذكرك آلهتنا بالسوء ودخلك على أفعالنا مع أموالنا ﴿وَ﴾ اعلم يقيناً إنك بنفسك ﴿مَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ بل عزتك عندنا بسبب رهطك لكونهم إخواننا في الدين،

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ ....

فلا نريد أذاهم بقتلك، وإلا فلا نبال بك وبرحمتك.

وبعدما آيس شعيب عليه السلام من إيمانهم:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ أضافهم إلى نفسه هنا تهكماً بخلاف ما مضى، إذ قد آيس عن صلاحهم بالمرة: ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ وأقوالي ﴿أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الذي أوجدكم من كتم العدم فعزرتموهم وراعيتم جانبهم ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ أي الله سبحانه وأوامره ونواهيه وإطاعة رسوله ﴿وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي منبوذاً وراء ظهوركم، بل رجحتم جانب المصنوع على جانب الصانع ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من المفاسد ﴿مُحِيطٞ ٩٢﴾ بعلمه إحاطة حضورٍ لا يغيب عنه شيء، فيفصلها عليكم ويجازيكم بها.

﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ الناكبين عن طريق الحق المصرين على الباطل ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ وعلى مقتضى مرتبتكم ونشأتكم أي عمل شئتم ﴿إِنِّي﴾ أيضاً ﴿عَٰمِلٞۖ﴾ على شأني ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أنتم وأنا أيضاً ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ ويرديه ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ منا بالله وبسر ربوبيته وتوحيده ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ أي انتظروا وترقبوا بالعذاب والنكال ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ منتظر.

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ﴾ ونفذ ﴿أَمْرُنَا﴾ بإهلاكهم ﴿نَجَّيْنَا﴾ وأخرجنا أولاً من بينهم ﴿شُعَيْبًا﴾ الناجي ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وامتثلوا بما أُمروا به من عندنا ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ نازلة ﴿مِّنَّا﴾ إياهم تفضلاً ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم حين صاروا في فراشهم بائتين ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ الهائلة ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ التي كانوا مترفهين فيها ﴿جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ جامدين جثومهم وأجسادهم بلا روح. وصاروا:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟﴾ ولم يسكنوا ﴿فِيهَآ﴾ فصاح عليهم من صاح من أرباب الفطنة والعبرة: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

وبعدما انقرض أولئك الطغاة الغواة المنهمكين في الغي والضلال المفسدين في الأرض بأنواع الإفساد والإضلال.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ حين حدث على الأرض أمثال أولئك الهالكين بل أسوأهم حالاً وأقبحهم شيمة وخصالاً وأشدهم بغضاً وشكيمة على الحق وأهله عبدَنا ﴿مُوسَىٰ﴾ المخصص من عندنا بتكليمنا ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ الدالة على توحيدنا واستقلالنا في ملكنا وملكوتنا ﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾ أي أيدناه من عندنا بحجة واضحة وبرهان ﴿مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾ ظاهر الدلالة على صدقه في دعواه عند من له أدنى مسكة.

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ الذي هو رأس أهل الضلال ورئيسهم إلى حيث تبعوه[1] بالألوهية من غاية عتوه واستكباره ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ المعاونين له في أمره وشأنه، ثم لما أمهلنا زماناً على غروره ورفعنا قدره في هذه الدينا مسروراً تغريراً عليه ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ من على الأرض ﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ وامتثلوا بمقتضاه ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾ هادٍ إلى الحق، موصل إلى مقصد التوحيد، بل هو غار [وفي نسخة غاو]، موصل إلى نار الخذلان وسعير الحرمان إذ هو بنفسه.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ﴾ أي يتقدم عليهم ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ التي انكشفت فيها السرائر واضمحلت الأوهام ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ مثل إيرادهم على ماء نيل في دار الدنيا، شبّه حالهم في النشأة الأخرى بحالهم في النشأة الأولى، لذلك عبر عنه بالإيراد ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ ونار الخذلان وجحيم الحرمان.

﴿وَ﴾ هم من غاية خبثهم وفسادهم ﴿أُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ﴾ النشأة ﴿لَعْنَةً﴾ دائمة مستمرة ﴿وَ﴾ يلعنون أيضاً ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بأضعاف هذه اللعنة وبالجملة ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ﴾ أي العون والعطاء ﴿ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ أي المعان والمعطى رفدهم التي هي طردهم في الدارين ولعنهم في النشأتين.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ وأخبارهم وما جرى عليهم

---

(١) في المخطوط (تبغوه).

نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ ....

﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ﴾ بالوحي يا أكمل الرسل ليكون عبرة لك ولمن تبعك مشاهدةً وتذكيراً ﴿مِنۡهَا﴾ أي من تلك القرى ﴿قَآئِمٞ﴾ جدرانها بلا سقوف ﴿وَ﴾ منها ما هو ﴿حَصِيدٞ﴾ مدروس منذك، كالزرع المحصود، عفت آثاره واندرست أطلاله.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ بإهلاكهم وتخريب ديارهم ﴿وَلَٰكِن﴾ هم ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ باتخاذ مصنوعاتنا آلهة أمثالنا مستحقة للعبادة ظناً منهم أن آلهتهم تنفعهم لدى الحاجة وتشفعهم وقت الشفاعة ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ﴾ أي كفت ودفعت عنهم ﴿ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظلماً وزوراً ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ أي شيئاً قليلاً من القضاء ﴿لَّمَّا جَآءَ﴾ أي حين جاء ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ يا أكمل الرسل وحين نزل عذابه وحل عقابه إياه بل ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ﴾ آلهتهم حين حلول العذاب عليهم ﴿غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾﴾ أي هلاك وتخسير، لأنهم بسبب عبادة هؤلاء، صاروا مطرودين عن سعة رحمة الله وجوده.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما سمعت يا أكمل الرسل ﴿أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ أي انتقامه وبطشه ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أي حين أخذ أهلها بظلمهم وعصيانهم ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ خارجة عن مقتضى الأمر الإلهي ونهيه وبالجملة ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ﴾

أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ

للمسرفين الخارجين عن حيطة حدوده ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلم ﴿شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ في غاية الشدة، لكونهم مبالغين في الإصرار والاستكبار.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصص الأمم الهالكة ﴿لَآيَةً﴾ عظة وعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ وحساب الله إياه فيها على رؤوس الأشهاد ﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ شهد فيه الجميع للجميع بل الأعضاء والجوارح على صاحبها.

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي اليوم الموعود ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ أي لانقضاء مدة قصيرة.

اذكر يا أكمل الرسل عظة وتذكيراً لمن تبعك

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم الموعود الهائل ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ فيه ﴿نَفْسٌ﴾ ولا يشفع شافع لشدة هوله وفزعه ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي بإذن الله وإقداره إياها ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي بعض الناس من الموقوفين في المحشر ﴿شَقِيٌّ﴾ خرج من الدنيا على الشقاوة ووخامة العاقبة ﴿وَ﴾ منهم ﴿سَعِيدٌ﴾ خرج منها على السعادة وحسن العاقبة.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ في الدنيا وخرجوا منها على الشقاوة ﴿فَفِي النَّارِ﴾ أي

لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ....

هم في النشأة الأخرى داخلون في النار ومضطربون فيها إذ ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ أي إخراج النفس من شدة الحرارة، وشهيقٌ أي رده، يعني حالهم فيها كحال من استولت عليه الحرارة على قلبه وضيق الأمر عليه فيردد نَفَسَه، كما في سكرة الموت، وذلك من شدة كربهم وألمهم ولكونهم متناهين في الشقاوة في دار الدنيا لا ينقطع عذابهم فيها أصلاً.

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ أي ما تحقق الجهتان الحقيقيتان أي الفوق والتحت ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ أي تعلق إرادته ومشيئته لإخراج بعض منها كفساق المؤمنين ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ أي له الاختيار التام في جميع مراداته ومقدوراته.

ومن جملتها إخراج بعض العصاة من النار.

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ ﴾ في الدنيا وخرجوا على السعادة منها ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي هم في النشأة الأخرى في الجنة التي هي منازل السعداء الآمنين، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ فيها ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ متنعمين فيها مترفهين بأنواع النعم الجسام ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ﴾ وتعلق إرادته بإعلامها وهو الانكشاف الذاتي والتجلي الشهودي وذلك لمن يعطى ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي غير مقطوع، إذ لا انقطاع للتجليات الذاتية ولا للذّاتها

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ ....

المرتبة عليها بالنسبة إلى الفائزين بها.

جعلنا الله من خدامهم.

وبعدما تبين حال السعداء المقبولين والأشقياء المردودين

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ شك وتردد ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركون أن لا يستجلب عليهم العذاب والنكال كما استجلب على أسلافهم إذ هم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ وأسلافهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ فسيلحقهم مثل ما لحقهم؛ لأن اشتراك الأسباب يوجب اشتراك المسببات ﴿وَإِنَّا﴾ وإن أمهلناهم زماناً في الدنيا ﴿لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ وحظهم من العذاب في الآخرة مثلهم ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ من عذابهم.

﴿وَ﴾ كيف لا نوفي العذاب على المشركين ﴿لَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ من عظيم جودنا ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة حين فشا الجدال والمراء والكفر والفسوق بين بني إسرائيل واضمحلت العدالة الإلهية بالكلية ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ مثل اختلافهم في كتابك الذي هو أفضل الكتب علماً وإحاطة، وأجمعهم حكماً، وأشملهم معرفة، وأكملهم حقيقة وكشفاً ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ في أنظار هؤلاء الكفرة وإمهالهم إلى يوم القيمة ﴿لَقُضِيَ﴾ أي حكم وفرق ﴿بَيْنَهُمْ﴾ الآن بحيث يتميز المحق من المبطل فليلحق المبطلين وبالَ

وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا

ما صنعوا، فهلكوا كما هلكوا ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي كفار قومك من غاية انهماكهم في الغفلة وتماديهم في العناد والاستكبار ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ أي من أمر القرآن مع أنهم عارضوا معه مراراً فأُفحموا ﴿مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ موقع للريب والشك، للخرفاء المنحطين عن التأمل في مرموزاته والتدريب في إشاراته.

﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ أي كلاً من المؤمنين المحقين والمبطلين الكافرين، والله ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ ويوفرن عليهم بلا زيادة وتنقيص إظهاراً للقدرة الكاملة والعدالة التامة الشاملة ﴿رَبُّكَ﴾ الذي أظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أجورها وجزاءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر والصلاح والفساد والعبادة وتركها ﴿خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾ على وجه الحضور لا تغيب عنه غائبة ولا تخفى عليه خافية.

ومتى تلطفت يا أكمل الرسل بخبرة الحق وحضوره وتنبهت تنبيهاً وجدانياً حضورياً وانكشفت بها انكشافاً عينياً شهودياً:

﴿فَاسْتَقِمْ﴾ أي فاعتدل في أوصافك وأفعالك وأقوالك ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ من ربك بوحيه عليك وإلهامه إليك، وأمر أيضاً بالعدالة والاستقامة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ وآمن لك واتخذ طريقك مسلكاً إلى الحق ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تميلوا ولا تخرجوا أيها المتحققون بحقية التوحيد واستقامة صراطه

إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ....

ولا تنحرفوا عن سبيل السلامة التي هي جادة الشريعة المصطفوية أصلاً ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بذاته ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ من جميع الأعمال الموجبة للعدالة والانحراف ﴿بَصِيرٞ ﴿١١٢﴾﴾ لا يخفى عليه شيء.

ولصعوبة الامتثال بهذه الآية الكريمة قال ﷺ: «شَيَّبَتْنِي سُوْرَةُ هُوْد»[1]، وقال أيضاً ﷺ: «هَذِهِ الآيَةُ قَصَمَتْ ظُهُوْرَ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَأَوْلِيَائِهِ»[2].

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ أي لا تميلوا ميلة ولا تلتفوا التفاتاً قليلاً أيها المستوون على صراط الله المستقيمون لجادة عرفانه ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي خرجوا عن حدود الله الموضوعة لإصلاح أحوال عباده ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بأدنى الميل والالتفات ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ ينقذونكم من النار لو توالونهم أو تداومون الميل إليهم ﴿ثُمَّ﴾ اعلموا أنكم لو اخترتم موالاة الظلمة واتخذتموهم إخواناً كسائر المؤمنين ﴿لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ ولا تنقذون من النار، فعليكم أن لا تتخذوا الكفار أولياء من دون المؤمنين.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك [٢/ ٣٧٤ رقم / ٣٣١٤/] وقال: على شرط البخاري ولم يخرجاه والطبراني في المعجم الكبير [٦/ ١٤٨ رقم / ٥٨٠٤/] والترمذي في سننه [٥/ ٤٠٢ رقم / ٣٢٩٧/ باب: سورة الواقعة] قال ابو عيسى: هذا حديث حسن غريب (قلت): وللحديث شواهد كثيرة. انظر مجمع الزوائد [٧/ ٣٧ باب: سورة هود عليه السلام].

(٢) ليس حديثاً لأن الأنبياء السابقين لا يعلمون ما في القرآن، ولم أجد لهذا اللفظ تخريجاً في كتب الحديث أوالتفسير.

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ ......

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي أدم الميل والركون إلى الله بجميع الأعضاء والجوارح في جميع الأوقات والحالات سيما ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي قبل الطلوع وقبل الغروب فإنهما وقتان محفوظان عن وسوسة الأوهام، خاليان غالباً عن الشواغل ﴿وَ﴾ عليك أن تختلس لتوجهك ﴿زُلَفًا﴾ أي ساعات ﴿مِّنَ﴾ آخر ﴿ٱلَّيْلِ ۚ﴾ قريبة بالنهار، فإن إقدامك عليها وإقامتك لها حسنات خصوصاً في تلك الساعات الخالية عن وساوس الخيالات ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ الخالية عن الرياء والرعونات ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ وتصفي صاحبها عن كدر الغفلات ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الأمر بالاستقامة على المتعظين الذين يذكرون الله في السراء والضراء، ويتعظون بجميع ما جرى عليهم من الخصب والرخاء إنما هو ﴿ذِكْرَىٰ﴾ وعظة وتذكرة شافية ﴿لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ الله في عموم أحوالهم وحالاتهم.

وبالجملة ﴿ وَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم واكظم غيظك، فإن الصبر على الأذى من أعظم الحسنات ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ سيما على من أساء عليه.

﴿ فَلَوْلَا﴾ أي فهلا ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ اللاتي خلون ﴿مِن قَبْلِكُمْ ﴾ وفيها ﴿أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ ﴾ أي ذوو رأي ونهية وفضل وتدبير ﴿يَنْهَوْنَ﴾ برأيهم وتدبيرهم ﴿عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ الواقع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ولكن ما أبقينا عليها منهم

إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ....

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي من عقلائهم ليتبع لهم العوام فينجوا من الآثام ﴿وَ﴾ مع ذلك لم يتبعوا حتى ينجوا بل ﴿اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بالعرض على عذاب الله والخروج عن مقتضى حدوده بـ ﴿مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ أي المترفهة المتنعمة من ذوي اللذات والشهوات، فاهتموا بتحصيل أسبابها ﴿وَكَانُوا﴾ بميلهم إلى الهوى واللذات ﴿مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ مستحقين لأنواع العقوبات.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ أي ليس من سنته وجري عادته ﴿لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ﴾ بشرك وكفر صدر عنهم ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ أي والحال أن أهلها مصلحون على الأرض لا مفسدون فيها، يعني لا يأخذهم سبحانه بمجرد حق الله بلا انضمام حقوق العباد إليه، بل إنما أخذهم الله حين فشا الفسوق والمراء، وظهر الفساد والجدال بين العباد. كيف؟:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ﴾ من غاية لطفه لعباده ﴿لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ متفقة على التوحيد بلا مخالفة منهم.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وجعل فطرته على صرافة التوحيد ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ التوحيد والعرفان ﴿خَلَقَهُمْ﴾ وجبلهم ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ....

بوضع الاختلاف بين استعدادات عباده حسب تجلياته وشؤونه على مقتضى أوصافه وأسمائه المتقابلة بحسب الكمال ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ التي أُعدت للأشقياء المردودين المنحرفين عن جادة العدالة الإلهية والقسط الحقيقي ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ أي الشياطين ﴿وَٱلنَّاسِ﴾ التابعين لهم والمقتفين أثرهم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أي منهما جميعاً.

﴿وَكُلًّا﴾ أي كل قصة ﴿نَّقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ﴾ العظام من جملة ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ﴾ ونقرر على التوحيد ﴿فُؤَادَكَ ۚ﴾ إذ بكل قصة من القصص المذكورة ينشرح صدرُك للتوحيد ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ﴾ أي الشهود والانكشاف التام خاصة ﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ الذين يصدقونك ويقتفون أثرك.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بك وبدينك وبكتابك مماراة لهم ومباهلة ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أيَّ عملٍ شئتم ﴿إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ على مكانتنا وشأننا بتوفيق الله.

﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بأي شيء انتظرتم ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ العلمَ عند الله، إذ.

﴿وَلِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي الإطلاع عليهما وعلى مكنوناتهما ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ إذ لا شيء ولا أمر إلا هو

فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ حق عبادته ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ حق التوكل والتفويض ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾ يا أكمل الرسل المحيط علمُه بجميع ذرائر الأكوان إحاطة حضور ﴿بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ من الإخلاص في العبادة والتبتل والتوكل والتفويض والرضاء والتسليم.

خاتمة السورة

عليك أيها المحمدي المأمور بتهذيب الأخلاق من الرذائل ؛ والأوصاف من الذمائم ؛ والأوصاف والأفعال من القبائح ؛ والأقوال من الكواذب ؛ والأطوار من المخالفة المنافية لصرافة التوحيد: أن تستقيم بعزائمك هذه على الوجه المأمور لنبيك الذي هو قبلة لجميع مقاصدك بقوله تعالى:

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [١١-هود١١٢] أي فاعتدل بجميع ما صدر عنك، فلك أن تقتفي أثره ﷺ في جميع حالاتك من امتثال الأوامر واجتناب النواهي وتهذيب الأخلاق.

إذ هو ﷺ زبدة أرباب التوحيد الواصلين بمقعد الصدق ومنزل التفريد، والسابقون واللاحقون كلهم يقتبسون من مشكاة أنواره ﷺ.

فعليك أيها المستعد المستشرد من الكلام المجيد أن تضبط جميع أحوالك على الاستقامة والاعتدال، وتجتنب عن كِلا طرفي الإفراط والتفريط، وتستعيذ بالله عن مداخلة الرياء والسمعة المنافيين للإخلاص.

واعلم أن خير قرينك في طريقك هذا: الرضا والتسليم والتفويض إلى العزيز العليم.

ولك العزلة عن الخلطة والانخراط في سلك أهل الثروة والغفلة، والقناعة بالكفاف والعزوبة بالعفاف.

وعليك أن لا تفرق خاطرك وهمك في أمور دنياك، ولو لحظة حتى لا تورثك هماً كثيراً وحزناً طويلاً، إذ المسافر في منزله لا يتصرف إلا مقدار مقيله، أما تسمع قول النبي ﷺ الأديب الأريب: «كُنْ فِيْ الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ»(١)، أو (اشْدُدْ حَيَازِيْمَكَ لِلْمَوْتِ وَالرَّحِيْلِ كَأَنَّكَ عَابِرُ سَبِيْلٍ)(٢).

وبالجملة لا تغتر بحياتك في دار الغرور، وعدَّ نفسك من أصحاب القبور، فإنه دأب أهل السرور، ديدنةُ أرباب الحضور.

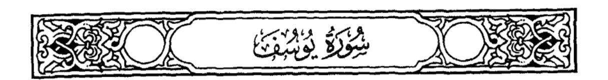
---

(١) رواه البخاري في صحيحه [٥/ ٢٣٥٨ رقم / ٦٠٥٣/ في الرقائق: باب قوله ﷺ : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»]، وابن حبان في صحيحه [٢/ ٤٧١ رقم / ٦٩٨/ ذكر الإخبار عن الوصف الذي يجب أن يكون في المراء في هذه الدنيا الفانية الراحلة] والترمذي في سننه [٤/ ٥٦٧ رقم / ٢٣٣٣/ في الزهد] جميعاً عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) وقد ورد هذا البيت منسوباً إلى عليٍّ رضي الله عنه ولفظه:

اشدد حيازيمك للمو ت فإن الموت آتيك

ولا تجزع من الموت إذا حــــلَّ بواديـك



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

فاتحة سورة يوسف عليه السلام

لا يخفى على من تأمل في صور الرؤيا وتدبر في كيفية ظهورها وانمحائها سريعاً وعدم استقرارها كالبرق الخاطف، إن الوجود الخيالي ألطفُ الموجودات وأرقُّها، وأصفاها عن كدر الهيولى، وأشبهُها بالتجليات الإلهية المتجددة المتشعشعة دائماً، إلا أن الآثار الغيبية التي هي منزوعة عنها مأخوذة منها ستوجد[1] البتة، كذلك وجب العبور عنها والتعبير بها، ولهذا صار الرؤيا الصالحة جزءاً من سبعين[2] جزءاً من أجزاء النبوة، إلا أن المطلعين عليها والمتأملين فيها ممن حصَّنه الله بالنفوس القدسية والمرتبة الحدسية المتفرعة على التمرين والرسوخ في سر سريان الوحدة الذاتية المتجلية على ذرائر المكونات وفي كيفية رقائق المناسبات والارتباطات الواقعة بين أجزاء المظاهر وجزئياتها، إنما هو في غاية الندرة، وبواسطة ذلك صارت كمالاتهم اللائقة لنشأتهم كلها بالفعل، وصاروا بذلك مستحقين للخلافة والنيابة الإلهية.

ومنهم يوسف الصديق صلوات الرحمن عليه وسلامه أحاط بحضرة

(١) في المخطوط (سيوجد).

(٢) المعروف أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وستين جزءاً من النبوة، لأن زمن النبوة ثلاث وعشرون سنة، وفترة الرؤيا الصالحة للرسول صلى الله عليه وسلم نصف سنة، فتصبح بذلك جزءاً من ستة وستين جزءاً من النبوة.

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾

الخيال إلى حيث لم يشذ عن تعبيره صورة من صور الرؤيا، كما أخبر عنه الحق سبحانه في هذه السورة، ويفصح عنه التواريخ والآثار المروية عن النبي المختار ﷺ، لما أراد سبحانه أن يشير إلى مرتبته وينبه على نبيه بعلو شأنه ورتبته، ذكر قصته في كتابه تتميماً لسعة دائرة كمال حبيبه ﷺ، والمقتفين أثره من خلص أولياء الله ؛ لينال كل منهم إلى ما قدر الله لهم من حظوظ المراتب، فقال متيمناً باسمه الكريم:

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بكمالاته على حضرة الخيال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعباده بالعبور عنها على صور الهياكل العينية والتمثال ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم[1] إلى كيفية ظهوره بالتفصيل والإجمال.

﴿الٓرۚ﴾ أيها الإنسان الكامل اللائق الرشيد لرفع لواء سرائر الربوبية ورموز التوحيد وتمييز أجل لباب الرؤيا والروايات الواردة لتبيينه عن قشورها ﴿تِلۡكَ﴾ العبر والأمثال والقصص والآثار المذكورة لك فيما يتلى عليك يا أكمل الرسل لتأييدك وارتفاع شأنك ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿١﴾﴾ الذي هو حضرة علمنا المشتمل على جميع مراداتنا ومقدوراتنا.

﴿إِنَّآ﴾ من مقام جودنا ولطفنا ﴿أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا﴾ منظماً على صور الألفاظ والعبارات، مترجماً عما عليه الأمر في حضرة علمنا الحضوري ﴿عَرَبِيّٗا﴾ أسلوبه عناية منا إليكم ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ معناها وتطلعون على مرموزاتها وإشاراتها وتطرحون عقولكم الموهوبة لكم لكشف سرائرها وخفياتها.

(١) في المخطوط (فهم).

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ

﴿نَحْنُ﴾ من كمال لطفنا معك ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ يا أكمل الرسل تأييداً لأمرك وتعظيماً لشأنك ﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ استماعاً وأكملها انتفاعاً وأشملها عبرة وأتمها فائدة وأعمها عائدة، إذ الفطن اللبيب استفاد منها من العبر والتذكيرات والرموز والإشارات ما يكفي مؤونة سلوكه في أمر دينه لو كان من ذوي الرشد وأهل الخبرة والبصيرة، وإنما علمناه لك ونبهناه عليك ملتبساً ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ﴾ أي بإيحائنا وإنزالنا ﴿إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ المخبر عن المغيبات المكنونة في حضرة علمنا ﴿وَإِن كُنتَ﴾ في نفسك ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾ أي قبل وحينا وإلهامنا إياك ﴿لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾. اذكر يا أكمل الرسل:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ حين بلغ الحلم وترقى من الطفولية ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ ناداه تحنناً إليه: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾ في المنام ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من الكواكب العظام ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أيضاً معهن ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ واضعين جباههم على تراب المذلة عندي تعظيماً وترحيباً ـ جَمَعَها جمع العقلاء باعتبار ما يؤول إليه ويؤول به ـ ثم لما تفرس أبوه من الرؤيا ما تفرس بادر إلى نهيه عن الإفشاء والانتشار لإخوته حيث ﴿قَالَ﴾ له قبل أن يشتغل بتأويلها وتعبيرها: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ ـ صغّره تلطفاً له وإشفاقاً عليه وتخوفاً من كيد إخوته ـ ﴿لَا تَقْصُصْ﴾ ولا تذكر ﴿رُءْيَاكَ﴾ التي رأيتها

عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ....

﴿عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ لئلا يحسدوا لك من ارتفاع شأنك ﴿فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ بإغواء الشيطان إياهم ويختالوا لمقتك وهلاكك حسداً لك ولعلو شأنك ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ المغوي المضل ﴿لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ ظاهر العداوة محيل عظيم يعاديهم في لباس الصداقة ويفسدهم في صورة الإصلاح.

ثم لما سارع يعقوب عليه السلام بالنهي عن الانتشار والإفشاء تحذيراً وتخويفاً له من كيد إخوته، اشتغل بتأويل رؤيته فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إراءتك هذه الرؤيا وتخصيصك بها ﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ أي ينتخبك من بين الناس ويخصك بالرئاسة العظمى والمرتبة العليا، وهي النبوة والنيابة الإلهية ﴿وَ﴾ بعدما يجتبيك ويصطفيك ﴿يُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي يخصصك بعلم الرؤيا وتعبيرها إلى حيث انكشف لك حضرة الخيال انكشافا تاماً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَ﴾ بواسطتك ﴿عَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي بنيه وأحفاده ومن ينتمي إليه وإن سفل ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ﴾ أي جدّيك ﴿مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان يعني ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ أعطاهما من الإنعام والأفضال ما لم يعط أحداً من الخلة والإنجاء والإنقاذ والفدية والخلاص وغير ذلك من النعم الجسام ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي رباك بأنواع اللطف والكرم ﴿عَلِيمٌ﴾ بعلمه الحضوري لاستعدادات عباده على مقتضى ما ثبت

حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾

في لوح قضائه إجمالاً ﴿حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾ في صورة تفضيله على وفق إجماله، لا يشذ عن حيطة علمه شيء. واعلم يا أكمل الرسل أنه:

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي﴾ قصة ﴿يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾ وما جرى بينهم من الحيل والمخادعات وإسقاط المروءة والخيانات والإنابة والرجوع منها إلى الله في الخلوات وإظهار العدم والاستحياء من الله ، ومنه يوسف وأبيه ﴿ءَايَٰتٌ﴾ دلائل واضحات وشواهد مفصحات عن أسرار التوحيد ﴿لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾ لو تأملوا في رموزها وإشاراتها واعتبروا منها.

اذكر لهم يا أكمل الرسل:

﴿ إِذْ قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف حين بثوا الشكوى من أبيهم في خلواتهم حاسدين على يوسف وأخيهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين أضافوه لكونه من أمه ﴿أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ يؤانس معهما ويتحنن إليهما ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ فرقة ذوو قوة وكفاية تستحق وتليق أن يجبنا، ويلتفت إلينا وبالجملة ﴿إِنَّ أَبَانَا﴾ في تفضيل المفضول وترجيح المرجوح ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ ظاهر المخالفة للعقل والعرف.

فعليكم أيها الإخوان أن تتأملوا في أمر أبيكم وتتشاوروا لمقت يوسف وهلاكه حتى لا يلحق العار عليكم.

ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ ....

﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ حتى ييأس أبوكم منه ويقبل إليكم بالكلية ﴿أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾ بعيدة عن العمران غاية البعد حتى ينساه أبوه وحينئذٍ ﴿يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ أي يخص ويخلص لكم مواجهة أبيكم خالياً عن أغياركم ويقتصر حينئذ التفاته وتحننه نحوكم ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي بعد فقد يوسف عن نظر أبيكم وغيبته من عنده ﴿قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ لخدمته وصحبته ومؤانسته، أو المعنى بأن تتوبوا بعدما صدر عنكم هذه الجريمة، ولتكونوا من بعده قوماً صالحين تائبين.

وبعدما تشاوروا في مقت يوسف وطرحه وطرده

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ وهو يهوذا وكان أحسنهم رأياً: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ إذ نحن من عترة الأنبياء، لا يليق بنا قتله بلا رخصة شرعيةٍ، ﴿وَ﴾ إن أردتم ان تدفعوه من عند أبيكم ﴿أَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ﴾ الذي على متن الطريق ﴿يَلۡتَقِطۡهُ﴾ أي يأخذه ويذهب ﴿بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي بعض السائرين في أقطار الأرض الواردين على الماء فلا طريق لكم لطرده وطرحه سوى هذا ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ قاصدين جازمين أن تفعلوا معه ما يبعده عن وجه أبيه.

وبعدما سمعوا من يهوذا ما سمعوا واستقر رأيهم على رأيه، فأخذوا يحتالون ويمكرون لينالوا ما قصدوا، فاجتمعوا يوماً عند أبيهم تحنناً عليه وتواضعاً.

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ....

﴿قَالُواْ﴾ له على سبيل الشكوى وإظهار الحزن: ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾ نحن بنوك وخادموك ويوسف أخونا وقرة عيننا وقوة ظهرنا ﴿مَا لَكَ﴾ أي شيء من السوء منا عرض لك ووصل إليك ﴿لَا تَأْمَ۬نَّا﴾ أي لا تجعلنا أمناء مشفقين ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا﴾ في أنفسنا ﴿لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ مشفقون حافظون مريدون الخير له.

ثم لما تفرسوا بأن أثّر كلامهم في أبيهم، ولاح منه أمارات الرضا والتسليم، أخذوا في المكر حيث قالوا متضرعين إليه متحنين نحوه:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ نخرج إلى الصحراء مستنشقين ﴿يَرْتَعْ﴾ ويتفكه من أنواع الفواكه ﴿وَيَلْعَبْ﴾ بأنواع اللعب من الاستباق والانتضال تفريجاً له وتفريحاً للقلب ﴿وَ﴾ لا تخف من أن يلحقه مكروه ﴿إِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ بجمعنا من المكروهات.

ثم لما بالغوا وألحوا ﴿قَالَ﴾ أبوهم: ﴿إِنِّي﴾ من شدة محبتي وشوقي إليه وتحنني وعطفي نحوه ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ مفارقته ﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَ﴾ مع ذلك ﴿أَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ لأن أرضنا مذئبة ﴿وَأَنتُمْ﴾ لشدة شغلكم على الرتع واللعب ﴿عَنْهُ غَـٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ حينئذٍ ذاهلون عن حضانته وحفظه.

قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ ....

﴿قَالُواْ﴾ على سبيل الاستبعاد والاستنكار مقسمين تغزيراً عليه وتأكيداً لمكرهم وخداعهم: والله ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي جماعة أقوياء ذوو عِدة وعُدة وقدرة وقوة ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ ضعفاء ذليلون مغبونون، قالوا ذلك على سبيل التشدد وإظهار الجرأة والشجاعة، كأنهم يستدلون على عدم وقوع المحذر به.

﴿فَلَمَّا﴾ أحتالوا وبالغوا في الحيلة والمكر إلى أن ﴿ذَهَبُواْ بِهِۦ﴾ أي بيوسف إلى الصحراء، فاشتغلوا بضربه وشتمه والقهر عليه وأنواع العذاب والعقاب، وكادوا أن يقتلوه ظلماً وزوراً، قال لهم يهوذا: أنتم عهدتم أن لا تقتلوه فما هذه المبالغة والاشتداد أما تستحيون من الله ﴿وَ﴾ بعد ما قال لهم يهوذا هذا ﴿أَجْمَعُوٓاْ﴾ واتفقوا ﴿أَن يَجْعَلُوهُ﴾ ويطرحوه ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ﴾ وهو جب معروف مشهور بجب يوسف على ثلاثة أميال من صفد يعقوب قريب من جسر يقال له جسر يعقوب بفرسخ تقريباً، فقربوه على الجب وعزموا إلقاءه فيها، فتعلق يوسف بشفير البئر فربطوا يديه ونزعوا عنه قميصه ليلطخوه بالدم الكذب، فألقوه مربوطة يديه على الماء وكان فيها صخرة عظيمة جلس عليها عرياناً قلقاً حائراً حزناً مضطرباً مستوحشاً ﴿وَ﴾ بعد ما ألقوه وقضوا الوطر أزلنا عنه وحشته وكربه بأن ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ من مقام لطفنا وجودنا ﴿إِلَيْهِ﴾: لا تغتم أيها الصديق من صنيع هؤلاء الغواة الهالكين في تيه الحسد والعناد، إنا

﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ ....

بمقتضى كرمنا وإحساننا لنفضلنك عليهم ونمكنك على انتقامهم إلى حيث ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم﴾ وتحدثنهم معاتباً عليهم منتقماً منهم ﴿بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ معك وحيلتهم ومكرهم مع أبيك ﴿وَهُمْ﴾ في تلك الحالة ﴿لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وارتفاع قدرك وسلطانك.

اصبر أيها الصديق على أذاهم في الحال فإن لك السلطنة والسطوة عليهم في المآل.

﴿وَ﴾ بعد ما فعلوا بيوسف ما فعلوا ﴿جَآءُو أَبَاهُمْ﴾ ملتبسين محتالين ﴿عِشَآءً﴾ في آخر اليوم ﴿يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ صائحين صارفين فزعين تغريراً على أبيهم.

فلما سمع يعقوب صياحهم اضطرب فقال: ما لكم وأين يوسف؟!

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نتسابق بالعَدو والرمي واستمر تسابقنا ومالنا ﴿وَ﴾ قد ﴿تَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ لحفظها فغفلنا عنه بغرور السباق ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وكنت نظرت من أول الأمر فوقع ﴿وَ﴾ نحن نعلم ﴿مَآ أَنتَ﴾ يا أبانا ﴿بِمُؤْمِنٍ﴾ أي مصدقٍ ﴿لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ فيما أخبرنا لك لسوء ظنك بنا وفرط محبتك بيوسف.

﴿وَ﴾ بعد ما تفرسوا منه الإنكار والاستبعاد ﴿جَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ﴾ معه

بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَ...

﴿بِدَمٍ كَذِبٍۚ﴾ يعني جاؤوا مثبتين لدعواهم بدم كذب ملطخ على قميصه مفترين على الذئب بأنه أكله، وبعدما جاؤوا بالقميص الملطخ، طلب منهم أبوهم فألقاه على وجهه فبكى بكاء فظيعاً فجيعاً، وتمادى في البكاء زماناً طويلاً حتى احمرّ وجهه من الدم الملطوخ به، ثم كشف القميص فرآه لم يمزق، فقال: ما رأيت ذئبا أحلم من هذا الذئب، أكل ابني ولم يمزق قميصه ثم ﴿قَالَ﴾ متوجهاً إليهم: ما جئتم به معتذرين عليّ ليس بمطابق للواقع ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ﴾ سهلت ويسرت ﴿لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ بإلقاء الشيطان وتعليمه إياكم لتعتذروا به علي ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ أجمل علي فيما ابتليت ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ﴾ احتمال ﴿مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ بألسنتكم أيها المسرفون إذ لا طاقة في تحمله إلا بعون الله وإقداره.

﴿وَ﴾ بعد ما مضى ثلاثة أيام على الإلقاء ﴿جَآءَتۡ سَيَّارَةٞ﴾ رفقة وقفل عظيم يسيرون من مدين إلى مصر فنزلوا قريب الجب ﴿فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ﴾ الذي كان يرد الماء للاستسقاء وهو مالك بن زعر الخزاعي ﴿فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ﴾ أي ألقاها لإخراج الماء، فتدلى بها يوسف فأخرجها فرآه ﴿قَالَ﴾ مستبشراً فرحاناً: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ﴾ تعالي فهذا أوانك، إذ ﴿هَٰذَا﴾ الذي خرج بالدلو بدل الماء ﴿غُلَٰمٞۚ﴾ صبيح مليح في غاية الصباحة والملاحة ﴿وَ﴾ بعد ما أخرجوه

أَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ ....

ومن معه من رفقائه ﴿أَسَرُّوهُ﴾ وأخفوا أمره من البعض الآخر ليكون ﴿بِضَٰعَةً﴾ لهم وقت وصولهم إلى مصر ليشروه ويقسموا ثمنه ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لمخايل عباده ﴿عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي يقصدون عمله ويسرون في نفوسهم.

وبعدما اطلع أخوة يوسف على قدوم السيارة ونزولهم على الجب تسارعوا نحوهم ليبيعوه لهم حتى يخلصوا منه بالكلية، فوصلوا الجب ولم يجدوه وبادروا إلى القفل فتجسسوه، فوجدوه عندهم، فقالوا لهم: هذا عبدنا قد أبق منا إن اشتريتم نشريه[1] على ما رضيتم، وأقر يوسف على الرِّقية ولم ينكر عليهم خوفاً من القتل ﴿وَشَرَوْهُ﴾ بعدما اعترف بالرِّقية وباعوه ﴿بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ مبخوس منقوص ﴿دَرَٰهِمَ﴾ لا دنانير ﴿مَعْدُودَةٍ﴾ أي قليلة ﴿وَ﴾ إنما شروه بها لأنهم ﴿كَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ الراغبين المعرضين عنه، لذلك باعوه بها.

ولما اشتراه مالك بن زعر من إخوته بما اشتراه، ذهب به إلى مصر بضاعة فلما وصلوا إلى مصر وأراد أن يبيعه، فسلمه إلى النخاس فباعه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ﴾ وهو العزيز الذي كان على خزائن ملك مصر واسمه قطفير أو اطفير حين ذهب به إلى بيته ﴿لِٱمْرَأَتِهِۦٓ﴾ زليخا أو راعيل: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ وأحسني حاله ومعاشه وتلطفي معه بأنواع اللطف والشفقة، إني أتفرس منه الرشد والنجابة

---

(١) في المخطوط (نشتريه).

عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ بعقله ورشده وكفايته وتدبيره ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًاۚ﴾ يستخلف منا لأنه كان عقيماً فأراد أن يتبناه ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما عطفنا عليه العزيز بعد قهر إخوته وفرقة أبيه وأخيه وغربته من وطنه ووحشته في غيابة الجب وذلة رقبته ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلناه متصرفاً ذا قدرة واختيار في أرض مصر ليتصرف فيها بالرشد التام والقدرة الكاملة ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ﴾ وننبّه عليه ﴿مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾ الواقعة في عالم الكون والفساد طريق الرشد والعدالة ليصل بها إلى الاعتدال الحقيقي ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبر لأمور عباده ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ المراد له، المتعلق بمصالح بعض عباده ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ غلبته واستقلاله في أمره وتصرفه في ملكه، لذلك اشتغلوا بخلاف مراده والسعي في إبطاله كإخوة يوسف فلم يصلوا إلى ما قصدوا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُۥٓ﴾ أي كمال عقله وقوته وأوانه ما بين الثلاثين والأربعين ﴿ءَاتَيْنَٰهُ﴾ إنجازاً لما وعدنا عليه في سابق علمنا وقضائنا ﴿حُكْمًا﴾ أي حكومةً بين الناس مقارنة بين العدل والقسط[1] ﴿وَعِلْمًاۚ﴾ بسرائر الأمور ورقائق المناسبات ومن جملتها تعبير الرؤيا ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إيتائنا إياه من الفضائل والفواضل المقدرة له في لوح القضاء ﴿نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ الذين يحسنون الأدب معنا في جميع حالاتهم اتقاء منا وتوجهاً إلينا.

(١) في المخطوط (مقارنة بين العدل والقسط والعدل).

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل اتقاء يوسف الصديق من الله وقت اشتعال نار الشهوة في عنفوان الشباب حين ﴿رَٰوَدَتۡهُ﴾ أي خادعته وألحت عليه بالوقاع ﴿ٱلَّتِي﴾ أي الامرأة التي ﴿هُوَ﴾ أي يوسف ﴿فِي بَيۡتِهَا﴾ وهي سيدته له حاكمة عليه، وهي زليخا امرأة العزيز واحتالت عليه أن يخرجه ﴿عَن﴾ نزاهة ﴿نَّفۡسِهِۦ﴾ ونجابة فطرته وهي العصمة والعفاف إلى ما تهوى نفسها وهو الوقاع والسفاح، ﴿وَ﴾ بالغت في ذلك المكر والاحتيال إلى أن ﴿غَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ السبعة يوماً عليه وخلت معه في بيته ﴿وَقَالَتۡ﴾ متحننة عليه معرضة نفسها إليه: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾ أي بادِرْ يا يوسف إلى التعانق والجمع معي ﴿قَالَ﴾ يوسف على مقتضى نجابة النبوة وطهارة الفطرة بإلهام الله إياه مع سورة شهوته ووفور أمن ميله اتقاءً من محارم الله ورعاية لحق من أحسن إليه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ﴾ أي أعوذ بالله معاذاً وألوذ نحوه أن يعصمني عن أمثال هذه الغفلة الذميمة والديدنة القبيحة سيما مع من يربيني ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي زوجك سيدي ﴿رَبِّيٓ﴾ يربيني بأنواع اللطف والكرم سيما ﴿أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وأوصى لك بإحساني، فكيف أسيء في مقابلة إحسان محسني ومولي أمري ومولي نعمي﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ﴾ ويفوز ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ بالخير والحسنى، لو خرجوا من مقتضى الأمر الإلهي سيما بالإساءة في معاملة الإحسان.

﴿وَ﴾ بعدما رد يوسف عليها أمرها ﴿لَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ أي قصدت زليخا

وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ

وتعلقت به إرادة واختياراً لتصل إلى مرادها منه ﴿وَهَمَّ﴾ يوسف أيضاً ﴿بِهَا﴾ على مقتضى بشريته مع أنه لا إرادة له لمرادها ولا اختيار، إذ الكف عن المنهي لا بد وأن يكون عند القدرة عليه، وإلا لم يكن ممدوحاً ولا مستوجباً للمثوية والقربة ﴿لَوْلَآ أَن﴾ أي أنه ﴿رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ أي دليله الواضح الدال على قبح الزنا وإساءة المحسن بإلقاء الله إياه وإلهامه في قلبه، لهلك بنيران طغيان القوة الشهوية، لكن رآه بإراءة الله إياه فأبى وامتنع ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فعلنا معه وألهمنا إليه ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ﴾ في مقابلة الإحسان والفحشاء بدل العصمة والعفاف ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي يوسف الصديق ﴿مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ الخالصين عن رين البشرية وشين شهوتها وغضبيتها، المنزهين عن مقتضيات القوى البهيمية مطلقاً.

وبعدما غلب على يوسف الاتقاء عن محارم الله على مقتضى البرهان الذي رآه بإراءة الله إياه، بادر إلى الفرار منها، وقصد أن يخرج وقصدت أيضاً أن تمنعه عن الخروج.

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ قَالَتْ﴾ أي تسابقا نحوه يسبقها يوسف فأخذت ذيل قميصه ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ﴾ أي شقت ذيله ﴿مِن دُبُرٍ﴾ لأنها في عقبه، ففتح

وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ....

يوسف الباب فخرجا متعاقبين مضطربين ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا﴾ أي صادفا زوجها ﴿لَدَا ٱلْبَابِ﴾ وعنده ﴿قَالَتْ﴾ مسرعة باكية على سبيل الشكاية: ﴿مَا جَزَآءُ﴾ أيْ أيّ شيء مكافأة ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ أي قصدَ الزنا معها مكرهاً ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ﴾ أي غير أن يقيد ويدخل في السجن ﴿أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ مؤلم أشد من السجن.

وإنما فعلتها وبادرت إلى الشكوى متباكية لتظهر براءتها وعصمتها عند زوجها، وتحمّل الخطأ على يوسف لتنتقم عنه أو تلينه وتضطره على نجاح مرادها، مع أنها قد شغفها حباً ولم تصبر عنه لحظة.

﴿قَالَ﴾ يوسف مستحيياً من ربه: يا سيدي ما لي في ذلك خطأ ﴿هِىَ﴾ بنفسها ﴿رَٰوَدَتْنِى﴾ أي خادعتني ﴿عَن نَّفْسِى﴾ وبعد ما تعارضا عند السيد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ هو صبي في المهد أبهم في الشهادة وأجمل لأنه كان ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ وابن عمها أو ابن خالها فقال الشاهد: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ﴾ أي قميص يوسف ﴿قُدَّ مِن قُبُلٍ﴾ أي شق من قدامه ﴿فَصَدَقَتْ﴾ زليخا ﴿وَهُوَ﴾ أي يوسف ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾ في دعوى البراءة والتنزيه ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ أي خلف ﴿فَكَذَبَتْ﴾ هي في دعوى العصمة

وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ ....

والعفة ﴿ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ فيما ادعى من العفة والبراءة.

﴿ فَلَمَّا رَءَا ﴾ السيد ﴿ قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ تفرس إلى براءته وطهارة ذيله مع أن الشاهد أيضاً ليس من أرباب الولاية، إذ هو صبي رضيع في المهد لم يتكلم إلا بهذا فكوشف من نجابته وعفته ما كوشف، فتوجه نحو زوجته ﴿ قَالَ ﴾ مقرعاً عليها معرضاً: ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ أي ما وقع ﴿ مِن كَيْدِكُنَّ ﴾ وحيلتكن أيتها المحتالات ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ ﴾ ومكركن أيتها الماكرات المفسدات ﴿ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ من كيد الشيطان ومكره؛ لأن الشيطان يستعين ويستمد منكن وقت اضطراره.

ثم لما انكشف الأمر من عند العزيز، وجزم بطهارة ذيل يوسف ونجابة طينته، بادر إلى ستره وإخفائه خوفاً من الفضيحة، فقال منادياً ليوسف أولاً لصدقه وطهارته:

﴿ يُوسُفُ ﴾ أي يا يوسف ﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ ﴾ التكلم واكتمه في سرك، فقد ظهر عندي صدقك وبراءتك ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى ﴾ يا راعيل أو زليخا ﴿ لِذَنۢبِكِ ۖ ﴾ في هذا الأمر ﴿ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ المتعمدين القاصدين على الجريمة القبيحة الدنيئة الشنيعة، جَمَعَه جمع الذكور للتغليب.

﴿ وَ ﴾ بعدما شاع أمرهما وانتشر قصتهما بين الأنام ﴿ قَالَ نِسْوَةٌ ﴾ جماعة

فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ ....

من النساء من صناديدهن ﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ على وجه التشنيع والتقريع: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ﴾ تخادع وتحتال ﴿فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ﴾ طلباً لمواقعته إياها ومجامعته معها لأنها ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ﴾ أي دخل عن جميع شغاف قلبها وشقوقه، فصار قلبها ممتلئاً بمحبته وعشقه، لذلك راودته فامتنع عنها وأفضحها ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا﴾ بقبح فعلها وسوء صنيعها ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ من لحوق العار وفشو الفضيحة سيما مع الرقيق وكسر عرض العزيز بين الأنام.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ راعيل ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ وغيبتهن وتخطئتهن خفية ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ قواصد ليدعوهن على سبيل الضيافة ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ﴾ أي هيأت لكل واحدة منهن في بيتها ﴿مُتَّكَـًٔا﴾ على حدة ليتكئن عليها على ما هو عادة بلدتهم، ووضعت عند كل متكأ طبقاً من الفواكه مثل الكمثرى والتفاح وغيرهما ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ﴾ أي على عدد رؤوسهن ﴿سِكِّينًا﴾ في غاية الحدة والمضاء، وبعد تهيئة أماكنهن على الوجه المذكور جئن وجلسن عليها واشتغلن بأكل الفواكه وتنقية قشورها بالسكين ﴿وَ﴾ بعد ذلك ﴿قَالَتِ﴾ راعيل ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ﴾ فخرج ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ أي كبرن الله برؤية جماله وحسنه البديع وبهائه، إذ يتشعشع ويلمع ضوء وجهه على الجدار مثل الشمس والقمر.

وعن النبي ﷺ أنه قال: «رَأَيْتُ يُوْسُفَ الصِّدِّيْقَ عَليهِ السَّلامُ لَيْلَةَ المِعْرَاجِ

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ

كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ»[1].

ومن كمال حيرتهن على حسنه وجماله بهتن بأجمعهن ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ بالسكاكين أي كلٌ بسكينها ﴿وَ﴾ بعد ما أفقن ﴿قُلْنَ﴾ مستبعدات مستغربات: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ أي تنزه ذاته أن يعجز عن خلق مثله، غير أنه ﴿مَا هَٰذَا﴾ الهيكل المرأي ﴿بَشَرًا﴾ إذ لا نرى بشراً على هذه الصورة ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي بل ما هذا المشاهد المحسوس ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ نجيب مجسم من الروح لا من الطين .

وبعدما تفرست راعيل منهن ما تفرست من كمال الحيرة والحسرة والوله والهيمان برؤيته

﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ﴾ أي فهذا ذلك العبد الكنعاني ﴿ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ أي في مراودته والافتتان به وبمحبته ﴿وَ﴾ لما رأت راعيل ما رأت من نفسها بل أشد منها، أقرت عندهن ما فعلت معه لتستعين منهن ويحتلن في تليين قلبه فقالت متحسرةً ﴿لَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ مراراً كثيرة ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾ وأبى عن القبول من كمال عفته وعصمته ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي ما أنا آمر به من المواقعة والمجامعة ولم يقبل قولي ولم يقض حاجتي

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس بلفظ : «رأيت يوسف ليلة أسري بي في السماء الثالثة فإذا أنا برجل شاب راعني حُسنه قد فضل على الناس بالحسن». انظر مسند الفردوس [٢/ ٢٥٦رقم / ٣١٩٠/] وكنز العمال [١١/ ٢٣٤ رقم / ٣٢٤٠٩/].

لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ....

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي ليسجننه ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ الذليلين المهانين، الباقين في السجن مدة مديدة.

فلما قالت راعيل ما قالت وأقسمت، التفتْن بأجمعهن على إعانتها وإنجاح مرادها منه وألحْنَ واقترحن على يوسف بقبول قولها والإتيان بمطلوبها إلحاحاً بليغاً، بل أضمرن في أنفسهن كلٌ منهن إتيانه عليهن بمقتضى النساء.

وحين رأى يوسف اتفاقهن واجتماعهن على منكرٍ، ناجى ربه من شرهن وتعوذ نحوه من فتنتهن حيث:

﴿قَالَ رَبِّ﴾ يا من رباني بأنواع اللطف والكرم والعصمة والعفاف ﴿ٱلسِّجْنُ﴾ الذي أوعَدَتْنِي به هذه المرأة ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ وآثر عندي ﴿مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ هؤلاء البغيات ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ﴾ أي وإن لم تصرف بفضلك وعصمتك ﴿عَنِّي كَيْدَهُنَّ﴾ ولم تحفظني من مكرهن بإلقاء البرهان الفعلي والكشفي في سري ﴿أَصْبُ﴾ أي أمِل وأتحنن نحوهن على مقتضى القوى البهيمية ﴿إِلَيْهِنَّ وَأَكُن﴾ حينئذ ﴿مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ المتابعين لشيطان الشهوة الخارجين عن مقتضى العقل المفاض من المبدأ الفياض.

وبعدما أخلص في مناجاته وأبر في رجوعه وعرض حاجاته:

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ ما ناجاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ وحُفظ عن مكرهن

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ ....

﴿إِنَّهُۥ﴾ بذاته وأوصافه وأسمائه ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمناجاة عباده ﴿ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ بحاجاتهم منها.

﴿ثُمَّ بَدَا﴾ أي ظهر ولاح ﴿لَهُم﴾ للعزيز وأصحابه ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ أي بعد رؤيتهم علامات الصدق وأمارات العصمة والعفاف، سيما شهادة الطفل الذي شهد بطهارته وصدقه، مع أنه لم يعهد من أمثال هذا، فتشاوروا في أمره وتأملوا في شأنه، فاستقر رأيهم ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ لئلا يلحق العار عليهم ولا ينتشر بين الأنام صدقه وعصمته وقبح صنيعها وفاحشة فعلها، بل يحسبون أنه مجرم وراعيل متهمة، لذلك حملوا الجرم عليه، ورموه افتراءً، فأدخلوه السجن انتقاماً وجزاء.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ أي يوسف ﴿ٱلسِّجْنَ﴾ في تلك المدة ﴿فَتَيَانِ﴾ من أعوان الملك شرابيه وخبازه، بتهمة اتُهما بها، فلما رأيا منه الرشد والنجابة وصفاء الصورة والمعنى ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ﴾ وهو الشرابي مستعيراً عنه حاكياً عما مضى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ﴾ في المنام ﴿أَعْصِرُ﴾ ماء العنب ليصير ﴿خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ﴾ وهو الخباز: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ على طبق ﴿تَأْكُلُ﴾ وتنهش ﴿ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ﴾ أي أخبرنا بما يؤول إليه ويعبر به رؤيانا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ﴾

مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ

في بادئ الرأي ﴿مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ المصلحين لمفاسد الأنام، وتحمل ما يشكل عليهم، ومن جملتها تعبير الرؤيا.

ثم لما تفرس يوسف منهم الإخلاص وحسن الظن بالنسبة إليه، بادر قبل الاشتغال بالتعبير إلى تمهيد مقدمة دالة على التوحيد والإيمان والمعرفة والإيقان، منبهة على استقلال الحق الحقيق بالحقية في ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وجميع آثاره الحادثة في الكائنات والفاسدات حيث.

﴿قَالَ﴾ أولاً ﴿لَا يَأْتِيكُمَا﴾ في المستقبل ﴿طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ﴾ لسد الجوعة وتقويم المزاج ﴿إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا﴾ وأخبرتكما ﴿بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ وتبيين ماهيته وكيفية تأثيره وتوليده من الأخلاط وتقويته للمزاج ﴿قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾ بمدة ﴿ذَٰلِكُمَا﴾ أي تعبير رؤياكما وتأويل طعامكما ﴿مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ﴾ أي من جملة الأمور التي علمني ربي من لدنه بأن أطلعني على رقائق المناسبات ودقائق الارتباطات والازدواجات الواقعة بين أجزاء العالم وجزئياتها على التفصيل المشروح المثبت في الأعيان الثابتة وعالم الأسماء والصفات المنبسطة على ظواهر الأكوان ﴿إِنِّى﴾ بعدما انكشف الغطاء عن بصري وارتفع الحجب عن بصيرتي ﴿تَرَكْتُ﴾ بتوفيق الله وإلهامه ﴿مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ ذوي حجب ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ وتوحيده واستقلاله في الوجود ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿هُم بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي في النشأة المعدة لجزاء ما جرى عليهم في هذه

هُم كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ....

النشأة ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ منكرون.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ﴾ في سلوكي طريق التوحيد ﴿مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ﴾ وأجدادي ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ﴾ أي ما صح وجاز لنا معاشر الأنبياء ﴿أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ﴾ المتوحد بذاته وأوصافه وأسمائه، المستقل في وجوده وحقيته ﴿مِن شَيۡءٖۚ﴾ لا وجود له أصلاً سوى العكسية والظلية ﴿ذَٰلِكَ﴾ الشهود والانكشاف ﴿مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ الذين أُرسلنا إليهم[1]، وبُعثنا بينهم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الناسين حقوق نعم الله ﴿لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ نعمة الإرسال وبعثة الرسل، ولا يواظبون على أداء شكرها.

ثم لمَّا مهد يوسف لصاحبه طريق التوحيد ونبه عليهما السلوكَ عليه، أشار إلى دعوتهما إليه على سبيل التدريج كما هو دأب الأنبياء، فقال منادياً لهما ليقبلا على قبول قوله:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ الساكنين فيه، المصاحبين معي ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ﴾ متكثرون في العدد، متماثلون في عدم القدرة والاختيار ﴿خَيۡرٌ﴾ عندكم وأحق لعبادتكم وانقيادكم ﴿أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المتوحد في ذاته، المستقل في ألوهيته

(١) في المخطوط (من فضل الله علينا وعلى من أرسلنا إليهم).

ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ....

وربوبيته، المستغني في ذاته عن المظاهر مطلقاً ﴿ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ الغالب على جميع السوى والأغيار.

واعلما أيها الأَخوان أنَّ:

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ أنتما ومن على دينكما في مصر من عبدة الآلهة الباطلة ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي من دون الله الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له في الوجود أصلاً ﴿إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ مطلقةً على الأظلال، معدومةً، وعكوساً موهومة ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ من تلقاء نفوسكم آلهة ومعبودات مع أنه ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ المنزل للكتب والمرسل للرسل ﴿بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ أي بشأن آلهتكم من حجة وبرهان عقلي ونقلي حتى تكون تمسكاً لكم في اتخاذكم هؤلاء التماثيل آلهة مستحقة للعبادة والإطاعة ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ﴾ أي ما الحكم المطلق والاستحقاق التام للإطاعة والانقياد وعبادة العباد ﴿إِلَّا لِلَّهِ ۚ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء، المتفرد بالجلال والبقاء، المتوحد في البسطة والاستيلاء، إذ هو المستحق بالعبادة، المستقل بالربوبية، لأنه في ذاته هو ولا شيء سواه، ولا إله إلا هو مع ﴿أَمَرَ﴾ فيما أنزل من الكتب على أنبيائه ورسله ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾ ولا ترجعوا أيها الأظلال الهالكة والعكوس الباطلة ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ إذ به وبامتداد أظلال أوصافه وأسمائه، ظهرت أشباحكم، ولاحت تماثيلكم

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ....

وأرواحكم، فلا رجوع لكم إلا ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي طريق التوحيد، هو ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي الأقوم والأعدل الذي لا عوج فيه أصلاً ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لكثافة حجتهم وغلظ غيظتهم وأغشيتهم ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ ولا يفهمون سر سريان الوحدة في الكثرة، فحُجبوا بالمظاهر المتكثرة عن الوحدة الظاهرة، فانصرفوا عن طريق الحق إلى الباطل، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

ثم لما دعاهما إلى الإيمان والتوحيد، ونبه عليهما طريقه، اشتغل بتعبير رؤياهما، فقال منادياً لهما أيضاً: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وهو الشرابي ﴿فَيَسْقِى رَبَّهُۥ﴾ أي سيده وملكه ﴿خَمْرًا ۖ﴾ على ما كان عليه بلا احتياج إلى تأويل ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ وهو الخباز ﴿فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾ هذا ما ظهر لي في تأويل رؤياه بتوفيق الله إياي، وبعدما سمعا منه التأويل قالا: كذبنا فيما قلنا لك واستعبرنا منك قال يوسف عليه السلام: ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ أي حكم حكماً مبرماً على الوجه الذي ذكر في حضرة علم الله ولوح قضائه؛ لأن الأمر الذي جرى على لسان الأنبياء، لا بد أن يقع، إذ لا جريان للكذب وعدم المطابقة في ألسنة الأنبياء والرسل.

وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَ

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ وهو الشرابي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أي اذكر حالي للملك عند ملاقاتك، وقل له أن رجلاً سُجن بلا جرم صدر عنه، وأوصاه به على طمع أن يستخلصه ويستشكف عن أمره، ولم يستثن مع أن المناسب بحاله ورتبته العلية الاتكال على الله، والتبتل نحوه بلا التفات إلى الغير أصلاً والرضا بما جرى عليه من القضاء، والتصبر على هجوم البلاء وتزاحم المكروهات، فضلاً عن أن يستمد بلا استثناء، وذلك قبل الوحي ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ للناجي ﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ أي ذكر حال يوسف عند الملك، حين جلس في مجلسه وسقى له خمراً ﴿فَلَبِثَ﴾ وبقي يوسف بسبب ترك الاستثناء، والاستخلاص من المصنوع الأرذل الأنزل، والاستعانة منه ﴿فِى ٱلسِّجْنِ﴾ بعد لبثه خمساً ﴿بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ أي سبعاً بعد الخمس مجازاة عليه وانتقاماً عنه كما قال ﷺ: «رَحِمَ اللهُ أَخِيْ يُوْسُفَ لَوْ لَمْ يَقُلْ اذْكُرْنِيْ عِنْدَ رَبِّكَ لمَا لَبِثَ فِيْ السِّجْنِ سَبْعَاً بَعْدَ الخَمْسِ»[1].

﴿وَ﴾ بعدما لبث في السجن بضعاً هيأ سبحانه سبباً بأن ﴿قَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ وهو ريان بن الوليد لأصحابه يوماً: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ﴾ في المنام ﴿سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَ﴾ أرى أيضاً ﴿سَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَ﴾

---

(١) ذكره أبو السعود في تفسيره [٤ / ٢٨٠]، والبيضاوي في تفسيره [٣ / ٢٩٠].

أُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ

سبعاً ﴿أُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ قد التففن على السبع الخضر فغلبن عليها، فجمع من في ملكه من أهل التنجيم والتكهين وجميع العلماء والصلحاء وعرضها عليهم وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي﴾ في رؤياي أي عبروها وأولوها ﴿فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ أي إن كنتم من أهل التعبير والصور والعبرة والاعتبار.

فلما سمعوا قوله وتأملوا في رؤياه ﴿قَالُوا﴾ بأجمعهم متفقين: هذه ﴿أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ أي أباطيل صورتها المتخيلة وخالطتها تخليطاً إلى حيث لا يقبل التعبير والتأويل أصلاً ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ﴾ الباطلة ﴿بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ معبرين.

﴿وَ﴾ بعدما عجز الملأ عن تعبير رؤيا الملك واجتمعوا على أنها أضغاث أحلام ﴿قَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾ أي من صاحبي السجن، وهو الشرابي الموصى له بالذكر فنسي ﴿وَادَّكَرَ﴾ بهذا التقريب ما أوصى له يوسف ﴿بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي بعد مدة مديدة ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ فأرسله الملك ودخل عليه فقال: يا ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ الصدوق في تأويل الرؤيا ﴿أَفْتِنَا﴾ وعبر لنا ﴿فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ ملتفتةٍ إلى

وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ ....

سبع أخر ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ عبّر لي هذه الرؤيا ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ﴾ بتأويلها ﴿إِلَى ٱلنَّاسِ﴾ الذين عجزوا عن تعبيره وصيروه من الأباطيل والتخليطات الساقطة عن درجة التغيير والتأويل ﴿لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ تأويله ويفحمون عما يقولون، إذ الرؤيا للملك، وهم جعلوها من قبيل الأضغاث، وأنت إذا عبّرتها أرجو أن تتخلص من هذا السجن.

﴿قَالَ﴾ يوسف مؤولاً للرؤيا مدبراً فيه طريق المعاش لئلا يضطروا في تدبيره: ﴿تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا﴾ على ما هو دأبكم وعادتكم ﴿فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ﴾ واتركوه ﴿فِي سُنۢبُلِهِۦٓ﴾ أي فعليكم أن تدخروا ما حصدتم في سني الخصب بأن تتركوه في سنبله ولا تفرقوه منه ولا يدوسوه لئلا يقع فيه السوس ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾ في تلك المدة.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد انقضاء سني الخصب والرخاء ﴿سَبۡعٞ شِدَادٞ﴾ ذوي جدب وعناء، لا ينبت فيها الزرع وفي تلك المدة ﴿يَأۡكُلۡنَ﴾ أي أهلها جميع ﴿مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ وادخرتم لهن في سني الخصب ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي تحرزونه وتحفظونه للبذر.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ أي بعد انقضاء السبع الشداد ﴿عَامٞ﴾ ذو بركة ورخاء

فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ ....

﴿فِيهِ يُغَاثُ﴾ ويمطر ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بعد ما مُنعوا القطرَ مدة مديدة ﴿وَ﴾ صار الناس من كمال الخصب ﴿فِيهِ يَعۡصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ الأدم من العنب والخرنوب وأنواع الحبوب.

كل ما جاء به يوسف عليه السلام من التأويل والتدبير مستندٌ إلى الوحي والإلهام والعلم بدقائق المناسبات الواقعة بين ذرائر الأكوان

﴿وَ﴾ لما سمع الشرابي من يوسف ما سمع تسارع إلى الملك وأخبره ما سمع من التعبير ﴿قَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ﴾ فأرسل من يحضره ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ﴾ ليخرجه من السجن ﴿قَالَ﴾ يوسف: لا أخرج من السجن ما لم يظهر براءتي وعصمتي وطهارة ذيلي وكمال عفتي مما يرمونني ويسجونني بسببه ﴿ٱرۡجِعۡ﴾ أيها الرسول ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وسيدك ﴿فَسۡـَٔلۡهُ﴾ أن يكشف عن أمره وما جرى عليّ من ظلم أولئك المفترين سيما ليسأل: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ﴾ وما شأنهن معي ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بكمال العصمة والعفة ﴿بِكَيۡدِهِنَّ﴾ ومكرهن الذي قصدن معي ﴿عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾﴾ على التفصيل الذي يخفون في نفوسهن، يجازيهن في يوم الجزاء على مقتضى علمه.

ثم لما رجع الرسول إلى الملك وأخبر عن حاله ومقاله، بادر الملك إلى إحضار أولئك النسوان فحضرن ﴿قَالَ﴾ الملك منتقماً عنهن، مفتشاً عما جرى

مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ....

بينهن وبين يوسف: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وشأنكن أيتها الماكرات المحتالات ﴿إِذْ رَٰوَدتُّنَّ﴾ وخادعتن بأنواع الحيلة والخداع ﴿يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ﴾ وأي شيء ظهر منه من أمارات الفساد وعلامات الفسوق حتى تجترئن بمراودته؟! ﴿قُلْنَ﴾ بأجمعهن بعدما سمعن كلام الملك واستفساره على وجه الانتقام: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ أي فعلة ذميمة وديدنة قبيحة باعثة لنا إلى مراودته، سوى أنا رأيناه على صورة عجيبة وحسن بديع، مِلنا إليه، وأردنا مخالطته فاستعصم من كمال عفته ونجابة طينته ثم ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ عند الملك بعدما بدا ما أخفت، وفشا ما سترت مقرة مقررة لطهارة ذيله: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ﴾ أي لاح وظهر ﴿ٱلْحَقُّ﴾ وارتفع عنه الحجب وانكشف الأستار ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ بعدما شغفني حبه وأزعجني ميله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ في ذاته وأقواله وأفعاله ﴿لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ المبرئين المنزهين عما افترينا عليه ورمينا به.

ثم لما انكشف أمره عند الملك وثبت براءته، أرسل الرسول إليه ثانياً ليخرجه من السجن، قال يوسف على مقتضى الحكمة الصادرة من ألسنة الأنبياء توطيناً لنفس العزيز وتسلية له ليجزم أنه ما أساء الأدب معه في السر والعلانية:

ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ....

﴿ذَٰلِكَ﴾ الكشف والتفتيش إنما هو ﴿لِيَعْلَمَ﴾ العزيز يقيناً ﴿أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ حين انغلاق الأبواب السبعة، وأنا مع زوجته فكيف في غيرها ﴿وَ﴾ ليعلم العزيز أيضاً ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لجميع ما جرى على عباده ﴿لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾ أي لا يوصل أهل الخيانة إلى ما يقصدون إليه بكيدهم وحيلتهم بل يفضحونهم بها على رؤوس الأشهاد في الأولى والأخرى. ثم قال:

﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ﴾ وأنزه ﴿نَفْسِيٓ ۚ﴾ عن الفرطات والغفلات والخواطر القبيحة والديدنة الشنيعة على مقتضى القوى الشهوية واللذة البهيمية، وكيف أبرئ وأنزه ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ﴾ المركوزة في الجبلة الإنسانية ﴿لَأَمَّارَةٌۢ﴾ مائلة بالطبع ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾ والفساد متوجهة نحوه إذا خلى وطبعها ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ﴾ أي حفظها الله من كمال رحمته وشفقته من طغيانها ووسوسة الشيطان إليها ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بالعصمة والعفاف ﴿غَفُورٌ﴾ لما صدر عني من الخواطر النفسانية ﴿رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ يرحمني بفضله ويعصمني بلطفه عما يبعدني من كنفه وجواره.

﴿وَ﴾ بعدما فتش الملك عن أحواله وما جرى عليه، ثبت عنده أمانته وديانته ورعاية حقوق سيده ورشده في الأمور سيما في التعبيرات والتأويلات وصدقه في جميع الأقوال الصادرة عنه ﴿قَالَ ٱلْمَلِكُ﴾ متحنناً عليه متشوقاً

ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ....

للقياه: ﴿ٱئْتُونِي بِهِۦٓ﴾ سريعاً ﴿أَسْتَخْلِصْهُ﴾ أي اجعله خالصاً ﴿لِنَفْسِى ۖ﴾ ليكون أنيسي وجليسي ومولي أمري وظهيري في تدابير الأمور، فحضروه عنده، وسلم على الملك ترحيباً وتعظيماً ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ وأخذ بحمد الملك وثنائه ودعائه على اللغة العبرية، قال الملك: ما هذا اللسان؟

قال: هذا لسان آبائي وأجدادي وكان الملك يتكلم على سبعين لغة، فكلم معه بجميعها فأجاب جميعها وأحسن فيها، فتعجب الملك منه، وقال أريد أن أسمع تأويل رؤياي منك مشافهة، فحكاه وبيّن وجوه المناسبات بين التعبيرات والسنوات المجدبة والمخصبة وكيفية الانتقالات والتعبيرات على مقدار فهم الملك وتأويلات السنابل الخضر واليابس على الوجه الذي أُلهم وأوحي، فازداد الملك محبة ومودة لذلك ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومرتبة عَلية ومنزلة رفيعة ﴿أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ مؤتمن على جميع أمورنا، فلك التصريف في ملكنا كيف تشاء.

وبعد ما رأى يوسف عليه السلام أن لا محيص له عنه، ولا بد له من ارتكاب أمر من أمور الملك

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ أي أرض مصر ﴿إِنِّى﴾ بإقامة هذا الأمر ﴿حَفِيظٌ﴾ بوجوهِ محافظةِ أي جنس من الأجناس ﴿عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ بطرق تدابيرها والتصرف فيها.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾..

قيل: اتفق وفات قطفير ـ هو سيد يوسف ـ في تلك الليالي، وكان هذا المنصب له لذلك طلبه، وتزوج زليخا زوجته التي قد شغفها حباً، فوجدها عذراء وولد يوسف منها أفرايم وميشا

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ما سمعت من القصة ﴿مَكَّنَّا﴾ قدرنا ﴿لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر بعدما أدخلناه رقيقاً مهاناً وصيرناه مسجوناً مدة متطاولة ورفعنا مكانته فيها إلى حيث ﴿يَتَبَوَّأُ﴾ أي يتنعم ويترفه ﴿مِنْهَا﴾ أي من نواحيها وبلادها ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ تهوى نفسه ويميل إليها طبعه إذ من سنّتنا أنا ﴿نُصِيبُ﴾ ونوفي ﴿بِرَحْمَتِنَا﴾ التي وسعت كل شيء ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ من خُلّص عبادنا المجبولين على فطرة توحيدنا السالكين سبيل الإنابة والرجوع إلى فضاء فنائنا ﴿وَ﴾ بالجملة أنا ﴿لَا نُضِيعُ﴾ أي لا نهمل ولا ننقص ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الذين يحسنون الأدب مع الله في جميع حالاتهم وشؤونهم ولا يغفلون منه طرفة ولا يلتفتون إلى غيره لمحة ولا يخطرون ببالهم سواه خطرة، هذا حالهم في النشأة الأولى.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَأَجْرُ﴾ النشأة ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ المعدة لهم فيها ﴿خَيْرٌ﴾ منها بالأضعاف والآلاف ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بتوحيد الله عن ظهر القلب وصميم الفؤاد ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ عن محارم الله طلباً لمرضاته وقياماً بحسن آدابه،

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ....

رجاء من ثوابه وخوفاً من عقابه .

﴿وَ﴾ حين استوزر الملك يوسف عليه السلام وأقامه في ضبط الممالك وقيام أمور الناس من التدبيرات المتعلقة بأمور معاشهم من تكثير الغلات والزراعات حتى دخلت السنون المجدبة، وكانت البيوتات والمغلات مملوءة بأنواع الحبوبات، ثم لما أحاط الجدب جميع بلاد المصر والشام وعم البلوى في جميع الأماكن والجهات، اضطر الناس إلى أن يلتجئوا إلى باب العزيز ليستغلوا منه ويسدوا رمقهم، لذلك ﴿جَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ من الكنعان ليستغلوا ﴿فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ﴾ بأجمعهم ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ بالفور وسألهم عن الوطن والمصلحة، فقالوا: نحن أولاد يعقوب جُدبنا الآن، واضطررنا إلى أن جئنا نستقوت من جاه العزيز ولا يحصل من الغير مطلقاً.

ثم قال لهم يوسف: أنتم بأجمعكم أبناء رجل واحد؟

قالوا: نعم إن لأبينا اثني عشر ابناً، عشرة من زوجة، واثنان من زوجة أخرى، ونحن تلك العشرة وواحد من الاثنين قد هلك في الصحراء، والآخر عند أبينا يؤانس معه ويدفع به وحشة ابنه، إذ هو محبوب له مرغوب عنده ﴿وَهُمْ﴾ مع طول صحبتهم معه ومجالسته عنده ﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ لا يتفقهون ولا ينتبهون فكيف يعرفونه.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم﴾ الخُدام بإذن العزيز ﴿بِجَهَازِهِمْ﴾ وهيؤوا أرحالهم فأرادوا

قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ ....

أن يشدوا، فدخلوا على العزيز للتوديع ﴿قَالَ﴾ لهم العزيز: ﴿ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ﴾ ليدل على صدقكم ونجابة أصلكم ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ﴾ وأتمه لكم ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾﴾ أُحسن ضيافتكم مثل ما أحسنت.

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ﴾ أي بأخيكم بنيامين ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي﴾ أي فاعلموا أن لا كيل لكم عندي بعد اليوم ﴿وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ ولا تدخلوا داري، إذ أنتم حينئذٍ قومٌ كاذبون.

وبعدما سمعوا منه كلاماً موحشاً وتفرسوا أنهم لو لم يأتوا بأخيهم لما اكتال لهم العزيز ولم ينزلهم فكيف أن يحسن معهم ويضيفهم؟

﴿قَالُواْ﴾ له معتذرين: إن له أبا شيخاً كبيراً محزوناً آسفاً يتسلى به ﴿سَنُرَٰوِدُ﴾ ونجتهد مقدار طاقتنا ﴿عَنْهُ أَبَاهُ﴾ ونخدع به بأنواع الخداع حتى نأتي ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ البتة وجوهاً من الخداع لإتيانه.

﴿وَ﴾ بعدما هيؤوا للسفر وأرادوا أن يرحلوا ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَٰنِهِ﴾ أي خدامه وأعوانه: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ التي أتوا بها وهي الأدم والنعال في رحالهم على وجه لا يشعرونها ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ﴾ وقت ﴿إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ﴾ ورجعوا ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ﴾ وبعد رؤيتهم البضاعة آيسوا ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بعد ذلك

﴿يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ ....

﴿يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بأخيهم لو رجعوا.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓا﴾ من مصر ﴿إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ﴾ حكوا ما جرى بينهم وبين العزيز من الحكايات التي مضت، ثم طلبه منهم ما يصدقهم ويشهد لهم واضطرارهم من الشاهد، وأمرهم العزيز بإحضار أخيهم بنيامين ليكون مصدقاً لهم ثم بعدما بسطوا الكلام عند أبيهم ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ بعد اليوم لو لم ترسل معنا بنيامين ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا﴾ ليكون مصدقاً لنا عند العزيز، وبعد تصديقه إيانا ﴿نَكْتَلْ﴾ لجميعنا ﴿وَ﴾ لِمَ لَمْ ترسله معنا ﴿إِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ من طرق المكروه عليه إذ نحن عصبة ذوو قدرة وقوة.

﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم متأسفاً متحزناً: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ وأجعلكم وقاية له ﴿إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ﴾ يوسف ﴿مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ﴾ الرقيب على عباده في جميع حالاتهم ﴿خَيْرٌ﴾ لهم ﴿حَـٰفِظًا ۖ﴾ أي من جهة الحضانة والحفظ ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ إذ رحمُ الكل يرجع إليه ؛ لأنه الرحيم بالذات، ورحمُ غيره إنما يتشعب من رحمِه.

وبعدما ألحوا مع أبيهم واقترحوا له بإرسال أخيهم بنيامين وتفرسوا منه أنه لم يرضَ بإرساله خرجوا من عنده محزونين ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ﴾ التي

وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ....

جاؤوا بها ﴿وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ﴾ التي اشتروا بها الكيل ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ ندموا وتحزنوا، ثم رجعوا إلى أبيهم شاكين مشتكين ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا﴾ إنا نجزم بمنع الكيل لو نكرّر ﴿مَا نَبْغِى﴾ أيْ أيّ شيء نفعل وندبر ﴿هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ على وجه لا نطلع عليها إلا الآن فجزمنا، أن لا كيل لنا إن عدنا إليه مرة أخرى بلا إتيان أخينا، ونكون عند العزيز من الكاذبين الصاغرين، ونسأل منك يا أبانا من كمال كرمك وجاهك أن ترسل معنا أخانا ليصدقنا عند العزيز ﴿وَ﴾ بعد تصديقه إيانا ﴿نَمِيرُ﴾ ـ ونحمل العطايا من عنده ـ ﴿أَهْلَنَا﴾ أي لأجلهم ﴿وَنَحْفَظُ﴾ في الذهاب والإياب ﴿أَخَانَا وَنَزْدَادُ﴾ بسببه ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أي حمله، إذ من سنة العزيز أن يحمل لكل منا بعيراً ﴿ذَٰلِكَ﴾ الكيل الذي جئنا به ﴿كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ قليلٌ لا يفي لمعاشنا إلى وقت الخصب ما لم نزد.

ثم لما بالغوا في سؤالهم واقترحوا الإسعاف ما طلبوا

﴿قَالَ﴾ لهم أبوهم معاتباً عليهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ﴾ أي بنيامين ﴿مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي يميناً وقسماً أثق به وأعتمد عليه ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ﴾ البتة بلا خلف ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ نوعٌ من البلاء من إلمام العدو وغيره ﴿فَلَمَّآ﴾ اضطروا إلى ما طلبه أبوهم منهم ﴿ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ فرضي بإرسال

قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا ....

بنيامين معهم ضرورة ثم ﴿قَالَ﴾ أبوهم تأكيداً وتغليظاً وتفويضاً لأمره إلى ربه: ﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لجميع حالات عباده ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ ويجري بيننا ﴿وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ أي رقيب حفيظ يفعل بنا على مقتضى علمه وخبرته.

ثم لما رضي يعقوب عليه السلام بإرسال ابنه بنيامين فشدوا وخرجوا من عنده، وصى لبنيه أن يتفرقوا عند الدخول إلى مصر، ولا تدخلوا كوكبةً واحدة خوفاً منهم أن يعانوا[1]، إذ هم ذوو جمال وبهاء، كان الناس يتعجبون منهم حيث انصرفوا مجتمعين.

﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ﴾ على البلدة ﴿مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ﴾ مجتمعين ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ فرادى حتى لا تتضرروا من العيون اللامة ﴿وَ﴾ اعلموا أني ﴿مَآ أُغۡنِي﴾ وأدفع بقولي لكم هذا ﴿عَنكُم مِّنَ﴾ قضاء ﴿ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ﴾ أي ما الحكم والأمر ﴿إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ﴾ في كل الأمور ﴿فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ إذ لا رجوع للكل إلا إليه ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ﴾ مصر ﴿مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم﴾ متفرقين من أبواب متعددة ﴿مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم﴾ ويدفع تدبير أبيهم ﴿مِّنَ﴾ قضاء ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي قدر لهم ﴿مِن شَيۡءٍ﴾، إذ الأمر والقضاء لله ولا معقب لحكمه ﴿إِلَّا﴾ يعني سوى

---

(١) أي يصابوا بالعين.

حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ ....

ما كان ﴿حَاجَةً﴾ تختلج ﴿فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ بالوصية لأبنائه تفاؤلاً وتفريجاً ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿لَذُو عِلْمٍ﴾ كامل مفاض له من لدنا، متعلق بما لا مرد لقضائنا، لذلك قال: وما أغني عنكم من الله من شيء ﴿لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ﴾ بطريق الوحي والإلهام إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ المجبولين على الجهل والنسيان ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أن قضاءنا لا يرد، وأن الحذر لا يغني عن القدر، لذلك أصاب بهم ما خافوا عنه ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ مع بنيامين أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على سماطٍ، فبقي بنيامين وحيداً فبكى وتأوه متحسراً، وقال: لو كان أخي يوسف حياً لما بقيت وحيداً، ولما رأى يوسف حنينه وبكاءه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ ورجع نحوه وضم نفسه إلى نفسه، وأجلسه على سماطه، ثم أمر يوسف أن ينزلوهم كل اثنين بمنزل واحد، فبقي بنيامين لا ثاني له، فاغتم حينئذٍ أشد اغتمام، فذهب به يوسف إلى منزله، فقال له: أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟

قال: فمن يجد مثلك أخاً، غير أنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل.

ثم لما رأى يوسف زيادة همه وحزنه وكثرة تأسفه وغمه.

﴿قَالَ﴾: لا تحزن ولا تغتم ﴿إِنِّىٓ﴾ بشخصي ﴿أَنَا۠ أَخُوكَ﴾ يوسف بن يعقوب وراحيل، قد احتال عليّ أخوتك، وخادعوني بأنواع الحيل والخداع

فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم ....

إلى أن فرقوا بيني وبينك وبين أبي مدة مديدة حسداً، فأنقذني الله عن مكرهم وكيدهم، وخلصني عن قيد الرِّقية والسجن وأنواع المحن ورفع قدري ومكانتي وشرفني [في الحاشية: لعله: وسرَّ قلبي] برؤيتك وأعطاني من المكرمات ما لا يحصى ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن يا أخي ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ معي ومعك من أنواع الصَّغار والهوان، وأصناف الأذيات.

ثم لما قرت عينا بنيامين بوجه يوسف وسرّ قلبه لقياه بعد ما آيس وقنط، قال: يا أخي، لا أفارقك أبداً.

قال يوسف: لا يتيسر هذا إلا بعد أن أتهمك بتهمة، فآخذك لأجلها إن رضيت؟

قال: رضيت بأي تهمة اتهمتني بها.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ على الوجه المعهود وشدوا رحالهم ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ أي أمر يوسف للخدمة أن يجعلوا السقاية التي بها يكال وهي من الفضة، وقيل من الذهب ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين وبعدما شدوا الرحال ودعوا مع العزيز جميعاً فخرجوا عقبها ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خرجوا من البلدة ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ أي صاح عليهم صائح من قبل العزيز: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ أي القفل إلى أين تمشون ﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ مدبرين؟.

﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم﴾ أي على الصائحين مضطربين خائفين :

مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ....

﴿مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ أيها الفاقدون المتفقدون؟

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ﴾ أي الآنية التي يصاع ويكال بها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من المكيل ﴿وَأَنَاْ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ ضمين أتكفل أن أتفحص من رحله.

﴿ قَالُواْ ﴾ مضطربين مقسمين مستبعدين: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ أيتها الخدمة والعزيز ﴿ مَّا جِئْنَا ﴾ عندكم وفي أرضكم ﴿ لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ سيما السرقة، فإنها من أعظم الفسادات ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ أصلاً، إذ نحن أولاد الأنبياء، ولا يليق بنا أمثال هذا

﴿ قَالُواْ﴾ أي الشرطة والخدام: ﴿فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ ﴾ أيْ أيّ شيء جزاء السارق منكم ﴿إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾ في دعوى البراءة والنزاهة؟

﴿قَالُواْ﴾ أي إخوة يوسف: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ أي جزاء السارق ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ﴾ نفسه وشخصه ﴿ جَزَٰٓؤُهُۥۚ ﴾ أي جزاء سرقته بأن يسترقّ سنة، وكان جزاء السارق في دين يعقوب استرقاق سنة ﴿كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ما قلنا ﴿ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ السارقين في دين أبناء يعقوب عليه السلام.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ ....

ثم لما أفتوا بما أفتوا أخذوا بالتفتيش والكشف ﴿فَبَدَأَ﴾ الزاعم ﴿بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ أي بتفتيشها وتفحصها ﴿قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ بنيامين ﴿ثُمَّ﴾ بعدما استقصى الكل واستقرأها تفشياً ﴿ٱسْتَخْرَجَهَا﴾ أي السقاية ﴿مِن وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ لئلا يظن أنهم يدسونها في رحله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل كيد يوسف لأخذ أخيه بنيامين ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ في أخذه من يد إخوته وخلاصه من الرق والسجن، وكدنا له أيضا في أخذ أخيه من إخوته بفتواهم أيضاً إذ ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز له ﴿لِيَأْخُذَ أَخَاهُ﴾ بجرم السرقة ﴿فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ أي ملك مصر، إذ في دينه الضرب وأخذ ضعف ما سرق ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا الحكم المخصوص في دين الملِك، وألهمه ليوسف بنفاذه أو يحكم في هذه المسألة على دين آبائه، أو كان الملِك أسلم بيده، ودخل بدين آبائه على ما نُقل ﴿نَرْفَعُ﴾ ونعلو ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ أي مراتب ومنازل ﴿مَّن نَّشَآءُ﴾ من عبادنا بزيادة الفضائل والكمالات والحقائق والمعارف ﴿وَ﴾ لا يبعد منا أمثال هذا إذ ﴿فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أعلى منه لا إلى نهاية، إذ لا انقطاع لتجددات التجليات أصلاً، لذلك قال سبحانه: «أَلاْ طَالَ شَوْقُ الأَبْرَارِ إِلَى لِقَائِيْ»[1] أي في شوقي وتجلياتي.

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: لم أجد له أصلا إلا أن صاحب الفردوس خرجه [مسند الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٤٠ رقم / ٨٠٦٧/] من حديث أبي الدرداء ولم يذكر له ولده في مسند الفردوس إسنادا إحياء علوم الدين [٣/ ٩ في بيان خاصية قلب الإنسان].

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ ....

ثم لما شاهدوا استخراج الوعاء من رحل بنيامين اضطربوا اضطراباً شديداً وتحزنوا حزناً غليظاً

﴿۞ قَالُوٓاْ﴾ مغاضبين عليه مريدين مقته ﴿إِن يَسۡرِقۡ﴾ هذا اللئيم، فلا تعجبوا منه إذ هي من ديدنة أخيه سرت عليه ﴿فَقَدۡ سَرَقَ﴾ مثله ﴿أَخٞ لَّهُۥ﴾ أكبر منه ﴿مِن قَبۡلُۚ﴾ في أوان طفوليته يريدون يوسف.

قيل: ورثت عمة يوسف من أبيها منطقة إبراهيم، وكانت تحضن يوسف وتحبه، فلما شب أراد يعقوب انتزاعه منها، فلم ترض العمة فشدت المنطقة على وسطه ثم أظهرت ضياعها، فتفحص عنها فوجدتها مشدودة في وسطه، فتحاكموا فصارت أحق به في دينهم، فلما سمع يوسف منهم ما سمع ﴿فَأَسَرَّهَا﴾ وكتمها ﴿يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ ولم يظهر الإنكار عليهم بل أضمر حيث ﴿قَالَ﴾ في نفسه وسره: ﴿أَنتُمۡ﴾ أيها المسرفون ﴿شَرّٞ مَّكَانٗاۖ﴾ أي خصلة ومنزلة وشأناً ﴿وَٱللَّهُ﴾ المطلع لأحوال عباده ﴿أَعۡلَمُ﴾ منكم ﴿بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ وتشرحون بألسنتكم افتراء ومراء.

ثم لما جزم العزيز بأخذ أخيه على جريمة السرقة واسترقاقه إلى سنة

﴿قَالُواْ﴾ متضرعين متذللين منادين له على وجه الخضوع راجين من قبوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾ أدام الله عزك ﴿إِنَّ لَهُۥٓ﴾ أي لهذا المفسد السارق

أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا ....

﴿أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ في السن والمرتبة، إذ هو نبي من الأنبياء ضرير من فراق ابنه الهالك، يتسلى قلبه ويزول وحشته لمؤانسته هذا المسرف، مع أنا حلفنا معه، وآتيناه موثقاً عظيماً أن نرجع فيه ﴿فَخُذْ﴾ من جاهك وإحسانك ﴿أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ﴾ أي بدله بواحد منا لنخدم في بابك، وأطلقه لنذهب به إلى أبيه الضرير الضعيف لئلا يستوحش ولا نحنث في حلفنا ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ المتعودين للإحسان المتمرنين فيه، فتمم علينا وعلى الشيخ الضعيف إحسانك وامتنانك.

﴿قَالَ﴾ يوسف: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ يعني نعوذ بالله أن نأخذ غير السارق بدله ظلماً لمصلحتكم ﴿إِنَّآ﴾ وإن فعلنا مثل ما التمستم منا، كنا ﴿إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ خارجون عن حدود الله بلا إذن شرعي.

﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ﴾ ومن تبديله ﴿خَلَصُوا۟﴾ وخرجوا من عنده ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين في نفوسهم بأن ما عليه العزيز هو الحق ؛ لأن أخذ البريء بدل المجرم ظلمٌ صريح، ثم لما صمموا العزم إلى الرجوع وآيسوا من بنيامين ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ رأياً وسناً وهو روبيل أو شمعون: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟﴾ أيها المسرفون ﴿أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا﴾ عظيماً وعهداً وثيقاً

مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ ....

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ القادر المقتدر على أنواع الغضب والانتقام أن ترجعوا به ﴿وَ﴾ أيضاً لم تستحيوا من الله ولم تتذكروا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ في سالف الزمان ﴿مَا فَرَّطتُمۡ فِي﴾ حق ﴿يُوسُفَۖ﴾ من الإذلال والزجر التام والألم المفرط والإلقاء في الجب وبيعه رقيقاً وغير ذلك من أنواع الأذيات معه، وأنتم ما استحييتم من الله تدّعون وراثة الأنبياء وتنسبون أنفسكم إليهم وبعد اللتيا والتي فعلتم بأخيه أيضاً هذا ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي لا أزول عن أرض مصر ﴿حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ﴾ بالخروج منها ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ﴾ بسرقته ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا﴾ أيقنا أنه سارق، وما علمنا إلا بالمشاهدة والإحساس بأن استُخرج صاع الملك من رحله وإنا ﴿وَ﴾ إن كنا حفيظاً له رقيباً عليه عما يعرضه ويشينه لكن ﴿مَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ﴾ المستور عنا ﴿حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ إذ لا اطلاع لنا على سره.

﴿وَ﴾ إن لم تقبل يا أبانا قولنا ﴿سۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي أهلها ﴿ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ لدى الحوامل وتهيئة الأسباب ﴿وَ﴾ أسهل من ذلك اسأل ﴿ٱلۡعِيرَ﴾ أي القفل ﴿ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ إذ هم رفقاؤنا معنا حين سرق ابنك وأخذوه، مع أنا اجتهدنا

وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ

كثيراً أن يؤخذ منا واحد بدله لم يقبلوا منا، وقالوا: ما نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده، وإن مضينا على مقتضى مقترحكم نكون من الظالمين بأخذ البريء بدل الجاني، مع أن يهودا أو روبيل قد تخلف عنا خوفاً من الحنث واستحياء منك ﴿وَ﴾ الله يا أبانا ﴿إِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ فيما حكينا لك عما جرى علينا مما تم.

ثم لما سمع يعقوب ما سمع تأسف وتأوه وبكى كثيراً

﴿قَالَ﴾ من أين يعرف العزيز أن السارق يؤخذ لسرقته ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي زينت وحسّنت ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أن تفرقوا ابني عني ظلماً وزوراً كما فرقتم أخاه فيما مضى ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي أمري صبر جميل، إذ الصبر أجمل مني فيما فرطتم في ابنيّ أيها المسرفون المفسدون ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾ المطلع بحالي وحزني بمقتضى لطفه وسعة جوده ورحمته ﴿أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ أي يوسف وأخيه وكبيركم المتخلف عنكم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه بذاته ﴿هُوَ ٱلْعَلِيمُ﴾ بمناجاة عباده ونيلهم إلى حاجاتهم ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ في أفعاله على مقتضى مصالح عباده.

﴿وَ﴾ بعد ما سمع منهم أبوهم ﴿تَوَلَّىٰ﴾ وانصرف وأعرض ﴿عَنْهُمْ﴾ مغاضباً عليهم مشتكياً إلى ربه من فعالهم ﴿وَقَالَ﴾ من شدة حزنه وكآبته

يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ....

ونهاية ضجرته على مفارقة ابنيه: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ﴾ أي يا حزني وشدة بلائي ويا حسرتي وحرقة قلبي وكبدي، وبالجملة: يا هلكتي تعاليْ، إذ لم يبق بيني وبينك ما يبعدني عنك ويبعدك عني ﴿عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ خصه بالذكر لأنه عمدة محبته وزبدة مودته، مع أنه يتردد في حياته ويجزم بحياة الأخيرين ﴿وَ﴾ لما تمادى ألمه وتطاول حزنه وأسفه ﴿ٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ﴾ كثرة ﴿ٱلْحُزْنِ﴾ قبل فقدان هذين الابنين وبعد فقدانهما ﴿فَهُوَ﴾ نفسه ﴿كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ مملوء من الحزن والبلاء، كأنه مجسم منها، متجرع الغصص والألم من بنيه.

ثم لما رأى الناس ما رأوا منه من قلة الأكل والشرب وذوبان الجسم ونقصان القوى البشرية والسهر المفرط واستمرار الأسف والحزن

﴿قَالُوا۟﴾ متعجبين من حاله مقسمين على هلاكه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ أي لا تزال ﴿تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ على هذا المنوال ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ مريضاً مهزولاً مدقوقاً مشرفاً على الهلاك ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

ثم لما بالغوا في منعه عما عليه من الكآبة والحزن والتأوه والبكاء

﴿قَالَ﴾ في جوابهم مستنكراً عليهم: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى﴾ أي ما أبث وأنشر شكواي ﴿وَحُزْنِىٓ﴾ المفرط الخارج عن التصبر ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ المطلع لما في قلبي من الحرقة والألم، رجاء أن يزيل عني ما يؤذيني ويوصلني بلطفه وجوده

وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾

إلى ما يسرني ويفرج عني ﴿وَ﴾ اعلموا أيها اللائمون المبالغون في منعي أني بإلهام الله ووحيه إليّ ﴿أَعْلَمُ مِنَ﴾ كرم ﴿ٱللَّهِ﴾ وسعة جوده وفضله ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أنتم أيها اللائمون بل إنما حملني الله وأزعجني على بث الشكوى ونشر النجوى معه وإظهار التذلل والخشوع والتضرع والخضوع نحوه، حتى لا أقنطه عن ملاقاة يوسف ولا أترك المناجاة مع الله لأجله وإن تطاولت المدة.

ثم لما استروح يعقوب من رَوح الله واستنشق من نسمات رحمته، نادى بنيه نداء مرحمة وإشفاق ليقبلوا إليه بعدما آيسوا عنه وعن عطفه، إذ بالغوا في سوء الأدب معه وإيقاعه بأنواع المحن والشدائد فقال:

﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ﴾ إلى مصر مرة أخرى ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ أي تفحصوا وتطلبوا أصالة ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ بنيامين تبعاً ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ﴾ أي لا تقنطوا يا بني ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ وتنفيسه تفريجاً لهم، إذ نحن معاشر الأنبياء لا يليق بنا اليأس والقنوط عن كرم الله وجوده في حال من الأحوال ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ﴾ أي لا يقنط ﴿مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ وكمال قدرته وسعة جوده ﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ الساترون بغيوم هوياتهم الباطلة شمسَ الحق السارية المتجلية في الآفاق، الفائضة عليهم سجال الفضل والكرم على مقدار قابلياتهم واستعداداتهم.

فعليكم أن لا تقنطوا من الله في حال من الأحوال، بل اعتقدوا أن له

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ ....

التصرف والقدرة التامة والإرادة الكاملة على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم لما صمموا العزم بالخروج إلى مصر كرة أخرى بإذن أبيهم وخرجوا من عنده وساروا إلى أن وصلوا مصر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ أي على يوسف ﴿قَالُوا﴾ أولاً: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾ أي الجدب وشدة الجوع ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾ قليلة رديئة ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ وتممه لنا من جاهك وإحسانك ﴿وَ﴾ قالوا ثانياً: ﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ برد أخينا لنرده إلى أبيه المحزون، فإنه قد أشرف على الهلاك من شدة الحزن والأسف ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ المجازي عن أعمال عباده ﴿يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾ المؤمنين منهم جزاءً حسناً، لا جزاء أحسن منه.

ثم لما سمع يوسف من أسف أبيه وشدة كربه وكآبته وابيضاض في عينيه وهزال جسمه وإشرافه على الانهدام والانخرام شرع يظهر أمره عليهم حيث:

﴿قَالَ﴾ تفضيحاً لهم وتقريعاً: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ أيها المفسدون قبح ﴿مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ من الزجر والإذلال والضرب والشتم وأنواع المكروهات والمذمومات، سيما ماشريتموه بثمن بخس دراهم معدودة لتبعدوه عن وجه

إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا ....

أبيه، وتطردوه عن ساحة عز حضوره ﴿إِذْ أَنتُمْ﴾ قوم ﴿جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾ بأن لا مرد لقضاء الله، ولا معقب لحكمه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فاجتهدتم لهدم بناء الله وتغيير مراده ورد قضائه مبارزة عليه وخروجاً بين يديه.

وبعدما سمعوا منه ما سمعوا

﴿قَالُوٓاْ﴾ مخبتين خاضعين متذللين بعدما عرفوه مستفهمين على سبيل التقرير والتثبيت: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ﴾ أيها العزيز ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ بن يعقوب الذي فعلتم به ما فعلتم ﴿وَهَٰذَآ أَخِى ۖ﴾ بنيامين من أبي وأمي ﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ﴾ بأنواع الكرم والإحسان، ووقانا عما قصدتم علينا من السوء والإذلال وأنواع الوبال والنكال ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ﴾ عن محارم الله وعما لا يرضى به الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على ما جرى عليه من القضاء ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ الرقيب المطلع لأحوال عباده ﴿لَا يُضِيعُ﴾ أي لا يهمل ولا ينقص ﴿أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ الذين يحسنون الأدب مع الله ويعبدونه كأنهم يرونه.

ثم لما ظهر عليهم ما ظهر من الفضيحة والشناعة وأنواع الندامة والكآبة

﴿قَالُواْ﴾ متضرعين مستحيين متذللين مقسمين على سبيل التثبيت والتقرير: ﴿تَٱللَّهِ﴾ يا أخانا ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ﴾ واصطفاك ﴿عَلَيْنَا﴾ وأراك في المنام ما أراك من سجود الشمس والقمر والكواكب المعتبرة، وكفاك

وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ....

هذا دليلاً على نجابتك واختيارك علينا، مع أن أبانا قد علم منك ما علم من الرشد وكمال العلم والفضل، لذلك آثرك علينا محبة وعطفاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِن كُنَّا﴾ أي إنا كنا ﴿لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ إذلالك وإرادة إهلاكك وضربك وإيذائك، وفي إبطال إرادة الله ومشيئته وكمال حكمته وقدرته، وفي إيذاء أبينا بمفارقتك عنه وإيقاعه بأنواع البليات والنكبات إلى حيث ابيضت كريمتاه من فراقك، فالآن الأمر بيدك، وإنا مجرمون معترفون بأنواع الجرائم، فلك الاختيار، وعلينا الحسرة والندامة وأنواع الكآبة والسآمة.

ثم لما رأى يوسف منهم ما رأى من الندامة المفرطة والخجل والخذلان وأنواع الخيبة والخسران

﴿قَالَ﴾ لهم تسلية عليهم وتزكية لنفسه بمقتضى نجابة طينته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ﴾ أي لا تقريع ولا توبيخ ﴿عَلَيۡكُمُ﴾ مني في حال من الأحوال سيما ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ الذي أنتم تعتذرون فيه وتستعفون عني، فاعلموا أني عفوت لكم ما لي من الحقوق عليكم، وأبرأت ذمتكم عنها بل ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ بعد ما استغفرتم إليه مخلصين ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه في ذاته ﴿أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ لأن رحمَ جميع الرحماء من ظل رحمته التي وسعت كل شيء.

وبعد تسليتهم وعفوهم وإخزاء الرعب عن خواطرهم، أمرهم بالذهاب إلى أبيهم المحزون ليخلص عما عليه من الحزن المفرط فقال:

ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ ....

﴿ٱذْهَبُوا۟﴾ يا إخوتي ﴿بِقَمِيصِى هَٰذَا﴾ ـ وهو عليه ـ فأخرجه ولفه بلا تنقية وغسل ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ﴾ أي يرجع ويَصِير ﴿بَصِيرًا﴾ بعدما كان فاقد العينين ﴿وَ﴾ بعد أن يصير بصيراً صحيحاً سوياً ﴿أْتُونِي بِأَهْلِكُمْ﴾ أي جميع ما ينسب إليكم من النسوان والذراري والخدم والحشم ﴿أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ أي القافلة من عمران مصر ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن في صحبته من المؤمنين له: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ وتسفهوني أيها الحضار، وتنسبوني إلي نقصان العقل والخرف لصدقتموني.

﴿قَالُوا۟﴾ أي الحاضرون: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ﴾ بتذكير يوسف وكثرة تحضيره ببالك ﴿لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي ضلالك الذي كنت عليه زماناً مستمراً، وهو وإن سفهه الناس تزايد وجدانه، ويترقى ساعة فساعة.

﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ﴾ وهو يهوذا مع القميص ﴿أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ على الوجه المأمور ﴿فَٱرْتَدَّ﴾ أي عاد ورد فجأة ﴿بَصِيرًا ۖ﴾ كما كان في سالف

قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ....

الزمان، فشكر الله وحمده، وسجد له سجدة خضوع وخشوع وتذلل تام، ثم رفع رأسه من سجوده ﴿قَالَ﴾ لبنيه ولحضار مجلسه: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ حين لمتوني بالأسف والحزن وكثرة المناجاة مع الله لملاقاة يوسف ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ﴾ كرم ﴿ٱللَّهِ﴾ وسعة جوده ورحمته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ أنتم أيها اللائمون.

ثم لما سر يعقوب عليه السلام وخلص من الشدائد والمحن وقر عيناه ﴿قَالُواْ﴾ أي بنوه منادين له متضرعين إليه: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ التي كنا نعمل معك ومع من أحببته واخترته علينا[1] ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ فعلنا من الجرائم العظام والمعاصي والآثام ﴿خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ جاهلين عن عواقبها وما يؤول إليها، إذ هو من قضاء الله إيانا ولا مرد لقضائه.

ثم لما تفرس يعقوب عليه السلام منهم الإخلاص والإنابة التامة والرجوع عن ظهر القلب.

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ في ذاته ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوب عباده بعدما أخلصوا ﴿ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ لهم يقبل توبتهم.

سوّف أمر استغفارهم إلى ملاقاة يوسف والمشورة معه، يدل عليه ما رُوي أن يعقوب استقبل القبلة قائماً يدعو، وقام يوسف خلفه يؤمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين، حتى نزل جبريل عليه السلام، فقال: إن الله قد أجاب

(١) في المخطوط (مع من أحبك واختارك علينا).

فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ....

دعوتك في حق أبنائك وعقد مواثيقهم بعدك على النبوة.

ثم لما صمموا عزم الرحيل إلى مصر شدوا ركابهم، وساروا حتى وصلوا إلى قربها، سمع يوسف بقدومهم، وخرج إلى استقبالهم مع الملك وجنوده وجميع أهل مصر.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ ووصلوا إليه ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ أي اعتنق وضم يوسف ﴿أَبَوَيْهِ﴾ إلى نفسه وواسا معهما ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ عن نكبات الجدب والقحط وأذيات الرحيل.

﴿وَ﴾ بعدما دخلوا على بيته ﴿رَفَعَ أَبَوَيْهِ﴾ تعظيماً لهما وتوقيراً ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي يجلس هو عليه، وهو يقوم بين يديهما ﴿وَ﴾ بعد ما تمكن أبواه على عرشه ﴿خَرُّوا۟﴾ أي هما وبنوهما ﴿لَهُۥ سُجَّدًا ۖ﴾ أي خروا لشكر لقياه وشرف حضوره لله سجود شكر وخضوع.

ولما رأى يوسف سجودهم تذكر ما رأى في المنام في أوان الصبا

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ في سالف الزمان ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ﴾ صدقاً محققاً مطابقاً للواقع ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ﴾ ربي بأنواع الإحسانات ﴿إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ بعدما كنت فيه مدة مديدة ﴿وَ﴾ أعظم منه أنه ﴿جَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ أي البادية البعيدة ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ﴾

ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

وأوقع ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ بأنواع الإيقاعات والوساوس ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع اللطف والكرم ﴿لَطِيفٞ﴾ مدبر كامل وموفق كافل ﴿لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ من الأمور ويريد إصلاحه ﴿إِنَّهُۥ﴾ بذاته ﴿هُوَ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بعلمه الحضوري لمصالح عباده ﴿ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ المتقن في أفعاله على مقتضى ما تعلق بعلمه وإرادته.

ثم دعا يوسف عليه السلام لنفسه وناجى مع ربه مناجاة صادرة عن محض الحكمة والذكاء والفطنة بقوله:

﴿ ۞ رَبِّ﴾ يا من رباني بلطفك وفضلك بأنواع التربية والنعم إلى حيث ﴿قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي﴾ وأعطيتني ﴿مِنَ ٱلۡمُلۡكِ﴾ الظاهر أي الحكومة المتعلقة بعالم الشهادة ﴿وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾ أي العبور من الحوادث الكائنة في عالم الشهادة إلى ما في عالم الغيب من الصور المقتضية إياها ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي عالم الأسماء التي انعكست منها هذه الأظلال الهالكة الشهادية ﴿أَنتَ﴾ بذاتك بعدما تحققت بتوحيدك وانكشفت به ورفعت الحجب بيني وبينه ﴿وَلِيِّۦ﴾ ومولى أموري وحامل أسراري ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي في النشأة الأولى والأخرى ﴿تَوَفَّنِي﴾ اقبضني ﴿مُسۡلِمٗا﴾ مسلّماً مفوضاً جميع أموري إليك ﴿وَأَلۡحِقۡنِي﴾ بلطفك ﴿بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ الذين أصلحوا نفوسهم في النشأة الأولى والأخرى حتى يفوزوا من عندك بشرف اللقيا.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ..

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور من قصة يوسف وما جرى بينه وبين إخوته وبين امرأة العزيز وغير ذلك من الوقائع الهائلة الواقعة على يوسف وعلى أبيه وأخيه من حسد إخوتهما ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ أي من الإخبارات التي سُترت عنك يا أكمل الرسل ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ أي نعلمك بالوحي والإلهام، ومحققٌ مسلّم عند ذوي العقول ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وعندهم وفي جمعهم وقت ﴿إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي يقصدون المكر والخداع مع يوسف وأبيه، بعدما شاوروا كثيراً في إهلاك يوسف وإبعاده من عند أبيه واستقرار رأيهم بعد تكرر المشاورة على ما فعلوا به وأتفقوا عليه، وما أنت أيضاً من أهل الإملاء والنسخ أن تضبط قصصهم من التواريخ، ولا من أهل التعلم المستفيد من الغير، بل ما هو إلا وحي يوحى إليك من عندنا، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ الذين يترددون بين يديك ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ بإيمانهم وإذعانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ لك مصدقين لما جئت به من عند ربك.

﴿وَ﴾ ما عرض لهم ولحق لنفوسهم من الغفلة لم يقبلوا ما قلت لهم إذ ﴿مَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ أي على تبليغ ما جئتَ به من عند الله ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ جُعلٍ ومالٍ من حطام الدنيا كما يفعله حملة الأخبار، ومتفقهة الزمان، والمتشيخة من أهل التلبيس بل ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي ما هذا القرآن وما فيه من العبر والأحكام والقصص المستلزمة لأنواع المواعظ والتذكيرات ﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عامٌّ، وفائدة

لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ ....

جليلة شاملة ﴿لِلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

﴿وَكَأَيِّن﴾ أي كثير ﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾ دالة على وجود الصانع وتوحيده واستقلاله في التصرف في الآثار كائنة ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي العلويات والسفليات، أو عالم الأسماء والصفات وعالم الطبيعة المنعكسة منها ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ مرور غفلة وذهول ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ لا يعتبرون منها ولا يتأملون فيها وفي رموزها وإشاراتها، وذلك من كمال توغلهم في الكثافة والحجب الظلمانية، ونهاية تدنسهم بأدناس الطبيعة الهيولانية.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا يُؤْمِنُ﴾ ويوقن ﴿أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ المستغني في ذاته عن جميع المظاهر، المستقل بوجوده، بحيث لا وجودَ لغيره أصلاً ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ مشتركون[1] من مصنوعاته في استحقاق العبادة ما لا وجود له في نفسه أصلاً.

أيغفلون[2] أولئك المسرفون عن مكر الله؟!.

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾ عن كمال قدرته على الانتقام ولم يخافوا ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾ وترسل عليهم ﴿غَٰشِيَةٌ﴾ أي عقوبة هائلة نازلة ﴿مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في هذه

---

(١) في المخطوط (مشركون).

(٢) في المخطوط (أتغفلون) أي أيغفل.

أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ ....

النشأة تغشيهم وتحيط بهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ الموعودة ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ أماراتها وعلاماتها؟.

وإن أصروا على كفرهم وإشراكهم باللهوعدم الالتفات بك وبقولك

﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل مجاراة عليهم: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أي الدعوة إلى التوحيد وإعداد الزاد ليوم المعاد طريقي، وأنا بُعثت لأجلها ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ أي إلى توحيده كافةَ عباده ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ تامة فائضة علي من عنده سبحانه ﴿أَنَا۠﴾ أي أَدعو أنا لمقتضى الوحي والإلهام ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ من خيار أمتي بوسيلة إرشادي وإهدائي إليهم ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي أنزهه تنزيهاً تاماً عن معتقدات أهل الزيغ والضلال في حقه سبحانه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي أبرئ نفسي عما هم عليه من الشرك المنافي للتوحيد. ثم قال سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ أيها المبعوث للكل ﴿إِلَّا رِجَالًا﴾ مثلك من جنس البشر ﴿نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ أي نخصهم بالوحي والإلهام لنجابة طينتهم في أصل خلقتهم مع أنهم ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ أي من جملة ما يسكنون فيها ﴿أَ﴾ يصرون هؤلاء المعاندون على تكذيبك معللين بقولهم الباطل: ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴿فَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ﴾

مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ

كذبوا الرسل المبعوثين لهم مضوا ﴿مِن قَبْلِهِمْۗ﴾ مثل تكذيبهم إياك حتى يعتبروا منها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَدَارُ ٱلْأٓخِرَةِ﴾ المعدة للفوز والفلاح ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ﴾ أي للمؤمنين الذين يحفظون نفوسهم عمَّا حذرهم الله منها ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ أيها المسرفون المكذِّبون بها خيريتها، مع أنكم مجبولون من زمرة العقلاء، وهم أيضاً أمثالكم أيها المسرفون المكابرون.

وإن تمادوا في الغفلة والإصرار على التكذيب مدة مديدة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ﴾ وقنط ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ المبعوثون إليهم بل ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ من طول الإمهال وعدم الأخذ والبطش ﴿أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ يقيناً، وصاروا كأنهم قد أخلف عنهم الوعد الذي وُعدوا به من جانب الحق، وبعدما ازداد يأسهم وقنوطهم، قد جاءهم نصرنا الذي وعدناهم وعذابنا الذي قد أوعدنا به أممهم، وبعدما جاء أخذنا إياهم ﴿فَنُجِّيَ﴾ ونخلِّص ﴿مَن نَّشَآءُۖ﴾ إيمانه بنا وبرسلنا وانقياده إياهم، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَا يُرَدُّ بَأْسُنَا﴾ الذي قد وعدنا به ﴿عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ الذين أجرموا علينا بتكذيب رسلنا وكتبنا، وإن طالت مدة الإمهال.

ثم قال سبحانه تنبيهاً وحثاً لعباده على ما في كتابه من الإشارات:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي قصص الأنبياء المذكورين في القرآن سيما قصة يوسف عليه السلام ﴿عِبْرَةٌ﴾ اعتبار واستبصار ﴿لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾ الذين

مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

يتأملون ويتعمقون في لب الكلام، ويعرضون عن قشوره، ﴿مَا كَانَ﴾ القرآن ما ذكر فيه من القصص والأحكام ﴿حَدِيثًا﴾ مختلقاً[1] ﴿يُفْتَرَىٰ﴾ به إلى الله افتراءً ومراءً ﴿وَلَٰكِن﴾ وحي نزل من عند الله ليكون ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب الإلهية أي مصدقاً أحكامها وآثارها ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ احتيج إليه في الدين من الأمور المتعلقة لتهذيب الظاهر والباطن ﴿وَهُدًى﴾ من تمسك به وعمل بما فيه أمِن من الضلال، ﴿وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي يعملونه ويصدقون بمقتضاه.

---

(١) في المخطوط (مموهة مختلفة).

خاتمة السورة

عليك أيها المستبصر الخبير المسترشد البصير بصّرك الله بعيوب نفسك، وجنبك عن غوائلها: أن تعتبر من القصة التي ذكرت في هذه السورة، وتحترز عن المكائد المذكورة فيها والمخادعات المصرحة بها والمرموزة إليها، وتصفي أمّارة نفسك عن مبادئها وتبرئها حسب طاقتك وقدر وسعك وطاقتك وقوتك عما يؤول إليها ويؤدي نحوها، وتشمر ذيل همتك لتهذيب ظاهرك وباطنك عما يعوقك عن سلوك طريق التوحيد المفضي إلى اضمحلال الرسوم وانقهار التعنيات العدمية والأظلال الهالكة، المؤدية إلى الكثرة والتنويه، الحاجبة عن صرافة الوحدة الذاتية بالنسبة إلى ذوي الحجب الكثيفة والغشاوة الغليظة.

وعليك أن تتوجه بوجه قلبك إلى إفناء لوازم تعيناتك الباطلة، وهوياتك العاطلة التي هي شياطين طريقك نحو الحق المنزه عن التغيير والتبديل، المقدس عن الانقلاب والتحويل، إذ لا يشغله شأن عن شأن، ولا يفتره كر الدهور ومر الزمان، بل كل يوم هو في شأن، وكل من عليها فان.

وبالجملة بعدما فنيت عن وجوه تعيناتك رأساً، يبقى وجه ربك الذي لا انقلاب له أصلاً ذو الجلال الذاتي والأزلي والإكرام الأبدي السرمدي.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق الفناء، ووفقهم لإفناء ما يعوقهم عن شرف اللقاء، إنه سميع مجيب.



بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة سورة الرعد

لا يخفي على من ترقى عن مرتبتي العلم والعين بلا تلوين، وتحقق على مرتبة حق اليقين، مع تثبيت وتمكين: أن الآثار الغريبة والتدابير العجيبة الكائنة في عالم الكون والفساد إنما تصدر عن ذاتٍ متصفة بجميع أوصاف الكمال، منزهةٍ عن نقص الحدوث والزوال، مستقلةٍ في تصرفاتها بلا مزاحمة ضد وند ومظاهرةِ معاونٍ ومُمِدّ، إذ لا وجود لغيره ولا ثبوت لسواه أصلاً.

فدلت الأفعال المتقنة والآثار المحكمة والنظام المحسوس المشاهد على هذا الضبط البديع على وحدة فاعلها عند من تشبث بأذيال العقل المستدل.

وأما أهل الكشف والشهود، والمستغرقون في مطالعة جمال الله وجلال الله لا يرون في الوجود إلا هو، ولذلك لا يسندون الآثار والأفعال والحركات والسكنات والحوادث الكامنة مطلقاً إلا إليه أولا وبالذات، بلا رؤية الأسباب والوسائل، بل إنما يرونها ويعتقدونها من لوائح تجلياته وأشعة شؤونه وتطوراته، لذلك نبه سبحانه في كتابه على عباده مخاطباً لحبيبه على أن التدابير الكائنة إنما تستند إليه تعالى، وتصدر عنه بالاستقلال، فقال:

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي على ظواهر الكائنات بأنواع التدبيرات ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ لعموم عباده في النشأة الأولى بوفور العطيات ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم في النشأة الأخرى بأعظم المثوبات وأرفع الدرجات.

﴿الٓمٓرۚ﴾ أيها الإنسان الكامل اللبيب اللائق لملاحظة رموز آثار التوحيد اللائح عن غرته الغراء مقتضيات لوامع الرشد والرضا عما جرى عليه القضاء.

﴿تِلۡكَ﴾ السورة المنزلة إليك ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ الجامع للكتب المنزلة أي من جملة آياته ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ قبل نزولها ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ من الآيات النازلة كلها ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ المطابق للواقع، النازل من عند الحكيم العليم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ لانهماكهم في الغفلة والنسيان ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾﴾ أي لا يصدقون ولا يعتقدون بحقيته وحقية منزله.

وكيف لا يعتقدون حقيته أولئك الحمقى المعاندون إذ هو

﴿ٱللَّهُ﴾ المبدئ المبدع الرفيع البديع ﴿ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات معلقاً ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ واسطين يعتمدن عليها ظاهراً كما ﴿تَرَوۡنَهَاۖ﴾ في بادئ النظر لتكون أسباباً ووسائل للسفليات ﴿ثُمَّ﴾ لما رفعها وصور بها على أبلغ النظام وأبدعها ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ باسمه الرحمن ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ أي على عروش جميع الكائنات بالإظهار والإبراز وأنواع التدبيرات المتعلقة لحفظها وبقاء نظامها

وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ....

﴿وَسَخَّرَ﴾ من بينها ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لتتميم التدبير ﴿كُلٌّ﴾ منها ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي يدور دورةً معينة شتاءً وصيفاً، ربيعا وخريفاً؛ لإصلاح ما يتعلق بمعاشهم وحفظهم، وبالجملة ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ على ما ينبغي ويليق بلا فتور وقصور ﴿يُفَصِّلُ﴾ لكم ﴿ٱلْآيَـٰتِ﴾ ويوضح لكم الدلائل والشواهد الدالة على توحيده ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ أي رجاء أن تتفطنوا وتتيقنوا بموجدكم ومربيكم.

﴿وَ﴾ كيف لا تتفطنون أيها المجبولون على فطرة الفطنة والذكاء ﴿هُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ وفرشها مبسوطة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ وجبالاً شامخات؛ لتكون أوتاداً لها ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ منتشئة منها، جارية على وجه الأرض؛ لإنبات ما تقتاتون وتتقوتون بها ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ لتكون سبباً لدوامها وبقائها ولإنضاجها وإصلاحها ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يلبس الليلَ بالنهار لتسكين البرودة، والنهارَ بالليل؛ لتسكين الحرارة؛ ليحصل الاعتدال في طبيعة الهواء المنضج ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الحكم والتدابير ﴿لَآيَـٰتٍ﴾ دلائل واضحاتٍ وشواهد لائحات ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ ويتأملون في حكم الصانع الحكيم والمدبر العليم.

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ ....

﴿وَ﴾ أيضاً من بدائع قدرته وغرائب حكمته أنه حصل ﴿فِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ متماثلة في الطبيعة والمزاج، ﴿وَ﴾ حصلت في بعضها ﴿جَنَّٰتٌ﴾ وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَ﴾ في بعضها ﴿زَرْعٌ وَ﴾ في البعض ﴿نَخِيلٌ﴾ مختلفةٌ أنواعها بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي نخلات متكثرة، أصلها واحد ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي متفرقات الأصول مع أنها كلها ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ﴿وَ﴾ مع وحدة طبيعة الأرض والماء ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا﴾ أي بعض الثمرات ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ لأن بعضها ضار وبعضها نافع، وبعضها حلو وبعضها حامض، إلى غير ذلك من التفاوت والاختلافات ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الاختلاف مع وحدة طبيعة القابل ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عظام ودلائل جسام على حكمة الصانع الحكيم ومتانة فعله ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ ويستعملون عقولهم في التفكير بمصنوعات الحق والتدبير بمبدعاته ومخترعاته.

﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا أكمل الرسل إنكار الكفار حشر الأجساد مع وضوح دلائله وسطوع براهينه ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فعليك أن تتعجب من قولهم ـ هذا حال كونهم مستفهمين مستبعدين على سبيل التعجب ـ أننا ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ وعظاماً رفاتاً ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾ كلا وحاشا أن نعود أجساماً

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ

إنساناً بعدما صرنا كذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ البعداء المعزولون عن منهج الرشاد هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ الذين أوجدهم وأظهرهم من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة، ورباهم بأنواع التربية مع أن إعادتهم أيسر من إبدائهم وإبداعهم ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ الضالون المقيدون بسلاسل الطبيعة في النشأة الأولى صار ﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ في النشأة الأخرى، دائما مستمراً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ أبد الآباد.

﴿وَ﴾ من قبح صنيعهم ونهاية غفلتهم عن الله وانتقامه وغيرته ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ المهددة بها والموعدة عليها، أي يطلبون منك يا أكمل الرسل استعجال إتيانها استهزاءً واستنكاراً ﴿قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ الموعودة لهم على تقدير إيمانهم ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ ومضت ﴿مِن قَبۡلِهِمُ﴾ على أمثالهم من الأمم الهالكة ﴿ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ أي القصاصات والعقوبات التي صارت أمثالاً يضرب بها، وحالهم يكفي مؤنة استعجالهم واستهزائهم لو تأملوا ﴿وَ﴾ هم من غاية إصرارهم وكفرهم وإن استحقوا ما يستعجلونه على أقبح الوجوه، لكن أمهلهم الله الحكيم العليم زماناً بمقتضى جوده ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الحليم الرحيم ﴿لَذُو مَغۡفِرَةٖ﴾ سترٍ وعفو ﴿لِّلنَّاسِ﴾ المنهمكين في الغفلة والنسيان ﴿عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾ أي مع ظلمهم على أنفسهم باستجلاب عذاب الله

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ....

إياها، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أيضاً على مقتضى عدله وقهره ﴿لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ وسريع الحساب على من خرج من ربقة إطاعته استكباراً واستنكافاً.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بك وبدينك وبكتابك: ﴿لَوْلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ اقترحناه بها ﴿مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ إن كان نبياً مثل الأنبياء الماضين، لا تبال يا أكمل الرسل بهم وبكفرهم وقولهم هذا ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مخبرٌ بما جئت به من عند ربك، لا مهدٍ مصلح، وإنما عليك البلاغ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ وهو الله سبحانه، إن تعلق إرادته بهدايتهم يهديهم، إذ هو عالمٌ بسرائرهم وضمائرهم، وما جرى عليهم وما يؤول أمرهم إليه.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ من النطفة المصبوبة ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي تنقصها منها وفقا لفضلاتها ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ عليها لتنميتها وتصويرها ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ أي حصولُ كل كائن عنده إنما هو بمقدارٍ مخصوصٍ من مادة معينةٍ، ومدةٍ مقررة، لا ينقص منها ولا يزيد عليها.

والإطلاع عليها وعلى كيفيتها وكمياتها مما استأثر الله به في غيبه إذ هو بذاته سبحانه.

عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ ....

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي الذي غاب عنا أنيته ولميته ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي التي خفي علينا لميته، وكيف لا يعلم الغيب والشهادة إذ هو ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ بذاته ﴿ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ أي المنزه في صفاته عن الاتصاف بصفات كلا العالَمين ولوازمهما.

وإن كان كل منها من أظلال أوصافه الذاتية وأسمائه الحسنى

﴿سَوَآءٌ﴾ عنده سبحانه في حيطة حضرة علمه المتعلق بأحوال المكونات ﴿مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ وأخفاه وأضمره في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ وأظهره ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ﴾ أي مستتر متغطٍ ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ ومن هو ﴿وَسَارِبٌۢ﴾ بارزٌ ظاهرٌ ﴿بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ أي لا يشغله سبحانه شأن عن شأن، ولا يحجب عليه الأستار والسدول، ولا يعين عليه البروز والظهور، إذ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، إذ

﴿لَهُۥ﴾ سبحانه بالنسبة إلى كل شيء من الأشياء حتى الذرة والخطرة والطرفة واللمحة ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ من الأوصاف الإلهية مسميات بالملائكة يعقبن عليها متواليات متتاليات محيطات ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ﴾ عما لا يعنيه وينافره ويؤذيه وما هو إلا ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ إياهم وتعلق إرادته ومشيئته لحصانته وحفظه على مقتضى لطفه وجماله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المدبر

لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ ....

لأمور عباده، المصلح لأحوالهم ﴿لَا يُغَيِّرُ﴾ ولا يبدل ﴿مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة والعافية والرفاهية والفرح والسرور ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ ويبدلوا ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ﴾ من محاسن الأخلاق ومحامد الأوصاف إلى المعالج والمذائم بترك أوامر الله وارتكاب نواهيه، ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿إِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر عباده واستعداداتهم ﴿بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ ناشئا من خباثة طينتهم ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ﴾ أي لا يمكن لأحد من خلقه ردَّ إرادته، ﴿وَ﴾ كيف يردّ مراده سبحانه إذ ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ يولي أمورهم ويرجعون إليه في الوقائع والخطوب.

كيف يرجعون إلى غير الله ويستردون مراده سبحانه مع أنه

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ بغتةً ويورث منه فيكم ﴿خَوْفًا﴾ من أن تصابوا به ﴿وَطَمَعًا﴾ بما هو مستتبع له من المطر ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿يُنشِئُ﴾ من الأبخرة المتصاعدة ﴿ٱلسَّحَابَ﴾ المتراكم من الأبخرة ﴿ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ بالمياه المتكثرة.

﴿وَ﴾ حين إراءة البروق وإنشاء السحب ﴿يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ المتكون من اصطكاك الأبخرة والأدخنة المحتبسة بين السحب المتراكمة ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي بحمد الله بإلقاء الملائكة الموكلين عليه، المعاقبين الممدين له

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أيضاً يسبحون بحمده ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي من خوف الله وسطوة جلاله وقهره ﴿وَ﴾ أيضاً ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ الكائنة من الأبخرة والأدخنة المحترقة بالأجزاء النارية ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أهلاكه وقتله زجراً له وانتقاماً عليه ﴿وَهُمْ﴾ من غاية ضعفهم وعدم قدرتهم وقوتهم ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾ ويكابرون ﴿فِى﴾ توحيد ﴿ٱللَّهِ﴾ وفيما جاءت به رسله من عنده من الأوامر والنواهي المتعلقة بالنشأة الأولى والأخرى ﴿وَ﴾ الحال أن لكمال قدرته وبسطته وسلطنته القاهرة وجلاله ﴿هُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ صعب المكايدة[1] والانتقام لمن جادل معه وكذّب رسله بالباطل لكن

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي قبولها وإجابتها وإنجاحها لمن دعا بها، مخلصاً في دعائه وتوجهه نحو الحق ﴿وَ﴾ المشركون ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي من دون الله من الأصنام والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ قليل مما يطلبونه، بل ما مثلهم في دعوة الأصنام ودعائهم إياهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي كمثل عطشانٍ بسطَ كفيه إلى الماء يدعوه ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ ويرويه ﴿وَ﴾ الحال إنه غائر عميق ﴿مَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ وبسبب ذلك زاد عطشه وحرقة قلبه وزفرة صدره، كذلك المشركون يدعون إلى أصنامهم ليشفعوا لهم، ويصلوا إلى

---

(١) في نسخة (المكابدة).

وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعٗا وَكَرْهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ....

مرامهم، وهم جمادٌ لا يقدرون على الاتصال والقبول أصلاً ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الساترين بأباطيلهم وأوثانهم نورَ الحق الحقيق بالحقية، الوحيد في الألوهية، الفريد بالعبودية ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ خسران وحرمان وخذلان وبطلان.

﴿وَ﴾ كيف يتوجه ويدعي لغير الحق، مع أنه لا إله إلا الله، هو ولا شيء سواه، إذ ﴿وَلِلَّهِ﴾ المتأصل في الوجود، المتصف بالقيومية، لا لغيره من الأظلال الهالكة في أنفسها ﴿يَسْجُدُ﴾ أي يتذلل ويتضرع ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عالم الأسماء والصفات المسمى بالأعيان الثابتة ﴿وَ﴾ من في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ أي عالم الطبيعة من الصور والهياكل المنعكسة من الأسماء والصفات ﴿طَوْعٗا﴾ أي طائعين راغبين عن خبرةٍ واستبصار ﴿وَكَرْهٗا﴾ كارهين عن حيرة وضلال ﴿وَ﴾ أيضاً يسجد له ﴿ظِلَٰلُهُم﴾ أي لوازم هوياتهم وما يترتب عليها ملتبسين ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أي أول الظهور والبروز ﴿وَٱلْأٓصَالِ۩ ﴿١٥﴾﴾ أي وقت الانمحاء والانقضاء.

﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل لمن عاند الحق وجادل مع أهله مكابرة، مستفهماً على سبيل التبكيت والإسكات: ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي موجدهما ومظهرهما من كتم العدم ومربيهما بأنواع التربية والكرم؟ ﴿قُلِ﴾ أيضاً أنت في جواب سؤالك، إذ هم معزولون عن التنطق بكلمة الحق، إذ ختم

ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

الله على قلوبهم وأفواههم: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ أي الموجد والمربي، هو الله المستقل بالألوهية والربوبية، ثم بعد ما ظهر الحق ﴿قُلۡ﴾ لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم﴾ أيها الجاهلون بالله وحق قدره ﴿مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ معبوداتٍ من جنس مصنوعاته، سيما أدونها وهي الجمادات التي ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ فضلاً لغيرهم ﴿قُلۡ﴾ لهم يا يا أكمل الرسل توبيخاً وتقريعاً: أيها الجاهلون المعزولون عن مقتضى العقل الفطري ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ الفاقد للبصر ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ الواجد لها؟ ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ أي الأعدام الهالكة في نفسها ﴿وَٱلنُّورُۗ﴾ الوجود المتشعشع في ذاته؟ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ﴾ أولئك الحمقى العمي الهالكون في تيه الغفلة والضلال ﴿لِلَّهِ﴾ المنزه عن المثل والمثال ﴿شُرَكَآءَ﴾ مثله ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ وأوجدوا لخلقه وإيجاده ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي حتى اشتبه عليهم وتشابه خلقهم لخلقه، سبحانه عما يقول الظالمون علوا كبيراً، ﴿قُلِ﴾ يا أكمل الرسل إرشاد وتكميلاً: ﴿ٱللَّهُ﴾ المستجمع لصفات الكمال بأسرها، والمربي لجميع الكائنات برمتها ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ أي مظهرها وموجدها بالاستقلال بلا مظاهرة ومشاركة ﴿وَهُوَ﴾ بذاته ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المستقل في الوجود ﴿ٱلۡقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ للأغيار الهالكة في أنفسها، المنعكسة من أظلال أسمائه وأوصافه،

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ ....

الباقية في صرافة عدميتها الأصلية.

ومن إشفاقه ومرحمته على عباده أن:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من العالم الروحاني ﴿مَآءً﴾ أي ماء الإيمان والعرفان ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي امتلئت النفوس القابلة بقدر ما يسع في استعداداتها منها، فسالت بعدما امتلئت ﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ أي ارتفع على مياه المعارف والحقائق زبد التقليدات الحاصلة من رسوب القوى البشرية وغش الطبيعة تسقطها على الأطراف وتصفيها عن الكدورة مطلقاً ﴿وَ﴾ مثل ذلك الزبد الباطل يحصل ﴿مِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ من الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها حين أرادوا ذوبانها ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي طلب اتخاذها منها ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ آخر من الأواني وآلات الحرب ﴿زَبَدٌ﴾ فاسد باطل في نفسه ﴿مِّثْلُهُۥۚ﴾ الزبد الأول ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ﴾ لهم لكي يتنبهوا ويتفطنوا فيتبعوا الحق ويجتنبوا عن الباطل، ثم بين لهم سبحانه مآلهم توضيحاً وتقريرا بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ المرتفع على الماء ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ﴾ أي يضمحل ويتلاشى بالجفاف كما أن زبد التقليدات يسقط ويضمحل بإشراق نور اليقين ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من مياه المعارف والحقائق ﴿فَيَمْكُثُ﴾ ويستقر

فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ....

﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي الطبيعة القابلة لانعكاس أشعة الأسماء والصفات الإلهية لينبت فيها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ فطلبوا منه ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ أي المثوبة العظمى والمرتبة العليا معتقدين إفاضتها وإعطاءها إياهم ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ مثل ما استجاب أهل الحق ولم يعتقدوا مثل ما اعتقد، أولئك المحقون لم ينالوا نصيبهم وحظهم ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم﴾ ملك ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من الزخارف والأموال ﴿جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ بل أضعافه وأمثاله ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ لنيل ما نالوا، لكن لم ينالوا[1] بل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن عز القبول ﴿لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ يحاسبون على جميع ما صدر عنهم من النقير و القطمير ويؤاخذون عليها ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ الخذلان والطرد والحرمان ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ مهد أولئك الضالين عن منهج الرشاد.

أينكر المشرك المتمرد عن متابعتك وقبول دينك؟

﴿۞ أَفَمَن يَعۡلَمُ﴾ ويصدق ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ لتأييدك من الكتاب الجامع لما في الكتب السالفة من الأوامر والنواهي والأمثال والرموز

(١) في المخطوط (ما نالوا لم ينالوا).

ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ....

والإشارات هو ﴿ ٱلْحَقُّ﴾ المطابق للواقع بلا شك وارتياب فيه ﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عن إبصار ما يرى في الآفاق من المبصرات، بل أشد عمى منه؛ لأنه فاقد البصيرة، إذ لا يمكن إدراك الأمور الدينية والمعارف اليقينية إلا بها، ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويتفطن بسرائر كتاب الله ﴿ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ المستكشفون عن لب الأمور، المعرضون عن قشوره ولا يحصل ذلك إلا بالبصيرة وهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ الذي عهدوا معه حين رش رشحات نور الوجود على أراضي استعداداتهم ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾ الوثيق بل يحفظونه ويواظبون على حفظه دائماً.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ ويتصفون بعموم ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ﴾ من المأمورات والمرضيات والمعارف والحقائق والخصائل الجميلة والأخلاق الحميدة ﴿أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ﴾ عن ارتكاب المنهيات والمحظورات والذمائم من الأطوار والأخلاق ﴿رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ﴾ من الله وعن مخالفة أمره ومقتضى نهيه ﴿سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ ورداءة المنقلب والمآب.

﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ إذا أصابتهم مصيبة وأحاطتهم بلية ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ وطلب مرضاته، مسترجعين إليه سبحانه، متضرعين نحوه ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾

وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ ....

أي أداموا الميل والتوجه إليه في جميع الأحوال والأزمان ﴿وَأَنفَقُواْ﴾ للفقراء المستحقين ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ ووفقناهم وأقدرناهم لكسبها وجمعها ﴿سِرًّا﴾ أي على وجه لا يشعر الفقير منفعة لئلا يتأذى بالمن والأذى ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ على وجه يشعر به لكي يبالغ المنفق في التذلل والانكسار بحيث لا يتوهم المنة أصلاً ﴿وَ﴾ أيضاً الذين ﴿يَدْرَءُونَ﴾ أي يدفعون ويسقطون ﴿بِٱلْحَسَنَةِ﴾ أي بالخصلة الحميدة والخلق المرضي ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي الذميمة من الخصائل والأخلاق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ السعداء الأولياء، ذوو العهد والوفاء والخوف والرجاء، الصابرون على البلاء، الراضون بما جرى عليهم من سوء القضاء، المتوجهون إلى المولى في السراء والضراء، المنفقون لرضاه من عندهم للفقراء، حصلَ ﴿لَهُمْ﴾ حين كانوا في النشأة الأولى ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ الأخرى، أي ما يحصل فيها من اللذات والمثوبات ورفع الدرجات ونيل المرادات، ومن جملتها:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي دار إقامة وخلود ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ هم أصالة واستحقاقاً ﴿وَ﴾ يدخل أيضاً بشفاعتهم وتبعيتهم ﴿مَن صَلَحَ﴾ لصحبتهم ورفاقهم ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ ومن ينتمي إليهم، ﴿وَ﴾ حين استقروا وتمكنوا فيها يزورهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ترحيباً وتعظيما ﴿يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾

سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۙ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ....

من أبواب الجنة قائلين:

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أيها الفائزون بالفلاح والنجاح ﴿بِمَا صَبَرْتُمْۚ﴾ في دار الابتلاء لأنواع المحن والبلاء ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ أي منزلكم ومنقلبكم في دار القرار وعواقب أموركم فيها من الفرح الدائم والسرور المستمر.

ثم بين سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب عواقب حسن الأبرار بقبح أحوال الأسرار وخاتمة عواقبهم بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ الذي عهدوا معه في بدء الوجود وأصل الفطرة ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ مع وثاقته وأحكامه، ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿يَقْطَعُونَ﴾ ويتركون ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ويحافظ عليها ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِۙ﴾ بأنواع الفسادات من الظلم والزور والافتراء والمِراء والمكابرة مع الأنبياء والأولياء وسوء الظن مع أرباب المحبة والولاء ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ المعزولون عن ساحة عز القبول ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي الطرد والحرمان والرد والخذلان في النشأة الأولى ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ ورداءة المرجع والمآب في النشأة الأخرى.

ثم لما افتخر أهل مكة بما عندهم من الأمتعة والزخارف وبأهوائها واستحقروا فقراء المؤمنين وشنعوا عليهم، رد الله عليهم بكلام ناشئ عن

ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم

محض الحكمة فقال:

﴿ٱللَّهُ﴾ المطلع لاستعدادات عباده ﴿يَبۡسُطُ﴾ أي يكثر ويوسع ﴿ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده في النشأة الأولى، ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي يقبض وينقص على من يشاء إرادة واختيار، حكمة منه وتدبيرا ﴿وَ﴾ هم بمفاخرتهم ومباهاتهم بحطام الدنيا قد ﴿فَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ المستعارة التي لا قرار لها ولا ثبات بل ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ وما يترتب عليها من اللذات الفانية والمشتهيات الغير الباقية ﴿فِي﴾ جانب حياة ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وما يترتب عليها من اللذات الدائمة والمثوبات الباقية ﴿إِلَّا مَتَٰعٞ ﴿٢٦﴾﴾ قليل حقير، لائق به، ولا يلتفت إليه.

﴿وَ﴾ من خبث طينتهم ورداءة فطرتهم ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بك وبكتابك وبدينك: ﴿لَوۡلَآ﴾ أي هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ﴾ ملجئة لإيماننا ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ مع أنه يدعي التأييد منه، ومع شغفه لإيماننا ﴿قُلۡ﴾ لهم: ما علي إلا البلاغ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المطلع لضمائر عباده ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ على مقتضى علمه وعدله لمن أراد إضلاله وانتقامه ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ﴾ على مقتضى جوده ﴿مَنۡ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ إليه من ظهر القلب، إذ كل ميسر لما خلق له

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بتوحيد الحق ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي تسكن وتستقر

بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ ....

من دغدغة التقليد الباطل والتلوين المضمحل الزائل ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ﴾ الواحد الأحد المستقل في الوجود بلا اضطراب وتعدد وتردد فقد اضمحلت وتلاشت عن صحائف خواطرهم نقوش الاعتبار والسوى مطلقاً.

﴿أَلَا﴾ أيها الطالبون إلى مرتبة الكشف والشهود ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ المسقط للإضافات ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ وتتمكن في مقام الحضور وتستريح عن تشاويش الأوهام.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ في أوائل سلوكهم وطلبهم ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ المقربة لهم إلى مطلوبهم ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ الفوز بالفلاح والنجاح ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ وهو التحقق بمقام الكشف والشهود.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إرسالنا الرسل على الأمم الماضية على مقتضى سنتنا القديمة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا أكمل الرسل ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾ منحرفة عن طريق الحق وليس إرسالك عليهم ببدع ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أمثالهم مائلون عن طريق الحق وسواء السبيل، وإنما أرسلناك ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ﴾ وتبلغهم ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من المعارف والحقائق والآداب والأخلاق المرضية المقبولة في جنابنا، المودعة في استعدادات عبادنا ليفوزوا بها سعة رحمتنا وجودنا ﴿وَهُمْ﴾ لانهماكهم في الغفلات والشهوات

يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ....

﴿يَكْفُرُونَ﴾ وينكرون﴿بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً ﴿قُلْ﴾ يا أكمل الرسل للمنكرين الغافلين تنبيهاً عليهم وتبليغاً، وإن كانوا من الحمقى الهالكين في تيه الغفلة والنسيان ﴿هُوَ رَبِّي﴾ وربكم ومولى أمري وأموركم ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ في الوجود يعبد له ويرجع إليه في الوقائع ﴿إِلَّا هُوَ﴾ الواحد الأحد الصمد الفرد الذي لا شريك له ﴿عَلَيْهِ﴾ لا على غيره من الأظلال ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره من الأسباب والوسائل ﴿مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي مرجعي ومعادي.

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿لَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ بمثابة لو قرأت ﴿سُيِّرَتْ﴾ وتحركت ﴿بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ عن مكانها الأصلي وأندكت ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ أي انصدعت وانشقت ﴿بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰۗ﴾ عند قراءته عليهم واستماعهم له. ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ﴾ أي القدرة الكاملة والحول التام والقوة الغالبة في الأمور المذكورة ﴿جَمِيعًاۗ﴾ له سبحانه، إن تعلق إرادته ومشيئته لكان البتة مع ذكر ما ذكر من الأمور، لم يؤمنوا به ولم يقبلوه منك لشدة شكيمتهم وكمال قسوتهم، ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ ولم يقنط ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عن إيمان أولئك المدبرين المعاندين مع ظهور أمارات الكفر عليهم وعلامات الإنكار عنهم، سيما بعدما سمعوا في حقهم من الله ما سمعوا، ولم يعلم هؤلاء

أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ

المؤمنون ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ وتعلق إرادته بهداية الكل ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ﴾ فلم يهدهم لعدم تعلق إرادته بهداية البعض ﴿وَ﴾ لا تقنطوا أيها المؤمنون عن نصر الله إياكم على أعدائكم ولا تيأسوا عن روحه إذ ﴿لَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأصروا على الكفر عناداً واستكباراً ﴿تُصِيبُهُم﴾ وتدور عليهم ﴿بِمَا صَنَعُوا۟﴾ أي بصنيعهم هذا وإصرارهم عليه ﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية هائلة تقرع أسماعهم، وتضطربهم اضطراباً شديداً ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ وتنزل الداهية العظيمة في أحوالهم ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ومساكنهم لتدور عليهم ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ﴾ الذي وعده لنبيه بأن ينتقم عنهم ويعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالفتح والظفر عليهم، وفي الآخرة بأنواع العقاب والنكال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المؤيد لأنبيائه، المنجز لما وعدهم من إهلاك أعدائهم ﴿لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾.

ثم لا تحزن يا أكمل الرسل من استهزائهم وسخريتهم معك ولا تبال بعمههم وسكرتهم وبطرهم واستهتارهم بمالهم وجاههم.

﴿وَ﴾ الله ﴿لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أشد من استهزاء هؤلاء معك ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ وأمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي للمستهزئين الذين كفروا حتى انهمكوا في الغفلة وتوغلوا فيها بطرين فرحين ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ﴾ فجأة

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ......................

واستأصلتهم بغتة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ مع أولئك؟ ومع هؤلاء أشد من ذلك.

ثم قال سبحانه:

﴿أَ﴾ ينسى الحساب ويترك العقاب ﴿فَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي مطلع محاسب ورقيب حافظ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ من النفوس الخيرة والشريرة ليحيط ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿وَ﴾ لا سيما الشر الذي ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾ الأحد المنزه عن الشريك والولد ﴿شُرَكَآءَ﴾ فوق، واحدة من أظلاله، ومصنوعاته مع أنه سبحانه تعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿قُلْ﴾ لهم تبكيتاً عليهم وإلزاماً لهم: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي تلك الشركاء بأسماء، وصِفوهم بصفاتٍ يستحقون بها الألوهية والربوبية ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ وتخبرونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي بأسماء وصفاتٍ لا يعلمها[1] في الأرض، بل لا يعلمها في السماء ﴿أَم﴾ سموهم ﴿بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ مجازاً بلا اعتبار المعنى الحقيقي فيهم، وبالجملة هم عاجزون عن الكل ساكتون عنها ﴿بَلْ﴾ إنما ﴿زُيِّنَ﴾ وحسن ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وأشركوا ﴿مَكْرُهُمْ﴾ أي تمويههم وتلبيسهم مع علمهم ببطلانها ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿صُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي

(١) أي لا يعلمها الله.

وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ

قصدوا إعراض ضعفاء المؤمنين عن طريق الحق، وما هو إلا من غيّهم وضلالهم في أصل فطرتهم ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ وأراد إضلاله ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ يهديهم ويوفقهم إلى سبيل الرشاد.

بل ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بغفلتهم عن معرفة الله واللذات الروحانية مع عدم شعورهم بها ﴿وَ﴾ الله ﴿لَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حين انكشف الحال وارتفع الحجب ﴿أَشَقُّ﴾ وأصعب ﴿وَ﴾ كيف لا يكون عذاب الآخرة أشق إذ ﴿مَا لَهُم﴾ فيها ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي عذابه وانتقامه ﴿مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ أي حافظ شفيع يشفعهم ليخفف عنهم ويحفظهم من عذابه.

ثم قال سبحانه على مقتضى سنته من تعقيب الوعيد بالوعد:

﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ المتحفظون نفوسهم عن ارتكاب المعاصي والأثام، المتمثلون بما أُمروا من العقائد والأحكام ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لإجرائهم أنهار المعارف والحقائق على أراضي استعداداتهم لإنبات ثمرات الكشوف والشهود ﴿أُكُلُهَا﴾ من الرزق المعنوي والأغذية الروحانية ﴿دَآئِمٌ﴾ غير منقطع ﴿وَ﴾ كذا ﴿ظِلُّهَا﴾ الذي تستريحون فيه دائم غير زائل، لا انقطاع لها أصلاً كأظلال الدنيا.

﴿تِلْكَ﴾ الجنة التي وصفت بما وصفت ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا﴾ أي عاقبة أمر المؤمنين الذين اتقوا عن محارم الله ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرين

ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ ....

على ارتكاب المعاصي والشهوات البهيمية ﴿ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ المعدة لهم بدل لذاتهم وشهواتهم السيئة.

ثم قال سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ واتبعناهم النبيَ، المبين لهم ما فيه من الأوامر والنواهي ﴿يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ﴾ أي في كتابهم الجامع لما في كتبهم لأنهم يجدونه موافقاً مطابقاً لكتبهم ﴿وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ من هؤلاء المتحزبين في أمر القرآن ﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ﴾ أي الآيات الناسخة لبعضها أحكام كتبهم، قل لهم إنما نُسخ ما نُسخ من الأحكام الجزئية على مقتضى سنة الله في نسخ بعض الأحكام الجزئية الثابتة في الكتب السابقة بأحكام الكتب اللاحقة، وليس هذا ببدع وأما العقائد الكلية المصونة عن طريان النسخ والتبديل، فهي المتفق عليها بين جماهير الأنبياء لذلك ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ الواحد الأحد الصمد الحقيق بالحقية المستقل في الألوهية والربوبية ﴿وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ﴾ من أظلاله ومصنوعاته وبمقتضى أمره ﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى غيره من الأظلال الهالكة في إشراق شمس ذاته ﴿أَدۡعُواْ﴾ دعاء مؤمل متضرع خاشع خاضع ﴿وَ﴾ كيف لا أدعو إذ ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ أي منقلبي ومرجعي، رجوع الظل إلى ذي الظل.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ ....

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي مثل إنزالنا للأمم الماضية كتاباً بعد كتاب ناسخاً لبعض ما فيها على مقتضى الأزمان والأقوام كذلك ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي القرآن إليك يا أكمل الرسل ﴿حُكْمًا﴾ مبيناً للقضايا على مقتضى الحكمة المتقنة ﴿عَرَبِيًّا ۚ﴾ مناسباً بلسانك ولسان قومك يسهل لهم الاسترشاد والاستهداء به، ناسخاً لبعض ما في الكتب السالفة ﴿وَ﴾ الله ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتَ﴾ أنت بنفسك ﴿أَهْوَآءَهُم﴾ أي أهواء أهل الكتاب وإن كانت قبل النسخ هدىً سيما ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ﴾ في كتابك ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ بنسخها وبصيرورتها هوىً ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من غضبه وانتقامه ﴿مِن وَلِىٍّ﴾ يولي أمرك بالاستخلاص والاستشفاع ﴿وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ يحفظك ويمنعك من مقته، ثم قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ مثلك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ﴾ مثل أزواجك وأولادك، فلا يقدح في نبوتهم أزواجهم وأولادهم، فكيف يقدح في نبوتك مع أنك أفضل منهم ﴿وَ﴾ أيضاً أرسلنا رسلاً من قبلك ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما صح وجاز ﴿لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ﴾ مقترحة ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ ووحيه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ ووقت يسع فيه أمر من الأمور الكائنة والفاسدة ﴿كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ نازل من عنده ناطق بوقوع ما كان ويكون فيه.

يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ....

﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وينسخه على مقتضى حكمته وإرادته ﴿وَيُثۡبِتُۖ﴾ ما أراد إثباته ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ أي لوح القضاء والقدر المتوالية المتتالية على مقتضى الأوصاف الذاتية الإلهية والتجليات اللطفية والقهرية والجلالية والجمالية.

﴿وَ﴾ بالجملة لا تفرح يا أكمل الرسل ﴿إِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أي إن تحقق إراءتنا لك ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ من الإهلاك والإجلاء والقهر والغلبة ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي لا تغتم أيضاً أن تحقق توفينا لك قبل رؤيتك بما نعدهم من العذاب والنكال بل ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ﴾ أي ليس في وسعك وطاقتك ﴿ٱلۡبَلَٰغُ﴾ بما أُمرت بتبليغه ﴿وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ والجزاء بمقتضاه عاجلاً وآجلاً.

﴿أَ﴾ ينكرون حسابنا إياهم وانتقامنا عنهم ﴿وَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ﴾ التي شاعت فيها كفرهم ﴿نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ﴾ وأرجائها حتى ضاقت عليهم بإظهار دين الإسلام وإكثار أهله ﴿وَٱللَّهُ﴾ المدبر على مقتضى الحكمة ﴿يَحۡكُمُ﴾ بحكم مبرم ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾ أصلاً ليبدله ويغيره ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ صعب الانتقام على من أراد تغيير حكمه وتبديله.

﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مع أنبيائهم المبعوثين إليهم مثل مكر هؤلاء

فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ....

الماكرين معك يا أكمل الرسل، فلحقهم ما لحقهم وهم غافلون عن مكر الله ﴿فَلِلَّهِ﴾ المطلع لعواقب الأمور ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ المعتد به ﴿جَمِيعًا﴾ إذ ﴿يَعْلَمُ﴾ بعلمه الحضوري ﴿مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ونفع وضر فينتقم هو عنها على مقتضى علمه ﴿وَ﴾ هم وإن غفلوا عن مكر الله وما يترتب عليه من الوبال ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ المصرون على الكفر والضلال ﴿لِمَنْ﴾ من الفريقين ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي العاقبة الحميدة في النشأة الأخرى.

﴿وَ﴾ من شدة شكيمتهم وغيظهم معك يا أكمل الرسل ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بدينك وكتابك أي رؤساؤهم وصناديدهم: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ من عند الله مثل سائر الرسل لذلك ما نتبعك ونؤمن بك وبكتابك ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى الله بي شاهد لإثبات رسالتي وادعائي النبوة، إذ أيدني بالمعجزات القاطعة والبراهين الساطعة ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ من أصحاب اللسن والفصاحة وأرباب الفطنة والذكاء، المتأملين في مرموزات الكتاب، المتنعمين في استكشاف سرائره، لو تأملوا فيه حق تأمل وتدبر، لم يبق لهم شائبة شك وتردد في أنه ما هو من جنس كلام البشر، بل ما هو إلا وحي يوحى، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

خاتمة السورة

عليك أيها الطالب القاصد لاستكشاف سرائر المرتبة الجامعة المحمدية التي اتحد عندها قوسا الوجوب والإمكان، واتصل دونها الغيب والشهادة: أن تتأملَ في القرآن المنزل عليه من عند ربه على مقتضى نشأته وكمال استعداده وعزة شأنه، وتتدبرَ حق التدبر في مرموزاته بقدر وسعك وطاقتك، وإن كان الاطلاع على غوره من المستحيلات سيما بالنسبة إلى ذوي الاستعدادات الضعيفة حتى يشهد لك ذوقك ووجدانك برسالته ونبوته وهدايته إلى توحيد ربه وإرشاده إلى سبيل الحق، ولا يتسير لك هذا إلا بعد تصفية ظاهِرك عن الشواغل الحسية والعلائق الدنياوية مطلقاً، وباطنِك عن التقليدات والتخمينات الموروثة لدرن الجهالات ورين الخيالات الموقعة لأنواع الشبهات والترددات.

وبالجملة لا يحصل لك هذا إلا بعد تحققك في مرتبة الموت الإرادي وخروجك عن مقتضى هويتك مطلقاً.

جعلنا الله ممن أيده الحق لسلوك طريق توحيده، ووفقه إلى سواء سبيله بمنه وجوده.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فاتحة سورة إبراهيم عليه السلام

لا يخفى على ذوي الاستبصار وأولي الفهم والاعتبار من المستكشفين المستنيرين بلوامع نور الوجود المتشعشعة والمتجلية على صفائح المكونات الغيبية والشهادية: أن حكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب إنما هو لإخراج أصحاب الجهالات والغفلات عن ظلمات الضلالات ومهاوي التقليدات والتخمينات إلى نور اليقين وفضاء العرفان ليتنبهوا على شأنهم في منشئهم ومآلهم وحالهم في مبدئهم ومعادهم ويتفطنوا لحكمة إيجادهم وإظهارهم، وبعد تنبههم وتفطنهم، يتيسر لهم سلوك طريق التوحيد المنجي عن غياهب الشكوك وظلمات الأوهام، ويحصل لهم الترقي من المرتبة الأنزل الأدنى إلى الأرفع الأعلى، لذلك خاطب سبحانه حبيبه بما خاطب وأنزل عليه ما أنزل تأييداً له وتتميماً لإرشاد عباده إلى توحيده فقال متيمناً باسمه الكريم:

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ المتجلي بالكمالات اللائقة على صدور أنبيائه لتكميل من آمن لهم من عباده وإهدائهم إلى طريق توحيده ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لهم بإرسال من هو من جنسهم، ليسهل لهم الاستفادة والاسترشاد منه بلا كلفة ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ لهم بإنزال الكتاب الجامع لجميع شعائر سلوكهم في مبدئهم ومعادهم ليدوم فيما بينهم.

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ ....

﴿الٓرۚ﴾ أيها الإنسان الكامل الأحق الأليق للوامع لوائح رموزات رقائق الربوبية بأن تنزل على قلبك بطريق الوحي والإلهام، فتذيعه بين الأنام على سبيل الإرشاد والتكميل هذا ﴿كِتَٰبٌ﴾ جامع لجميع لوامع رقائق الربوبية ودقائق لوائح الألوهية، مناسب مطابق لمرتبتك الجامعة ﴿أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ تأييداً لك في أمرك ﴿لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ الناسين المقام الأصلي والمنزل الحقيقي ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الإمكانية الطبيعية الهيولانية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ البحت الخالص عن شوب المادة والمدة وليس إخراجك إياهم إلا ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾ الذي رباهم في أصل استعداداتهم وفطرتهم بأنواع اللطف والكرم، ووفقهم على قبول ما جئت به من عند ربهم ليوصلهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾ الغالب في أمره على مقتضى قدرته وإرادته على الوجه الأقوم الأعدل ﴿ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ في فعله لخلوه عن كلا طرفي الإفراط والتفريط.

وكيف لا يكون صراطه مستقيماً وأفعاله معتدلاً مقتصداً إذ هو ﴿ٱللَّهِ﴾ المستجمع لجميع الكمالات ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ﴾ تكوين ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ من الكواكب السيارات والثوابت على النمط البديع والتركيب العجيب ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ من العناصر والمركبات على أقوم الأمزجة وأعدله ﴿وَوَيۡلٞ﴾ أي طردٌ وتبعيد عن مرتبة التوحيد ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ الساترين شمس الحق الظاهر بالعدالة التامة والاستحقاق بغيوم الأظلال الباطلة والعكوس العاطلة

مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ....

﴿مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾﴾ هو مسخهم وتبديلهم عن كمال مظهرية الحق وخلافته إلى مرتبة الحيوانات العجم بل إلى مرتبة الجمادات التي هي أنزل المراتب، أولئك كالأنعام بل هم أضل، وهم:

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ المستعارة التي لا مداد لها ولا قرار، إذ هي أظلال في ظلمة عكوس عاطلة ﴿عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ أي على الحياة الأخروية التي هي بقاء سرمدي وحياة أزلية لا انقضاء لها أصلاً ﴿وَ﴾ هم مع اختيارهم وترجيحهم الحياة الفانية على الباقية ﴿يَصُدُّونَ﴾ ويصرفون الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الذي هو الإيمان بالله وبرسوله وكتابه ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ﴾ أي يطلبون أن يحدثوا فيها مع استقامتها انحرافاً ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الأشقياء المردودون عن طريق الحق، الساعون في الباطل مكابرة وعناداً ﴿فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ عن الهداية بمراحل بحيث لا يرجى هدايتهم أصلاً، لأنهم مجبولون على الضلالة والغواية في أصل فطرتهم.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ﴾ من الرسل على أمة من الأمم ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ أي ما أرسلناه إلا للغة موافقةٍ بلغة قومه ليفقهوا حديثه ويفهموا لسانه ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ﴾ طريق التوحيد ويجنبهم عن خلافه وما عليه وفي وسعه إلا البلاغ ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ المضل المذل لعباده ﴿مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله وإذلاله على مقتضى قهره وجلاله ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ هدايته على مقتضى لطفه

وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ....

وجماله ﴿وَهُوَ﴾ في ذاته ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على ما أراد وشاء إرادة واختيار ﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ المتقن في فعله على مقتضى إرادته.

ثم ذكر سبحانه قصة إرسال موسى إلى قومه حين فشا الجدال والمراء بينهم وانحرفوا عن طريق الحق ليتعظ به المؤمنون ويعتبروا فقال:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ من مقام فضلنا وجودنا ﴿مُوسَىٰ﴾ المؤيد ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ الباهرة مثل العصا واليد البيضاء وسائر المعجزات الظاهرة على يده وقلنا له ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ الضالين عن سواء السبيل بمتابعة الأهوية الفاسدة ﴿مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الطارئة عليهم من الكفر والفسوق والعصيان والتقليدات والتخمينات الناشئة من الأوهام والخيالات، المنبعثة عن الكثرة المستدعية للأنانية التي هي الظلمة الحقيقية ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الحقيقي الذي هو صرافة التوحيد والوحدة الذاتية المسقطة لجميع الإضافات والكثرات ﴿وَذَكِّرْهُم﴾ أيضاً ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ﴾ التي مضت على الأمم الهالكة من أمثال هذه الأفعال المورثة لأنواع الظلمات، لعلهم يعتبروا عن سماعها وينصرفوا عما هم عليه من القبائح والذمائم ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي في ذكر تلك الوقائع الهائلة والبليات العظيمة ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ أي دلائل واضحات وعبر ﴿لِّكُلِّ﴾ مؤمن معتبر من أمثاله خائف من بطش الله ﴿صَبَّارٍ﴾ على ما جرى عليه من قضائه ﴿شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ مبالغ في الشكر على ما وصل إليه من آلائه ونعمائه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ ....

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ حين أراد تعديد نعم الله عليهم وإحسانه إليهم ليستحيوا عن مخالفة أمره وترك طاعته وعبادته ﴿اذْكُرُوا﴾ أيها المغمورون بنعم الله ﴿نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وقوموا لشكرها أداء لحق شيء منها سيما ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ ويقصدون لكم ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي أفضحه وأقبحه ﴿وَ﴾ هو أنه ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾ قمعاً وقلعاً لعرقكم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ توبيخاً وتقريعاً عليكم ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ﴾ نازل ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ إذ هو بإقدار الله إياهم ﴿عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ لا بلاء أعظم منه.

والإنجاء عن أمثال هذا البلاء من أعظم النعماء، فعليكم أن تواظبوا الشكره ﴿وَ﴾ اذكروا أيضاً ﴿إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي أعلمكم إعلاماً بليغاً، وأوصاكم وصية عظيمة تتميماً لتربيتكم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ على ما أُعطيتم من النعم العظام وقمتم لأداء حقها ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وأضاعفنكم بأمثالها وأضعافها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ في مقابلة الإحسان والعطاء فلا يلحق علي أثر كفرانكم بل ﴿إِنَّ عَذَابِي﴾ ونكالي على من صرف عن أمري وخرج عن إطاعتي وانقيادي ﴿لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ مبرم محكم لا يندفع أصلاً، فعليكم أن تلازموا الشكر وتجانبوا عن الكفران.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨) أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ ....

﴿وَ﴾ بعدما فرغ عن التعديد والتذكير ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُوسَىٰٓ﴾ قولاً ناشئاً عن محض الحكمة والرزانة على مقتضى نور النبوة والولاية: ﴿إِن تَكۡفُرُوٓاْ﴾ أيها الغافلون عن كمال استغناء الله وعلو شأنه وسمو سلطانه ﴿أَنتُمۡ﴾ بأجمعكم بل ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ لا يزن في جنب استغنائه سبحانه مقدار جناح بعوضة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿لَغَنِيٌّ﴾ في ذاته عما سواه من أظلاله مطلقاً ﴿حَمِيدٌ (٨)﴾ بمقتضيات أوصافه وأسمائه.

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ أيها التائهون في تيه الغفلة والغرور ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ﴾ مضوا ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ لمثل ﴿قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۛ﴾ من الأمم الهالكة ﴿لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ المطلع لجميع ما كان ويكون، لا يعزب عن حيطة حضرة علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء حين ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم﴾ المبعوثون إليهم ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ الواضحات والمعجزات الباهرات المثبتة لرسالاتهم، فدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وأمروهم بالمعروفات ونهوهم عن المنكرات ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ مشيرين إليها من غاية إنكارهم واستهزائهم ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا﴾ أي اعترفنا بالكفر بأفواهنا كأنهم أخبروا عن كفرهم بالجملة الماضية تحقيقاً وتقريراً لما هم عليه من الكفر والطغيان ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ من عند ربكم وكيف نؤمن لكم ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ﴾ عظيم

مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ....

﴿مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ من الإله الواحد الأحد الصمد المتصف بجميع صفات الكمال الموجد المظهر للكائنات ﴿مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ موقع للريب المؤدي إلى الإنكار، إذ المتصف بهذه الصفات لا بد أن يكون أظهر من الشمس، مع أنه أخفى من كل شيء بل لا وجود له أصلاً.

﴿۞ قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ﴾ على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿أَفِي ٱللَّهِ﴾ الظاهر المتجلي في الآفاق بالاستقلال والاستحقاق ﴿شَكٌّ﴾ وتردد مع كونه ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي موجدهما ومظهرهما من كتم العدم بلا سبق مادة ومدة إنما ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى توحيده بإرسال الرسل وإنزال الكتب ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم﴾ بعضاً ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ وهو ما بينكم وبينه سبحانه، إذ حق الغير لم يسقط ما لم يعف صاحب الحق عنه ﴿وَ﴾ بعد دعوتكم ﴿يُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم الجزاء ليهيئ كل منكم زاد يومه هذا على الوجه المأمور المبين في الكتب المنزلة على الرسل، وبعدما سمعوا من الرسل ما سمعوا ﴿قَالُوٓاْ﴾ مستنكرين عليهم مستهزئين لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكلون وتشربون وتفعلون جميع ما نفعل ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأمثال هذه الحيل والتزويرات الباطلة ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ وأسلافنا من الآلهة والأصنام، وإن صدقتم في دعواكم ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي بحجة واضحة لائحة نقترحها منكم.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ....

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مسلمين منهم المشاركة في الجنس: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ نشارك لكم في جميع أحوال البشر وأوصافه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ المنعم المفضل ﴿يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ بمقتضى جوده وإحسانه بفضائل مخصوصة وكرائم غير شاملة على تفاوت مراتبهم واستعداداتهم المثبتة في علم الله ﴿وَ﴾ أما أمر مقترحاتكم فإنه ﴿مَا كَانَ﴾ أي صح وجاز ﴿لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ﴾ تقترحون ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بتوفيقه ووحيه وإقداره إن تعلق إرادته بصدورها منا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ لا على غيره من الأسباب والوسائل العادية ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ الموحدون المفوضون أمورهم كلها إلى الله أولاً وبالذات، ولا يعتقدون الحول والقوة إلا بالله المستقل في ذاته وأوصافه وأفعاله.

﴿وَ﴾ بعد ما آيسوا عنهم وعن صلاحهم اشتغلوا إلى تزكية نفوسهم ﴿مَا لَنَآ﴾ أيْ أيّ عذر عرض لنا ﴿أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ المصلح لأحوالنا فلِمَ لمْ نتخذه وكيلنا وكفيلنا ﴿وَ﴾ الحال أنه سبحانه بمقتضى لطفه وجماله ﴿قَدْ هَدَىٰنَا﴾ وأوضح لنا ﴿سُبُلَنَا﴾ التي نسلك بها نحو توحيده وعرفانه، وأن ما جرى علينا من المنافع والمضار إنما هو من عنده وبمقتضى مشيئته وإرادته

وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ....

﴿وَ﴾ اللهِ بعد ما تحققنا بمقام التوحيد، وتمكنّا في مقر التجريد والتفريد ﴿لَنَصْبِرَنَّ﴾ على جميع ﴿عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ﴾ بالرد والإنكار وغير ذلك من الاستهزاء وسوء الأدب، وكيف لا نصبر، إذ الكل بيده سبحانه وبحيطة حضرة قدرته وإرادته إنما وصل إلينا ابتلاء منه سبحانه إياناً واختباراً ﴿وَ﴾ بعدما تحقق وبين أن الكل من عنده، ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المستقل في جميع التصرفات والأفعال في كل الأمور والأحوال ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ الموحدون المفوضون أمورهم كلها إليه، لذلك بذلوا مهجهم في طريق التوحيد وإعلاء كلمته.

﴿وَ﴾ بالجملة أدى أمر استكبارهم واستنكارهم وتكذيبهم إلى أن ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ﴾ حين بالغوا في دعوتهم وإهدائهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم﴾ أيها المزورون الملبسون ﴿مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ إجلاء وإخراجاً على وجه الإهانة والإذلال ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ منصفين ملجئين ﴿فِي مِلَّتِنَاۖ﴾ التي هي ملة آبائكم وأسلافكم ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ حين اشتد الأمر إليهم واضطروا من ظلمهم وطغيانهم قائلاً لهم على سبيل الوعد والتبشير: لا تبالوا أيها الرسل المبلغون كلمة الحق إليهم من تهديداتهم وتشنيعاتهم، ولا تخافوا من شوكتهم وصولتهم[1] نحن أقوى منهم ﴿لَنُهْلِكَنَّ﴾ بمقتضى قهرنا وجلالنا ونستأصلن ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ الخارجين عن ربقة إطاعتكم وانقيادكم.

(١) في المخطوط (وصولهم).

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ ....

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ﴾ ونقررنكم ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ التي هم يريدون إخراجكم منها مهانين صاغرين ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ أي إهلاكهم واستئصالهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي إهلاك العدو وإيراث الأرض والديار ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ أي للمؤمنين الموعدين الخائفين عن قيامي وحفظي واطلاعي لجميع أحوال عبادي، وبسبب خوفهم هذا لا يخرجون عن مقتضى نهيي وأمري ﴿وَ﴾ مع ذلك الخوف ﴿خَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي عن وعيدي في يوم الجزاء بأنواع العذاب والنكال.

ومن غاية خوفهم ورعبهم عن الوعيدات الأخروية استَعَدُّوا لها، وهيؤوا أسباب النجاة منها، جعلنا الله ممن هيأ اسباب أخراه في آولاه

﴿وَ﴾ كيف لا ينصرهم الحق ولا يهلك عدوهم إذ هم ﴿اسْتَفْتَحُواْ﴾ واستنصروا من الله، وطلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم، مفوضين أمورهم كلها، مسلمين نفوسهم وأرواحهم على قضائه، لذلك فتح سبحانه عليهم ونصرهم على عدوهم ﴿وَخَابَ﴾ خيبة أبدية وخسر خسراناً سرمدياً ﴿كُلُّ جَبَّارٍ﴾ متكبر متجبر على الله وعلى عباده ﴿عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ مبالغ في العتو والعناد مع أنبيائه ورسله.

ومع ذلك لا يقتصر عليهم بالعذاب العاجل بل:

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ﴾ أي وراء العذاب الدنيوي ﴿جَهَنَّمُ﴾ البعد والخذلان والطرد والحرمان ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ فيها حين اشتد زفرتهم ﴿مِن مَّآءٍ﴾ أي مائع كالماء

صَكِدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ....

﴿صَكِدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي قيح سائل من جراحات أجساد أهل النار.

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ بتكلف واضطراب ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي لا يقارب أن يجري على حلقه، لِلزُوجَتِه وحرارته والتصاقه[1] ﴿وَ﴾ لعدم إساغته وجوازه ﴿يَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي يأتيه ويتوجه نحوه أسباب الموت من كل عضو من أعضائه لوصول أثر اشتداده ورداءته وبشاعته كلَ جزء من أجزاء بدنه حتى أصول شعره، فتقشعر من هوله كما يشاهد عند شرب الأدوية الرديئة الكريهة الرائحة واللذة مثل السَّقَمُونيا والحنظل وغير ذلك ﴿وَ﴾ مع إتيان أسباب الموت من جميع الأعضاء ﴿مَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ حتى يتخلص من العذاب بل ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ أي عقيب سقيه على هذا الوجه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ من أنواع العذاب.

ثم قال سبحانه كلاماً جملياً شاملاً لجميع أصحاب الضلال:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بأنواع النعم فيكفرون النعم والمنعم جميعاً متى لم يصلوا إلى مرتبة توحيده وعرفانه ولم يؤمنوا به حتى يصلوا بالسلوك والمجاهدة إليه، شأنهم العجيب وحالهم الغريبة فيما يتلى عليكم أنه ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾ الحسنة من الصدقة والعتق والصلة وغير ذلك من الأعمال المقربة إلى الحق إن كانت غير مقرونة بالإيمان والمعرفة ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ ذو رياح شديدة عاصفة فطار بها الرماد إلى حيث لم يبق في

(١) في المخطوط (والاتصاقه).

لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ ....

مكانه أثر منه، أي مثلهم وشأنهم في كون أعمالهم محبطة يوم القيامة كمثل ذلك الرماد بحيث ﴿لَّا يَقْدِرُونَ﴾ لدى الحاجة ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ من الأعمال المنجية المخلصة ﴿عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ قليل حقير، فكيف بالكثير العظيم منها ﴿ذَٰلِكَ﴾ الإحباط والهباء وعدم النفع ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ بمراحل عن الهداية والفوز بالفلاح، وما ذلك إلا لعدم مقارنتها بالإيمان والعرفان ولتكذيب الرسل المبينين لهم طريق التوحيد والإيقان.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المستبعد لإحباط أعمال أولئك الكفرة المعاندين مع الله ورسله ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ القادر المقتدر بالقدرة التامة الكاملة بحيث لا ينتهي قدرته أصلاً ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي أظهرهما وأوجدهما من كتم العدم على وجه الإبداع والاختراع ﴿بِالْحَقِّ﴾ الثابت المطابق للحكمة البالغة الكاملة بحيث ما ترى فيها من فطور وفتور، يشاهد أهل البصائر والاعتبار هذا النمط البديع والنظام العجيب فينكشفوا منها إلى مُبدئها ومُنشئها ومع ذلك ﴿إِن يَشَأْ﴾ سبحانه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ أيها المائلون عن طريق الحق الناكبون عن مقتضى حكمته بمتابعة أهوية نفوسكم ومقتضيات هوياتكم الباطلة ﴿وَيَأْتِ﴾ بدلكم ﴿بِخَلْقٍ﴾ آخر ﴿جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ مستبدع مستحدث ليواظبوا على طاعته ويداوموا على مقتضيات حكمته.

﴿وَ﴾ لا تستبعدوا من الله أمثال ذلك إذ ﴿مَا ذَٰلِكَ﴾ وأمثاله ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ المتعزز

بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ ....

بالمجد والبهاء والعظمة والكبرياء والبسطة والاستيلاء ﴿بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ متعذر أو متعسر إذ لا يتعسر على قدرته المقدور ولا يتعذر عليه شيء من الأمور.

﴿وَ﴾ كيف يتعسر أو يتعذر عليه شيء من الأشياء إذ الكل ﴿بَرَزُوا۟﴾ أي ظهروا ورجعوا في النشأة الآخرة ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر المبرز لهم من كتم العدم ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعين، إذ لا يخرج عن حيطته شيء ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ من ذوي الاستعدادات الضعيفة حين أُخذوا بجرائمهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ عليهم في النشأة الأولى بالرئاسة والعقل التام وادعاء الفضل والكمال إلى حيث جعلوا نفوسهم مبتدعين لهم حيث قالوا: ﴿ذَٰلِكَ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ في دار الدنيا، وأنتم ناصحون لنا آمرون بتكذيب الرسل وأنواع الفواحش والقبائح الممنوعة بألسنة الرسل ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ اليوم حين أُخذنا على ما أمرتمونا ﴿مُّغْنُونَ عَنَّا﴾ أي دافعون مانعون ﴿مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾ المنتقم منا ﴿مِن شَىْءٍ﴾ أي بعض من عذابنا ونكالنا ﴿قَالُوا۟﴾ أي المستكبرون بعدما عاتبهم الضعفاء: ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ ولكن أضلَّنا باسمه المضل، فأضللناكم، فالآن نحن وأنتم ضالون ظالمون مؤاخذون ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ﴾ وعليكم ﴿أَجَزِعْنَآ﴾ عن شدة العذاب والنكال ﴿أَمْ صَبَرْنَا﴾ على مُقاساته وأحزانه ﴿مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ أي مَخلص ومناص.

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي الأهوية الفاسدة المفسدة لهم في نشأتهم الأولى

لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ....

مصورة على صورة الشيطان المغوي ﴿لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي بعد استقرار أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المصلح المدبر لأحوال عباده ﴿وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ هذا اليوم الذي به تؤاخذون فيه ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ ضلالاً وإغراء لكم بخلافه ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ ما وعد به ربكم مع أن إنجازه مقطوع به لا شك فيه أصلاً واتبعتم قولي مع أنه غرور وإضلال لا يرجى إنجازه مني أصلاً وأنتم جازمون به ﴿وَ﴾ الحال أنه ﴿مَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ حجة مرجحة وأدلة ملجئة ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ أي سوى أن دعوتكم على مقتضى أهويتكم وأمنيتكم التي تقتضيها هويتكم وماهيتكم ومع ذلك ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وصدقتم قولي بلا تردد ومماطلة طوعاً ورغبة ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم﴾ الباعثة الداعية على متابعتي مع جزمكم بمكري وعداوتي ﴿مَّآ أَنَا۠﴾ اليوم ﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي مغيثكم ومعينكم، وإن ادعيت في ما مضى تغريراً وتلبيساً ﴿وَمَآ أَنتُم﴾ أيضاً ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ إذ انكشف الحال وانقطعت علاقة المحبة بيننا، وصارت كل نفس رهينة بما كسبت ﴿إِنِّي﴾ اليوم بعد انكشاف السرائر والضمائر ﴿كَفَرْتُ﴾ أي تبرأت وأنكرت ﴿بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ أي بإشراككم معي في إشراك الله الواحد الأحد الصمد الذي لا شريك له أصلاً ﴿مِن قَبْلُ﴾ في دار التلبيس والتزوير والإغواء والتغرير ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ

الخارجين عن مقتضيات أوامر الله ونواهيه عدواناً وزوراً ﴿لَهُمْ﴾ اليوم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ مؤلم أشد الإيلام.

ثم بين سبحانه على مقتضى سنته المستمرة بعد ما بين أحوال الهالكين المنهمكين في تيه العتو والعناد وفظاعة أمرهم في يوم الجزاء مآل المؤمنين الناجين عن تغريزات الدنيا الدنية وتسويلات الشياطين الغوية فيها فقال:

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوحيد الله وتصديق كتبه ورسله ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿عَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التي هي نتائج الإيمان ﴿جَنَّٰتٍ﴾ منتزهات من العلم والعين والحق ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ لتنبت في أراضي استعداداتهم وقابلياتهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من المكاشفات والمشاهدات الخارجة عن طوق البشر، ومع ذلك ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي برضاه وتوفيقه وتيسيره ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من قبل الحق بلسان الملائكة حين ملاقاتهم ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ لأنهم مسلمون منقادون مسلّمون أمورهم كلها إلى الله،

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي المعتبر الخبير البصير ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ﴾ الهادي لعباده إلى توحيده ﴿مَثَلًا﴾ لينتبهوا منه بأن شبه ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ هي كلمة التوحيد القائلة المفصحة بأن لا وجود لسوى الحق ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ هي النخلة التي ﴿أَصْلُهَا﴾ وعروقها ﴿ثَابِتٌ﴾ في الأرض بحيث لا يقلعها ولا

وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ....

يشوشها الرياح أصلاً ﴿وَفَرْعُهَا﴾ أي أفنانها وأغصانها مرتفعة ﴿فِي﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾

﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا﴾ أي ثمارها ﴿كُلَّ حِينِۭ﴾ من الأحيان المعينة للإثمار ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ﴾ أي بإرادته ومشيئته، يعني كما أن النخلة تنمو وتثمر بسبب أصلها الثابت في الأرض وفرعها المرتفع نحو السماء، ويحصل منها الثمر وقت حصولها كذلك الكلمة الطيبة التوحيدية المستقرة، أصلها في أراضي الاستعدادات الفطرية المرتفعة أغصانها وأفنانها نحو سماء العالم الروحاني، المثمرة لثمرات المكاشافات والمشاهدات القالعة القامعة لأشواك الكثرات الناشئة من الإضافات العدمية ﴿وَ﴾ لا حاجة لأولي البصائر والألباب، المنكشفين بصرافة الوحدة الذاتية إلى أمثال هذه التنبيهات بل ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ﴾ المطلع لسرائر استعدادات عباده ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ المذكورة ﴿لِلنَّاسِ﴾ الناسين عهودهم ومواثيقهم مع الله بُحجب تعيناتهم المستتبعة للإضافات والكثرات ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ رجاء أن يتذكروا ما نسوا من أمثال هذه الأمثال.

﴿وَ﴾ أيضاً ﴿مَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر المستتبعة لأنواع الفسوق والعصيان المخالفة لجادة التوحيد ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظلة التي ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي أخذت تنمو جثتها ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ بلا استحكام عرقها في الأرض وتعمقها، لذلك ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ إذ أدنى الرياح يقلبها كيف

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا ....﴾

يشاء، يعني: كما أن الشجرة الخبيثة الغير المستقرة يقلبها الرياح كيف يشاء كذلك اعتقادات الكفرة والفسقة المقلدة يقلبها أدنى رياح الشكوك والشبهات، وتوقعهم في مهاوي الأوهام والخيالات. وبالجملة:

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾ المصلح لأحوال عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ أي بالإقرار المطابق للاعتقاد ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي حيث بذلوا أرواحهم لإعلاء كلمة الحق ولا ينصرفون عنها ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ أيضاً بحيث لا يتلعثمون ولا يضطربون يوم العرض الأكبر بل في البرزخ أيضاً عند سؤال المنكر والنكير ﴿وَ﴾ كما يثبّت المؤمنين بالإيمان، كذلك ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾ المذل المضل ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ الذين خرجوا عن ربقة العبودية عناداً واستكباراً، أي يثبتهم على الضلال إلى حيث لا يفوزون بالفلاح أصلاً بل صاروا خالدين في النار أبد الآباد ﴿وَ﴾ بالجملة ﴿يَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾ المتعزز برداء العظمة والكبرياء ﴿مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ من الإهداء والإضلال، والإعزاز والإذلال.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرائي إلى الظالمين المسرفين ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الفائضة عليهم من محض فعله وعطائه ليشكروا له ويواظبوا على أداء حقه ﴿كُفْرًا﴾ أي يصرفونها كفراناً لها إلى البغي والطغيان على الله وعلى خلص عباده، مع أن المناسب صرفها إلى إعلاء كلمة الله ونصر دينه ونبيه

﴿وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ....

﴿وَ﴾ لذلك ﴿أَحَلُّوا۟﴾ وأدخلوا نفوسهم ﴿قَوْمَهُمْ﴾ التابعين لهم المعاندين لكفرهم ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ أي الهلاك والخسار، يعني.

﴿جَهَنَّمَ﴾ التي ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أي يدخلون فيها أذلاء مهانين مقهورين لا نجاة لهم منها أصلاً ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ والمقر مقرهم الذي هو جهنم الطرد والخذلان.

ومن خبث بواطنهم ﴿وَ﴾ شدة شكيمتهم ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ﴾ المتوحد في ذاته ﴿أَندَادًا﴾ شركاء من أظلاله ومصنوعاته ﴿لِّيُضِلُّوا۟﴾ ضعفاء الأنام ﴿عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الذي هو دين الإسلام الموصل إلى توحيد الله ﴿قُلْ﴾ لهم يا أكمل الرسل على سبيل التوبيخ والتقريع: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ أيها المسرفون بما أنتم عليه من الكفر والعناد ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ ومآل أمركم ﴿إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾﴾ المعدة لتخذيلكم وجزائكم.

﴿قُل﴾ يا أكمل الرسل ﴿لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بجميع ما جئت به إليهم من أمور الدين سيما الصلاة المصفية لبواطنهم والزكاة المزكية لظواهرهم كذلك: ﴿يُقِيمُوا۟﴾ أي يديموها في الأوقات المفروضة فيها ﴿وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ على المستحقين ﴿سِرًّا﴾ بلا سبق سؤال ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ بعد السؤال استعدوا أيها الطالبون للنجاة لأخراكم في أولاكم، وأعدوا زاد عقباكم

مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ .....

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ ليتدارك المقصر بالإنفاق والصدقة بعض تقصيراته ﴿وَلَا﴾ يقبل فيه ﴿خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ أي شفاعةٌ من خليل حميم يشفع للجرائم والتقصيرات.

وكيف لا تستعدون بعدما أمركم الله بإعداده ووفّق أسبابه عليكم إذ:

﴿ٱللَّهُ﴾ الموفق لعباده أسبابَ معادهم هو المدبر المصلح ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي العلويات المعدة للإحاطة ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ أي السفليات القابلة للفيض ﴿وَأَنزَلَ﴾ أي أفاض ﴿مِنَ﴾ جانب ﴿ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لتكون ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ مقوماً لمزاجكم، مبقياً لحياتكم؛ لتواظبوا على طاعة الله وإعداد زاد يوم المعاد ﴿وَ﴾ مع ذلك ﴿سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾ أي السفن الجارية ﴿لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي بمشيئته وإرادته لتسيروا معها إلى حيث شئتم وتتجروا بها وتربحوا ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ أيضاً ﴿ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ الجارية على بسيط الأرض ليسهل لكم إخراج الجداول منها للحراثة والزراعة.

﴿وَسَخَّر لَكُمُ﴾ أيضاً ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ مختلفين في سيرهما شتاء وصيفاً، خريفاً وربيعاً ؛ لإنضاج ما تحرثونه وتزرعونه ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ لسباتكم ومعاشكم.

وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى ....

﴿وَ﴾ بالجملة ﴿ءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ﴾ بلسان استعداداتكم وقابلياتكم من متممات نفوسكم ومكملات إدراككم ﴿وَ﴾ بلغ إنعامه سبحانه إياكم في الكثرة إلى حيث ﴿إِن تَعُدُّوا۟﴾ وتحصوا ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ الفائضة عليكم لتربيتكم ﴿لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ أي لا يسع لكم إحصاؤها من كمال كثرتها ووفورها، فلكم أن تواظبوا على شكرها وأداء حق شيء منها، وإن كانت القوة لا تفي بأدائها، لكن قليلاً منكم يشكرون نعمه ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ المجبول على الغفلة والنسيان في أصل فطرته باعتبار قوى بشريته وبهيميته ﴿لَظَلُومٌ﴾ أي مظلوم محزون عند الشدة وهجوم البلاء ﴿كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ مبالغ في الكفران والنسيان وقت الفرح والسرور.

﴿وَ﴾ اذكر يا أكمل الرسل وقت ﴿إِذْ قَالَ﴾ جدك ﴿إِبْرَٰهِيمُ﴾ حين ناجى مع الله بعدما عمّر مكة: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ التي تأمرني بتعميرها ـ يعني مكة ـ ﴿ءَامِنًا﴾ ذا أمن وأمان من تخريب العدو وتغييرها ﴿وَٱجْنُبْنِى﴾ أي بعّدني ﴿وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ بتسويلات الأهوية الفاسدة والشياطين المضلة.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ﴾ أي الأوثان والأصنام بإظهارك بعض الخوارق عليها ﴿أَضْلَلْنَ﴾ وصرفن ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ﴾ عن جادة توحيدك ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ بعدما دعوتُهم إلى توحيدك ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ﴾ وعلى ملتي وديني ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ ولم

فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ

يقبل قولي وأصر على ما هو عليه ﴿فَإِنَّكَ﴾ بمقتضى جودك وفضلك ﴿غَفُورٌ﴾ قادر على العفو والمغفرة عن جميع المعاصي ﴿رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ ترحمهم بمقتضى سعة رحمتك وحلمك.

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعضاً منها وهو إسماعيل وبنوه ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ إذ هي حجرية لا زرع فيها ولا حرث ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ سمي به إذ حرمت فيه المقاتلة والصيد والتعرض والتهاون مطلقاً حفظاً فيه، لذلك لا يزال معظّماً مكرّماً يهابه الجبابرة، وإنما أسكنتهم عنده ليكنسوا بيتك من الأقذار، ويصفّوه من الأكدار ﴿رَبَّنَا﴾ إنما أسكنت ذريتي عند بيتك ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ ويديموا ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المقربة نحو جنابك وفناء بابك ﴿فَٱجۡعَلۡ﴾ بمقتضى فضلك وجودك ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾ أي وفداً كثيراً وقفلاً ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ﴾ أي تميل وتتوجه ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ من الجوانب ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ﴾ أنواع ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ المهداة إليهم من البلاد البعيدة، يأتي بها الزوار والتجار ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ نعمتك ويواظبون على طاعتك وخدمة بيتك عن فراغ القلب.

﴿رَبَّنَآ﴾ يا من ربانا بأنواع اللطف والكرم ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ من حوائجنا ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ أي ما لنا علمٌ به، إذ أنت أعلم بحوائجنا منا، إذ علمك بنا وبجميع

وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ....

مظاهرك حضوريٌ ذاتيٌ، ولا علم لنا بذاتنا كذلك، بل نحن عاجزون عن إدراك أنفسنا كعجزنا عن إدراك ذاتك يا مولانا، لذلك قال ﷺ: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[1] ﴿وَ﴾ كيف يخفى عليك حوائجنا إذ ﴿مَا يَخْفَىٰ﴾ ويستر ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ المحيط بكل الأشياء ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لذلك ظاهرٍ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ وكيف خفي عليه شيء، إذ هو عالمٌ بها، مظهرٌ لها، لا يعزب عنه شيء منها.

﴿ٱلْحَمْدُ﴾ والمنة ﴿لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي﴾ من يخلفني ويحي اسمي حين أيست إذ بلغ سني ﴿عَلَى﴾ كمال ﴿ٱلْكِبَرِ﴾ والهرم ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾، روي أنه ولد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة، وإسحاق لمائة واثنتي عشرة سنة ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي رباني بأنواع الكرم وشرفني بخلعة الخلة والحلم ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ الذي صدر عن لسان استعدادي ومجيبه بطلب من يخلفني ويقوم مقامي.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ على وجه الخضوع والخشوع والتبتل والإخلاص ﴿وَ﴾ اجعل ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ أيضاً من يقيمها على الوجه المذكور ﴿رَبَّنَا﴾ استجب مني ﴿وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ في حقي وحق أولادي.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء [١٠/ ٢٠٨].

رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي ﴾ بفضلك إذ لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴿ وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ جميعاً واعف بمقتضى جودك عن زلتي وزلاتهم ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ وينشر الديوان، ويحاسب كل على ما كسب من العصيان.

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ﴾ يا أكمل الرسل ﴿ٱللَّهَ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفياته ﴿غَٰفِلًا﴾ ناسياً ذاهلاً ﴿عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ الخارجون عن حدود الله بإمهالهم زماناً بل ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ ويسوِّف عذابهم ﴿لِيَوْمٍ تَشْخَصُ﴾ وتتحير ﴿فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾ وصاروا من شدة الهول والمهابة لا يقدرون على أن يطرفوا عيونهم، بل تبقى مفتوحة حائرة كعيون الموتى، كأنهم قد انقطعت أرواحهم عن أجسادهم، وهم مع هذه الحيرة والدهشة

﴿مُهْطِعِينَ ﴾ مسرعين نحو المحشر حيارى سكارى ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ ﴾ أي رافعيها نحو السماء، مترقبين لنزول البلاء، مدهوشين هائمين، بحيث ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ ﴾ لشدة ولههم وهيمانهم ﴿وَ﴾ في تلك الحالة ﴿أَفْـِٔدَتُهُمْ﴾ وقلوبهم التي هي محل الأمان والخيالات ﴿هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي خالية لا يخطر ببالهم شيء مطلقاً وإن كانت لا تخلو عن الأخطار أبداً.

وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ....

﴿وَ﴾ متى سمعت يا أكمل الرسل أهوال يوم القيامة وأحوال الأنام فيها ﴿أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ الناسين عهود الحق ومواثيقه التي عهدوا معه في بدء فطرتهم أي شيء يفعلون ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ في اليوم الموعود وحينئذٍ انقطعت أسباب النجاة وتدبيرات الخلاص ولا يسع لهم التدارك أصلاً ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أنفسهم بتكذيب الله وتكذيب رسله حين رأوا العذاب مناجين متضرعين متمنين: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ﴾ أي أعدنا وأرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا فيها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي أيام قلائل ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ ونقبلها عن ألسنة رسلك ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ ونصدقهم بجميع ما جاؤوا به من عندك فيقال لهم على سبيل التهكم والتقريع: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟﴾ أيها الظالمون المسرفون ﴿أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ﴾ في دار الدنيا بطرين مغرورين ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي ما لنا وبالٌ ولأموالنا زوال، وما لنا عن أماكننا ارتحال وانتقال.

﴿وَ﴾ مع قولكم هذا ويمينكم عليه ﴿سَكَنتُمْ﴾ وتمكنتم أيها المسرفون المفرطون ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ قبلكم أمثالكم مثل عاد وثمود وهم أيضاً مقسمين بما أقسمتم ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ وظهر عندكم الآن ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ وكيف انتقمنا عنهم واستأصلناهم

وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ ....

﴿وَ﴾ صار أمر إهلاكهم من الفضاحة إلى أن ﴿ضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ لتعتبروا عن حالهم وتتركوا أفعالهم لئلا تُنتقموا أمثالهم، ومع ذلك لم تعتبروا ولم تتركوا، فالآن تصابون وتؤاخذون بأشد مما أصيبوا وأُخذوا

﴿وَ﴾ لا يفيدكم اليوم المكر والحيلة كما لا يفيد لهم مكرهم حين أخذهم إذ ﴿قَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ﴾ الذي خيلوه دلائل قاطعة وظنوه براهين ساطعة ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي لم يفهموا أن عند الله سبحانه ما يزيل مكرهم وحيلهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ في المتانة والقوة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ إذ لا يعارض فعله ولا ينازع حكمه، بل له الغلبة والاستيلاء والتعزز والكبرياء، وإذا كان الأمر كذلك:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ﴾ القادر المقتدر على كل ما أراد وشاء ﴿مُخْلِفَ﴾ إنجاز ﴿وَعْدِهِۦ﴾ الذي وعد به ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ من إهلاك عدوهم وتعذيبهم بأشد العذاب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ المتردي برداء العظمة والكبرياء ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب قادر على جميع مراداته ومقدوراته ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ شديد على من أراد انتقامه وبطشه من أعدائه نصرةً على أوليائه.

قل لهم يا أكمل الرسل لا تغتروا عن إمهال الله إياكم أيها المسرفون في دنياكم إذ ينتقم عنكم[1]:

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾ وتغير تغييراً كلياً بأن دكت الجبال دكاً وصارت

---

(١) أي منكم.

﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ ....

مسوىً لا عوج لها ولا أمتاً، وصارت ﴿غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ التي كانت قبل هذا ﴿وَ﴾ طويت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ المحسوسة وانتثرت الكواكب، وكورت الشمس، فصارت أيضاً غير تلك السماوات، وبالجملة تضعضعت أركان العالم وتغيرت أوضاعها وأشكالها واضمحلت آثارها وتلاشت أجزاؤها وتداخلت أرجاؤها وأقطارها ﴿وَبَرَزُوا۟﴾ أي ظهروا وخرجوا أي الأموات من أجداث أجسادهم بعد خلع تعيناتهم وجلباب هوياتهم ﴿لِلَّهِ﴾ المظهر لهم الظاهر فيهم ﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ في ذاته وصفاته وأحواله وجميع شؤونه وتجلياته المستقل في وجوده ﴿ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ للأغيار والسوى مطلقاً.

﴿وَتَرَى﴾ حينئذٍ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ﴾ الذين أجرموا بالله بإثبات الوجود لغيره وإسناد الحوادث إلى أسبابها العادية ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ مقيدين ﴿فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ أي سلاسل التقليدات والتقييدات وأغلال التعينات والتخمينات

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي قمائص تعيناتهم وتشخصاتهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ أي من غرابيب الظلمة العدمية وهو في اللغة دهن الأبهل والعرر كالزفت أسودٌ في غاية السواد، منتن، نتنه في غاية الكراهة ﴿وَتَغْشَىٰ﴾ أي تستر ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ التي تلي الحق ﴿ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ أي نار البعد والحرمان وسعير الخذلان والخسران، وما ذلك، أي انتقامهم وأخذهم إلّا:

لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ﴾ الحكيم العليم المتقن في أفعاله ومأموراته ومنهياته وجميع تدبيراته ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ﴾ متعينة بتعين مخصوص ﴿ مَّا كَسَبَتْ ﴾ وامتثلت ما أُمرت به ونُهيت عنه أو أعرضت ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ﴾ الرقيب على عباده المطلع لجميع أفعالهم ﴿ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ ﴾ يحاسبهم ويجازيهم على مقتضى حسابه عدلاً منه.

﴿ هَٰذَا ﴾ أي ما ذكر من أوصاف يوم القيامة وأهوالها وأفزاعها ﴿ بَلَٰغٌ ﴾ أي تذكرة كافية وموعظة وافية ﴿ لِّلنَّاسِ ﴾ الذين نسوا طريق التوحيد وأعرضوا عنها بعروض الغفلة لهم فليتعظوا ﴿ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ عن المعاصي والإجرام حتى لا يؤاخذوا عليها وليجتنبوا عن الشرك ولا يركنوا إليه ﴿ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ ﴾ عموم العباد إيماناً وإذعاناً ﴿ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ يُعبد بالحق ويُرجع إليه إلى أن ينكشفوا بالحقيقة الحقية ﴿ وَلِيَذَّكَّرَ ﴾ خصوصاً ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ الناظرين بنور الله، الفانين به، الباقين ببقائه.

جعلنا الله ممن ذكر له فتذكر، وتحقق في مقر التوحيد وتقرر.

خاتمة السورة

عليك أيها اللبيب المتذكر لمرتبة الأحدية التي هي ينبوع بحر الوجود، أن تتذكر وتتعظ بمواعظ الكتاب الإلهي من مواعيده وإنذاراته وحكمه وأسراره؛ لتتفطن بتطوراته وتجلياته وشؤونه في مراتب تنزلاته، حتى يسهل لك التيقظ من المنامات العارضة والغفلات الطارئة عليك من الإضافات الحاصلة بين الشؤون والتجليات المبعدة عن صرافة الوحدة الذاتية، ويتيسر لك الوصول إلى منبع جميع الأسماء والصفات، المستتبعة لأنواع الكثرات، ومرجع جميع الكائنات والفاسدات المترتبة عليها.

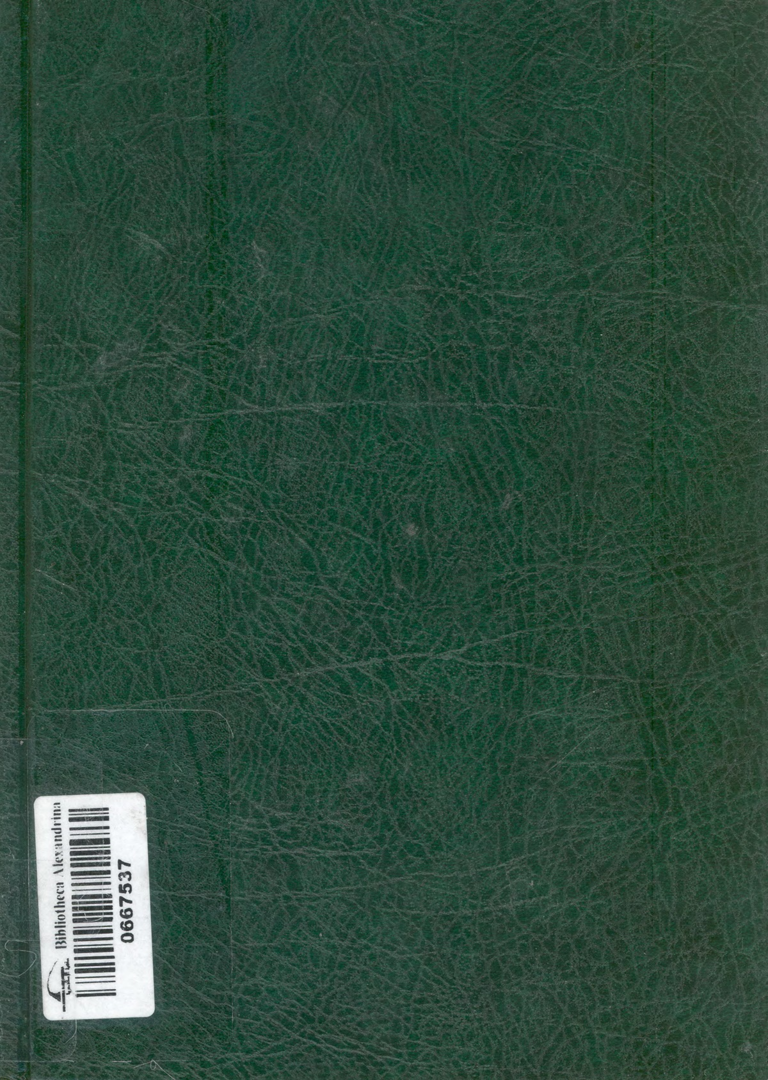
فاعلم أيها الطالب القاصد لسلوك طريق الهداية الموصلة إلى صفاء التوحيد الذاتي: أن التوجه إليها والوقوف على أماراتها لا يتيسر إلا بعد تنبيه منبه نبيه وإرشاد مرشد كامل خبير بصير.

لذلك جرت عادة الله، واستمرت سنته السنية على إرسال الرسل والأنبياء المؤيدين بالكتب والصحف ؛ لتمكن لهم إرشاد الناقصين المنحطين عن درجة التدبر والتدرب في غوامض طرق العرفان ومغالق مسالك التوحيد، ومع ذلك لا يتيسر لهم إلا البلاغ من التبليغ والتوفيق، إنما هو من عند العزيز العليم.

وأكملُ الرسل نبينا ﷺ، وأفضلُ الكتب القرآن الجامع المنزل عليه الناسخ

لجميع ما نزل قبله من الكتب، لذلك قال سبحانه على سبيل العموم: ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآن ﴿بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي كاملٌ في التبليغ والإرشاد لقاطبة الأنام إلى توحيد الملك العلام، فلك أن تتأمل فيه وتتذكر به على الوجه المأمور؛ لتتمكن في مقعد الصدق عند الملك الغفور.

فهرس الجزء الثاني


Bibliotheca Alexandrina
06667537